دِيوَان

مُحَمَّد إقبَال

الأعمال الكاملة

إعداد
سيِّد عَبد الماجد الغَوري

الجُزءُ الأَوَّل

دار ابن كثير

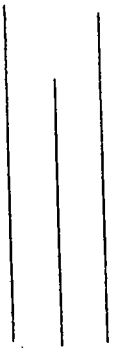

دِيوَان

محمد إقبال

الطبعة الثالثة

1428 هـ ـ 2007 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع
و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

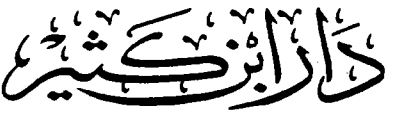

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : أدب - الشعر

العنوان : ديوان محمد إقبال 2/1

الإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

نوع الورق : شاموا

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 1112

القياس : 17×24

نوع التجليد : كرتونيه

الوزن : 2 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

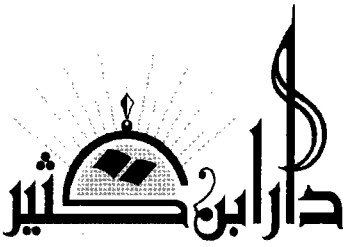

دمشـــق ـ حلبـــوني ـ جـادة ابن ســـينا ـ بناء الجـــابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بـيروت ـ بـرج أبي حيـدر ـ خـلف دبـوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دِيوَان

محمد إقبال

إعداد

سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الأول

دار ابن كثير

(دمشق — بيروت)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى رائد الأدب الإسلامي

العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي

(رحمه الله تعالى)

الذي يرجع إليه فضل كبير في تعريف

محمد إقبال

بين العرب خلال كتاباته ومحاضراته

كشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة

وكمفكر عاش بالإسلام وله

منه ما كان له في الماضي، ومتألما مما آل إليه في الحاضر

وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم

وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية

وأكبر ناقد لها وحاقد عليها.

عبد الماجد الغوري

مقدمة الدّيوان

الحمد لله والصَّلاة والسلام على رسول الله .

وبعد : فقد خدمت شبهُ القارة الهندية الإنسانَ والعلمَ والحكمةَ والمعرفةَ والفلسفةَ والأدبَ والفنَّ طول التاريخ ، وأنجبتْ من الأُمم والحضَارات والنَّاس والرِّجال والأَعلام ما يكادُ يعجز العدّ والإحصاء والحصر عن الإحاطة به .

وكانت البداية المعروفة للشعر الأردوئي في هذه البلاد منذ سنة ١٤٥٠م ، وقد برز واشتهر خلال تلك الفترات الطِّوال مئات الشعراء ، أعرضُ هنا أسماء بعضهم على سبيل المثال ، ومن أشهرهم : ميرزا أسد الله غالب أحد أكبر شعراء الأردوية ، وله دواوين مطبوعة بالفارسية والأردوية ، والنواب ميرزا خان داغ ، أحد فحول شعراء الأردوية ، كان أستاذاً للنظام السادس « محبوب علي خان آصفجاه » أمير حيدرآباد (دكن) ، نال عدة ألقاب من الدولة ، وله دواوين مطبوعة ، وغيرهما هناك شعراء مشهورون كأنيس ، ودبير ، وحالي ، وأكبر إله آبادي ، وأمجد الحَيْدَرآبادي ، وهؤلاء الشعراء الذين يُعدُّ شعرهم بالأدب الأردوئي حجة ، ويُستشهد بها فيه . فهناك من هؤلاء الشعراء المذكورين مثل : داغ ، وأنيس ، ودبير ، قالوا مرثيات تحتوي على خمسمئة مسدَّس ، أو ستمئة مسدّس ، وكلُّ مسدَّس يحتوي على ثلاثة أبيات ، واللغة الأردوية بعد هذا لغة استوعبتْ كلَّ المعاني والأوصاف الجميلة ، وعلم الفلسفة والتصوّف ، وقيل فيها شعر المراثي والتشبيب والغزل ، كما ألّف بها القصص والروايات ، وقد ظهر من أدباء هذه اللغة رجال فحول ، أمثال : محمّد حُسين آزاد ، والعلاَّمة شبلي النُّعماني ، وعبد الحليم شَرَرْ ، ومولانا أبي الكلام آزاد ، وأحمد علي أَمَرْتَسْرِي ، ونِيَاز فَتَحْفُورِي ، والأستاذ أَخْتَر عليّ ، وقَيْس غَازِي فُورِي ، والشيخ حَسَن النِّظَامي ، والشيخ عبد الماجِد الدَّرْيابَادِي ، وحَيْدَر طَبَاطَبَائي وغيرهم كثيرون .

ولكن لم تُنجب اللغة الأردوية شاعراً وأديباً كمحمَّد إقبال يتّسِم شعره بسهولة الأسلوب ، ووُضوح العبارة ، وقوّة المعاني ، وسرعة التأثير ، وكذلك لا يُعرف اليوم شاعرٌ من بين شعراء هذه اللغة طُبعتْ دواوينُه مئات المرات غير محمد إقبال ، وقد جاء في إحدى المقالات التي قُرِئَتْ في مهرجان إقبال المئوي المنعقد في مدينة « لاهور » تحت إشراف حُكومة باكستان عام ١٩٧٧م ، أنّ عَدد ما صَدَرَ عن محمد إقبال مِن الكتب

والرسائل في لغات العالم المختلفة ، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠) [١]، ما بَين كتاب ورسالةٍ ، هذا عدا ما نُشِرَ عنه مِن البحوث والمقالات، ومَا أُلقِي من أحاديث ومحاضرات في مجالات مختلفة وحفلات أدبية في فترات متقطعة ومناسبات مختلفة ، وبذلك فاقَ محمد إقبال كبار شعراء العالم كـ « شكسبير » الإنجليزي ، و« دانتي » الإيطالي ، و « طاغور » الهندي ، فلم يكتب عن أَحد مِعْشار مَا كُتِبَ عنه ، وفي كل سنة يصدرُ فيض من البحوث والمقالات في الجامعات ، والمجامع العلمية ، والنَّوادي الأدبية ، ولا يزال في مدّ وزِيادة دون توقُّفٍ، وتتصاعدُ درجةً درجةً في سبيل التوصُّل لاستيعاب أفكار محمّد إقبال وإدراكها .

وقد رُزِقَ محمَّد إقبال من الاحترام والتقدير أنَّ ملايين المسلمين في هذه البلاد ـ الهند وباكستان ـ يعتقدون فيه ما تعتقده الأمةُ في المُرشِد المُلهَم ، والباحِث المُتحرِّر ، والقَائد الرَّائد ، والمفكِّر المُصلِح ، والفيلسوف المنقذ ، والسياسِيّ الموجِّه ، ولم يُرزَق مثل هذا الاحترام والتقدير أحدٌ من أعلام مسلمي شبه القارة قبل في القرن العشرين لا في الهند فحسب بل في جميع العالم الإسلامي والعربي ، باستثناء الإمام المحدِّث الفقيه الشيخ عبد الحيّ اللكنوي في أوائل القرن ، والعلامة الإمام المفكِّر الداعية الأديب الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ في أواخر القرن ـ رحمهما الله تعالى ـ .

وقد خلَّف شاعرُنا العظيم خمسةَ دواوين باللغة الفارسية وأربعةَ بالأردوية ، وقد آثر الفارسية أولًا لأنها أوسع من الأردوية ، وهي اللغة الإسلامية التي تَلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلامي ، ويشتمل هذا المجموع الكبير من شعره على أُلوف المعاني الأصلية ، والأفكار الجديدة ، والمضامين البديعة ، الذي هو في الحقيقة تُراث شعريّ عظيم في الأدب الفارسي والأردوئي . أعرِّف هنا بجميع تلك الدواوين بالاختصار .

أما الدَّواوين الفارسية فمنها :

(١) ـ الأَسرار والرُّموز (أسرار خُودي ورُموز بيخودي)

يُعدُّ هذا الديوان مِن باكورة أعمال محمد إقبال الشعرية بالفارسية ، وهو يفرد فيه فكرة الذاتية ، فيدعو إلى وُجوب دعم الذَّات حتى تقوى وتعد نفسها لكفاحٍ دائمٍ مُتواصلٍ لا يعرف أناةً ولا هدوءاً ، وفي نظره أن الجهاد الدَّائب هو حافظ الحياة ، وأن الجهاد في سبيل المقصد أعظم لذَّة مِن بُلوغه ، ويصرح فيه بأنَّ الأقوام المغلوبة هي التي خدعت الأقوام الغالبة عن نفسها ، وزيَّنت لها فكرة نفي الذَّات ، وسواء في منظومته « أسرار إثبات

---

(١) روائع إقبال للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، صفحة (٨) ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

الذَّات » أو في « أسرار نفي الذَّات » لهذا الديوان أو في سائر أشعار إقبال . . . إننا نجد فكرة الذَّاتية مبثوثة أحياناً ومجملة أحياناً أخرى ، ومفصلةً حيناً ، وأحياناً صريحةً وأخرى ضمنيةً .

(٢) رِسالة الشَّرق (پيام مشرق)

طُبع هذا الديوان أول مرَّة عام ١٩٢٣م ، وقدَّمه الشاعر على أنه شعر الفارسية الكامل ، لأنه قدَّم إلى اللغة الفارسية مجموعة مِن الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشعر الفارسي مِن الغَزل والرُّباعي والقطع والمثنويّ وغيرها ، ويُصادِفنا في هذا الديوان الشعر الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت ، والديوان روضة من الشعر تختلف أزهارها ونوارها ، وضُروب النبات فيها ، وألوان وصُنوف الرَّيحان فيها ، ورَوائحه جمعت أشتات الزهر مِن المشرق والمغرب .

(٣) زبور العجم (زبور عجم)

هذا الديوان مجموعة نفيسة من المنظومات الفارسية ، يُعدُّ من أجود شعر محمد إقبال الفارسي ، وقَصَدَ الشاعرُ من تلك المنظومات غرسَ الروح الجديدة في العالم ، ولا سيَّما في أوساط الشباب وشعوب الشرق ، ويتجلَّى فيه إبداع الشاعر ، وكمال فنِّه ، وحُسن سبكِه ، ومحكم رصفِه ، وبديع وصفِه .

(٤) هدية الحِجاز (أرمغان حجاز)

هذا الديوان عبارة عن الشعر الفارسي والأردوئي معاً ، ويتألَّف مِن قصائد قصيرة ، أكثرها شخصية ، فيه قصيدة بديعة بعنوان « برلمان إبليس » وصَفَ فيها الشاعرُ وصوَّر جنسة برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها ، ما يُفيد الاطلاع عليه ، وقد طُبع هذا الديوان بعد وفاة الشاعِر .

(٥) رِسالة الخُلود (جاويدنامه)

يُعدُّ هذا الديوان التحفة الأدبية لمحمد إقبال ، وهو عبارة عن شعر مثنويٍّ للفلسفة الدينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطع شعري مزدوج ، وإنه يبرز قوى الشاعر الفكرية وذراها الرفيعة ، وفيه تورية إلى « جاويد » نجل الشاعر ، وفي هذا الديوان قصة سفرٍ في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالي .

(٦) مَاذا يَنبغي أن نصنع يا أُمم الشَّرق ؟ (بس چه بايد كرد » أي أقوام مشرق ؟)

هذا آخِر ما نظمه الشاعر بالفارسية ، ومنظومات هذا الديوان في جملتها رائعة بليغة ، نَفَثَها الشاعرُ حِين ملأتْ أحوالُ المسلمين فُؤَادَه أَسى عليهم ، وحَزَّ به ما رَأى مِن فُنون الحضارة الأوربية وضلالها وجور ساستها ، وقسوة قادتها ، وعدوانهم على الأمَّة الضعيفة ، ويُوصِي الشاعرُ في هذا الديوان وينصح الأممَ الشرقية بإقامة الروابط الاقتصادية والثقافية فيها بينهم ، وبيَّن لهم أن الوقوف في وجه السياسة الاستعمارية بأشكالها المختلفة المتعددة ، والعودة إلى أحكام الإسلام وإطاعة الأوامر القرآنية هو الطريق الوحيد للنجاة .

وأما دواوينه الأردوية فهي :

(٧) صَلْصَلة الجَرس (بانك درا)

هذا من باكورة أعماله الشعرية بالأردوية ، وهو مِن أكثر دواوينه رواجاً وقِراءةً اليوم ، فيه قصائد بديعة عن الأطفال والحبِّ والطبيعة ، كما أنَّه حثَّ المسلمين فيه على التضحية والعمل ، لكي يستعيدوا منزلتهم مِن المجد والرفعة ، ومن أروع وأجمل القصائد وأناشيدِ هذا الديوان قصيدته المشهورة « شكوى وجواب شكوى » ونشيد بعنوان « نشيد المسلم » .

(٨) جَناح جبريل (بال جبريل)

لا يُوجد في الأدب الأردوئي ما يُمكن مقارنته بهذا الديوان مِن حيث العُمق وسِعة المطلب والبيان ، يحكي فيه الشاعر خواطره الخاصة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين ، وبكاءه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلامية التاريخية ، وما يلفت النظر في هذا الديوان هو الجزء الخاص منه عن المحاورة بين الشاعر وجلال الدين الرومي ، ويوضح لنا هذا الحوار أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

(٩) ضربُ الكليم (ضرب كليم)

يتعلَّق هذا الديوان بالعصر الحديث ومُشكلاته ، ويبيِّن وِجهةَ النظر السياسية لمحمد إقبال ، والديوان كلُّه مفصَّل على أبواب فيها نظرات في الإسلام ، والتربية ، والمرأة ، والفنون الجميلة ، وغيرها ، وفيه فلسفة محمّد إقبال واضحة ظاهرة في أشعار معيَّنة في موضوعات محدَّدة .

(١٠) هدية الحِجاز (أرمغان حجاز)

قد سبق تعريف هذا الديوان آنفاً ، يحتوي القسم الثاني منه على قصائد بديعة ورباعيات قصيرة بالأردوية .

وقد تُرجمت جميع هذه الدواوين إلى اللغة العربية كترجمتها باللُّغات العالمية الراقية ، وقد نجح مترجِمُو هذه الدواوين بالعربية من الناحية الفنية إلى حدٍّ بعيدٍ ، ولكن القارىء النَّبيه الفَطن قد يُلاحِظ أن هذه الأشعار المترجمة تكاد لا تُؤثِّر في نفسه تأثير الشعر الرقيق ، ولا تُعطي صورةً كاملةً واضحةً ، ويغلب عليها رونق اللفظ على عمق المعنى ، بحيث تغيبُ المعاني التي أَرادها الشاعرُ في غَيَاهِبِ الألفاظ المنمقة والمصاريع الشعرية المركزة . وشعر محمد إقبال في اللغة الفارسية والأردوية على السواء شعر يركِّز المعنى الواسع في عبارات مُوجزة هي أشبه بالكلمات القِصار التي يسهل حفظها وتداوُلها على الألسن ، فإذا ما ترجمنا هذا الشعر إلى شعر عربي يفضل الإيجاز على الإطناب والإسهاب ، فإننا نزيد من تركيز الشعر بشيءٍ مِن الغُموض ، يذهب بتأثير الشعر وروعته .

ونحن لا نريد بهذا أن نغض مِن شأن المُترجمين لهذه الدواوين ، خاصةً منهم الذين عُرِفوا بعلو الهِمَّة وجودة القريحة والإخلاص والمثابرة ، كالدكتور عبد الوهاب عزام ، وإنما نريد أن نقول : إن ترجمات الدكتور عزام ـ وأمثاله المترجمين لهذه الدواوين ـ الشعرية لم تفصح عما يكنه شعر محمد إقبال مِن أسرار ولم تعبر عن قيمته الحقيقية التي تتفق مع الشهرة الذائعة التي أُتيحتْ له .

ولعلّ هذا هو ما دفع الأديب العربي الكبير العلاَّمة علي الطنطاوي أن يوجِّه نداء إلى العلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمهما الله رحمة واسعةً ـ في مجلة « المسلمون »[1] في كلمة رقيقة مخلصة يحثّه فيها على ترجمة بعض قصائد محمد إقبال ليعرِّف بهذا الرجل وقوة شاعريته وسموّ رسالته ، يقول في كتابٍ مفتوحٍ موجَّهٍ إلى العلامة الندوي : « **هل لك أن تختار مِن شعر إقبال ما يجعلنا نتذوَّق طعمَ أدبه ونلمّ بطريقته ، وتتجلّى أسباب عظمته ، فإن كلَّ ما قرأْنا مِن كلامه مترجَماً إلى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلُّنا عليه . . . فهل تُضيف يا أخي أبا الحسن ! إلى مآثرك هذه المأثرة فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة ، أو تحمل إليهم زهرات منه فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان ، وإلى الأدب والإسلام** »[2].

وجاء العلامةُ الندوي واقتصر في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها الدكتور عزام بالتعريب ، وكان للديوان « جناح جبريل » أكبر نصيب ممَّا تَرْجمَه العلاَّمة الندوي في كتابه الذي سمَّاه « روائع إقبال » فهكذا كان كِتابه هذا ـ رغم صغر حجمه ـ

---

(١) التي كانت تصدر يومئذ من دمشق .

(٢) انظر : « روائع إقبال » للعلامة الندوي ، صفحة (٢٢ ـ ٢٣) .

إضافةً جديدةً للمكتبة العربية بكل ما في هذه الكلمة مِن معنى ، فقد استطاع ـ رحمه الله ـ في براعة وبصيرة أن يختار من دواوين محمد إقبال مقتطفات في نثر سهلٍ ميسورٍ على تمكُّنه من اللُّغتين العربية والفارسية ، وكانت أكبر شهادة بأن كاتبه (العلامة الندوي) كان التوفيق حليفه في فهم شعر محمد إقبال والإنصاف له في شهادة الدكتور جاويد إقبال (نجل محمد إقبال الفاضل الذي أسمى باسمه أحد دواوينه ، هو « جاويدنامه » (رسالة الخلود) ، فقد قال بعد اطلاعه على « روائع إقبال » : « **ولقد عرض مؤلف هذا الكِتاب جوانب مختلفة من فكر محمد إقبال في أسلوبٍ أكبر ظني أنه يُوافِق محمد إقبال نفسه ، أو كان يؤثره لشرح أفكاره** »[1].

ولكن إن كان المُترجمونَ لهذه الدواوين قد جانَبَهُم التوفيق ـ إلى حدٍّ ما ـ في تراجمهم لها بالشعر ، فقد استطاعَ الشيخ صاوي شعلان ـ رحمه الله ـ بما حَبَاه اللهُ مِن شاعرية متدفقة ، وروحٍ إسلامية حقة ، أن يفصح عن المعاني التي أرادها محمد إقبال ، كأنَّه أُلهِمَها هو في شعرٍ يهتزُّ له الوجدان ، ولعلّ أوضح دليلٍ له في هذا الديوان الذي بين أيديكم في ترجمة القصيدتين : « نشيد المسلم » و« شكوى وجواب شكوى » اللَّتان هبَّتا هبوب الريح ، وطارتا في الآفاق ، ولا أرى مجازفةً في القول إذا قلتُ : إن محمد إقبال اشتهر في البلاد العربية بهاتين القصيدتين أكثر مما كتب غيرهما ، وقد لا يعرف الكثير من إخواننا العرب أن له غير هاتين القصيدتين قصائد ودَواوين ، ولعلَّه بسبب عدم توفُّر هذه الدَّواوين في المكتبات العربية كونها مترجمة ومطبوعة هُنا وهُناك ، وكثير من تلك الدواوين لَمْ تَصْدر له طبعة بعد الطبعة الأولى ، حتى كادتْ أن تصبح شيئاً منسياً ، فكانت هناك حاجة إلى جمع جميع تلك الدواوين في كتاب أو ديوان واحد مما يسهل الاطلاع عليه على من أراده .

والعمل في جمع تلك الدواوين مع الضبط والتنقيح والتحقيق بالرُّجوع إلى أُصولها الفارسية والأردوية ، وشرح بعض الكلمات الصعبة الواردة في الترجمة ، والتعليق على ما دعتْ الضرورةُ إلى التعليق فيها ، كان يتطلّبُ الجهد الكبير والتفرّغ التَّام ، فبدأت بالعمل فيه دون تقدير بالفراغ منه ، حتى يسَّرهُ اللهُ عليّ بمُساعدة بعض أصدقائي الذين وفّروا لي بعض الدواوين المطبوعة في البلاد العربية المختلفة ؛ التي كانت في مكتبات بلادنا عديمة الوجود .

هذه سعادة ناطقي لغة الضَّاد بأنهم يتناولون هذه الدواوين كلها بالقراءة في كتاب

---

(١) « روائع إقبال » صفحة (١١) .

واحد ، التي تستحيل لناطقي الفارسية والأردوية ؛ كون تلك الدواوين منظوم بعضها بالفارسية وبعضها بالأردوية إلّا مَن تمكَّن من هاتين اللُّغتين كلَّ التمكُّن ، وألمَّ بهما كلَّ الإلمام .

أسأل اللهُ تبارك وتعالى أن يقبل هذا الجهد المتواضع ، ويبلِّغ نداء الشاعر العظيم ورسالته كل من يسمع ويعي ، إنه سميع مجيب .

يوم الجمعة ١٢/ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ
٣١/ آب (أغسطس) ٢٠٠١م

كتبه
المعتز بالله تعالى

عبدالماجدالغوري

حيدرآباد (دكن)

محمّد إقبال

عند رجال الفكر والدّعوة ، وأساطين العلم والأدب

« . . إنَّ إقبالاً هو طراز العظمة الّذي يتطلبه الشرق في الوقت الحاضر ، وفي كلِّ حين ؛ لأنها عظمةٌ ليست بالدنيويَّة المادِّيَّة ، وعظمة ليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا ، وهو زعيم العمل بين العدوتينْ من الدنيا والآخرة قوّام بين العالمين كأحسن ما يكون القوّام ! . . . . » .

الأستاذ عباس محمود العقاد

« شاعران إسلاميان رفعا مجد الآداب الإسلاميَّة إلى الذروة ، وفرضا هذا المجد الأدبيَّ الإسلاميَّ على الزمان ، أحدهما إقبال شاعر الهند والباكستان وثانيهما أبو العلاء شاعر العرب » .

الدكتور طه حسين

« لا أعرف كشعر إقبال ، معرفاً بالحياة ، داعياً إليها ، معظماً الإنسان ، مشيداً بمكانته في هذا العالم ، نافثاً الأمل ، والهمة ، والإقدام في نفوس الناس . . . »

الدكتور عبد الوهاب عزّام

« . . . . فقد طلع هذا الرجل على العالم الإسلاميِّ ، وعلى العالم كلِّه بفلسفةٍ جديدةٍ صاغها شعراً ، فإذا هي تهزُّ المشاعر والقلوب ، وإذا هي تُثير كثيرين من عظماء العالم ، فينظرون نظرات إعجابٍ إلى هذا المسلم الَّذي وُلد في الهند ، ونشأ بين أهلها ، ثمَّ أعلن على الناس فلسفةً شعريةً سائغةً لا تتفق مع الفلسفة الهندية في شيء . . . »

الدكتور محمد حسين هيكل

« . . . فإذا كان حسَّان شاعر الرَّسول ، فإنَّ إقبالاً شاعر الرسالة ، وإذا كان لحسان من نازعه شرف الدفاع عن المحمَّدية ، وشتان بين من يمجد الداعي الأكبر عن عصبية ، ومن يمجد الدَّعوة الكبرى عن عقيدة ، وإذا كان في الشعراء الصوفيِّين من عطَّر مجالس الذكر بفضائل الإسلام ، وشمائل النبوة ، فليس فيهم من بلغَ مبلغ إقبال في فقه الشريعة ، وعلم

الحقيقة ، والتأمُّل الفلسفي في كتاب الله ، والنظر العلمي في كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب في قوة تمييز ، وسلامة فهم ، وصحة حكم . . . » .

الأستاذ أحمد حسن الزيَّات

« . . . إني أحببته ، وشغلت به كشاعر « الطموح ، والحبِّ ، والإيمان » ، وكشاعر له عقيدةٌ ، ودعوةٌ ، ورسالةٌ ، وكأعظم ثائرٍ على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقدٍ لها ، وحاقدٍ عليها ، وكداعيةٍ إلى المجد الإسلامي ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية ، والقومية الضيقتين ، وأعظم الدُّعاة إلى النزعة الإنسانية ، والجامعة الإسلاميَّة . . »

« . . . إن جلّ ما أعتقده أنَّ إقبالاً شاعرٌ أنطقه اللهُ ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر ، أنطقه اللهُ الذي أنطق كلّ شيء ، أنطقه كما أنطق الشعراء ، والحكماء ، قبل عصره ، وفي غير عصره . . . » .

« . . . أشهد على نفسي أنّي كلما قرأتُ شعره جاش خاطري ، وثارت عواطفي ، وشعرتُ بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره ، وأدبه في نظري . . . » .

العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

« . . . كِدْتُ أتوافق أنا ومحمد إقبال في المعاني ، وربَّما توافقنا في الألفاظ . . . » .

الشهيد سيد قطب

« . . . ولم أر شاعراً يتصوَّر للمسلم صورةً مثاليةً عاليةً كتلك الصُّورة التي يرسمها إقبال في مواضع كثيرةٍ من شعره ، إنَّه يصوِّر المسلم حيناً كأنَّه ماء في رقَّته ، وحديد في شدَّته يهزأ بالصعاب ، ويعلو على التراب ، ويسري مع الأفلاك ، ويجري مع الأملاك . . » .

الدكتور أحمد الشرباصي

« . . . وإقبال لم يرد للشعر أن يكون فلسفةً محضةً ، فنقله بذلك من رياض الزهر ، وهمسات النسائم وغفوة النجوم والأفلاك إلى مجالس الجدل ، وصوامع السفسطة ، والخوض وراء الغيبيات التي لا طائل تحتها . . لكنه يُريد للشعر أن يمتزج بألوان الفكر ، وصادق النظرات ، وحقائق الوجود ، وكنه الكائنات ، وأن يُناجي النسائم ، ويصقل العقول ، ويسطر وثائق التحرير والكفاح ويحكم في قضايا الناس والمدنيات . إنَّ (إقبالاً) ينشد مزج الخيال برحيق الحقائق والتقاء العقليات مع العاطفيات . . . » .

الأستاذ نجيب الكيلاني

« لم يهتم شاعرٌ غير عربي قبل محمد إقبال بأمجاد العرب والإسلام اهتمامه بهما، فهو الَّذي فتح الباب على مصراعيه في هذا المجال أمام الَّذين عاصروه ومن جاء بعده من الشعراء .

تكلَّم عن مجد العروبة ، وأثر الإسلام في رقيِّ الأمم ، وتناول قضايا عربية بحتةً ، مثل قضية فلسطين ، وسجَّل أمجاد العرب في صقلية ، وقرطبة ، ونعى على العرب تفرقهم ، ووجَّه إليهم في دواوينه أكثر من خطاب . . . » .

الشيخ صاوي شعلان

« وكان أعظمُ ما أدهشني رفضَ إقبالٍ أن يدخلَ مسجدَ باريس ، ومقالته : إن هذا المسجد ثمنٌ رخيصٌ لتدمير دمشق .

فلولا أنَّ الرجلَ كان يعيشُ في حقيقة صريحة ، وفي ذكرٍ دائم لا ينقطع لِمَا نزل بنا وطمَّ ، لمَا خطر له هذا الخاطر .

وكم من غافلٍ ساهٍ منَّا ومن قومنا يعرض له أن يحيا تاريخ نفسه وتاريخ دينه بمثل هذه الكلمة ؛ ثم لا تراه إلا حيث يكره الله من الذلِّ والضَّعَةِ والعبوديةِ ، والفتنةِ بما زيَّن له أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ » .

العلاَّمة محمود محمد شاكر

« إقبال عاش مع الهموم التي كان يتقلَّب فيها الإنسان في شتَّى أطراف المعمورة ، لا سيما الإنسان المسلم ، كان يعلم مشكلات الرأسمالية ، ومشكلة الظلم ، ويعلم المشكلات الاقتصادية ، ويعلم المشكلات السياسية ، ويعلم مشكلات الاستعباد والاضطهاد ، كان يعلم ذلك كلَّه . ولكن محمد إقبال زاد على ذلك أنَّه عثر على المفتاح الَّذي إن استعمله المسلمون وأداروه على وجهه تخلَّصوا من سائر المشكلات الاقتصادية ، وتخلَّصوا من الذُّلِّ ، والاستعباد ، وتخلَّصوا من التفرُّق والتمزُّق ، فتضاعفت همومه بسبب ذلك ، فراح يصرخ ويُنادي دائماً :

أيها الناس ! إنَّ مشكلاتكم التي تضجُّون منها حلُّها بيدي ، وهذا هو المفتاح ! فما عليكم إلّا أن تتعرَّفوا عليه ، ثم تستعملوه على وجهه .

وهذا المعنى الَّذي كان يتكرَّر في شعر إقبال، ويُنادي به من حوله، لا يزال يُنادي به من خلال سائر ما تركه من آثارٍ ، وأشعارٍ مضرجة لا بدموعه بل بدماء قلبه .

ولكن كان ينبه إلى أنَّ سائر ما نراه حولنا من المشكلات إنما هو فروعٌ لمشكلةٍ جذريةٍ

واحدةٍ، هي ضياعنا عن الذات، وذاتنا الحقيقية لا يمكن العثور عليها في شرق ولا غرب، وإنما يمكن أن نعثر عليها بين جوانحنا ، يمكن أن نعثر عليها من خلال إدراك هويتنا » .

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

« شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ـ رحمة الله عليه ـ شاعر ذو مكانة رفيعة بين أقرانه ، وهو نابغة في الفكر والخيال والفلسفة والفنِّ جميعاً ، له آراء حصينة ونظرات عميقة في حياة الإنسان ومكانة المسلم في العالم ، وكلامه في غاية القوة والتأثير يقع في نفس القارىء والسامع موقعاً عظيماً ، ولأفكاره قيمة ، وأهمية كبيرة للعالم الإسلامي والأمة الإسلامية . فكر عالمي ، وعقلية نابغة ، ودراسة عميقة تفاعلت في نفسه خلال حياته التي قضاها في الشرق والغرب في مجتمعات وأوساط مختلفة يبحث في الفلسفات والمدنيات والاتجاهات للأمم المختلفة ، القديمة منها والحديثة » .

الأستاذ محمد الرَّابع الحسني النَّدوي
(رئيس جامعة ندوة العلماء ـ الهند)

« عُرِفَ (محمد إقبال) بفيلسوف الشرق الإسلامي ؛ الذي درس الحياة ، والكون ، والإنسان دراسةً واعيةً عميقةً من خلال كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقام كشاعرٍ ثائرٍ على الأوضاع الفاسدة ، يُدافع عن الإسلام وتعاليمه بكلِّ ما أوتي من موهبةٍ شعريةٍ ، وقوَّةٍ أدبية ، ويُنادي بالوحدة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي بشعره القويِّ الزاخر بالمعاني الغزيرة والمفاهيم العالية كما يقول :

«فليتَّحد المسلمون لصيانة وحراسة الحرم الشريف من سواحل النيل إلى تراب كاشغر» .

وقد تفتَّحتْ قريحتُه الشعرية ، وتفجّرتْ ينابيع الشعر في كيانه ، فما لبث أن قال الشعر الإسلامي في جميع المعاني الإسلاميَّة والإنسانيَّة وتحدَّث فيه عن الإسلام وحضارته التي رآها صالحةً للمجتمعات الإنسانيَّة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وفي كلِّ عصرٍ وجيل ، وأتحف الأوساط الإسلاميَّة كلَّها بشعره الجميل الَّذي تغنَّى به كلُّ قريبٍ وبعيدٍ ، وأعجب به الناس في كلِّ طبقةٍ وبيئة » .

الدكتور سعيد الأَعظمي النَّدوي
(رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي »)

محمد إقبال

حياته - شخصيته - فكره - فلسفته

أسرته وولادته :

وُلد محمد إقبال في مدينة « سيالكوت » (الواقعة في ولاية « بنجاب ») سنة ١٨٧٧م ، وهو سليل بيتٍ معروفٍ من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدُّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصَّلاح والتصوُّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، يغلب عليه التصوف .

نشأته ودراسته :

تعلَّم محمد إقبال في مدرسةٍ إنكليزيةٍ في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكليةٍ في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ؛ أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلِّيَّة ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثَّر في الشابِّ الذَّكي كلَّ تأثير ، وغرس فيه حبَّ الثَّقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلِّية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضمَّ إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية ، والإنكليزية ، ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)[1] ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير « سيرتامس أرنولد » صاحب كتاب « الدَّعوة إلى الإسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشئ أول مجلَّةٍ علميَّةٍ

---

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنكليزي الهندي تعادل ليسانس في البلاد العربية .

أدبيةٍ في لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدَّة أخذ محمد إقبال درجة (M.A.)[1] في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً ، وعيِّن على إثره أستاذاً للتاريخ ، والفلسفة ، والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية ، والفلسفة في كلية الحكومة ، التي تخرج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادةً عاليةً في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضراتٍ في موضوعاتٍ إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولَّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصَّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدةً افتتحها بقوله : « ابك أيها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

نبوغه في الشعر :

ومن دواعي العجب أنَّ كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

---

(١) وهي تعادل « الماجستير » في البلاد العربية .

اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاءه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدَّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته ، وجلُّ همِّه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية ، وينشد فيها قصائده ، ومنها « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حلَّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدةً أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيَّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدِّين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنَّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نبك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب ، والمعاني والغرض ، وقال « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تُفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليمة بسرٍّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه ، فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلُّها دموعٌ حارَّةٌ في سبيل المسلمين ، وسهامٌ مسمومةٌ في صدور الأوروبيين ، وتتجلَّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على الوطنية ، و « دعوة إلى الجامعة الإسلامية » و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و « محاصرة أدرنة » و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى

إلى الرسول » وقد نعى في هذ القصيدة على الزعماء والقادة ؛ الذين يتزعَّمون المسلمين ، وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجُّون إلى أوربة ، ويشدُّون إليها الرحال مرَّةً بعد مرَّة ، ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها : « إنَّه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدُّنيا ، وقال : إنَّها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكنِّي جئت بهدية ، وهي زجاجةٌ يتجلَّى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس ».

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث ، فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهَّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشبُّ من حماسته نيراناً ، ويفجِّر إيمانه ، وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرَّ قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، ومنها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و« الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلُّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما « طلوع الإسلام » فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلاميِّ في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعددٍ كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتَّضحت رسالته ، فنشر له عدَّة كتب فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره ؛ لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلاميَّة التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلاميِّ ، ويتكلم بها قطران مهمَّان : إيران ، وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركية ، ونشر مجموعتين

بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي « أسرار خودي » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودي » (أسرار فناء الذات) و « بيام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » ، و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و « مسافر » و« أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم :

«Reconstruction of religious Thought in Islam» (تجديد الفكر الديني في الإسلام) .

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون، وعلماء الفلسفة والدين اعتناءً عظيماً، وعلَّقوا عليها أهميةً كَبيرة، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والطليانية، والروسية، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنكليزية « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في « إله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثِّل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م ـ ١٩٣١م.

رحلاته :

جاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلَّى فيه لأول مرَّة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف

على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكَّر العرب الأوَّلين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأنَّ هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدُّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوةٍ نادرةٍ ، وإكرامٍ بالغ ، وقابله السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه ، والمعجبين بفلسفته ، وتحدَّث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقية ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إنَّ هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوربة أقيمت له عدَّة حفلات تكريم ، أقامها له أصدقاؤه ، وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرَّج على القدس ، واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

وفي سنة ١٩٣٢م لبَّى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدَّث إليه الملك الفقيد طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكيا طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه ، وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وفاته :

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل

أياماً طويلةً رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء ، والزوَّار ، والعواد ، ويحادثهم في شؤونٍ إسلاميةٍ وعلميةٍ ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الردِّ على القومية ، تناقلتها الصحف ، وتحدَّث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : **« جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعبَّاد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإنَّ في سبيل الله جنة أيضاً »** وقال قبل وفاته بعشر دقائق : **« ليت شعري ! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلَّني موتي ، وحضرتني الوفاة ، فليت شعري ! هل حكيم يخلفني . . ؟ »** ، وقال وهو يجود بنفسه : **« أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً »** ، وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوَّاد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ، ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨م[١] .

آثاره في الشعر والنثر :

بالفارسية

١ ـ أسرار الذات ١٩١٥ (أسرار خودي) .

٢ ـ رموز نفي الذات ١٩١٨ (رموز بيخودي) .

٣ ـ رسالة المشرق ١٩٢٣ (بيام مشرق) .

---

(١) روائع إقبال : للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ٢٨ ـ ٣٧ . طبعة دار ابن كثير .

٤ ـ أناشيد فارسية ١٩٢٧ (زبور عجم) .

٥ ـ رسالة الخلود ١٩٣٢ (جاويد نامه) .

٦ ـ المسافر ١٩٣٦ (مسافر) .

٧ ـ ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق ١٩٣٦ (بس جه بايد كرداي أقوام مشرق) .

٨ ـ هدية الحجاز ١٩٣٨ (أرمغان حجاز) .

بالأردية :

٩ ـ صلصة الجرس أو (جرس سفر القافلة) ١٩٢٤ (بانك درا) .

١٠ ـ جناح جبريل ١٩٣٦ (بال جبريل) .

١١ ـ عصا موسى ١٩٣٧ (ضرب كليم) .

(ويتعلق ذلك بالربع الأخير من هذا الكتاب) .

١٢ ـ مراسلات إقبال ومقالاته (قد طبعت بعد وفاته) .

بالإنكليزية :

تطور ما وراء الطبيعة في فارس (رسالة ميونيخ) ١٩٠٢ .

تجديد الفكر الديني في الإسلام .

(Reconstruction of Religious Thought in Islam)

* * *

العوامل التي كوّنت شخصيته[1]

المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرَّج محمد إقبال في مدرستين : أما **المدرسة الأولى** : فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلَّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفةٍ واجتماع ، وأخلاقٍ واقتصاد ، وسياسةٍ ومدنية غاية ما يمكن لغربيٍّ متخصِّص فضلاً عن شرقيٍّ متطفِّل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسعٍ في الآداب الإنكليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية : ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدِّ ، واكتفى بثمار هذه المدرسة ؛ لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محلَّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقرية ، والإسلامية ، ولكن منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة ، والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول : لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ، ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم الاقتصاد ، أو في الآداب ، أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم

---

(١) مقتطف من محاضرة العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، التي ألقاها في مدرج كلية الآداب بجامعة القاهرة في ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ (الموافق ٢٨/ ٣/ ١٩٥١م) .

العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة ، أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها الإخوة ! أن لو كان ذلك لطواه الزَّمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والـوزراء . إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلـود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية ؛ التي تخرج فيها .

إنني لأراكم أيها الإخوة ! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شكَّ أنهم من كبار المربين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة ، وما تكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلِّها ؛ لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها .

إنها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاع مَنْ تخرَّج منها ، إنها مدرسةٌ لم تخرج إلا أئمة الفنِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأييد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسةٌ ما تعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنَّها مدرسةٌ توجد في كلِّ زمانٍ ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوة طويلاً ! إنها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسةٌ تشرف عليها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوة الروحية .

قد تخرَّج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرَّج كثيرٌ من الرجال الموهوبين ، وحدَّث عنها كثيراً في شعره ، وردَّ إليها الفضل في تكوين سيرته ، وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرَّح مراراً بأنَّه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنَّه لولا هذه المدرسة وتربيتها ؛ لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدَّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فممَّن يُردُّ الفضل إليه في هذه المدرسة « الإيمان » الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب ؛ الذي هو مجرَّد عقيدةٍ ، أو تصديقٍ بسيط ، بل هو مزيج اعتقادٍ وحبٍّ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصرُّف ، والحبَّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبِّه ، مقتنعاً بأن الإسلام هو الدين الخالد ؛ الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكلِّ .

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادَّة ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي ﷺ ، وحبِّه العميق له ، ولا شكَّ أنَّ الحبَّ هو خير حاجزٍ للقلب ، وخير حارسٍ له ، إذا احتل قلباً وشغله ؛ منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشةٍ في فلاة ، أو يعبث به العابثون ، يقول : « **لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي ، ويعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة** » ، ويقول : « **مكثت في أتون التعليم الغربي ؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود** » ويقول : « **لم يزل ، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكني لا أخافهم ، فإنِّي أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحبَّ الصادق ، عرف نفسه ، واحتفظ**

بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فإني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في إثره الغبار ، فصار أعبق من العبير » .

وفي كتاب « أسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمَّة الإسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها : اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبُّع بتعاليمه ، والتفاني في حبِّه ، ولمَّا ذكر النبي ﷺ اندفع الشاعر يمدحه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول : « إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد الذي نـام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّةٌ ، ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أمٌّ ، ولـم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبي ﷺ ، وألقى عليها رداءه .

نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كلُّه رحمة ، هذا بأعدائه ، وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال : لا تثريب عليكم اليوم ! نحن المسلمون من الحجاز ، والصين ، وإيران ، وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد ، واحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبُّه ، ولا أحنُّ إليه ، وأنا إنسان ، وقد بكى لفراقه

الجذع ، وحنَّت إليه سارية المسجد ؟! إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب ! » .

ولم يزل حبُّ النبيِّ ﷺ يزيد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة ـ على منوِّرها ألف سلام ـ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحبُّ العميق معاني شعريةً عجيبةً ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « **أنت غني عن العالمين ، وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لا بدَّ من حسابي فأرجوك يا رب ، أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ ، فإني أستحي أن أنتسب إليه وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي** » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنَّه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدارٍ من العلم والعقل ، وأكثر كميَّةٍ من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت : « **إن الفقير المتمرِّد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله** » ، **وهنالك علماء ، وفقهاء ، والواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون ، لا ينتفع بكنوزه** » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة ! وحبُّه ، ومن تتبَّع التاريخ عرف أنَّ الحبَّ هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصيَّة الفذَّة ، والعبقرية النادرة ، إليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا تجرَّد منه شخصٌ ؛ كان صورةً من لحمٍ ودم ، وإذا تجرَّدت منه أمةٌ ؛ كانت قطيعاً من غنم ، وإذا تجرَّد منه شعرٌ ؛ كان كلاماً موزوناً مقفًّى فحسب ، وإذا تجرَّد منه كتابٌ ؛ كان مجموع أوراقٍ وحبراً على ورق ، وإذا تجرَّدت منه عبادة ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلاً بلا روح ، وإذا تجرَّدت منه مدنيةٌ ؛

أصبح تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرَّدت منه مدرسةٌ ، أو نظام تعليم ؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز به ، وإذا تجرَّدت منه حياةٌ ؛ كلَّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصادق الذي يتجلَّى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشَّجاعة ، والقوَّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبُّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشَّهوات ، وبريق المادَّة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطين والماء ، والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفةً فنِّيةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب ، والفنِّ ، والتأليف ، والبطولة ، إلا ووراءه عاطفةٌ قويَّةٌ من الحبِّ .

لقد ضلَّ منْ زعم أنَّ العلماء يتفاضلون بقوَّة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذَّكاء ، وأنَّ الشعراء يتفاضلون بقوَّة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقَّة المعاني ، وأنَّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأنَّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ، وأنَّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوَّة الحبِّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر ؛ فإنَّما يفوقه ؛ لأنَّ الغاية ، أو الموضوع حلَّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلَّم تكلَّم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلبه ، وإذا فكَّر ؛ فكَّر بعقله ، وإذا أحبَّ ، أو أبغض ، فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جنايةً عظيمةً ؛ إذ

قضت على هذه العاطفة التي كانت قوةً كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحبِّ الجنسيِّ ، والغرام المادِّي ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم : أنَّ هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحب ، وأساءت المدرسة العصرية ـ وأعني بها نظام التعليم الحديث ـ إلى الجيل الجديد ؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان ، وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجمادٍ متحرِّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ، ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنَّما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة ! أنَّ شعر إقبال من نوعٍ آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتزُّ له المشاعر ، وتتوتَّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطِّم السلاسل ، وتفكُّ الأغلال ، وتتمرَّد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخفُّ بالقوَّة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسَّ بأنه قد مرَّ به تيارٌ كهربائيٌّ ، فهزَّه هزاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قويُّ الإيمان ، قويُّ العاطفة ، جيَّاش الصدر ، فيَّاض الخاطر ، ملتهبُ الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدَّثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها ، وإشعالها فيه .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ؛ فهو أستاذٌ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره وإجلاله والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحيِّ

أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ، ضائعٌ في بيته ، مهجورٌ في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ، ويتضلَّع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الأخوة ! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن العظيم ، الذي أثَّر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتابٌ ، ولا شخصيةٌ ، ولكنَّه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجلٍ حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوُّق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مالٍ ، ومتاعٍ ، ودارٍ ، وعقارٍ ، وقد وصل هذا المهتدي بشقِّ النفس ، وعلى جسرٍ من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور « كولمبس » لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشؤوا في هذا العالم الجديد ؛ فكانوا ينظرون إلى « كولمبس » وأصحابه باستغرابٍ ودهشةٍ ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرورٍ وفرحٍ ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءةً تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصَّة فضلٌ كبيرٌ في تذوُّقه للقرآن ، واستطعامه إياه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، وقال : « **قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كلَّ يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني : ماذا أصنع ؟ فأجيبه : أقرأ القرآن ، وظلَّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له : ما بالك يا أبي ! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي ! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن دره ما نظمت** » .

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدُّنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدٍ ، وإشراق جديدٍ ، وقوةٍ جديدةٍ ، وكلَّما تقدَّمت دراسته ، واتَّسعت آفاق فكره ؛ ازداد إيماناً بأنَّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقَّدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنَّه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين ، وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمات المدنيَّة ، وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « **إنك أيها المسلم ! لا تزال أسيراً للمتزعِّمين للدِّين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمدُّ حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنَّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتموت بسهولةٍ ، فوا عجباً ! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحةٍ وسهولة**»[1] .

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبُّر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفةً وهديَّةً لأغنى رجلٍ في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقدَّمها إليه قائلاً : « **إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلِّ بداية ، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر** » فبكى الملك وقال : « **لقد أتى على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوَّته كلَّ باب** »[2] .

---

(١) هدية الحجاز (أرمغان حجاز) .

(٢) مثنوي مسافر .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره ، وفي قصيدة يقول فيها : « **انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا ! واعرفها ، وكن لها وفياً ، ما ظنُّك بعالم القلب ، وهو كلُّه حرارةٌ وسكر ، وحنانٌ وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ ، وزورٌ ، واحتيال ، إنَّ ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظلٌّ زائل ، ونعيمٌ راحل ، إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الإفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، ولقد كدت أذوب حياءً ، وتندَّى جبيني عرقاً ؛ إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغيرك ؛ أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك** »[1] .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : « **إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم** » .

إنَّ الصراحة ، والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب » ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيَّد حريته ، يقول في نفس القصيدة : « **يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران** »[2] .

وكان إقبال يعرف قيمته ، ويعرف مكانته في غير صلفٍ ولا غرور ، فيضنُّ

---

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

(٢) المصدر السابق .

بحرِّيته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة : « **لك الحمد يا رب ! إذ لستُ من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكنِّي أحمدك على أني لم أبعهما لملك من الملوك** »[1] ، ويقول مفتخراً : « **إنِّي من غير شكٍّ فقيرٌ قاعدٌ على قارعة الطريق ، ولكنِّي غنيُّ النفس أبيٌّ** » ، وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة يقول فيها : « **إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك ، وإذا عرفته افتقر إليك كبار الملوك . إنَّ الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتلٌ للروح ، وأنت مخيَّرٌ بينهما ، إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت البطن** »[2] ، ولا شك أنَّ محمد إقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جُرحت كرامته ، وامتُحنت عفَّته ، قدَّم إليه رئيس وزارة في دولةٍ ، في عيد ميلاد محمد إقبال ، هديةً محترمةً من النقود ، فرفضها ، وقال : « **إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء** » ، وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أنَّ حرم نائب الملك تكون سافرةً ، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير عليه بذلك ، فرفضها وقال : « **ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة ؛ فلا أقبله ؛ لأنه إهانة ديني ، ومساومة كرامتي** » .

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوَّته ومواهبه ، يعتقد أنَّه صاحب رسالةٍ ومهمَّةٍ في هذه الحياة ، وليس له أن يضع نفسه محلَّ الشاعر الذي ليست له رسالةٌ ، والنَّظامين الذين ينظمون في كلِّ مناسبة ، فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجَّهها إلى رسول الله ﷺ : « **إني لأشكو**

---

(١) جناح جبريل .

(٢) المصدر السابق .

إليك يا سيد الأمم ! أنَّ أصدقائي يعتقدون أنِّي شاعر نظَّام ، فيقترحون علي اقتراحات » . ويقول في بيت آخر : « **أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله ! إنَّك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون : أرِّخ لموت فلان ، وفلان ، فماذا أفعل** » ؟ .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكريِّ ، والهيام الأدبيِّ ، اللَّذَيْن يصاب بهما أدباؤنا ، وشعراؤنا ، وكتَّابنا ، وعلماؤنا ! فينتجعون كلَّ كلأ ، ويهيمون في كلِّ واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كلَّ شخص ، ويظلُّون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظِّ الإسلام والمسلمين في الهند : أنَّه عرف نفسه في أول يوم ، وقدَّر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركَّز فكره ، وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحرِّية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألَّا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر ، وغلبه . كان سائل القريحة ، فيَّاض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فناناً وصنَّاعاً ماهراً ، سلَّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجزُّ ، فما من شاعرٍ ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنُّن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كلَّ ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنَّه امتاز بأنه أخضع شاعريَّته القويَّة ، وقوَّته الأدبية ، وعبقريَّته الفنِّية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ، ولا

شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالةٍ إسلامية ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء ، فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ، ويوطىء لها أكنافاً ، ويذلل لها صعاباً ، ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرضٍ أسمى ، وغايةٍ أجدى منه ، فأيقظ أمَّةً ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياة الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولةٍ تحكمها ، وتدير دفَّتها ، أوجد بشعره القويِّ الهزَّاز القلق الفكريَّ ، والاضطراب النفسيَّ ، الذي عمَّ هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الإسلاميَّ بصفةٍ خاصةٍ ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية ، والذلَّة ، وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يومٍ من الأيام الدولة المسلمة الحرَّة حقيقةً راهنةً ، وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولةٍ ، وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلاميِّ ، وتعلمون جميعاً أنَّ الدول تسبقها الثورات الفكرية ، والتذمُّر من الحاضر ، والتطلُّع إلى المستقبل ، والقلق النفسيُّ ، فإذا تمَّ هذا كلُّه ، ونضج ، قامت دولةٌ ، فإن كان شعرٌ قد أقام دولة ، وأحدث ثورةً فكريَّةً ، كانت سبب الانتقال من حياةٍ إلى حياةٍ ، ومن وضعٍ إلى وضع ، فهو من غير شكٍّ شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوة ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره لمواهبه وقوَّته ، ووضعها في محلِّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهة ، وألفاظٍ فارغة ، وألوانٍ زاهيةٍ ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم ،

وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية « بالمزاد العلني » وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٣٣] .

العامل الرابع :

والمربِّي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدَّة المعاني ، وتدفَّق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرَّض للنفحات السَّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه إليه ، ويتزوَّد بنشاطٍ روحيٍّ جديد ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديد ، وغذاءٍ فكريٍّ جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الإنسان فيه قوةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدَّد كلَّ يوم ، فيتجدَّد شعره ، وتتجدَّد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السَّحَر ، ويعتقد أنَّها رأس ماله ، ورأس مال كلِّ عالم ومفكِّر ، لا يستغني عنها أكبر عالمٍ أو زاهد ، يقول في بيت : « **كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكن لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك أنَّةٌ في السَّحر** » ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : « **رغم أنَّ شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكنِّي لم أترك في لندن التبكير في القيام** » ، وكان لا يبغي به بدلًا ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيت : « **خذ منِّي ما شئت يا رب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنَّة السَّحر ، ولا تحرمني نعيمها** » ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدَّى هذه الأنَّة السَّحَرِية ، والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : « **اللهم ! اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدِّينية ، وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم بنجوم**

سمواتك ، التي لا تزال ساهرةً ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنومٍ ، ارزق الشباب الإسلاميَّ لوعة القلب ، وارزقهم حبِّي وفراستي » ، ويقول في قصيدة : « اللهم ارزق الشباب أنَّتي في السَّحر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ؛ التي تطير بها وتصطاد ، وليست لي أمنية يا رب ! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمَّ نور بصيرتي في المسلمين » .

العامل الخامس :

والعامل الأخير ، والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة ! هو « المثنوي المعنوي » بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورةٍ وجدانية ، ونفسيةٍ شديدة ضدَّ الموجة العقلية الإغريقية ؛ التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب ، والروح ، والعاطفة ، والحبِّ الصادق ، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين ، والمدارس الدِّينية ، والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفِّقٌ قوَّةً وحياةً ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الرَّيان الذي يملي هذه المنظومة التي لا تزال فريدةً في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويُّ في تحرير الفكر من رقِّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادِّية الرعناء ، ويبعث التمرُّد على عالم المادية الضيق ، والتطلُّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحيَّة والخلقيَّة ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية ، والمبادىء الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارةً عقليةً ميكانيكيةً ، وقد قضى محمد إقبال فترةً من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرِّد ، وعلمه المتجدِّد ،**

وقلبه الحارّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاصطراع الفكريّ والاضطراب النفسيّ ، ساعده المثنوي مساعدةً غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحلَّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثيرٍ من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « **قد سحر عقلك سحر الإفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحراً من العلوم** » ، ويقول في بيت : « **لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أنَّ كليماً واحداً ـ يشير إلى سيدنا موسى ـ هامته على راحته يغلب ألف حكيمٍ قد أحنوا رؤوسهم للتفكير** » ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدِّد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية ، والروحية ، وكان يشعر أنَّ الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارةً لطيفة ، يقول في قصيدة : « **لم ينهض روميٌّ آخر من ربوع العجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز كما كانت ، إلا أنَّ إقبالًا ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصلٍ كبير** » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شكَّ أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القوي ، والخلق المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

* * *

الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال[1]

لم يكن إقبال اختصاصياً في مادة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع وتعمقاً فيه ، واطلاعاً على أسراره وخفاياه ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به من بعيد أو قريب بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال : « **إنه لم يختص في هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن** » ، ولكن من البديهي المعروف أن دراسته كانت واسعة منوعة عميقة ، وأنه تأمل خلال بحثه العلمي المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان والأخلاق ، وفي المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب ، ونزل في أغوارها واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أن التاريخ ـ كما قلنا ـ لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لائقة شأن كل باحث يهمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة ، والتوصل من المقدمات إلى النتائج ومن الجزئيات إلى الكليات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها ؛ لذلك نجد إقبالاً يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج

---

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن الندوي التي ألقاها في ندوة علمية في مدينة « شيكاغو » (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥م وكتبها أصالة في الأردوية ، ونقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » .

وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على مواد أساسية ومبادىء واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها ، ورقيها وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها ، كشفاً تتحير له الألباب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولاً لا يجد له التأويل . غير أن هذا الكتاب الذي نزل على « الأمي ابن البادية » ـ كما يقول إقبال ـ منزل من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قَدَّم إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

« إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تندرج في بدايته النهاية ، به فتح عليٌّ باب خيبر » .

ويقول في ديوان « أسرار خودي » :

« إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت » .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقل من « اكتشاف » إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيت واحد بعض الحين ، عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكتبات

كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهي كثيرة) أن يأتي رائعاً أخاذاً كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي وعلى علو القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة « Dark Ages » .

ونقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلت في شعره ، من غير تدقيق وتمحيص كبير ، واستيعاب شامل ، لكل ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان ، واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارى ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة ـ وخاصة المسيحية ـ الحياة الإنسانية في قسمين : قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين ، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان بأن هناك خصومة وعداء

بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له ـ على حد قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ورضوا بها ـ كحاجة اجتماعية وواقع حي ـ واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أمل في الدين .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثل الدين وتتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كَفِيلٍ هائج مائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حداً على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من

الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة[1] ، وقدموا صورة وحشية كالحة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى ـ في أوسع معناها ـ إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة[2] .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنّتُها العظيمة ، ونداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق « النية »[3] .

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا ، وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً أو قتالاً أو حكماً أو إدارة أو تمتعاً بطلبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية ـ بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكراً وتسبيحاً ،

---

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربة » ج/ ٢ لمؤلفه ليكي .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر ، أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للعلاّمة أبي الحسن علي الندوي ، باب « الإنسانية في الاحتضار » .

(٣) هذا الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وقتالاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالاً ، وتكون بينه وبين الله حجاباً[1] .

وإنها مأثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد ﷺ ومنته العامة الخالدة على الإنسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في إلف وود ويتعايشان في سلام ووئام ، إنه ﷺ رسول الوحدة ، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنه أعلن بالآية التالية : ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادَّة ، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيه أمراء وأغنياء في مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرجاً .

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان « الدين والسياسة » ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة رائقة من أبيات ، تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى

---

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، انظر أبواب الإخلاص والنية ، والإيمان والاحتساب .

جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع ، كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال :

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها ـ بالطبع ـ القيادة والسيادة ، والحكم والإدارة ، فقد كان هنا عداء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء كامل واستيلاء .

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعُبَّاد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد »[1] .

إن التاريخ الإنساني الطويل ـ الذي أثخن بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب ـ يشهد بأن تجمع القوة والحكم في أفراد أو جماعة لم يضر النوع البشري مثل ما ضره وجر الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سيل جارف لا يمنعه شيء ، وقضاء الله المبرم الذي لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والإنسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة ،

---

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبيح والخبيث والطيب ، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامي ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حَوْلًا ولا طَوْلًا ، وكلما يصبح شعار (Might is Right) « القوة هو الحق » مقياس الحق والباطل ، وتمد هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشُعَبه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهنالك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركاناً نارياً هائلاً يتفجر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنمي وسيله الناري حكومات مستقرة ، وإمبراطوريات عظيمة ، ولا تمنعه حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها في محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناري الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة ، وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضٍ قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونوادي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزيزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً

أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] .

وكانت فريسة هذه الشهوة ـ شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق ـ أمم قديمة ذكرها القرآن ، أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وظهرت نتيجة هذا الذهول ـ الذهول عن الله ـ والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالاً حراً ، لا يبالي بأي قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أي وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أي حساب . وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عاد ، هذه الحالة النفسية ، فقال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠] .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذه الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبث اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعبث الطفل بجانب القرطاس أنه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق في العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إرباً إرباً .

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذي ظن نفسه رباً وحاكماً ، وتقلد هذا الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ، ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فرد معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦] .

إن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ كالروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر : سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم ، وفي عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جلية ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between: Religion and Science) :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتفُّ بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون

يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها »[1] .

ثم قرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتاب التاريخ[2] ، إن الذين أحسوا في أول صدام بأنه ليس هنا في البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساة إنسانية عامة ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، إنها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامي كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنساني كله في هذه الفترة المهيبة المروعة من الزمن في وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشعر والأدب والأخلاق والتصوف أيضاً[3] ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً وقاعاً صفصفاً ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمتها ، وتأخر تقدم العالم العلمي والمدني ومسيرته

---

(١) History of The Conflict Between Religion and Science. London 1927. p.p 13-2.

(٢) مثل البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها في كتاب العلاَّمة أبي الحسن الندوي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ج١ ، تحت عنوان « التتار محنة العالم الإسلامي » طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن ، سحب داكنة قاتمة من الانحطاط العلمي والإعياء الفكري والعقلي ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان ـ وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعاقلها إذ ذاك ـ تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر ذات قوة وشكيمة تواجه العاصفة بالإعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والجدب العلمي ؛ حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل[1] .

إن قيصر ، والإسكندر ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونادر شاه أفشار ، لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال ، داء السكْر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانوا يقنصون الإنسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الإنسانية مرة بعد مرة ، بأسنتهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعبثهم بالرؤوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل ـ كيف قدم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات :

« انظر كيف مزق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية ، وهتكا ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً .

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر ،

---

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن عشر الهجري عند إقبال .

ومصيبة على مصيبة ، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة ، يجعلها هباء منثوراً » .

قد يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربة (بمعسكريها الشرقي والغربي) وأمريكا أصابتهما هذه العقدة النفسية ، وصرعهما هذا الداء القديم ، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Guardians) على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم ، وهم يَزِنُون كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة ، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة في أي بقعة من بقاع العالم ، ويحاولون أن يجتثوها حالًا إذا نشأت ، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقي والفوضى الفكرية العامة في البلاد الآسيوية بوجه عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجه خاص .

هذا المنطق النفعي المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أي قضية بحياد تام ورغبة مخلصة في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلها العادل ، بل إنها تحالف ـ بالعكس ـ الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعثاً ولا تحقق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذ المساعدات السخية والدعم القوي .

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية ، وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد ، فلا تتخبط كالفيل الهائج الذي أطلق من قيوده ، وتكون

مركباً ذلولاً لقائد عارف خبير لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلة لا غاية ، وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلاً من عذاب ونقمة ، وحياة لا موت ، وأداة بناء لا معول هدم ، يستنجد بها في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير الإنسان من سلاسل العبودية ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى مجاريها ، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ، هنالك يفتتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد .

يقول إقبال : « **إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سماً ناقعاً ، وإذا كانت في خدمته صارت ترياقاً واقياً** » .

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصالحة ، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب الأولون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ، واستعمالهم للقوة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً ، والذي عبروا عنه على لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية ، وشرح دورهم القيادي الرائع البنَّاء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه العقيدة والإيمان والدعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر كلامه وعيون شعره باللغة الفارسية :

« **اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة ، وأنبتت زهرة يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه .**

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربي الصِّدِّيق والفاروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي .

واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والإدارة والحكم مع قلوب أواهة مخبتة منيبة في الصدور .

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، وومضة من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مكنون لم يطلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب » .

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشؤوا إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور النهضة والرقي ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التنعم والعيش الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ، وصبرهم على المكاره في تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة ، ولكن توفر وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة المناصب ، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا

إلى الأرض ، وتمرغوا في النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كاس ومزمار ، وطنبور وعود ، وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء البلد ، وفرد من أفراد الشعب .

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الإنساني منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناء ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ـ ٧] .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب في أي دور من أدوار التاريخ وحكومة من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، تَرَ هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر في السير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفي الأقدار والمقاييس .

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم ، وهي أمة نبي جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي أقامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإن أمثلتها ونظائرها تكثر ـ طبعاً ـ في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكومات وحضارات أخرى .

والواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر

وجلاد ، وزهد وشظف[1] ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن ، عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون في فلكها ، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء ، وفاضت عاصمتهما بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرغ في النعيم والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين[2] .

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهروالي المكي (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

---

(١) اقرأ للتفصيل رسالة « المد والجزر في تاريخ الإسلام » للعلاَّمة أبي الحسن الندوي .

(٢) اقرأ للتفصيل « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلاَّمة أبي الحسن الندوي ، الجزء الأول ، باب « التتار محنة العالم الإسلامي » .

« مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل ثخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً »[1] .

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغولية في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموري (١٤٨٢ ـ ١٥٣٠م) على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندي مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية « رانا سانجا » وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيجابوري في كتابه (تاريخ فرشته) :

« إن رانا سانجا » توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاد محمد شريف بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال وقال : إذاً ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم « رانا سانجا » بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ » .

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاق مع الله ، والتي تجملت وافتخرت بوجود عصاميين ونوابغ وعباقرة من بين أبنائها مثل « همايون » و « أكبر » و « أورنك زيب » إلى حمأة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان

---

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ـ ١٨٠ .

المنكرات ، تجلى أخيراً بصورة واضحة مؤسفة في حياة « محمد شاه » (١٧١٩م ـ ١٧٤٨م) وما جرى في قصره حتى سمي باسم معناه (الماجن) واشتهر به .

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية : « **إن الملك محمد شاه لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه القصر إلى الصحراء . . ولذلك سمي المسكين في الأخير « رنكيلاً » يعني « الماجن » وهجره وزيره (آصف جاه) عندما رأى حالته ، فانصرف إلى جبال الدكن وغاباتها** » .

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوي ما يلقي الضوء على تلك الأوضاع الفاسدة :

« **كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورود والأزهار والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم** »[1] .

تأمل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقيها وانحطاطها في بيت واحد : « **تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح أولًا ، ولهو وغناء آخراً** » .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان التنعم ، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية ،

---

(١) تذكرة ص/ ١٧٢ .

والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية ، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيموراً ، أو هولاكو ، أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة ، إنه يقول :

« الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون ، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها ـ في حينها ـ القدرة الإلهية » .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربة) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقي والازدهار ، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسآمة من الحياة ، والشذوذ الخلقي والجنسي ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل على أن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحيتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقه الميتة دماً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية في الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم

متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنها ـ على ما يقول إقبال ـ مثخنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من التدمير والإبادة والقتل والفتك ، التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ويأتي حتفها بيدها .

يقول إقبال :

« إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ورعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله » .

* * *

فكر محمّد إقبال :

نورد هنا بعض الإيضاحات حول فكر وفلسفة محمد إقبال تتيح للقارىء إدراك مغزى قصائده .

الذات الكونية :

الكون في نظر إقبال ، بكل أشكال وجوده ، ثم خلقه ، يتماسك بفعل روحٍ أساسية شاملةٍ لكلِّ شيء . أو على الصحيح ينشأ منها كلُّ شيء . وتسمَّى (خودي) أو (شودي مع نطق CH على الطريقة الألمانية) . وهي ما ترجمناه في هذا الديوان بـ(EGO) (الذات بالعربية) ، ومع ذلك فإن (خودي) تختلف عن المعنى اللاتيني لهذه الكلمة أو المعنى الذي أعطاه لها (شوبنهور) مثلاً ،

كما تختلف عن الكلمة الفرنسية (MOI) التي تعارض (TOI) أو (SOI) وتقترب من كلمة (SELF) الإنكليزية ، وهي الكلمة التي ترجم بها إقبال نفسه هذا المفهوم .

الحياة :

الذات بحركتها تبدع الحياة ، وتدافع عنها ضدَّ نقيضها الموت ، وهي في نزاعٍ دائم مع الموت ، وتنتصر عليه على الدوام .

وإذا جاز لنا هذا التشبيه ، فالحياة مثل الجزيء في الطاقة الكهرطيسية ، توجد ما دامت تؤثر ، وهي تؤثر وتفعل بقوة الذات نفسها ، وضعف الذات يقلِّص في الحياة شكلها ومداها وقابليتها على الفعل والتأثير ، وعندئذ تضمر الحياة وتنتهي بالموت .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

قوة الذات تحوِّل حبة الخردل إلى جبل .

خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل .

الذات الفردية ، الأنا :

بفضل الزوجين تنهض الحياة من كلِّ جانب ، كأنها جيوشٌ جرَّارة . وهكذا تتجزأ الذات ألف مرَّة وألف مرَّة ، وتدفع الأفراد إلى الظهور في مشاهد كلِّيةٍ واسعة .

وعندئذ تصبح غاية الفرد البحث عن مجد الذَّات المطلق (الأنا) ، وتأكيد هذه الأنا بالسمو درجةً بعد درجةٍ ، ومرحلةً بعد مرحلةٍ إلى مستوياتها الرفيعة .

الذات : هي للكائن الفرد الشخصية والقدرة والكمال . وهي ـ في تطوُّرها وارتقائها ـ تضع المثل العليا ، وتحققها بجهودها .

الجهد العنيف :

طبيعة الذات نفسها تدفعها إلى بلوغ الكمال إلى أقصى حدٍّ ممكن ، وإلى بذل الجهد العنيف .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

يتجاوز الهلال كلَّ وجوهه وجهاً بعد وجه .

من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهدٍ كبير ؟

ولبلوغ الكمال لا يجوز لك أن تتجنَّب الصِّعاب ، بل يجب عليك أن تتغلب عليها .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

غاية ثورة المؤمن .

أن تتجلَّى عليه ذاته .

والحقُّ أن موسيقا الكون الخالدة لا تقوم إلا على العقبات .

قال إقبال (في رسالة المشرق) :

لا تتجنب الأزمنة الصعبة .

من لم يتخطَّ العقبات لا قيمة له .

ألا تعرف أنَّ الموجة

لا تكون ممتعةً إلا عندما تلطم الصُّخور ؟

الحب والجمال :

هذا الجهد الشَّاقُّ الذي يدفعك إلى تسلق مرتقى الوجود ، والذي يمثل ظاهرة الذات ، هو الحب .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

الحبُّ أن تبصر الذَّات ، الحبُّ أن تصون الذَّات .

وقال :

جوهر الحياة هو الحبُّ ، وجوهر الحبِّ هو الذَّات .

وهكذا فإن ما نبحث عنه هو الجمال . والذَّات الفردية ، وهي تتكامل بدافعٍ من طبيعتها ، تنسجم مع الذوات الأخرى ، وتصل إلى مرتبةٍ عليا هي مرتبة الجمال .

الجمال موجود سلفاً ، ولكن نور الحبِّ يزيده غنىً بنوعٍ من حادثة الطنين ، يكاد يكون سحرياً .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

بالحبِّ تزداد الوردة ، وشقائق النُّعمان روعةً وجمالاً .

في نظرة الشاعر ، ذي الصوت الذهبي ، شيء من السحر

في منظور إقبال أنَّ تقدُّم الذات الفردية يدلُّ على الوجهة التي ينمو فيها الجمال ، كما أنَّ تراجع الذات يدلُّ على الوجهة التي يزداد فيها القبح[1] .

قال إقبال :

كلُّ ما يبعث على سموِّ الذات جميل .

كل ما تدعو إليه الدناءة قبيح كريه .

الفن :

يُعرِّف إقبال الفن بهذه العبارات انطلاقاً من مفاهيمه عن الحبِّ والجمال .

قال في (عصا موسى) :

البحث عن الجمال هو الفن .

---

(١) وهذا ما يحدث في الفيزياء فالقصور الحراري مثلاً يدلُّ على الاتجاه نحو الفوضى ، وهذه الظاهرة يمكن أن تساعد على إدراك فكرة محمد إقبال حول هذه النقطة .

وقال في (جناح جبريل) :

الألوان ، الآجر ، الحجارة ، الكمان ، الكلمات ، الرنات ،
كلها يفتقها سرُّ الفنِّ على حساب جوهرنا .

والفن يقدِّم أدلَّته تمجيداً للذات ، والذَّات هي المعيار الوحيد للحكم على قيمته .

الفنُّ يبعث الحياة في كلِّ من يقتربون منه ، ويفعمهم بالحماسة والنشاط ، وفرح الحياة الذي يتجلَّى على وجوههم .

قال في (عصا موسى) :

إذا سمعت أغنيةً فلم تنر وجهك ،
فمعنى ذلك أنَّ المغني بارد القلب .

وقال في (جناح جبريل) :

الشاعر جريءٌ ، إنه يجمِّل الطبيعة .

وقال فيه :

يا شقيقة النعمان ! أيتها العروس ! ما لك تحتجبين عني ؟!
فأنا لست إلا نسمة الصباح .
والإبداع لا يفتر ، والخلق يطَّرد دون هوادة .
في كلِّ لحظةٍ نسمع من يقول : لو كان هذا ، ولو كان ذاك ، ولكنَّ الإنسان ، حين يكون فنَّاناً حقيقياً ، يسهم في عمل الخالق .

قال إقبال في (رسالة المشرق) :

أنت خلقت النهار ، وأنا صنعت المصباح .
أنت خلقت الطين ، وأنا صنعت الأقداح .
أنت خلقت الغابة والجبل والصحراء ،
وأنا صنعت الرواق ، والبستان والكرم .

أنت خلقت الحجر ، وأنا صنعت منه المرآة .

أنت خلقت السُّمَّ ، وأنا استخرجت منه الترياق .

الفن الجميل الوحيد هو الفنُّ الذي يسمو بالروح ، ويلهم الشَّجاعة ، ويوحي بالأمل ، ويعلِّم العيش في شرف .

أما الفنُّ الذي يفسد الروح ، ويتلفها ، ويضعف الحماسة للعمل والحميَّة لاكتشاف أسرار الطبيعة ، الفنُّ الذي يضعف الذَّات ، ويجعلنا عبيداً للناس ، فليس إلا فناً شيطانياً (كما ورد في عصا موسى وأسرار الذات) ولنتذكر هذه الحكمة الهندية :

الحقُّ قوةٌ وجمال[1] .

نفي الذات :

تجنح مجموعةٌ من الذوات الفردية بطبيعتها ، وهي تسعى نحو الرُّقيِّ والكمال إلى الذوبان في « أنا » جماعية ، وبذلك تخلق ذاتاً لمجموعة تزداد تطوراً وسعةً شيئاً بعد شيء . هذه اللَّاذات في المستوى الشخصي تُكوِّن الذَّات في المستوى الجماعي ، وليس في ذلك تخريب للذَّوات الفردية ، بل فيه ما يدعو إلى دعمها وانسجامها .

قال إقبال في (أسرار نفي الذات) :

نفي الذات هو غاية الذات الشخصية ، بل إنَّه دليل ارتقائها .

وقال في (جناح جبريل) :

ما أسعدني عندما يوهب لي ذوق الذَّات .

إنه يدفعني إلى الخروج من ذاتي .

ويمكننا إيضاح هذه الفكرة بقولنا : إن المجتمع الإنساني على النطاق

---

(١) ساتيام ، شيدام ، سندرام ، بالتوالي ، Satyam, chidam, Sandram .

العالميّ سيتمُّ إنجازه بالتعاون على قدم المساواة بين كلِّ الأفراد في أوج ازدهارهم ، لا بسيطرة بعضهم على بعض .

الإنسان الكامل :

نفي الذات يبني مجتمعاً لأناس كملة ، تتمتَّع ذواتهم بأقصى ما لها من بريق . الإنسان الكامل يعشق الحقَّ في أقصى مداه ، والذات في أوج مجدها . عبر الحب تصبح الذات حياةً ، ولأن الذات خالدةٌ ، فالحياة وهي مظهر الذات خالدةٌ كذلك ، ولأن الحبَّ يدفع إلى رقيِّ الحياة رقياً دائماً ، فهو خالد ، وخالدٌ كذلك كل ما يُنجزه الحبُّ .

قال إقبال في (جناح جبريل) :

يا مسجد قرطبة ! وجودك هو الحب .

الحبُّ خالدٌ ، وما من شيءٌ آخر كاملٌ .

الحب يفتح القلوب ، ويهب للعاشق الرقَّة ، والوجد ، ولحن الصَّرخة في منتصف الليل ، ودموع الصباح ، واستقلال مثل هذا العاشق يجد نبعه في نظامٍ تتبعه الذات الشخصية في طاعتها للذَّات الكونية .

وهكذا يتكوَّن الإنسان الكامل الذي هو سيِّد الكائنات في الأرض وفي السماء ، والذي يقنع بالقليل ، أي بالفقر ، « الإنسان المتجرِّد » الذي تحرَّر من كلِّ ما في العالم من مغريات ، لأنه ، حين يسيطر على كلِّ شيء ، ليس محروماً أيَّ شيءٍ ، وهكذا يتجرَّد . إنَّ هذا الوحي الربَّاني هو الفقر .

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء .

خير أنواع الزهد في غزو كلِّ زاوية في الأرض والسماء .

ويطلق إقبال على إنسانه الكامل على حسب ما طرأ عليه من تحوُّلات ، وما

قطع من مراحل الكمال لقب « الإنسان الحر » « الإنسان الجسور » « القلندر » « الإنسان المتجرد » « الدرويش » إلى غير ذلك من الألقاب .

هذا الإنسان الكامل هو روح الإنسانية المشخصة . وهو في نظر إقبال في سموّه ، وفي رشاقته المثل الأعلى للإنسان المتوازن خير توازن يمكن أن نتصوره :

ونرجو أن تسمحوا لنا بالاستشهاد بقصيدتين من ديوانه (عصا موسى) :

المؤمن
(في هذا العالم)

ناعمٌ كالحرير في حلقة الأصدقاء .
صلبٌ كالحديد في معركة الحقّ والباطل ، هذا هو المؤمن .
ينازع السماء ، كأنه ندٌّ لها .
يحتقر الأرض ، وهو من الأرض ، هذا هو المؤمن .
لا تجتذب السُّمانى والحمام بصره .
بل يقتنص جبرائيل وإسرافيل ، ذلك هو المؤمن .

(في الجنة)

تقول الملائكة : « ما أشد فتنة المؤمن ! »
وتشتكي الحور : « ما أشد بُعد المؤمن ! »

والقصيدة الثانية

الإنسان المسلم

يبدو المؤمن كلَّ لحظة في نهارٍ جديد .

يتجلى الله في أقواله وأفعاله .

السلطان ، والرِّفق ، والصفاء والقدرة الكلية :

هذه العناصر الأربعة ضرورية لبناء المسلم .

إنَّه جار جبريل كما هو إنسان الأرض .

لا يرتبط ببخارى ولا ببدخشان .

ما من أحدٍ يعرف هذا السر : المؤمن .

الذي يبدو أنه قارىء (القرآن) وهو القرآن حقاً !

نواياه على مقياس مصائر الطبيعة .

إنَّه الميزان في هذا العالم ، إنَّه القسطاس في يوم الحساب .

إنَّه الندى الذي ينعش قلب شقائق النعمان .

إنَّه الشي الذي يرعش قلب الأزهار .

أيامه ولياليه تعزف لحن الطبيعة الخالد ،

لحناً مثل سورة (الرحمن) في القرآن ليس لموسيقاها نظير .

في معمل فكريٍّ تُصنع النجوم .

وأنت يا هذا ! اعرف نجم قدرك .

وانظر كذلك قصيدة (مسجد قرطبة) في جناح جبريل .

الإسلام :

المثال أكثر بلاغة من المفهوم : ولد إقبال ونشأ وعاش في مجتمع إسلامي ، وكان من الطبيعي أن يبحث عن عناصر تفكيره في تاريخ هذا المجتمع .

وبدا لإقبال أنَّ خير نموذج يقترحه ، وأنَّ خير نظامٍ اجتماعيٍّ هو أكثر

النظم قرباً من أحلامه ، إنما هو الإسلام في نقائه الأصيل .

ومنذئذ جعل يشرح طوال حياته هذا النظام حسب حاجاته ، واستخلص منه رموزاً شعرية ، ومجازاتٍ وإشاراتٍ ، نجدها مبثوثةً في كلِّ ما كتب ، ونظم .

والحقُّ أنَّ إقبالاً وحَّد بين الذات الكونية وبين الله ، كما فهم الإسلام وكما فعل (تيكهارد دو شاردان) تقريباً وهو الناشىء في محيطٍ مسيحي ، حين وحد بين (المسيح الكوني) ـ كما ورد في الإيمان ـ وبين نقطة (أوميغا) أي بين البداية والنهاية في العلم .

وهذه النقطة جرى تعريفها على أنها النهاية القصوى (Noo- genése) التي تتعلَّق بالوجود كله ، والتي ليست خاليةً من بعض أوجه التشابه مع مفهوم الذات الكونية .

ويرى إقبال في شخصية الرسول ﷺ الإنسان الكامل ، كما يجد المجتمع المثالي في صحابته ، مثل أبي بكرٍ الصديق ، وعمر الفاروق ، وعليٍّ ، وأبي ذر ، وسلمان الفارسي ، وأويس القرني ، وخالد بن الوليد . . . إلخ ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولقد عاشوا جميعاً حياةً نموذجيةً ، ووضعوا حبَّ رسولهم ، وطريقة سلوكهم الذي علَّمهم إياه فوق كلِّ شيء : ألا وهو الذات الفردية التي بلغت حدَّ الكمال ، والتي ذابت في الذَّات الجماعية ، دون أن تتخلى عن قيمتها الشخصية .

ويقارن إقبال بين إنسانه الكامل وبين المفهوم القرآني للإنسان (خليفة الله في أرضه) ويرى أنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض أرقى درجات الرقي الإنساني . (أسرار الذات) .

والنبيُّ ﷺ وإنَّه ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ كما ورد في القرآن الكريم ، هو أفضل مثل على هذا الخليفة .

ويستطيع كلُّ مؤمنٍ باتباع القرآن الكريم أن يصل إلى هذه المرتبة ، ويتبنَّى إقبال فضائل الرسول ﷺ ليزين بها نموذجه في (الإنسان الكامل) .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فإقبال يشبِّه الرسول أحياناً بالله نفسه ، وينسب إليه الصفات الإلهية مثل (الرحمن) وفي هذا التشبيه ما يشير إلى فكرة إقبال من أن العبد يسلك سلوك السيد ، وما يشير إلى العناصر الأربعة التي تصنع المسلم في اشتراكها معاً .

ثم إنَّ إقبالاً تصوَّر هذا المفهوم الوارد سلفاً في جناح جبريل :

الذات . .

إنها البحر الذي تحتويه قطرة ماء .

ويقرن هذه القطرة من الماء بالبحر المبدع .

إقبال المتمرد :

الثورة والتمرد يحتلاَّن مركز تفكير إقبال .

يهاجم المحترفين ، وإذا جاز لنا القول : يهاجم محترفي رسالة الدين .

قال في (جناح جبريل) :

ما أجدر أصحاب المناصب العالية في الكنيسة وفي الإسلام بالرثاء !

حصاد جهودهم ظلمة قلوبهم !

وقال في (جناح جبريل) أيضاً :

هل في مسجدك غير المواعظ ؟

كل أحكامك حق ، ولكنَّ المفسرين

يستطيعون ، وهم يفسرونها ، أن يجعلوا من القرآن (بازند) المجوس .

وقال :

البحث عن المعاني الكاملة في مذهب من المذاهب

يعني تدميره في بساطة .

ويشكو إقبال نظام التربية التي يتلقاها الشباب .

قال في (جناح جبريل) :

أشكو إليك يا رب ! هؤلاء الأرباب : أساتذة المدارس :

إنَّهم يعلمون الشَّواهين الصغيرة العبث بالغبار .

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

يبني معلم المدرسة صرحاً ،

صناعته روح الإنسان .

من أجله قال الفيلسوف (كاغاني) كلمةً سحرتني :

« لا تبن جداراً أمام الشمس

إذا أردت نوراً في باحة دارك » .

وقال في (جناح جبريل) :

تركت المدرسة والدير ، وأنا جدُّ حزين ،

فليس فيهما حياة ، ولا حبٌّ ، ولا معرفةٌ ، ولا بصيرةٌ !

ولذلك حمل إقبال على الزُّهد الساكن البليد في اللاهوتي والصُّوفي :

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزُّهد ليس في البعد عن عالم الماء والطين !

خير أنواع الزُّهد في إخضاع هذا المخلوق من الطين ، هذا المخلوق من النور .

وورد في (أسرار الذات) :

الحقُّ يقوم على تأكيد الذات أكثر من نكران الذَّات .

وهناك نصان جديران بالذكر أثارا عاصفة من الاحتجاج عند المسلمين

(الأصوليين) وهما قصيدتان مثيرتان ، هما : (شكوى إلى الله) و(جواب الشكوى) كتبهما إقبال حوالي عام ١٩١٥م . وفي هاتين القصيدتين يهاجم إقبال الله عزَّ وجلَّ هجوماً عنيفاً ، على ما يتصور أنه موقف متباين تجاه الناس . كما يحارب إقبال فكرة القدر الذي لا مفرَّ منه .

يقول في (جناح جبريل) :

كيف يستطيع هذا النجم أن يدلّني على مصيري ،
والنجم نفسه مهينٌ منبوذٌ في رحاب الفضاء ؟

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

لماذا تخضع إلى قدر العناية الإلهية ؟
لماذا لا تصوغ أنت بنفسك قدرك ؟

وقال :

هذا الذي يقول الحمقى : إنه أسير القدر ،
ما يزال يملك القدرة على تحطيم القدر .

والصحيح ما قاله في **(رسالة المشرق) :**

أن تعيش لحظةً واحدة وأنت أسد
خير لك أن تعيش نعجةً إلى الأبد .

وفي إطار هذه النزعة رسم إقبال صورة إبليس ، ويذكرنا هذا الشيطان في بعض ملامحه بـ (بروموثيوس) سارق النار :

لقد تزوَّد إبليس بتلك الشجاعة النموذجية التي تثير العواصف في الجداول ، والأنهار ، والبحار ؛ بينما يظلُّ رسل الإله ، مثل الخضر ، وإلياس لا يعملون شيئاً كما ورد في (جناح جبريل) .

إنَّ شجاعة إبليس هي التي منحت قدرة الطين (أي : الإنسان) النزعة إلى النماء والارتقاء . كما ورد في هذا الديوان .

وإبليس يقيس نفسه بالإنسان : أيمكن أن يصبحا ندَّين يتنازعان ؟ أيمكن أن يكونا حليفين يتعاونان . واأسفاه! ما أسهل هزيمة الإنسان ! وعندما يخيب أمل إبليس يحتجُّ هذا الاحتجاج أمام الله :

قال إقبال في رسالة الخلود (جاويد نامه) :

ما ابن آدم ؟ حفنة من الهشيم !
تكفي شرارةٌ واحدةٌ منِّي للقضاء على هذه الحفنة من الهشيم .
إن لم يكن في هذا العالم غير الهشيم ؛
فلماذا وهبت لي كلَّ هذا المقدار من النار ؟
كسر المرمر شرف لي ،
أما كسر الزجاج فعارٌ عليَّ .

فلسفة إقبال :

فلسفة إقبال في الذات ونفي الذات فلسفةٌ فرديةٌ ، وفلسفةٌ اجتماعية في آنٍ واحد، ولها تطبيقاتها في النواحي الثقافية (كالناحية اللغوية مثلاً) والاقتصادية، بل والسياسية .

انتشر في زماننا مفهوم التقارب والتضامن ، وتقدَّمت الفكرة القائلة بأن في إمكان مجموعات كبرى من الناس أن تتوحد ، وأن تصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المتجمعة ، وازدادت الدَّعوة إلى صيانة قيمها الذَّاتية .

ونحن نجد في الميدان الثقافي مثلاً أن رسل « الزنجية » يرون فيها إضافةً إلى إنسانية ذات أبعادٍ كونية . ونجد في الميدان السياسي أنَّ أوربة تسعى إلى الوحدة دون أن تتخلى عن هوية أقطارها . ثم أليست عصبة الأمم ، والأمم المتحدة بمؤسستيها GUS, ONU محاولة للتقارب والتعاون بين الشعوب لتحقيق وحدة الجنس البشري ، هذه الوحدة التي يتطلع إليها إقبال .

وعزيمة الشاعر وأهدافه ذات أبعادٍ عالمية .

قال في (رسالة الخلود) :

الإنسانية هي احترام الإنسان ،

إذاً فيجب الاعتراف بدرجته الرفيعة .

ثم إنَّ تفسير إقبال للإسلام نجد فيه غالباً رنةً عالميةً ، تؤثر في قرائه من غير المسلمين .

ونحن إذا تناولنا مذهب إقبال حسب مفاهيمه الفلسفية الشخصية ، بدا لنا أنه عمد إلى قلب كثير من معاني الألفاظ المدرسية القديمة ، واتَّخذ منها رموزاً جديدة .

ولنضرب مثالاً على ذلك كلمة (خودي) التي كانت مرادفة للانطواء على الذات ، والتي أعطاها معنى (احترام الذات) وكلمة (الفقر) التي تعني عادة التقتير والحرمان ، فاستعملها للدلالة على (السيطرة الأخلاقية) .

إذاً فعلينا أن نفهم هذه الرموز في معناه العريض :

المؤمن ، والمسلم يعنيان : الإنسان المثالي .

الكعبة ، والحرم ، والمعبد تعني : الهدف .

السجود يعني : الجهد العنيف .

الصلاة تعني : الرغبة المحرقة .

الأذان يعني : الدعوة إلى العمل والجهد

وهكذا دواليك .

وإذا كان من الممكن أن يبدو إقبال (هرطقياً) في عيون بعض المسلمين ، فإنَّ مداه تجاوز حدود العالم الإسلامي ، فقد قام بدراسته في (لاهور) و (كمبردج) و (هايدلبرغ) و (ميونيخ) . ولم ينقطع قط عن إذكاء طيب شعره بمواد كثيرةٍ متنوعة . جاء بعض هذه المواد من تبحره في التاريخ ، والفلسفة ، والحقوق ، واللاهوت ، وجاء بعضها من ملاحظاته : من حرية

الشعوب واضطهادها ، وألمه وهو يقظان ، وحلمه بالمجد وهو نائم ، من فورة الأفكار الجديدة ومن ألعاب السياسة ، ومن الحروب المدمِّرة ، ومن المساومات و(المناورات) في زمن السلم ، ومن المجابهة بين الشرق والغرب .

لقد أصبح إقبال شاعر الشرق في نهضته ويقظته بهذه الأشعار الحارَّة المغامرة الجريئة ؛ علمنا الإيمان بمستقبلٍ مشرقٍ علينا أن نبدعه بأنفسنا ، واستهوت الشباب أجوبته الواقعية الحية على ألغاز الوجود ، وألهمت عدداً لا يحصى من القراء ، بل إنها ما تزال تفتن الناس حتى الآن ، وسوف تستمر في فتنتها وسحرها إلى أمدٍ بعيد .

ذلك أن إقبالاً ظلَّ طوال حياته روحاً متفتحة ، جعلت آلام الناس جميعاً آلامها الذاتية ، وأحيت في الكائن الإنسانيِّ عنصر الإنسان المبدع الذي يتعاون مع الله ومع الطبيعة .

قال في (جناح جبريل) :

رغم أنَّ الطبيعة لا ينقصها الذوق ،
فاصنع أنت ما لم تستطع الطبيعة صنعه .

وقال في (أجراس سفر القافلة) :

ماذا يلزم الإنسان : طبعٌ رفيعٌ ، وظمأ إلى الصفاء ،
قلبٌ حارٌّ ، عينٌ نقيَّةٌ ، روحٌ قلقة[1] .

* * *

(١) ديوان « جناح جبريل » ترجمة الأستاذ عبد المعين ملّوحي ، ص١٧ ـ ٣٥ .

فلسفة محمّد إقبال

لا بد من كلمة موجزة في فلسفة محمد إقبال تعين القارىء على إدراك مرامي الشاعر .

أساس فلسفة إقبال ما سماه « خودي » (الذات أو الذاتية) .

وقد بين مذهبه هذا في كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودي .

وخلاصة هذه الفلسفة ، وما بنى عليها ، وما يتصل بها من آراء :

(أ) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه ، وسر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد ، وتوليد الآمال .

كما يقول إقبال : « **نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل** » .

(جـ) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ، وسعيها إليه غير متوانية وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة في سبيله كما قال :

« **وهي بالمحبة أقوى ، وأحيا وأضوأ** » .

(د) والجهاد الدائم ، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير . والأحجام ، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها .

(هـ) وعلى الإنسان أن يستخرج كل ما في فطرته من مواهب ، وأن يعتمد على نفسه ، ويظهر ذاته في قوله وفعله ، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره ، وطلب ما عند الناس والغفلة عما في نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات ، وقوة الذات هي مقصد هذه الحياة . والشاعر

معجب بالقوة في كل شيء ، القوة الحسية ، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب بالفيلسوف الألماني نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب ، والجسم لا الروح ، والعلم لا العشق ويقول عنه لم يكن أهلاً لنكتة التوحيد ، وأنه آمن عقله وكفر قلبه ، وأنه بنى على أسس مسجد .

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال ، فإن الجمال لا يكون بغير جلال .

يقول في القطعة التي عنوانها : الجلال والجمال :

عندي جمال في بهاء أن تُرَى فـي سجـدة للقـوة الأفـلاكُ
ولنغمـةٌ مـن دون نـار نفخـة ما الحسن إلا بالجلال يُحاكُ

بل يقول في هذه القطعة إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن وهـــاجـــة ولهيبهـــا درّاكُ

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها وضعفها :

عـالـم الـذات بـه علـو وسفـل وبـــه معـــرك قُبـــح وجمـــالِ
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل وقبيحٌ مـا بـدا فـي الاستفـال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة ، ولا تفنى فيها . وقد بين إقبال في ديوانه أسرار خودي كيف يلتئم الواحد القوي في جماعته وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى . ومن إشاراته في هذا :

يا من في القافلة سِرْ رفيقـاً وكـــن وحيـــدا

ويقول في ضرب كليم في القطعة التي عنوانها الرجل العظيم :

هـو فـي المجمـع خـال ومـــن الحشـــد طليـــق
مثـل شمـــع الحفـــل ، فـــي الحفـــل وحيـــد ورفيـــق

الحضارة الحديثة

ويروي إقبال أن الحضارة الأوربية مادية ، لا روح لها ولا قلب ، ويشتدّ في نقدها ، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلاً ويردّ كثيراً ، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم ، وجمعهم على شرعة الحق أخوةً متحابّين متعاونين .

فلسفته في هذا الديوان

تتجلى فلسفة إقبال في الذات وما يتصل بها ونظره إلى الحضارتين الإسلامية والأوربية ، وسائر آرائه ، في كل فصول هذا الديوان ، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة ... أبديَّة لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة ... أو كان فيه صُور إسرافيلا
صمت طير الصبح أولى من غناء ... إن سرى في الرَّوض باللحن ذبولا

والغناء إن أدى إلى ضعف أو خَوَر فهو حرام :

إن سرت في اللحون دعوة موت ... حرُم الناي عندنا والربابُ

(ط) والإنسان أعظم الكائنات ، وكل شيء في العالم مسخّر له كما في القرآن الكريم :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤] .

(ي) والإنسان حرّ غير مجبر ، ومخيّر غير مسيّر . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد ، والبقاء والفناء في هذه الدنيا بل في الدنيا والآخرة .

فيه عزم على القضاء مُشير ... وهو في العالمين كالميزان

النبات والجماد في قهر الطبيعة ، ولكن المؤمن الحر لا يقيده إلا إطاعته أحكام ربه :

إن النبات وإن الجامدات لها ... من القضاء قيود ذات إحكام
والمؤمن الحر لا شيءَ يقيّده ... لكنْ لخالقه في قيد أحكام

والمصور ينبغي أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :

مقصد الفنّ في الحياة لهيب ... أبدى فما وَميضُ الشرار ؟
يا خبيراً بفنه فيه تمت ... صنعةُ العصر والعصور الخوالي
كم ترى من طبيعة وتريها ؛ ... أرِنا الذات فوق هذي المجالي

* * *

تفسير اصطلاحات في الديوان

« الفقر »

يشيد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعدّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتحم كل عقبة .

ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان :

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تَدري اليوم ما قيمة الفولاذ والعَضْبِ الذكَر
هو مِصراعٌ من البيت الذي مضمرٌ فيه من التوحيد سر
وأرى مصراعَه الثانيَ في سيف فقر تحتويه كفُّ حر

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاح في حومة الحرب كالرجوم

وقوله في قطعة « السلطان » :

تعلّم فألف مقام وشأن لفقر بدا فيه روح القُرآن

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرّ عليك من فقر مِسَناً فيطبع منك سيفاً للمنايا

وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملك مقام فقر ، ولكن تؤثر الذل مذعناً ما احتيالي

وقوله في القطعة التي أولها : متاعك في الحياة فنون علم .

وما إن ذل قوم قد أعدّوا حماس العشق والفقرِ الغيور

ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو

قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتز به من متاع الدنيا . فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره ؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلَّطاً لا يُعجز سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسَّر به بعض الصوفية الفقر .

ففي رسالة القشيري :

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب عوارف المعارف للسهروردي :

« وقال الكتاني : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

قلندر

يعني به إقبال الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار .

وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها يديمون السفر لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن ويحلقون رؤوسهم ولحاهم .

وسمى سالك هذه الطريقة قلندراً باسم صاحب الطريقة .

وقد رأيت أن أبقي اللفظ في الترجمة لأنه علم في الأصل ، وجعلته أحياناً وصفاً وأحياناً نسبت إليه فقلت : القلندر والقلندريّ .

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون في الديوان ، ففي القطعة التي أولها :

إلى عصبات العرب ما أنا مُنْتَمٍ ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي

يقول :

فلست أرى في بيدك اليوم جنّة تشبّ بهذا العقل نار التقدم

وفي القطعة التي أولها :

متاعك في الحياة فنون علم :

يقول :

ومزّقتُ الجيوبَ وأنت خال جنوني ـ لا ألومك ـ في قُصور

وفي القطعة ، « يا شيخ الحرم » :

في جنوني لك أسرار بدت فاجْزني يا شيخُ عن هذا اللمم

وفي القطعة التي عنوانها « المدرسة » :

أبعَـد الـدرس عـن حمـاك جنـونـا قـال للعقـل : لا تَلُـذْ بنقـاش

وفي القطعة « فلسفة » :

إن فـي حلقـة المجـانيـن عقـلاً فـي شـرار يـرى لهيبـاً مُضيّـا

وظاهر أن إقبالًا يعني بهذا الجنون الحماسَ والإقدامَ وأداء الواجب دون تردد ، وفي غير حساب للمشقة والربح والخسارة ، فهو قريب من العشق الذي يذكر في مقابلة العقل .

وكأنه يقول : إن هذا الإقدام يَعُدُّه الناس جنوناً ، ونحن نحب هذا الجنون[1] .

* * *

(١) من أراد أن يستزيد من الاطلاع على سيرة وحياة الشاعر العظيم محمد إقبال ، فليقرأ « محمد إقبال سيرته وفلسفته » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، و « إقبال الشاعر الثائر » للأستاذ نجيب الكيلاني ، و « محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف » للمؤلف .

الديوان الأول

صلصلة الجرس
بانكادرا

نقله إلى العربية نثرا

ثم صاغه بالعربية شعرا

الشيخ صاوي شعلان المصري

يُعتبر هذا الديوان من أول دواوين محمد إقبال الشعرية باللغة الأردوية ، وهو من أكثر دواوينه رواجاً ، حثَّ فيه الشاعرُ المسلمينَ على التضحية والعمل ، كي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ، يحتوي هذا الديوان على أَروع الأناشيد الإسلاميَّة ، وأعظم قصَائد الرثاء .

ومن أشهر الأناشيد الإسلامية فيه « النشيد الإسلامي » والقصائد « الشكوى وجواب الشكوى » وقد وَصَفَ الشاعرُ في « الشكوى » مصائبَ المسلمين ، وفي « جواب الشكوى » آمالهم ، لا يوجد لهذه القصيدة نظير في القصائد الإسلاميَّة في القوَّة والانسجام ، نُقدِّم هنا نشيداً وقصيدةً مترجمةً بالعربية شعراً ، هما من أشهر أناشيد وقصائد هذا الديوان .

النَّشيدُ الإسلامِيُّ

الصِّيـــنُ لنَـــا والعُـــرْبُ لَنَـــا ... والهِنْـــدُ لنَـــا والكُـــلُّ لَنَـــا
أضْحَـــى الإســـلامُ لنَـــا دِيْنـــاً ... وجَمِيْـــعُ الكَـــوْنِ لَنَـــا وَطَنَـــا
تَـــوحيـــدُ الله لنـــا نـــورٌ ... أغْـــددنـــا الـــرُّوحَ لـــه سكَنـــا
الكـــوْنُ يَـــزولُ ولا تُمْحـــى ... فـي الـدَّهْـرِ صَحـائـفُ سُـؤْددِنَـا
بُنيـتْ فـي الأرضِ مَعـابِـدُهـا ... والبَيـــتُ الأوَّلُ كَعبَتُنَـــا
هُـــو أوَّل بيـــتٍ نحفَظُـــهُ ... بحيـــاةِ الـــرُّوحِ ويحفَظُنَـــا
فـــي ظِـــلِّ السَّيـــف تـــربَّينـــا ... وبَنَيْنـــا العِـــزَّ لِـــدَولَتِنَـــا
عَلَـــمُ الإســـلامِ علـــى الأيَّـــا ... مِ شعـــارُ المجـــدِ لمِلَّتِنَـــا
بهـــلالِ النَّصـــر يُضـــيءُ لنـــا ... ويُمَثِّـــل خِنجَـــر سَطْـــوَتِنَـــا
وأذانُ المُسلِـــمِ كـــانَ لـــه ... فـي الغَـرْب صـدىً مـن هِمَّتِنَـا
قـــولـــوا لِسَمـــاء الكـــوْنِ لقـــدْ ... طـــاوَلْنـــا النَّجْـــمَ بِـــرِفعَتِنَـــا
يـــا دَهْـــرُ لقـــد جَـــرَّبـــتَ علـــى ... نيـــرانِ الشِّـــدَّة عَـــزْمَتَنَـــا
طُـوفـانُ البـاطِـل لـم يُغـرِقْ ... فـي الخَـوفِ سفينـةَ قـوَّتِنَـا
يـــا ظـــلَّ حـــدائِـــقِ أنْـــدلـــسٍ ... أنسيـــتَ مغـــانـــيَ عِشـــرَتِنَـــا
وعلـــى أغصـــانِـــكَ أوكـــارٌ ... عمَـــرَتْ بِطـــلائِـــعِ نَشـــأتِنَـــا
يـــا دجلـــةُ هَـــلْ سجَّلـــت عَلـــى ... شطَّيـــكَ مـــآثِـــرَ عـــزَّتِنَـــا
أمـــواجُـــكِ تَـــروي للـــدُّنيـــا ... وتُعيـــدُ جـــواهِـــرَ سيـــرَتِنَـــا
يـــا أرْضَ النـــورِ مـــن الحَـــرَمَيْـ ... ـــن ويـــا ميـــلادَ شـــريعَتِنَـــا
رَوْضُ الإســـلام ودَوحتُـــهُ ... فـــي أرْضِـــكِ رَوَّاهـــا دمُنَـــا
ومُحمَّـــد كـــان أميـــرَ الـــرَّكْـ ... ـــبِ يقـــودُ الفـــوْزَ لنُصـــرَتِنَـــا

إنَّ اســـمَ محمَّـــدِ الهـــادي رُوحُ الآمـــــالِ لِنَهْضَتِنَـــــا
دَوَّتْ أنشـــــودةُ « إقبـــالِ » جَـرَسـاً يَحـدو فيـه الـزَّمنَـا
لِيُعيـــدَ قـــوافِلَنـــا الأولَـــى فـــي المَجـــدِ ويبعَـــثَ أُمَّتَنَـــا

* * *

الشكوى وجواب الشكوى

(حديث الروح)[1]

شكْوايَ أمْ نجْوايَ في هذا الدُّجىٰ ... ونجـومُ ليلـي حُسَّـدي أو عُـوَّدي
أمسيتُ في الماضي أَعِيْشُ كأنما ... قطعَ الزَّمانُ طريق أَمْسِي عن غَدِي
والطيـرُ صـادحـةٌ علـى أَفْنَـانِهَـا ... تبكـي الـرُّبـى بـأنينهـا المتجـدِّدِ
قـد طـالَ تَسْهِيْـدِي وطـالَ نشيـدُهـا ... ومَدَامِعِي كالطلِّ في الغُصْنِ النَّدِي
فـإلـى متـىٰ صَمْتِـي كـأنِّـي زهـرةٌ ... خَـرْسَـاءُ لـمْ تُـرْزَقْ بَـراعَـةُ مُنْشِـدِ

* * *

قَيْثَـارَتـي مُلِئَـتْ بـأنَّـات الجَـوى ... لا بُـدَّ للمَكْبُـوْتِ مِـنْ فَيَضَـانِ
صَعـدَتْ إلـى شَفَتـي بـلابـلُ مُهْجَتِي ... لِيَبِيْـنَ عنهـا مَنطقـي ولِسَـانـي
أنـا مـا تَعَـدَّيْـتُ القنـاعـةَ والـرِّضـا ... لكنَّمـا هـي قصـةُ الأَشْجَـانِ
أَشْكُـوْ وفـي فَمـي التُّـرَابُ وإنَّمـا ... أَشْكُـوْ مُصـابَ الـدِّيـن للـدَّيَّـانِ
يَشْكُـوْ لـكَ اللهـمَّ قلـبٌ لـمْ يَعِـشْ ... إلَّا لحمـدِ عُـلاكَ فـي الأَكْـوَانِ

* * *

قـد كـانَ هـذا الكـونُ قبـل وُجـودِنـا ... رَوْضـاً وأزهـاراً بغيـر شَمِيْـمِ
والـوردُ فـي الأَكْمَـامِ مجهـولُ الشَّـذَا ... لا يُـرْتَجـىٰ وردٌ بغيـر نَسِيـمِ
بَـلْ كَـانَـتِ الأيَّـامُ قبـل وجـودِنـا ... لَيْـلاً لظـالِمِهـا وللمَظْلُـومِ
لمَّـا أطـلَّ مُحَمَّـدٌ زَكَـتِ الـرُّبـىٰ ... واخضَـرَّ فـي البُسْتَـانِ كـلُّ هَشِيْـمِ
وأَذَاعَـتِ الفِـرْدَوسُ مَكْنُـونَ الشَّـذا ... فـإذا الـوَرىٰ فـي نُضْـرةٍ ونَعِيـمِ

* * *

---

(١) اشتهرت هذه القصيدة في البلاد العربية بهذا العنوان ، والصحيحُ ما عَنْوَنها الشاعر بـ « الشكوى وجواب الشكوى » .

مَنْ كان يَهتِفُ باسم ذاتِكَ قَبْلَنَا ... مَنْ كان يَدْعو الواحدَ القهَّارا
عَبَدُوا تَمَاثِيلَ الصُّخورِ وقدَّسُوا ... مِنْ دُونِكَ الأَحْجارَ والأشجارا
عَبَدُوا الكَوَاكبَ والنُّجومَ جَهَالَةً ... لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هَدْيِهَا أَنْوَارا
هَلْ أَعْلَنَ التَّوْحِيْدَ داعٍ قَبْلَنَا ... وهَدَىٰ الشُّعُوبَ إليكَ والأَنظارا
كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ صُدُورَنا ... لَم نَخْشَ يَوْماً غَاشِماً جبَّارا

* * *

قَدْ كَانَ في اليُوْنَانِ فَلْسفَةٌ وفي الـ ... ـرُّومَانِ مَدْرَسَةٌ وكانَ المُلْكُ في سَاسَانِ[1]
لَمْ تُغْنِ عَنْهُم قُوَّةٌ أو ثَرْوَةٌ ... في المالِ أو في العِلْمِ والعِرْفانِ
وبِكُلِّ أرضٍ سامِرِيٌّ مَاكِرٌ ... يَكْفِي اليهودَ مَؤُوْنَةَ الشَّيطانِ
والحِكْمَةُ الأُولىٰ جَرَتْ وثنيَّةً ... في الصِّين أو في الهِنْدِ أو طُوْرانِ
نَحْنُ الَّذِيْنَ بِنُورِ وَحْيِكَ أَوْضَحُوا ... نَهْجَ الهُدىٰ ومَعَالِمَ الإِيمَانِ

* * *

منْ ذا الذي رفعَ السُّيوفَ ليرفعَ اسْـ ... ـمَكَ فَوقَ هاماتِ النُّجومِ مَنارَا
كنَّا جبالًا في الجِبَالِ ورُبَّما ... سِرْنا على مَوْجِ البِحارِ بِحارَا
بِمَعابِدِ الإفْرَنْجِ كانَ أَذَانُنَا ... قبلَ الكَتائِبِ يفتحُ الأَمْصَارَا
لَمْ تَنْسَ إفريْقِيَّة ولا صَحْراؤُها ... سَجَدَاتِنا والأرضُ تَقْذِفُ نارَا
وكأنَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حديقةٍ ... خَضْراءَ تُنْبِتُ حوْلنا الأزْهَارا

* * *

لَمْ نخشَ طاغوتاً يحارِبُنا ولو ... نَصَبَ المنايا حَوْلنا أسْوارَا

---

(١) في الأصل هكذا ، وفيه اضطراب ، ويمكن أن يستقيم الوزن على حساب المعنى فيكون :
قَدْ كَانَ في (اليونانِ) و(الرُّومان) مَدْ ... رَسَةٌ ، وكانَ المُلْكُ في ساسَانِ

نَـدْعُـو جِهـاراً لا إلـه سِـوىٰ الَّـذي صنـعَ الـوجـودَ وقـدَّر الأقـدارَا
ورؤوسُنـا يـا ربِّ فـوقَ أكفِّنـا نَـرْجُـو ثـوابَـك مَغْنَمـاً وجِـوارَا
كُنَّـا نـرىٰ الأصنـامَ مـنْ ذهـبٍ فَنَهْـدِمُهَـا ونَهْـدِمُ فَـوْقَهـا الكفَّـارَا
لـو كـانَ غيـر المُسْلميـنَ لحَـازَهَـا كنْـزاً وصـاغَ الحِلْـيَ والـدِّيْنَـارَا

* * *

كم زُلْزِلَ الصَّخْرُ الأشمُّ فما وهَىٰ مـنْ بـأسِنـا عَـزمٌ ولا إيْمَـانُ
لـو أنَّ آسـادَ العَـريْـنِ تفـزَّعـتْ لـمْ يَلْـقَ غيـر ثَبـاتِنـا الميـدانُ
وكـأنَّ نيـران المـدافـع فـي صُـدُوْ رِ المـؤمنيـنَ الـرَّوحُ والـرَّيحـانُ
تـوحيـدُك الأعلـى جَعَلْنَـا نَقْشَـه نُـوراً يُضـيءُ بصُبْحِـهِ الأزمـانُ
فغـدت صـدورُ المؤمنيـنَ مَصَـاحِفـاً فـي الكـونِ مسطـوراً بِهـا القـرآنُ

* * *

مـنْ غيـرنـا هَـدمَ التمـاثيـلَ الَّتـي كـانـتْ تُقدِّسُهـا جَهَـالاتُ الـوَرىٰ ؟
حتَّـى هَـوَتْ صُـوَرُ المعـابـدِ سُجَّـداً لجـلالِ مَـنْ خَلـقَ الـوجـودَ وصـوَّرَا
ومَـنِ الأُلـىٰ حَمَلُـوا بعـزم أكُفِّهـمْ بـابَ المـدينـةِ يـومَ غـزوَةِ خَيْبَـرَا[1]
أمَّـنْ رَمـىٰ نـارَ المَجُـوسِ فـأطفِئـتْ وأبـانَ وجْـهَ الحـقِّ أبْلَـجَ نيِّـرا[2]؟
ومـنِ الـذي بـذلَ الحيـاةَ رخيصـةً ورأى رِضَـاكَ أعـزَّ شـيءٍ فـاشْتَـرَى

* * *

نحـنُ الَّـذيـن استيقظـتْ بـأذانهـم دُنيـا الخليقـةِ مِـنْ تهـاويـل الكَـرىٰ
نحـنُ الَّـذيـن إذا دُعـوا لصـلاتهـم والحربُ تسقي الأرض جاماً أَحْمَرا

---

(١) هو سيِّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي حمل باب حصن خيبر وجعله تُرساً له في المعركة ، وذلك في غزوة خيبر التي كانت في أول السنة السابعة من الهجرة .

(٢) هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي .

جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا ... في مسمع الرُّوح الأَمينِ فكبَّرا
محمودُ مثلُ إياز[1] قام كلاهما ... لكَ بالخُشُوعِ مصلِّياً مُسْتَغْفِرا
والعبدُ والمَوْلىٰ على قَدَم التُّقى ... سجدا لوجهِكَ خاشعينَ على الثَّرىٰ

* * *

بَلَغتْ نهايةَ كلِّ أرضٍ خَيْلُنا ... وكأنَّ أبْحُرَها رمالُ البَيْدِ
في محفلِ الأكوانِ كان هلالُنا ... بالنَّصر أوضحَ منْ هلال العِيْدِ
في كلِّ موقعةٍ رفعنا رايةً ... للمجدِ تُعلنُ آية التَّوحيدِ
أُمَمُ البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في إسارِ عبيدِ
بلغت بنا الأجيالُ حرِّيَّاتها ... من بعد أصفادٍ وذلِّ قيودِ

* * *

رُحْماكَ ربِّ هل بغير جِبَاهِنا ... عُرِف السُّجودُ ببيتكَ المَعْمُورِ
كانت شِغافُ قُلوبِنا لكَ مُصْحفاً ... يحوي جلالَ كتابِكَ المَسْطورِ
إنْ لمْ يكنْ هذا وفاءً صادقاً ... فالخلقُ في الدُّنيا بغير شُعورِ
ملأ الشعوبَ جُنَاتُها وعُصاتُها ... مِنْ مُلْحِدٍ عاتٍ ومِنْ مَغْرورِ
فإذا السَّحَابُ جرى سَقاهُم غَيْثَه ... واختصَّنا بصواعِقَ التَّدْمِيْرِ

* * *

قد هبَّتِ الأصنامُ منْ بعد البلىٰ ... واستيقظت من قبل نفخِ الصُّورِ
والكعبةُ العليا توارى أهلُها ... فكأنَّهم مَوْتىٰ لغير نُشورِ
وقوافلُ الصَّحراءِ ضلَّ حُدَاتُها ... وغدتْ منازِلُها ظِلالَ قُبُورِ
أنا ما حسَدْتُ الكافِرِيْنَ وقدْ غَدَوْا ... في أنعُمٍ ومواكِبٍ وقُصورِ

---

(١) إياز : هو مولىٰ السلطان محمود السبكتكين .

بـــلْ مِحنتـــي أَلَّا أرى فـــي أُمَّتـــي عمـــلاً تقـــدَّمـــه صَـــداقَ الحُـــوْرِ[1]

* * *

لـــكَ البـــريَّـــةُ حكمـــةً ومشيئـــةً أَعْيَـــتْ مَـــذَاهِبُهـــا أُولـــى الألْبـــابِ
إنْ شئْـتَ أجـريـتَ الصَّحـارى أنهُـراً أو شئْـتَ فـالأنهـارُ مـوْجُ سـرابِ
فـإذا دُهـي الإسـلامُ فـي أبنـائـه حتَّـى انطـوَوْا فـي محنـةٍ وعـذابِ
فثـراؤُهُـم فقـرٌ ودولـةُ مجـدهـم فـي الأرض نهْـبُ ثعـالـبٍ وذئـابِ
عـاقَبْتَنـا عـدلاً فهـبْ لعـدوِّنـا عـن ذنبـه فـي الـدَّهـر يـوم عقـابِ

* * *

عـاشُـوا بثَـرْوتِنـا وعشْنـا دُونَهـم للمـوت بيـن الـذُّلِّ والإمـلاقِ
الـدِّيـن يَحْيـا فـي سعـادةِ أهلـه والكـأسُ لا تبقـى بغيـر السَّـاقـي
أيـن الـذيـن بنـار حبِّـك أرْسَلُـوا الـ أنـوارَ بيـن محـافـل العشَّـاقِ
سكَبُـوا اللَّيـاليَ فـي أنيـنِ دُمـوعهـم وتـوضَّـؤُوا بمـدامـعِ الأشـواق
والشمسُ كانت من ضياءِ وُجُوههمْ تُهْـدِي الصَّبـاحَ طـلائـعَ الإشـراقِ

* * *

كيـفَ انطـوتْ أيـامُهـم وهـمُ الأُلـىٰ نشرُوا الهُدىٰ وعَلَوْا مكانَ الفَرْقَدِ[2]
هجروا الدِّيارَ فأين أزمعَ[3] ركبُهُمْ مـنْ يهتـدي للقـوم أو مـنْ يَقْتـدي
يا قلبُ حسبُك لمْ تُلِمَّ[4] بطيفِهِمْ إلَّا علـى مصبـاحِ وَجْـهِ مُحَمَّـدِ
فـازُوا مـن الـدُّنيـا بمجـدٍ خـالـدٍ ولهـم خلـودُ الفـوزِ يـوم الموعِـدِ

---

(١) الصداق : المهر .
(٢) الفَرْقَد : وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ، ولذا يُهتدى به ، وهو المسمَّى « النجم القطبي » .
(٣) أَزْمَعَ : قَصَدَ وتوجَّه .
(٤) لمْ تُلِمَّ : لم تنزل بهم .

يـا ربِّ ألْهِمْنـا الـرَّشـادَ فمـا لنـا في الكَوْن غيركَ منْ وليٍّ مُرْشِدِ

* * *

مـا زالَ قَيْـسٌ والغـرامُ كعهـدِهِ وربـوعُ ليلـىٰ فـي ربيـعِ جمـالِهـا
وهِضـابُ نجـدٍ مـن مَـراعيهـا المَهـا وظبـاؤُهـا الخفـراتِ ملءُ جبـالِهـا
والعشـقُ فيَّـاضٌ وأُمَّـةُ أحمـدٍ يتَحَفَّـزُ التـاريـخُ لاستقبـالِهـا
لـو حـاولـتْ فـوق السَّمـاء مكـانـةً رفَّتْ على شمسِ الضُّحىٰ بهلالِها
مـا بـالُهـا تَلْقَـى الجـدودَ عـواثـراً[1] وتصُـدُّهَـا الأيَّـامُ عـن آمـالِهـا

* * *

هَجْرُ الحبيبِ رمَىٰ الأحبةَ بالنَّوى وأصـابهُـمْ بِتَصَـرُّم الآمَـالِ
لـو قـد مللنـا العِشْـق كـانَ سبيلنـا أو نستكيـن إلـى هـوى وضـلال
أو نصنـعَ الأصنـام ثـمَّ نبيعهـا حـاشـا المـوحِّـد أن يـذلَّ لمـال
أيـامُ سلمـانَ بنـا مـوصـولـةٌ وتُقـى أُويـس فـي أذانِ بـلال

* * *

يـا طِيْـبَ عَهْـدٍ كنـتَ فيـه مَنـارَنـا فبعثْـتَ نـور الحـقِّ مِـنْ فَـارانِ
وأسـرْتَ فيـه العـاشقيـن بلَمْحَـةٍ وسقيتهـم راحـاً بغيـر دِنَـانِ
أحـرقْـتَ فيـه قلـوبَهـم بتـوقُّـدِ الإيمـان لا بتَلَهُّـب النِّيـرانِ
لـم نبـقَ نحـنُ ولا القُلُـوبُ كـأنَّهـا لـم تَحْـظَ مِـنْ نـارِ الهـوىٰ بـدُخَـانِ
إنْ لـمْ يُنَـرْ وجـهُ الحبيـب بـوصلِـهِ فمكـانُ حُـزْنِ القلـبِ كـلُّ مكـانِ

* * *

يـا فـرحـة الأيـام حيـن نـرى بهـا روض التَّجلِّـي وارفَ الأغصـان

---

(١) الجُدود العَواثِر : الحظوظ الخائبة .

ويعـود محفلُنـا بحسنـك مسفـراً كـالصُّبـح فـي إشـراقـه الفينـان
قـد هـاجَ حـزنـي أنْ أرى أعـداءنـا بيـن الطِّـلا[1] والظِّـلِّ والألحـان
ونعـالـجُ الأنفـاس نحـن ونصطلـي فـي الفقـرِ حيـنَ القـومُ فـي بستـان
أشْـرِقْ بنـورِك وابعـثِ البـرق القـديـمَ بـومضـةٍ لِفَـرَاشـكَ الظَّمْـآنِ

* * *

أشـواقُنـا نحـوَ الحجـازِ تطلَّعـت كحنيـنِ مُغْتـربٍ إلـى الأوطـان
إنَّ الطيـورَ وإنْ قَصَصْـتَ جنـاحهـا تسمـو بفطـرتهـا إلـى الطَّيـران
قيثـارتـي مكبـوتـةٌ ونشيـدُهـا قـد ملَّ مـن صمـتٍ ومـنْ كتمـان
واللَّحـنُ فـي الأوتـار يـرجُـو عـازفـاً ليبـوحَ مـن أسـراره بمعـانِ
والطُّور[2] يرتقبُ التجلِّي صارخاً بهـوىٰ المَشُـوْقِ ولَهْفَـةِ الحَيْـرانِ

* * *

أكبـادُنـا احتـرقـتْ بـأنَّـات الجَـوى ودمـاؤُنـا نهـرُ الـدُّمـوع القـانـي
والعطرُ فاض من الخمائل والرُّبا وكـأنَّـه شكـوى بغيـر لسـان
أو ليـس مـنْ هَـوْلِ القيـامـة أن يكـو ن الـزَّهـرُ نَمَّـامـاً[3] علـى البُستـانِ
النَّمـلُ لا يخشـى سليمـانـاً إذا حَـرَسَـتْ قُـراه عنـايـةُ الـرَّحمـن
أرشـدْ بـراهِمَـةَ الهُنـودِ ليـرفعـوا الـ إسـلامَ فـوقَ هيـاكـلِ الأوْثـانِ

* * *

مـا بـالُ أغصـان الصَّنـوبـر قـد نـأت عنهـا قَمَـارِيْهَـا[4] بكـلِّ مكـانِ
وتعـرَّتِ الأشجـارُ مـنْ حُلـل الرُّبـا وطيـورهـا فـرَّت إلـى الـوديـانِ

---

(١) الطِّلا : الخمر .
(٢) الطُّوْر : هو الجبل الذي تجلَّى اللهُ عليه لموسى عليه الصلاة والسلام وكلَّمه .
(٣) نمَّاماً : هو مَن يُزيِّن للناس الكلام بالكذب .
(٤) القماريُّ : هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت .

يـــا ربِّ إلَّا بُلْبُـــلاً لـــمْ ينتظـــرْ ... وحـيَ الـرَّبيـع ولا صَبَـا[1] نَيْسـانِ
ألحـانـــهُ بحـرٌ جـرى مُتـلاطمـاً ... فكـأنَّـه الحـاكـي عـن الطُّـوفـانِ
يـا ليـتَ قـومـي يسمعـونَ شِكـايـةً ... هي نـي ضميري صرخةُ الوِجْدانِ

* * *

إنَّ الجـــواهـــر حيَّـــرتْ مـــرآةَ هـ ... ـذا القلبِ فهو على شفا البُركانِ
أَسْمِعْهُمُـــو يـــا ربِّ مـــا ألهَمْتَنـــي ... وأعِـــدْ إليهـــمْ يقظـــة الإيمـــانِ
وأذقهـــمُ الخمـــرَ القـــديمـــةَ إنَّهـــا ... عيـــنُ اليقيـــنِ وكـــوثـــرُ الـــرِّضـــوانِ
أنـا أعجمـيُّ الـدَّنِّ لَكِـنْ خَمْـرَتـي ... صُنْـعُ الحِجَـازِ وكـرْمِهـا الفَيْنَـانِ[2]
إنْ كـان لـي نغـمُ الهنـود ولحنُهـم ... لكـنَّ هـذا الصـوتَ مِـن عـدنـانِ

* * *

(١) صَبَا : ريح طيِّبة تهب من جهة الشرق .
(٢) الفَيْنَان : أي ذو الأفنان طويل الأغصان .

جواب الشكوى

ثُمَّ نَظم محمد إقبال بعد هذه القصيدة قصيدةً أخرى وضَّح فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم لدينهم ، وعدم إتقانهم أمرَ الدُّنيا ، تبريراً لما جُوزُوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما تغنَّى بهاتين القصيدتين الأطفالُ ، والشبابُ ، وحفظهما الرجال ، والنساء ، وسارتا مسير الرياح وطارتا بغير جناح .

كلامُ الرُّوح للأرواح يَسْري[1] وتُدْركُه القلوبُ بلا عناءِ[2]
هتفتْ به فطارَ بلا جناحٍ وشقَّ أنينُه صدر الفضاءِ
ومعدنُه تُرابيٌّ ولكنْ جرتْ في لفظِه لغةُ السَّماءِ
لقد فاضت دموعُ العِشْقِ منِّي حديثاً كان عُلْوِيَّ النِّداءِ
فحلِّق في ربا الأفلاك حتَّى أهاج العالم الأعلى بكائي

***

تحاوَرَتِ النُّجومُ وقُلْن صوتٌ بقرب العرش موصول الدُّعاءِ
وجاوبت المجرَّة علَّ طيفاً سرى بين الكواكب في خَفاءِ
وقال البدرُ هذا قلبُ شاكٍ يواصل شدْوهُ عند المساءِ
ولم يعرفْ سوى رِضوان صوتي وما أحراهُ عندي بالوفاءِ
ألمْ أكُ قبلُ في جنَّات عدنٍ فأخرجني إلى حينِ قضائي

***

---

(١) يَسْرِي : يجري .
(٢) عَنَاء : تعب ومشقة .

وقيل هو ابن آدم في غُرُورِ تجاوزَ قَدْرَه دونَ ارْعِواءِ[1]
لقد سَجَدَتْ ملائكةٌ كرامٌ لهذا الخلق من طينٍ وماءِ
يُظَنُّ العِلْمُ في كيفَ وكَمْ وسرُّ العَجْز عنه في انطواءِ
وملءُ كُؤوسِهِ دمعٌ وشكوى وفي أنغامِهِ صوتُ الرَّجاءِ
فيا هذا لقدْ أبلغتَ شيئاً وإن أكثرتَ فيه مِنَ المِراءِ

***

عَطايانا سحائبُ مُرْسَلاتٍ ولكنْ ما وجدنا السَّائلينا
وكلُّ طريقنا نَوْرٌ[2] ونورٌ ولكن ما رأينا السَّالكينا
ولم نجدِ الجواهرَ قابلاتٍ ضياءَ الوحي والنُّور المبينا
وكان تراب آدم غيرَ هذا وإنْ يكُ أصله ماءً وطينا
ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ لأجرينا السَّماء لهم عُيونا

***

وأخضعنا لِمُلْكِهِم الثُّريَّا وشيَّدنا النُّجوم لهم حُصونا
ولكنْ أَلْحَدُوا في خيرِ دينٍ بنى في الشَّمس مُلْكَ الأوَّلينا
تُراثُ محمَّدٍ قد أهملوه فعاشوا في الخلائق مُهْمَلِينا
تولَّى هادمُو الأصنام قُدْماً فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيمَ لكن أرى أمثال آزَرَ[3] في البنينا

***

---

(١) ارعواء : كف وارتداع .
(٢) النَّور : الزهر .
(٣) آزر : اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام حِرْفةً .

وفي أَسْلافِكم كانتْ مزايا ... بكلِّ فمٍ لذِكراها نَشِيْدُ
تضُوعُ[1] شقائقُ الصَّحراءِ عِطْراً ... بريَّاها وتبتسمُ الورودُ
فهلْ بقيتْ محاسنُهم لديكم ... فيجمل في دلالكم الصُّدودُ
لقد هاموا بخالقهم فناءً ... فلم يكتب لغيرِهِمُ الخلودُ
وكوثرُ أحمد منكم قريبٌ ... ولكنْ شوقكم عنه بعيدُ

* * *

وكمْ لاح الصَّباحُ سَنا[2] وبُشْرى ... وأذَّنتِ القَماري والطُّيورُ
وكبَّرت الخمائل في رباها ... مصلِّيةً فجاوبها الغديرُ
ونوم صباحكم أبداً ثقيلٌ ... كأنَّ الصبح لم يدركه نورُ
وأضحى الصَّوم في رمضان قيداً ... فليس لكم به عزمٌ صبورُ
تمدَّن عصرُكم جمع المزايا ... وليس بغائبٍ إلا الضميرُ

* * *

لقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءً ... وكيف ينالُ عهدي الظَّالمينا
إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانٌ ... ولا دُنْيا لمن لم يُحْيِ دِينا
ومَنْ رَضيَ الحياةَ بغير دينٍ ... فقدْ جعلَ الفناء لها قَرينا
وفي التوحيد للْهِمَمِ اتِّحادٌ ... ولنْ تبنوا العُلا مُتفرِّقينا
تساندتِ الكواكبُ فاستقرَّتْ ... ولولا الجاذبِيَّةُ ما بقِينا

* * *

غَدَوْتُمْ في الدِّيار بلا ديارٍ ... وأنتم كالطُّيورِ بلا وكُورِ
وكلُّ صواعق الدُّنيا سهامٌ ... لبيدَرِكم وأنتم في غرورِ

---

(١) تَضُوعُ : تفوح وتنتشر .
(٢) السَّنا : الضياء .

أهــذا الفقــر فــي علــمٍ ومــالٍ ... وأنتــم فــي القطيعــةِ والنُّفــورِ
وبيــعُ مقــابــرِ الأجــدادِ أضحــى ... لــدى الأحفــادِ مــدعــاةُ الظُّهــور
سَيُعْجَبُ تــاجــرو الأصنــامِ قُــدْمــاً ... إذا سمعــــوا بتجَّــــار القبــــورِ

***

مِــن المتقــدِّميــن إلــى المعــالــي ... علــى نهــجِ الهــدايــة والصَّــواب
ومِــن جبهــاتهــم أنــوارُ بيتــي ... وفــي أخــلاقهــم يُتلــى كتــابــي
أمــا كــانــوا جُــدُودكــم الأوالــي ... بنــاةَ المَجْــد والفــنِّ العجــابِ
وليــس لكــم مــن المــاضــي تــراثٌ ... سوى شَكْوَى اللُّغوبِ[1] والاكتئابِ
ومــن يَــكُ يــومــهُ فــي العيــش يــأســاً ... فمــا غَــدُهُ ســوى يــومِ العــذابِ

***

أتشكُــو أنْ تــرى الأقــوامَ فَــازُوا ... بمجــدٍ لا يــراه النَّــائمــونــا
مَشَــوْا بهــدي أوائِلِكــم وجــدُّوا ... وضيَّعتــم تــراث الأوَّلينــا
أيُحْــرِمُ عــامــلٌ وردَ المعــالــي ... ويسعــدُ بــالــرُّقــيِّ الخــامِلُــونــا
أليــسَ مــن العــدالــة أنَّ أرْضِــي ... يكــون حصــادُهــا للــزَّارعينــا
تَجَلَّــي النُّــور فــوق الطُّــور بــاقٍ ... فهــل بقــيَ الكليــمُ[2] بطُورِ سِينــا ؟

***

ألــمْ يُبْعَــثْ لأُمَّتكــم نبــيٌّ ... يــوحِّــدكــم علــى نهــج الــوئــامِ
ومصحفُكــم وقبلتُكــم جميعــاً ... منــارٌ لــلأخــوة والسَّــلام
وفــوق الكــل رحمــنٌ رحيــمٌ ... إلــهٌ واحــدٌ ربُّ الأنــام
فمــا نــارُ ألفتكــم تــولَّــى ... وأمسيتُــم حيــارى فــي الظَّــلامِ

---

(١) اللُّغوب : التعب والإعياء .

(٢) الكليم : لقب سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام .

وحسن اللُّؤلُؤ المكنونِ رهنٌ بصوغ العِقْد في حُسْن النِّظامِ

***

وكيف تغيَّرتْ بكمُ اللَّيالي وكيف تفرَّقت بكمُ الأماني
تركتم دينَ أحمدَ ثم عُدْتُم ضحايا لِلْهوى أو للهوان
رقيُّ الشَّعبِ قد أضحى لديكم تقرِّرُه صلاحيةُ الزمانِ
وكيف تُقاسُ أوهامٌ ولغوٌ بحكمة منزلِ السَّبع المثاني
أرى ناراً قد انقلبت رماداً سوى ظل مريضٍ من دخانِ

***

أَرى الفقراءَ عبَّاداً تقاةً قياماً في المساجد راكعينا
هم الأبرارُ في صومٍ وفطرٍ وبالأسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونا
وليس لكم سوى الفقراء سترٌ يواري عن عيوبكم العُيُونا
أضلَّت أغنياءكم الملاهي فهم في ريبهم يتردَّدونا
وأهلُ الفقر ما زالوا كنوزاً لدينِ الله ربِّ العالمينا

***

أرى التفكيرَ أدركهُ خمولٌ ولم تبقَ العزائمُ في اشتعال
وأصبحَ وَعْظُكم من غير سِحْرٍ ولا نورٌ يُطِلُّ من المقال
وعند النَّاس فلسفةٌ وفكرٌ ولكن أين تلقين (الغزالي[1])
وجلجلَةُ الأذان بكلِّ أرضٍ ولكن أين صوتٌ من بلالِ
منائرُكم علتْ في كلِّ حيٍّ ومسجدُكم من العبَّاد خالي

***

---

(١) الغزالي : هو أبو حامد محمد الغزالي ، أحد أعلام المسلمين وكبار الفلاسفة ، لقب « بحجة الإسلام » صاحب مصنفات سائرة ، توفي عام ٥٠٥هـ بمدينة « طوس » .

فـأيـنَ أئمـةٌ وجنـودُ صـدقٍ تهـابُ شَبَـاةَ[1] عـزمهـمُ الحـرابُ
إذا صنعـوا فصنعهـمُ المعـالـي وإنْ قـالـوا فقـولُهـم الصَّـوابُ
مـرادُهـم الإلـهُ فـلا ريـاءٌ ونهجهـمُ اليقيـن فـلا ارتيـابُ
لأمَّتهـمْ ولـلأوطـانِ عـاشـوا فليس لهم إلى الـدُّنيـا طِـلابُ
كمثـل الكـأس تُبْصِـرُهـا دِهـاقـاً[2] وليـس لأجلهـا صُنِـع الشَّـرابُ

***

جهـادُ المـؤمنيـن لهـمْ حيـاةٌ ألا إنَّ الحيـاةَ هـيَ الجهـادُ
عقـائـدُهـم سـواعـدُ نـاطقـاتٌ وبـالأعمـال يثبـتُ الاعتقـادُ
وخـوفُ المـوتِ لـلأحيـاء قبـرٌ وخـوفُ اللهِ لـلأحـرار زادُ
أرى ميـراثهـم أضحـى لـديكـم مضـاعـاً حيثُ قـد ضـاعَ الـرَّشـادُ
وليـس لـوارثٍ فـي الخيـر حـظٌّ إذا لـم يحفـظِ الإرث اتِّحـادُ

***

لأيِّ مـآثـر القـوم انْتَسَبْتُـم ؟ لتكتسبـوا فخـارَ المُسلمينـا
فـأيـن مقـامُ ذي النُّـورين[3] منكـم ودولـةُ عـزِّه دُنيـا ودِيْنَـا
وفقـرُ علـيٍّ الأواب هـلا ربحتـم فيـه كنـزَ الفـاتحينـا
أقمتـمْ فـي الـذُّنـوب وفـي الخطـايـا وتغتـابـون حتَّـى الصَّـالحينـا
وهـم ستـروا عيـوب الخلـق فضـلاً وإن كـانـوا أبـرَّ المُتَّقينـا

***

---

(١) شَبَاةَ ، جمعها الشَّبَا والشبوات : شباة كل شيء ، أي حدُّ طرفه .
(٢) دِهاق : مُمْتلىء ، يقال : كأس دهاق ، أي ممتلىء .
(٣) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أريكةُ قيصَرٍ[1] وسريرُ كِسرى[2] ... قد احْتَمَيا بملكهم العَمِيمِ
وأنتم تطمحون إلى الثُّريا ... بلا عزمٍ ولا قلبٍ سليمِ
تضيعون الإخاء وهم أقاموا ... صروحَ إخائهم فوق النُّجومِ
طلبتُمْ زهرةَ الدنيا وعذْتُم ... بلا زهرٍ يضوعُ[3] ولا شميمِ
وكان لديهم البستان محضاً ... وهم أصحاب جنات النَّعيمِ

* * *

يُعيدُ الكونُ قصَّتهم حديثاً ... ويُنشىء منْ حديثهمُ الفنونا
فكمْ نَزَحُوا عنِ الأوكارِ شَوْقاً ... إلى التَّحْلِيقِ فَوْق العالمينا
ويأسُ شبابكم أدمى خطاهم ... فظنُّوا فيه بالدِّين الظُّنونا
هي المدنيَّةُ الحمقاءُ ألقتْ ... بهم حول المذاهب حائرينا
لقد صنعتْ لهم صنمَ الملاهي ... لتحجبَ عنهم الحَرَمَ الأمينا

* * *

لقد سئم الهوى في البِيْدِ قَيْسٌ[4] ... ومَلَّ من الشَّكاية والعذابِ
ويحاولُ أن يُباح العِشْقُ حتى ... يرى ليلاه[5] وهي بلا حجابِ
يريدُ سفور وجهِ الحُسن لمَّا ... رأى وجهَ الغرام بلا نقابِ
فهذا العهد أحرقَ كلَّ غرسٍ ... من الماضي وأغلقَ كلَّ بابِ
لقد أفنت صواعقُه المغاني ... وعاثتْ[6] في الجبال وفي الهضابِ[7]

---

(١) قيصر : لقب ملوك الروم .
(٢) كسرى : لقب ملوك الفرس .
(٣) يَضُوع : يفوح وينتشر .
(٤) قيس : من أشهر عشاق العرب .
(٥) ليلى : من أشهر عاشقات العرب .
(٦) عَاثَتْ : أفسدتْ .
(٧) هِضاب : جمع هَضْبة ، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض .

هـي النَّـارُ الجـديـدة ليـس يُلقـى ... لهـا حطـبٌ سـوى المَجْـدِ القـديـمِ
خُـذوا إيمـانَ إبـراهيـمَ تَنْبُـتْ ... لكـمْ فـي النَّـار روضـاتُ النَّعيـمِ
ويـذكـو مـن دم الشهـداء وردٌ ... سَنِـيُّ العطـر قـدسـيُّ النَّسيـمِ
ويلمـعُ فـي سمـاء الكـون لـونٌ ... مـن العُنَّـاب مخضـوبُ الأديـمِ
فـلا تفـزعْ إذا المَـرْجَـانُ[1] أضحـى ... عقـوداً للبـراعـمِ والكُـرومِ

* * *

فكَـمْ زالـتْ ريـاضٌ مـن ربـاهـا ... وكـم بـادتْ نخيـلٌ فـي البـوادي
ولكـنْ نخلـةُ الإسـلام تنمـو ... علـى مـرِّ العـواصـف والعـوادي
ومجـدُك فـي حِمَـىٰ الإسـلام بـاقٍ ... بقـاءَ الشَّمـس والسَّبـع الشِّـدادِ
وإنَّـك يـوسـفُ فـي أيِّ مصـرٍ ... يـرى كنعـانَـه[2] كـلَّ البـلادِ
تسيـر بـك القـوافـلُ مُسـرعـاتٍ ... بـلا جـرسٍ ولا تـرجيـعِ حَـادِي

* * *

ضيـاؤك مشـرقٌ فـي كـلِّ أرض ... لأنـكَّ غيـر محـدودِ المكـانِ
بَغَـتْ أمـمُ التَّتَـار[3] فـأدركتْهـا ... مـن الإيمـان عـاقبـةُ الأمـانِ
وأصبـح عـابـدو الأصنـام قُـدْمـاً ... حماةَ الحِجْر[4] والرُّكن اليماني[5]
فـلا تجـزع فهـذا العصـر ليـل ... وأنـت النَّجـم يشـرق كـلَّ آنِ

---

(١) المَرْجَان : صغار اللؤلؤ .
(٢) كنعان : أرض فلسطين .
(٣) التَّتار : قبائل كانت تسكن في أواسط آسيا ، أصلهم من المغول ، اشتهروا بغزواتهم ، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم على بغداد .
(٤) الحجْر : يريد به الشاعر حجْر الكعبة .
(٥) الركن اليَمَاني : هو ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود .

ولا تخشَ العواصفَ فيه وانهضْ بِشُعلتك المضيئةِ في الزَّمانِ

* * *

أعدْ من مشرقِ التَّوحيد نوراً يتمُّ به اتِّحاد العالمينَا
وأنت العطرُ في روضِ المعالي فكيفَ تعيش محتبساً دفينا
وأنت نسيمهُ فاحملْ شذاه ولا تحملْ غبارَ الخاملينا
وأرسل شعلةَ الإيمان شمساً وصُغْ مِنْ ذرةٍ جبلاً حصينا
وكن في قمَّةِ الطُّوفان موجاً ومُزناً يمطر الغيث الهَتُونا

* * *

فباسم محمدٍ شمسِ البرايا أقيمت خيمةُ الفلك المُنيرِ
تَلألأَ في الرياض وفي الصحارى وفوقَ الموجِ والسيلِ المغيرِ
ونَبْض الكونِ منه مُسْتَمِدٌّ حرارتَه على مرِّ العصورِ
ومن مراكش[1] يغزو صداه رُبُوعَ الصِّين بالصَّوت الجهيرِ
وما مشكاةُ هذا النُّور إلا ضميرُ المسلم الحرِّ الغَيُورِ

* * *

ورفعُ الذِّكر للمختار رفعٌ لقدرك نحو غاياتِ الكمالِ
فكن إنسانَ عيْنِ الكون واشْهد مقامك عالياً فوقَ المعالي
بخنجرِ عزمك الوثَّاب لاحت على الأعلام أنوارُ الهلالِ
نداؤك في العناصر مستجابٌ إذا دوَّى بصوتٍ من بلالِ
وعقلُك في الخطوب أجلُّ درعٍ وعشقُك خير سيفٍ للنِّضالِ

* * *

خلافةُ هذه الأرضِ استقرَّت بمجدكَ وهو للدُّنيا سماءُ

---

(١) مراكش : مدينة تقع في المغرب الأقصى .

وفـي تكبيـرِكَ القـدسـيِّ يبـدو صغيـراً كـلُّ مـا ضـمَّ الفضـاءُ
فيـا مـنْ هـبَّ لـلإسـلام يـدعـو وأيقـظ صـدقَ غيـرتـه الـوفـاءُ
سترفـعُ قَـدْرَك الأقـدارُ حتـى تشـاهـد أنَّ سـاعـدك القضـاءُ
وقيـل لـكَ احْتَكِـمْ دنيـا وأخـرى وشـأنُـك والخلـودَ كمـا تشـاءُ

***

الدِّيوانُ الثَّاني

الأَسْرار والرُّمُوز

أسْرارُ إثْباتِ الذَّاتِ ورُمُوزُ نَفْيِ الذَّاتِ

أسرار خودي ورموز بيخودي

نَقَلَهُ إلَى العَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الدكتور عبد الوهَّاب عزَّام

يُعتبر هذا الديوان من باكورة دواوين محمد إقبال ، فيه القصائد حول الفلسفة الإسلاميَّة . في زمان الحرب العالمية الأولى كان إقبال ينظر إلى الجيش التركي نظرة الأمل إلّا أنَّه حين أخذ الإنجليز يعملون على الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر من الترك تحطَّمت آماله ، وحينئذٍ ظهرت في أفكاره ثورةٌ عارمةٌ تعارض أشدَّ المعارضة فكرة الاعتماد على أهل الغرب ، والوثوق بهم ، فبدأ يعمل على بناء فلسفةٍ حديثةٍ تؤدِّي إلى التوفيق في الحياة على أساس تربية الجيل الجديد ، وتقوية الذات . ولم ير محمد إقبال أيَّة فائدةٍ للتُّرك من مساعدة قوة الحكومة الألمانية ، فبنى نظرته إلى التصوّف ، ليس على أساس روح الضعف والسلبية ، وهو ما انتشر في العهد الصفوي ، بل دعا إلى القوَّة ، والاعتماد على النفس[1] ولم يقنط محمد إقبال بل كرَّس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يمكن السبب في حدوث أخطائنا السابقة ، وقد وجد أنَّ مردَّ هذا إلى الآراء الإغريقية الَّتي تغلغلت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين ، وأضحت سبب كلّ ما عقب ذلك من انحرافه . وقد كان من نتيجة تأثير الإغريق على الإسلام أن تحوَّل هذا الدين من الإيجابيَّة الدافقة إلى عقيدة مستسلمةٍ تأمليَّةٍ ، الأمر الّذي أدَّى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية ، وقد ندَّد بأفلاطون ، وشنَّ حملةً على الصوفيَّة الّتي عدَّها مسؤولة عن فكرة « وحدة الوجود » ، وقد أدَّى البحث بإقبال إلى نظريته عن « خودي » أي « الذات » وهو يبدؤها بالأبيات التالية الّتي اقتبسها من مولانا جلال الدين الرُّومي[2] : « رأيتُ البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي! تبحث

---

(١) « إقبال إيرانيون كي نظر مين » لسر عبد القادر ص(١٨١) .

(٢) من محاضرة الأستاذ سجاد حيدر سفير باكستان في مصر ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٧ مأخوذ عن « إقبال وديوان أرمغان حجاز » للأستاذ سير عبد الحميد إبراهيم .

عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدَّواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالىٰ والأقزام الّذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال ، وبطلٍ من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروِّح نفسي ، قلتُ له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنفيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ : إليك عنِّي ، أيها الرجل! فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي ، أعزُّه وجوداً ، وأبعده منالاً »[1] . وقد ركَّز محمَّد إقبال كلامه في هذا الديوان على الذات التّي يرتكز فيها كلُّ النشاط ، وكلُّ الحركة ، والّتي هي لبُّ الشخصية ؛ أي « قلب » الذات .

أراد محمد إقبال باصطلاح « خودي » رموز الذَّات ، ووجود الفرد ، ليشير إلى المركز المدرك والنشيط للوعي والحياة ، وهو الّذي في نظره يؤلّف الوجود الأساسي لذات الإنسان بصورةٍ جازمة . وبالأحرى يرفض الأثرة ، ويوجب على المرء أن يرتقي إلى الدرجات العليا ، والكمال .

يعتقد محمد إقبال بأنَّ أخلاق الفرد والأمة تحدِّد الإجابة عن السؤال : ما هي طبيعة الذات ؟ وهذا التأكيد مطلوبٌ إلى ما يوازن بين الفكر الشرقي والرُّوحانيَّة ، ويؤكّد التقاء وجهات النظر التي ترتقي بها الكينونة الذاتيَّة فوق جميع المستويات الخادعة والواهمة .

يعتبر محمد إقبال أنَّ الاستسلام للجبرية هو الَّذي سبب انحطاط المسلمين ، على الرَّغم من قيمهم الدِّينية والرفيعة ، وأمجادهم السياسية خلال القرون المنصرمة .

---

(١) « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن النَّدوي ص٨٥ ـ ٨٦ .

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان أولًا على المقدمة المنظومة ، يبيّن فيها محمَّد إقبال مذهبه الجديد ، يقول في مطلعها :

قطع الصبحُ على اللَّيل السفر فهمىٰ دمعي على خدِّ الزهر
غسل الدمع سبات النَّرجس وصحا العشب بمسرى نفسي
جرَّب الفارس قولي موقدا مصرعاً ألقى وسيفاً حصدا

ويشير إلى أنَّ الرومي هو الّذي أيقظه ، ودعاه إلى أن يسلك سبيله :

صيَّر الروميُّ طيني جوهرا منْ غباري شاد كوناً آخرا

فصول الدّيوان :

١ ـ أصل نظام العالم من الذَّاتية واستمرار أعيان الوجود متوقف على استحكام الذَّاتية .

٢ ـ حياة الذَّاتية بتخليق المقاصد وتوليدها .

٣ ـ تستحكم الذَّاتية بالمحبة والعشق .

٤ ـ ضعف الذاتية بالسؤال .

٥ ـ إذا استحكمت الذاتية بالمحبَّة والعشق سخَّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .

٦ ـ حكاية في معنى أنَّ مسألة نفس الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة ؛ لتضعف أخلاق الأمم الغالبة عن طريق خفية .

٧ ـ في معنى أنَّ أفلاطون اليونانيَّ ـ الّذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها ـ ذهب مذهب الغنم ، والاحتراز من خيالاته واجب .

٨ ـ حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلاميَّة .

٩ ـ تربية الذات لها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الطَّاعة .

الثانية : ضبط النفس .

الثالثة : النيابة الإلهية .

وفي هذا الفصل يقصُّ قصصاً حقيقية ، أو خيالية لتصوير مذهبه .

١٠ ـ في بيان أنَّ مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، وأنَّ الجهاد إن كان الباعث عليه « جوع الأرض » فهو حرام في شريعة الإسلام .

١١ ـ نصيحة ميرنجاة النقشبندي المسمى الأدب الصحراوي التي كتبها لمسلمي الهند .

١٢ ـ الوقت سيف .

١٣ ـ دعاء « ويختم به المنظومة »[1] .

نشر هذا الديوان سنة ١٩١٥م ، فثار الناس لها بين راضٍ وساخطٍ ومستحسنٍ ومستنكرٍ ، بل بين مصفِّقٍ طرباً يثني معجباً ، وصائحٍ يتعجَّب ويستنكر .

نقله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام . وهاهو الآن بين أيديكم مع مقدمة الشاعر القيمة التي كتبها لهذا الديوان .

* * *

---

(١) إقبال . . للدكتور عبد الوهاب عزام ص١٠٣ .

خلاصة المقدمة التي كتبها
محمد إقبال لهذا الديوان (أسرار خودي)

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودي) أو (مين)[1] الذي يبدو في أعماله ويخفى في حقيقته ، والذي يخلُق كلَّ المشاهدات ، ولكن لطافته لا تحتمل المشاهدة ؟ أهو حقيقةٌ دائمةٌ ، أم أنَّ الحياة تجلَّت في هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجلِّياً عرضيّاً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟

إنَّ سيرة الأفراد والجماعات موقوفةٌ على جواب هذا السؤال . ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الآحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأمم الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر (أنا) في الإنسان من خِداع الخيال . وهي تعدُّ الخلاص من هذا الغُلِّ نجاةً ، وميلُ أهل الغرب إلى العمل ، ساقهم إلى ما يلائم طباعهم في هذا البحث .

ويمضي إقبال في مقدمته قائلاً :

اختلطت في عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعمليات اختلاطاً عجيباً . ودقَّق حكماؤهم في حقيقة العمل ، وانتهوا إلى هذه النتيجة : إنَّ حياة (أنا) المسلسلة ، وهي أصل المصائب والآلام ، تنشأ من العمل ، وإنَّ حالة النفس الإنسانية نتيجةٌ محتومةٌ لأعمالها .

وكانت رسالة الإسلام في غربي آسيا دعوةً إلى العمل بليغةً ، فالإسلام يرى أن (أنا) مخلوقٌ ينال الخلودَ بالعمل ، ولكنَّ تشابهاً عجيباً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي يظهر في بحث هذه المسألة . فالفكر التي فسّر بها شنكر

---

(١) مين بالأردية معناها : أنا .

أجاريه ، كتاب الجيتا (گيتا) هي الفكرة التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي . وكان له أثرٌ بليغٌ في عقول المسلمين وقلوبهم . جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلاميّ . واقتفى أثره أوحد الدين الكرماني ، وفخر الدين العراقي ، حتى اصطبغ بهذه الصبغة كلُّ شعراء العجم في القرن السادس الهجري .

خاطبَ فلاسفةُ الهند العقل في إثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشدَّ خطراً وأكثر تأثيراً ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامَّة ، فسلبوا الأمَّة الإسلامية الرغبة في العمل .

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم بميلها إلى العمل ، فآراؤهم خيرُ دليل لأمم المشرق إلى فهم أسرار الحياة .

وبدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا إليها الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي[1] ولكن مسحة العمل غلبت على طبائع الغرب . فلم يلبث طويلاً طلسم وحدة الوجود التي أُثبتتْ بأدلة رياضية . سبق الألمان إلى إثبات حقيقة (أنا) الإنسانية المستقلة ، ثم تحرَّر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مرِّ الزمان ، ولا سيما فلاسفة الإنكليز .

ويختم إقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هي موضوع هذه المنظومة . وقد اجتهدت أن أحرِّر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلَّة الفلسفيَّة ، وألوانها بألوان الخيال ؛ ليتيسر إدراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة إلى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن أدلَّ على الطريق من لم يُسلِّم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة .

---

(١) يعني : اسبنوزا .

ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، فإنما خيال الشعر فيها وسيلةٌ إلى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة :

إنَّ لذة الحياة مرتبطة باستقلال (أنا) وبإثباتها ، وإحكامها ، وتوسيعها . وهذه الدقيقة تمهد إلى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

وينبغي أن يعلم القرَّاء أنَّ لفظ « خودي » لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأثَرة ، كما تستعمل في اللغة الأرديّة غالباً ، إنما معناها الإحساس بالنفس ، أو تعيين الذَّات .

وهي بهذا المعنى في كلمة « بيخودي » كذلك .

خلاصة مقال الشاعر
إلى الأستاذ نكلسون

مذهب الأستاذ بريدلي أنَّ كلَّ مركزٍ للشعور محدودٌ ، أي : كلُّ ذاتٍ مفردةٍ خداعُ نظرٍ باطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا : إنَّ مركز الشعور المحدود الذي لا يُدْرَك (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حقٌّ لا باطل .

الحياة كلُّها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجي . وحيثما تجلَّت الحياة تجلَّت في شخصٍ ، أو فردٍ ، أو شيءٍ . والخالقُ كذلك فرد ؛ ولكنَّه أوحدٌ لا مثل له .

وظاهرٌ أنَّ هذا التصوُّر للكائنات يخالف كلَّ المخالفة ما ذهب إليه شراح فلسفة هيكل من محدثي الإنكليز ، ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذين يرون أن مقصد حياة الإنسان ، أن يُفْني نفسه في الحياة المطلقة أو (أنا) المطلق ، كما تفنىٰ القطرة في البحر .

أرى أنَّ هدف الإنسان الدِّيني والأخلاقي إثباتُ ذاته لا نفيها ، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول ﷺ : « **تخلقوا بأخلاق الله** » فكلَّما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثيل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق ، والإنسانُ الكامل هو الأقرب إلى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب ، أن يُفني وجوده في وجود الله . كما تقول فلسفة الإشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يُمثِّل الخالق في نفسه .

الحياة رقيٌّ مستمر ، تسخِّر كلَّ الصِّعاب التي تعترض طريقها ، وحقيقتُها أن تخلُق دائماً مطالبَ ومُثُلاً جديدةً ، وقد خَلقتْ من أجل اتساعها وترقيها آلاتٍ كالحواسّ الخمس ، والقوة المدركة ؛ لتقهر بها العقبات والمشقَّات .

وأشدُّ العقبات في سبيل الحياة المادَّةُ أو الطبيعة ، ولكنَّ المادة ليست شرّاً كما يقول حكماء الإشراق ، بل هي تُعينُ الذات على الرقي ، فإنَّ قُوى الذَّات الخفية تتجلَّى في مصادمة هذه العقبات .

وإذا قَهرت الذاتُ كلَّ الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار . الذاتُ نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنَّها إذا قاربت الذاتَ المطلقة نالت الحرية الكاملة . والحياةُ جهادٌ لتحصيل الاختيار . ومقصدُ الذات أن تبلغ الاختيارَ بجهادها .

دوام الذات أو الشخصية :

مركز حياة الإنسان ذات (خودي) أو شخص ، أعني : أنَّ الحياة حينما تتجلَّى في الإنسان تسمَّى ذاتاً .

وشخصية الإنسان من الوجهة النفسانية حالٌ من التوتر ، ودوام الشخصية موقوفٌ على هذه الحال . فإن زالت هذه الحال عقبتها حالٌ من الاسترخاء مضرَّةٌ بالذات . فإن يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان فأول فرضٍ عليه أن يعمل لدوام هذه الحال ، والحيلولة دون حال الاسترخاء .

وكلُّ ما يُمكِّننا من إدامة حال التوتر يمكِّننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معياراً لِقيَم الأشياء أعني : أنَّ في ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تُحلُّ مسألة الخير والشر ، فما يقوِّي الذات خير وما يُضعفها شر . ويجب أن يقوَّم الدين والأخلاق والفنون بهذا المعيار أيضاً .

واعتراضي على أفلاطون ، هو في أصله اعتراضٌ على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء ، لا البقاء ، والتي تُغفل المادة ، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة ، وتدعو إلى الفرار منها ، لا إلى تسخيرها ، والتسلط عليها .

وكما تَعرِض مسألة المادة في مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة الزمان في مبحث خلودها .

يقول برجسون : إنَّ الزمان ليس خطّاً ممتداً إلى غير نهايةٍ يتحتَّم علينا المرور به . هذا التصوُّر للزَّمان غيرُ صحيح ، فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصوُّر الطول ؛ أي : لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

إنَّ خلود الذات أملٌ ، من أراد أن يظفر به فليجدَّ ، ويدأب لبلوغه ، والظفرُ به موقوفٌ على أن نسلك طريقاً للفكر والعمل في هذه الحياة يعيننا على حفظ حالة التوتر ، ولا يستطيع إبلاغَنا هذا الأمل دين بوذا ، والتصوُّف العجمي ، وما إلى هذين من نظم الأخلاق الأخرى . لقد أضرت بنا هذه الطرق ، فأضرعتنا وأنامتنا . إنَّ هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا .

تربية الذات :

لا ريب أنَّ الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جدّاً . ومعناه إرادة الجذب والتَّسخير . وأعلى أشكاله أن يخلُق مقاصده ويجدَّ في نيلها . وخاصةُ العشق إفراد العاشق والمعشوق ، أعني : إظهار الانفراد ، والاستقلال فيهما . وإذا جدَّ الطالب في طلب الأوحد الأسمَى ظهر فيه التوحُّد ، ويتحقَّق ضمناً توحُّد المطلوب ؛ لأنه إن لم يكن واحداً مستقلاً بنفسه لم يسكُن الطالب إليه . إنما يمكن عشقُ شخصٍ ، أو وجود معين . ولا

يمكن لشخص عشقُ كائن غيرِ مشخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعدُّ سؤالًا ، فالذي يرث مال غيره سائل ، والذي يتَّبع أفكار غيره ، أو يدَّعيها لنفسه سائل .

والخلاصة : أنَّه ينبغي لأجل إحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق ، ونتجنب كلَّ ضروب الاستجداء (أي البطالة) .

إنَّ في حياة الرسول ﷺ أسوةً حسنةً للمسلم ، فقد كانت حياته خيرَ مثلٍ للسعي الدائم . لقد كانت حياته كلُّها صورةً للعمل .

أشرتُ في فصول من هذا المثنوي إلى أصول فلسفة الأخلاق الإسلامية ، وبيَّنت أنَّ لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ ـ إطاعة القانون الإلهي .

٢ ـ وضبط النفس .

٣ ـ والنيابة الإلهية .

والنيابة الإلهية في هذ الدنيا هي أعلى درجات الرقيِّ الإنسانيِّ . ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض ، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية ، وهو معراج الحياة الروحي .

وأول شرطٍ لظهور نائب الحق أن ترقى الإنسانية في جانبيها الروحيِّ والجسميِّ ، فإنَّ ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أمَّةٍ مثاليةٍ يتجلَّى في أفرادها في الجملة هذا التوحُّد الذَّاتي ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله في الأرض : أن تقوم فيها جماعةٌ شوريَّةٌ يتوحَّد أفرادها ، ويقوم على هذه الجماعة واحدٌ يمكن أن يسمى نائب الحق ، أو الإنسان الكامل ، وهذا الإنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال ؛ التي لا تتصوَّر فوقها ذروة .

وقد رأى نتشة (الفيلسوف الألماني المعروف) ضرورة ظهور هذه الأمة

المثالية ، ولكن دهريته ، وإعجابه بالسلطان مسخا فلسفته كلها » إهـ .

هذه خلاصة رسالة إقبال إلى الأستاذ نكلسون . وحسبنا في إيضاح مذهبه ما قدَّمنا من تلخيص رسائله ، ومقدمته لأسرار الذات ، ورسالته إلى نكلسون .

* * *

القسم الأول

أسرار إثبات الذّات

(أسرار خودي)

رأيتُ الشَّيخ بالمصباحِ يسعى ... لـه فـي كـلِّ نـاحيـةٍ مجـال
يقول : مَللتُ أنعاماً وبَهْماً ... وإنساناً أريد ، فهل يُنال ؟
برمتُ برُفقةٍ خارت قواها ... برستُمْ أو بحيدرِ اندمال[1]
فقلنا : ذا مُحالٌ . قد بحثنا ... فقال : ومُنيتي هذا المحال

(مولانا جلال الدين الرومي)

---

(١) حيدر : عليُّ بن أبي طالب ، ورستم : من أبطال الفرس .

تمهيد

« ليس في أعواد غابي سقَطٌ هي للمنبر أو أعواد صَلْب »[1]

نظيري النيسابوري

قطع الصبحُ على الليل السفَر فَهمَى دمعي على خدِّ الزهَرْ
غسلَ الدمعُ سُباتَ النَّرجسِ وصحا العُشبُ بمَسرَى نفسي
جرَّب الزَّارعُ قولي مُحصَدا مِصرعاً ألقَى ، وسيفاً حصدا
إنَّه حَبَّ دموعي زَرعا نسجَ الروضَ وأنَّاتي معا
ذرَّةٌ قد نالت الشمسَ أنا كم صباحٍ في فؤادي كَمنا
طينتي من جَامِ جَمٍّ أنورُ منْ غيوبِ الكون عِندي عبرُ[2]
صَيْدُ أفكاري ظِباء لم تُرَمْ لم تُسَيَّب بَعدُ منْ قيدِ العَدمْ
زَانَ بُستاني عشبٌ ما ظَهرَ وجنيتُ الوردَ في جوف الشَّجر[3]
محفِلُ الشادين مني يرجُفُ في وِتار الكون كفِّي تعزِف
صامِتٌ فيَّ ربابُ الفِطرةِ ما وعَى عنِّي جليسي نغمتِي
إنني شمسٌ قريبٌ مولدي حُبُكاً في فَلَكٍ لم أعْهَد

---

(١) نيت درخشك وتربيشه من كوتاهي جوب هرتخل كه منبر شوه داركم

(٢) جام جم أي : كأس جمشيد . وفي أساطير الفرس أنَّ الملك جمشيد كان عنده كأس يرى فيها الأقاليم السبعة . وفي هذا البيت وما بعده يقول الشاعر : إنه يرى الغائب ، ويدرك ما لم يخلق .

(٣) جنى الورد الذي لم يظهر من شجره : علم أنه سيظهر دون ريب ، وأنه سيجنيه ، فكأنه قد جناه .

لـم يَـرُعْ ضـوئـيَ سِـربَ الـزُّهُـرِ ... أو يُـرَجْـرَجْ زئبَقـي فـي البَصـرِ[1]
مـا رأت رقـصَ ضيـائـي الأبحُـرُ ... أو كسـا الأطـوادَ ثـوبـي الأحمـر
عيـنُ هـذا الكـون لـي لا تعهـد ... أنـا مـن خـوفِ طلـوعٍ أرْعَـدُ
مـزَّقَ الظلمـةَ فجـرى فسفَـرْ ... وبـدا طَـلٌّ جـديـدٌ فـي الـزَّهَـرْ
إننـي أرقـب صبحـاً مُعلمـا ... حبَّـذا مـن حـول نـاري زمـزمـا[2]

* * *

أنـا لَحْـنٌ دون ضَـربٍ صَعَـدا ... أنـا صـوتٌ شـاعـري يـأتـي غـدا[3]
دونَ عصـري كـلُّ سـرٍّ قـد خَفـي ... ما بهذي السوق يُشرى يوسُفي[4]
أنـا فـي يـأسٍ مـن الصّحْـب القـديـم ... مُشعـلٌ طُـوري ليغشـاه كليـمْ[5]
بحـرُ صحبـي قطـرةٌ لا تَـزْخَـرُ ... قطـرتـي كـاليـمٌ فيـه صَـرْصـرُ
مِـن وجـودٍ غيـرِ هـذا لـي غَنـاء ... ولـركـبٍ غيـرِ هـذا لـي حُـداءْ
كـم تجلّـى شـاعـرٌ بعـد الحِمـام ... يـوقـظُ الأعيـنَ حينـاً وينـام
وجهـهُ مـنْ ظُلمـة المـوت سَفَـر ... ونمـا مـنْ قبـره مثـلَ الـزَّهَـر[6]

* * *

كـم بهـذا السَّهـب مـرّتْ قـافلـهْ ... مثـلَ سَيـر النُّـوق رهـواً سـابلـهْ

---

(١) لم يغش ضوئي النجوم ، ولم يضطرب شعاعي في الأعين اضطراب الزئبق .

(٢) حبذا من صَلي بناري وزمزم حولهما كالمجوس .

(٣) هو صوت شاعر الغد ، ليس صوتاً للزمن الحاضر .

(٤) أفكاري لا يفهمها هذا العصر ، إنها جميلة جمال يوسف ، ولكن ليس في هذه السوق من يشتريها .

(٥) يائس ممن عرف من الناس ، وهو يرجو أن يأتي إليه كليم يفقه عنه ، كما ذهب موسى الكليم إلى الطور .

(٦) قال : إنه شاعر المستقبل لا الحاضر فقال : كثير من الشعراء لم يُعرف قدرُهم إلا بعد الموت .

غيرَ أنّي عاشقٌ ، ديني النُّواحْ ... ثورةُ المحشر في هذا الصياحْ
أنا لحنٌ كلَّ عنه الوترُ ... لا أُبالي أنَّ عُودي يُكسرُ[1]
أبعدِ القطرة عن سيلٍ طما ... وانظرنَّ اليمَّ منه التطما
لا تعي موجيَ هذي الأنهرُ ... لا تعي لُجّيَ إلا أبحرُ
ليس أهلاً لسحابي زهرةٌ ... ليس فيها لنموٍّ روضَةُ[2]
كم بُروقٍ نائماتٍ في الجَنانْ ... ضاقت البيدُ لديها والقِنانْ[3]
إنْ تكن صحراء فاطلب لجَّتي ... أو تكن سيناءَ فاقبس شُعلتي
قد حُييتُ الوردَ من عَين الحياهْ ... ووُهِبْتُ السِّرَّ من عين الحياهْ[4]
أشعلَ الذرَّةَ لحني الثائرُ ... رفرفتْ فهي يَراعٌ طائر
مانثا ذا السرَّ غيري في البشرْ ... لم يُثقِّب ناظمٌ مثلي الدُّرَر
أقبلَنْ إن تَبغ عيشَ الخالدينْ ... أقبلَنْ إن تبغ مُلك العالَمينْ
أفشتِ الأفلاك لي السرَّ القديمْ ... كيف يُخفَى السرُّ من دون النَّديم ؟
أيها الساقي ! من الراح اسقني ... وآسِ في قلبي جِراحَ الزَّمن
شعلةُ الماء التي من زمزم ... قيصرٌ يعنو لها كالخدم
مُقلةُ المُبصر منها أبصرُ ... وشِعابُ الفِكر منها أنور
تجعلُ الريشةَ طوداً قاهرا ... وتُري الثعلب ليثاً زائرا
هيَ تسمو للثُريَّا بالثَّرى ... وتعي القطرةُ منها أبحرا
تجعلُ الصَّمت ضجيجَ المحشرِ ... تجعل الدُّرَّاج حتفَ الأصْقُر
املأ الكأس بصفوٍ نيِّرِ ... نوِّرِ الفكرَ بنورِ القمرِ

---

(١) هو لحن لا يطيقه وتر . وهو لا يبالي أن يقطع أوتاره في إظهار هذا اللحن . لا يبالي أن يموت في الإعراب عن هذا الوجد .

(٢) الزهرة التي لا تنمو حتى تصير روضةً ليست أهلاً لمطره .

(٣) جمع قنة ، وهي قمة الجبل .

(٤) العين الأولى عين الماء ، والثانية عين الشيء أي نفسه ، وكلمة الحياة رديف .

لأقـود الـرَّكـبَ شطـر المنـزل ... بـاعثـاً شَـوقَ السُّـرى فـي المُقَـل
راثيـاً وجـهَ جـديـدِ الأمـل ... سـاعيـاً إثـرَ جـديـدِ العَمَـل
فـأُرى إنسـانَ عيـنِ العـارفيـن ... وأُرى لحنـاً بـأُذنِ العـالميـن
مُعليـاً قَـدْرَ الكـلام المُبـدَع ... مـازجـاً فيـه غـزيـرَ الأدمُـع
قـارئـاً مـن فيـضِ ذا الشيـخ العظيـم ... كُتُبـاً تُضمِـر أسـرار العلـومْ[1]
قلبـهُ مـن شعلـة الـوَجـد استعـرْ ... وأنـا فـي نَفـسٍ منـه شَـرَرْ
قـد رمـى الشَّمـعُ فَـراشـي بـاللهـبْ ... وغـزتْ جـامـي الحُميَّـا فـالتهـبْ[2]
صيَّـر الـرومـيُّ طينـي جـوهـرا ... مـنْ غُبـاري شـاد كَـونـاً آخـرا
ذرةً تصعـدُ مـن صحـرائهـا ... لتنـال الشَّمـس فـي عليـائهـا
إنَّنـي فـي لُجَّـه مـوجٌ جـرى ... لأصيـب الـدُّر فيـه نيِّـرا
قـد عـرتْنـي نشـوةٌ مـن كـأسـه ... وحيـاةً نلـتُ مـن أنفـاسـه

* * *

ليلـةً رانـتْ علـى قلبـي الشُّجـون ... وسرت « يا ربِّ » في الليل السُّكون[3]

---

(١) الشيخ العظيم : هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأبٍ من العلماء والفضلاء ، رحل به وهو صبي إلى بلاد الأناضول التي كانت تابعة من قبل للروم ، واستقرَّ في مدينة قونية . ولذلك عرف جلال الدين بالرُّومي ، كما عرفت بلاد الترك ببلاد الروم لعين السبب . ولقد تلقى العلم أول ما تلقى على أبيه ، ثم عَقَدَ الأسباب بينه وبين العلماء والمتصوفة ، وتصدَّر للوعظ والإرشاد ، ثم مال إلى التصوف ، وأصبح من شيوخه والتف حوله من المريدين خلقٌ كثير . وله كتابٌ منظومٌ يسمى المثنوي يتضمَّن حكايات لها مغزىً صوفي ، وآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية يفسرها ، ويؤولها ، ولكن لا على ظاهرها . ولا يداني المثنوي كتابٌ آخر في شهرته ، ونفاسته عند الصوفية . وكانت وفاة جلال الدين الرومي عام ٦٧٢هـ .

(٢) الفراش والشمع مثل للمحب والحبيب . فالفراش يقدم على النار ، فيحرق نفسه غير مبالٍ ، ولكن الشمع هو الذي غزا فراشه .

(٣) سرت مني دعوة يا رب في الليل .

مـنْ فـراغِ الكـأس قلبـي نـائـحُ ... مـن صـروفِ الـدَّهـر شـاكٍ صـائـحُ
أرهـقَ التسيـارُ فكـري فثـوى ... هيـضَ سِقْطـاه وللنَّـوم هـوى[1]

* * *

لاحَ شيـخُ الحـقِّ ذاك الألمعـيّ ... مـن حكـى قـرآننـا بـالفهلـويّ[2]
قـال : يـا ولهـان بيـن العـاشقيـن ! ... من شراب العِشْق فاجرع كلَّ حين
شُـقَّ فـي العيـن حِجـابَ البصـر ... وأثِـرْ فـي القلـب هَـوْلَ المحشـرِ
واجعلـنَّ الضِّحْـك ينبـوع البكـاء ... وامـلأ العيـنَ دمـوعـاً مـن دمـاءْ
أنـت كـالكِـمِّ صمـوتٌ أبكـمُ ... انشُـرنْ كـالـورد ريحـاً تَفْعـم[3]
صعِّدنْ من كلِّ عضوٍ ، كالجرس ... نـوحـك الصـامـتَ فـي كـلِّ نفَـس
أنـت نـارٌ فـأضـىء للعـالَميـن ... بلهيـب منـك أذكِ الآخـريـن[4]
سِرَّ شيـخ الحـان أعلِـنْ فـي هَيـاجْ ... كن مُداماً واتخذ ثوبَ الزُّجاج[5]
وكـنِ الفِهـرَ لمـرآةِ الفِكَـر ... واصدَعنْ جهراً وأعلنْ ما استتر[6]
حـدِّثـن كـالنَّـاي عـن غـابٍ نـأى ... حـدثـنْ قيسـاً عـن الحـيِّ انتـأى[7]
جـدِّد النَّـوح بلحـنٍ محـدَثِ ... ومـن الآهـات فـي الحفـل انفـثِ

---

(١) السقطان : الجناحان .

(٢) يقال عن كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي : إنه القرآن في اللسان الفهلوي ، أي : الفارسي .

(٣) كم الزهر منقبض يخفى لونه وريحه ، فإذا انفتح نشر ريحه واستبان شكله . فعمت الرائحة : ملأت الأنف .

(٤) أذكى النار : أشعلها .

(٥) اتخذ ثوب الزجاج : أظهر ما في باطنك ، كما تظهر الزجاجة ما فيها .

(٦) الفهر : الحجر الصغير ، يعني : اكسر مرآة الفكر ، ولا تعول على ما تبديه ، وأبد ما للعشق في قلبك .

(٧) الناي مأخوذ من الغاب وصوته عند شعراء الصُّوفية حنين إلى غابه . وقد بدأ جلال الدين كتاب المثنوي بقصة الناي والغاب .

كـلَّ حـيٍّ فيـه رُوحـاً أحْكـمِ ... وزِد الحـيَّ حيـاةً مـن « قُـم »[1]
وهلـمَّ اسلُـك طـريقـاً أنْقـا ... وانـفِ عـنْ قلبـك مـا قـد سَلَفـا
جـرسَ الـرَّكْـب ! تنبَّـه لا تنـم ... واعـرف اللَّـذة فـي هـذا النَّغَـمْ

* * *

صِـرْتُ نـاراً فـي ثيـابـي تُسعَـر ... صِـرْتُ كـالنَّـاي ، هَيـاجـاً أُضمِـر
ثُـرتُ مـن أوتـار نفسـي نغمـا ... شِـدتُ مـن حسـن بيـانـي إرمـا[2]
فـرفعـتُ السِّتْـر عـن سـرِّ خـودي ... فبـدا الإعجـاز مـن أمـر خـودي[3]
كـان كـونـي صـورة لـم تكمـل ... كـان سِقطـاً مُهمـلاً فـي الهَمـل
مِبْـردُ العشـق بـرانـي رجـلاً ... كيـفَ هـذا الكـون والكـمَّ جَـلا[4]
فـرأت عينـاي نَبـض الأنجُـم ... وبعـرق البـدْرِ دَوراتِ الـدَّم[5]
وبكيـتُ النَّـاسَ جنـحَ الظُّلَـم ... فبـدا سـرُّ حيـاة الأمـم
مَصنـعُ الكـون أرانـي مـا حـواه ... فتجلَّـى سـرُّ تقـويـم الحيـاه
أنـا ـ مـن فـي ظلمـة اللَّيـل أنـار ـ ... فـي طـريـق الملَّـة البيضـا غُبـار[6]
صـوتُهـا فـي الشـرق والغـرب عـلا ... لحنُهـا فـي القلـب نـاراً أشعَـلا
ذرَّةٌ ألقـت وشمسـاً حصـدتْ ... ألـفَ رومـيٍّ وعطَّـارٍ جنـت[7]
آهتـي الحَـرَّى سمَـتْ فـوق العَنـانْ ... عِترتي النارُ ، وإن كنتُ الدُّخان[8]

---

(١) قم : فعل أمر . يعني أحي الناس بقولك قم . والكلمة بلفظها العربي في الأصل .
(٢) إشارة إلى ما يقال في وصف إرم ذات العماد .
(٣) أبقيت كلمة خودي في الشطرين كما جاءت في الأصل . ومعناها : الذاتي . وهي أساس فلسفة إقبال .
(٤) جلاني العشق كيف هذا والكون وكمّه حين سلط على مبرده فسوّاني رجلاً .
(٥) رأى نبض النجوم وسير الدَّم في عروق القمر ؛ أي : أدرك أسرار الكائنات .
(٦) الملَّة البيضاء : الأمَّة الإسلامية ، أي : هو غبار من سيرها في الطريق .
(٧) فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي من كبار شعراء الصوفية .
(٨) يعني : أن أصله من هذه الأمة ؛ فإن يكن دخاناً ، فهو من هذه النار .

قلمـي فـي مسـرح الفكـر عـلا فجـلا الأسـرارَ فـي السَّبْـع العُلَـى

* * *

مـا قصـدت الشعـر فـي هـذا النَّغَـم نحـتَ أصنـامٍ وتعظيـمَ صنـم[1]
أنـا هنـديٌّ شـآنـي الفـارسـيّ وهـلالٌ أنـا ذو جـام خلـيّ[2]
لا تـؤمِّـل عنـدنـا حسـن البيـان لحـنَ خَنْسـارٍ بـه أو أصفهـان[3]
ذاكـمُ الهنـديُّ يحكـي السَّكـرا لكـن الـدَّرِّيُّ أحلـى مخبَـرا[4]
سحـرَ الفِكـرَ تجلِّيـه وراغْ فـإذا لـي شجـرُ الطـورِ يـراع[5]
قـد عـلا فكـري وهـذا الفـارسـيُّ لاءم الفطـرةَ فـي فكـري العلـيّ
أيُّهـا العـائـبُ كـأسَ الخنـدَريـس انظرنْ يا صاح ما تحوي الكؤوس[6]

* * *

في بيان أنَّ نظام العالم من الذَّاتية ، وأنَّ تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلَّا باستحكامها

هيكـلُ الأكـوانِ مـن آثـارهـا كـلُّ مـا تُبصـر ، مـن أسـرارهـا
نفسَهـا قَـدْ أيقظـتْ حتـى انجلـى عـالـمُ الأفكـارِ مـا بيـن الملا
ألـفُ كـونٍ مختـفٍ فـي ذاتهـا غيـرُهـا يَنْبُـتُ مـنْ إثبـاتهـا

---

(١) ما قصدت ما يفعله الشعراء من نحت الأصنام وعبادتها ، أي : المدح والخنوع للكبراء ، أو للآراء السائدة .

(٢) هو هندي يغلبه اللسان الفارسي . وهو كالهلال كأسه لم تملأ أي لم يتمَّ نوره .

(٣) خوانسار وأصفهان أخرجتا شعراء وألحاناً كثيرة .

(٤) الهندي اللغة الأردية التي نظم بها إقبال بعض دواوينه ، والدري اللغة الفارسية .

(٥) يعني صار قلمه من شجرة الطور المقدسة التي رأى موسى عندها النار .

(٦) ناسبت الفارسية أفكاره فكتب بها ، وينبغي أن ينظر إلى معانيه لا إلى ألفاظه الفارسية المعيبة .

جعلت بَزر خصامٍ بزرَها ... نفسَها تنظرُ فيها غيرَها
خلقت أضدادها منْ نفسها ... لترى لذَّتَها في بأسها
تبتلي في نفسها قوَّتَها ... لترى منْ نفسها قُدْرتها
خُدعٌ منْ وَهمها عينُ الحياهْ ... غُسْلُها في دمها عين الحياهْ[1]
تُخربُ البستان أجلَ الوردة ... تُكثر النَّوح لأجلِ النغمة
لفُليكٍ واحدٍ ألفُ هلال ... ولحرفٍ واحدٍ ألفُ مقالْ
عذرها في سَرَفٍ أو قسوةِ ... أنَّها تبغي جمال الخلقة[2]
حُسنُ شيرينَ لفَرهادَ مِحَنْ ... ومن المسك رَدَى ظَبيُ الختَن[3]
في فَراش حرقة كالمشعَل ... عذرُه في شمعه المشتعلِ
ألفَ يوم سطَّرته يدُها ... ليُجلَّى في سناه غدُها
ألفُ إبراهيم في النار اغتدى ... لسراجٍ يُرتجى من أحمدا[4]

* * *

همُّها الأعمال فهيَ الفاعلُ ... وهيَ العلَّة وهْيَ القابل
ثورةٌ فيها وإجفالٌ ، ونور ... واحتراقٌ واختفاء وظهور[5]

---

(١) خلاصة الأبيات المتقدمة : أنَّ الذاتية ، وهي واحدة ، اتخذت في الكون مظاهر مختلفةً يحارب بعضها بعضاً ، والحياة في هذا الخصام ، وهذا التنازع بين مظاهر الكون .

(٢) في الأبيات الثلاثة المتقدمة يشير الشاعر إلى أنَّ الخلقة لها مقصدٌ ، تهدَّم من أجنه آلاف الأشكال ، ولا تبلغ الكمال إلا بهذا الهدم .

(٣) عشق فرهاد شيرين قصةٌ رائعةٌ في الأدب الفارسيِّ . . والختن : بلادٌ معروفة بطيب المسك .

(٤) يعني إبراهيم الخليل وأحمد النبي عليهما الصلوات والسلام .

(٥) عمل الذاتية في الطين منه ازدهار العالم ، والليل نومها والنهار يقظتها ، والأجزاء في الكون شرر شعلتها الواحدة ، تنشق فتكون الأجزاء ، وتنبسط فتكون الصحراء ثم ينضمُّ بعضها إلى بعض فتكون جبالاً .

سعـــةُ الأيَّـــام ميـــدانٌ لهـــا ... والسمـــاء النَّقـــعُ يعلـــو سُبلَهـــا
يـدُهـا فـي الطِّيـن ، للكـونِ ازدهـارْ ... نومُها الليلُ ، وفي الصَّحو النهار
قسَّمـــتْ شعلتهـــا فـــي شَـــرَر ... فـــرأى الأجـــزاء عقـــلُ المُفْكِـــر
تخلـــق الأجـــزاء إمَّـــا تنفطـــر ... تُنشـــئُ الصَّحـــراء إمَّـــا تنتشـــر
ثـم صـارت بـانتشـارٍ فـي مـلال ... فـاحـزألَّـت فبـدت شـمُّ الجبـال
شيمـةُ الـذَّاتِ التجلِّـي لا الخفـاء ... وهـي فـي الـذرَّاتِ بـاسٌ وضيـاءْ
قـــوَّةٌ صـــامتـــةٌ حِلـــفُ عَمَـــلْ ... عمـــلُ اليـــوم لآتيهـــا عِلـــل
قـوَّة الـذَّات مـن الكـون النـواهْ ... فعلـى قـدرِ القُـوَى قـدرُ الحيـاه
كِلْمـــة الـــذَّات تعيهـــا قطـــرةٌ ... فـــإذا القطـــرة يـــومـــاً درَّةُ
خـارتِ الخمـرُ فـلا شكـلَ لهـا ... ومـن الكـأسِ استعـارت شكلهـا[1]
وسهـا طـودٌ عـن النَّفـس فحـار ... فغـدا صحـراءَ تغشـاهـا البحـار[2]

* * *

يُعقَـــد النُّـــور لخلـــقِ المقْلـــةِ ... تخفـــقُ العَيْـــنُ بشـــوقِ الجَلـــوة
وإذا العشـــب نمـــاءً أضمـــرا ... شـــقَّ صَـــدْرَ المـرج حتـى يَظْهـرا
يجمـــع الشَّمـــعُ بعـــزمِ نفسَـــه ... ومـــن الـــذَّرات يُعلـــي رأســـه
ويُـــذيـــب النَّفـــس إمّـــا غَفَـــلا ... فتـــراه دمـــع عيـــنٍ همـــلا[3]

* * *

شـدَّتِ الأرضُ قُـواهـا فـالقمـر ... فـي طـوافٍ حـولهـا لا مستقـر
وكيـــانُ الشَّمـــس منهـــا أكبـــرُ ... فلهـــا عيـــن ذُكـــاءٍ تسحَـــر

---

(١) قطرة الماء استكملت ذاتها فصارت درَّة ، والخمر ضعفت ذاتها فهي مائعة تستعير قوامها من الكأس .

(٢) حذف بيتٌ قبل هذا البيت وآخر بعده اختصاراً .

(٣) حذف بيتان بعد هذا البيت اختصاراً .

وعـــلا الحـــورُ فهـــالَ النَّـــاظـــرا ... وعـــلا الطـــودَ أبيَّـــاً قـــاهـــرا
وارتـــدى كســـوةَ نـــارٍ حـــاميـــه ... أصلـــهُ حبَّـــة نبـــت آبيـــه[1]
إنَّ ذاتـــاً جمعـــتْ أسْـــرَ الحيـــاه ... مـن غـديرٍ أزخرت بحـرَ الحياه[2]

* * *

في بيان أنَّ حياة الذَّات بتخليق المقاصد وتوليدها

إنَّمـــا يُبقـــي الحيـــاة المقصـــدُ ... جَـرَسٌ فـي ركبهـا مـا تَقصـد[3]
سِـرُّ عيـشٍ فـي طِـلابٍ مُضمَـر ... أصلُـــه فـــي أمـــلٍ مستتـــرُ
أُحـي فـي قلبـكَ هـذا الأمـلا ... لا يَحُـلْ طينُـك قبـراً مُهمَـلا
يخفِـقُ القلـب بـه بيـن الصـدورْ ... هـو فـي صـدرك مـرآة تُنيـر
يهـبُ التـربَ جَنـاحـاً يَصعَـد ... ولمـوسى العقـلِ خَضْـراً يُـرْشِـد[4]
إنمـا يحيـا الفـؤادُ الآمـلُ ... وإذا حـيَّ يمـوت البـاطـلُ
فـإذا عـيّ بتخليـق المُنَـى ... هِيـضَ سِقطـاه وأودَى وَهَنـا
أمـلُ الـذاتِ لهيـبٌ يَستعِـرْ ... أو هـو المـوج الـذي لا يستقِـرْ
وهَـقُ المقصـودِ حَبْـل الأمـل ... إنَّـه خَيْـط كتـابِ العمـل[5]
ومماتُ الحيِّ فقـدان الـرجـاءْ ... يُطفـيءُ الشعلـةَ فِقـدانُ الهـواء

* * *

---

(١) هذا مثل شعري آخر من قوة الذَّاتية شجر الجنَّار ، تقوى ذاته ، فيعلو ، وتكسوه حمرةٌ كأنها النَّار . وكل هذا لأن حبته قويةٌ محتفظةٌ بذاتها .

(٢) الخلاصة أن الذات التي تجمع قوة الحياة تخرج بحراً زاخراً من غدير صغير .

(٣) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير .

(٤) هو من العقل كالخَضِر من موسى يهديه ويبين له الحقائق . في بيان : أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها .

(٥) الوهق : حبل فيه أنشوطة تمسك به الخيل المسيبة ، ويصاد به . وخيط الكتاب : الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض .

كيف فينا أعينٌ قد ظهرت ؟ لذةُ الرؤية فينا صوَّرت[1]
من مُنَى التَّخطارِ رجلُ الحجَل من مُنَى التغريد حَلقُ البلبل
حَيَّ نايٌ قد نأى عن غابه أطلق النَّغمة من أوصابه
ذلكَ العقل الَّذي الكون طَوى وتَرى الإعجاز فيه والقُوَى
إنَّما أصل الحياة الأملُ فكذاك العقلُ منه يُنسَل[2]

***

ما نظامٌ في شعوبٍ ، وسُنن ؟ ما تَرى التجديدَ في علمٍ وفنّ ؟[3]
أملٌ من قوة فيه ظَهَرْ بَرِحَ القلبَ فغشَّته صُوَر
كلُّ ما نملكُ من هذي الحواس كلُّ عضوٍ فيه للعيشِ التماس
كلُّ فكرٍ وخيالٍ واعتبار كلُّ حسٍّ وشعورٍ وادِّكارْ
هي آلات الحياة الجاهدة حين تَمضي في وغاها صامده
ليس قَصْد العِلم والفنِّ الفِكَر ليس قَصْد المرج ألوانَ الزهَر
إنَّما العلم وِقاءٌ للحياهْ إنَّه للذَّات تقويمُ النجاهْ
للحياة العلمُ والفنُّ خَدَم للحياة العلمُ والفنُّ حَشَم

***

جاهلاً سرَّ الحياة ! اجتهدِ وامضِ نشوانَ بخمر المقصدِ
مقصدٍ كالصُّبح في أنواره محرِقٍ كلَّ « سِوى » في ناره
مقصدٍ يجتاز آفاق السَّماءْ يأخذُ القلب بحُسنٍ وبهاء

---

(١) في هذا البيت وما بعده يضرب أمثلة لعمل الأمل في العالم . فيقول : إنَّ العين خلقت حينما قصد الإنسان الرؤية ، ورجل الحجلة خلقت من أجل السير والتبختر ، وحلق البلبل من أجل التغريد .

(٢) العقل كذلك من مواليد الأمل .

(٣) كلُّ نظامٍ في الناس وسنن وعلم وفن آمالٌ انبعثت من القلب بقوتها فتصوَّرت صوراً شتى .

ثـــورةٌ فيـــه وفيـــه محشـــرُ وعلـى البـاطـل حـربـاً يُسعِـر
نحـــنُ أحيـــاءٌ بخلـــق الأمـــلِ نحـــنُ فـي نـورٍ بهـذي الشُّعـل

* * *

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعِشْق

نُقَـط النُّـور التـي تُـدعـىٰ الـذواتْ شـــرر فـــي طيننـــا للْحَيَـــواتْ
مُشعَـلٌ بـالحـبِّ منهـا الجـوهـرُ يتجلَّـى مـن قـواهـا المُضمَـرُ
قطـرةٌ بـالعشـق تُـوعِـي ضـرَمـا وهـي بـالعشـق تُنيـر العـالَمـا[1]
لا يهاب العشقُ في السيف المَضاء ليـس مـنْ مـاءٍ وتـربٍ وهـواءْ
هـو فـي العـالـم صلـحٌ وخِصـامْ للحيـاة المـاء مـن هـذا الحُسـام
نظـرةُ العِشْـق بهـا شَـقُّ الصُّخـور هـو عشـقُ الحـقِّ ، والحـقَّ يَصير
فـابـغ فـي طينـك هـذي الكيميـاءْ اقبِسـنْ مـن كـاملٍ هـذا الضيـاء[2]
امـض كـالـرومـيِّ شمعـاً يَشتعـل وارم من تبريز في الروم الشُّعَل[3]
إنَّ فـي قلبـك معشـوقـاً ثـوى أقبِلَـن أنبئْـك عـن هـذا الجَـوى
عـاشقـوه قـد شَـأوْا كـلَّ جميـل حبُّهـم فـي كـلِّ قلـبٍ لا يَحـولْ
عشقُـه فـي القلـب نـورٌ أسفـرا للثُّـريـا يـرتقـي منـه الثَّـرى[4]
تُـربُ نجـدٍ منـه قـد خـفَّ وضـاء طـار وجـداً مُصعـداً نحـو السَّمـاء
مُهْجـةُ المسلـم مَثْـوى المصطفـى عِـزَّةُ المسلـم ذكـرى المصطفـى
مـوجـةٌ مـن نَقْعـه الطـورُ الأشـمّ داره ، للكعبـة العظمـى حَـرَمْ

---

(١) ترعي : تجمع وتدخر .
(٢) حذف بيت قبل هذا اختصاراً والكامل هنا الإنسان المرشد الذي يهدي المبتدىء .
(٣) إشارة إلى جلال الدين الرومي وشيخه شمس التبريزي الذي نقله من العلم إلى العشق ، والروم هنا أرض الروم ، وهي آسيا الصغرى .
(٤) المعشوق المذكور في هذه الأبيات هو الرسول .

ضـــاق عـــن آنٍ حـــواه الأبـــدُ مستمـــدٌّ مـــن مـــداه الأمـــد
آثـــرت سُحـــق حصيـــرٍ عِفَّتـــهْ وعلـــتْ تيجـــانَ كســـرى أمَّتُـــه
خلـــواتٌ فـــي حِـــرَاءٍ خَلَقـــا أمّـــةً مِنْهـــا وحُكمـــاً مُشـــرِقـــا
كـــم ليـــالٍ قـــد قضـــاهـــا ســـاهـــدا فحبـــا الأمـــة مُلكـــاً خـــالـــدا
سيفـــه فـــي الحـــرب قَطَّـــاع الحـــديـــدْ عينُـــه فـــي الـــذكـــر بـــالـــدَّمـــع تجـــود
سيفـــه « آميـــن » تمحـــو الظـــالميـــن حيـــن يـــدعـــو الحـــقُّ بـــالنَّصـــر المُبيـــن
سُنَنـــاً فـــي كـــوننـــا قـــد جـــدّدا ومـــن المـــاضيـــن مُلكـــاً بـــدَّدا
فتـــح الـــدُّنيـــا لـــه مفتـــاحُ ديـــنْ عقِمـــتْ عـــن مثلِـــه أمُّ السِّنيـــن
استـــوى مـــولّـــى لـــديـــه وغـــلام هـــو والعبـــد ســـواءٌ فـــي الطعـــام[1]

* * *

أســـرتْ فـــي غـــزوةٍ بنـــتُ الجـــواد مـــنْ عَـــلا طيَّـــاً بجـــدواه وســـادْ[2]
رجلهـــا فـــي القيـــد والـــرأس حسيـــرْ مُطـــرقٌ فـــي ذلِّـــه الطـــرفُ الكسيـــر
بُـــردةً ألقـــى عليهـــا ســـاتـــرا إذْ رأى وجهـــاً ورأســـاً حـــاســـرا
نحن أعرى في الورى من أختِ طيّ ليـس يكسـونـا لـدى الأقـوام شـي
هـــو فـــي الـــدنيـــا علينـــا ســـاتـــرُ وهـــو فـــي الحشـــر إلينـــا نـــاظـــر
لطفُـــه والقهـــر كـــلٌّ رحمـــةُ لصـــديـــقٍ وعـــدوٍّ رأفـــةُ
وبيـــومِ الفَتْـــح هـــذا الغـــافـــر قال : « لا تثريب » وهو القادر[3]
إننـــا مـــن قَيـــد أوطـــان بَـــراءْ نحـــن مـــن عينيـــن نـــور لا مِـــراءْ[4]

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر مثل : أنا عبد آكل أكلة العبد ، وأجلس جلسة العبد .

(٢) إشارة إلى قصة بنت حاتم الطائي حين جيء بها إلى المدينة في الأسرى فألقى عليها الرسول بردة وأطلقها .

(٣) إشارة إلى عفو الرسول يوم فتح مكة عن قريش وقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .

(٤) يعني : إننا كالبصر يصدر من عينين . هو واحد وإن اختلف مصدره .

نحن في مغربنا والمشرقِ ... كالنَّدى في وجه صبحٍ مُشرقِ
أسكرتْنا عينُ ساقٍ في البطاح ... كزجاجٍ نحن في الدنيا ، وراح[1]
قد محا الأنسابَ طُرّاً ذا العظيم ... نارُه قد أحرقت هذا الهشيمْ
نحن زَهرٌ وشَذانا ائتلفا ... ضمَّنا منه نظامٌ ألَّفا
نحن كنَّا سِرّه في قلبه ... فأذاعت صيحةُ الحقِّ به

* * *

عشقه ثارَ بعودي الصَّامتِ ... ألفُ لحنٍ في فؤادي السَّاكت
ما حديثي عن ولاءٍ واشتياقْ ؟ ... قد بكى جذعٌ مواتٌ للفراق[2]
صورتي قد أوضحتْ مرآتُه ... أنا صبحٌ أطلعتْ آياتُه
ثورةُ الحشر بليلي النائمِ ... وهدوئي في اضطرابٍ دائم
إنَّني البستانُ في آذاره ... في عروقي الماء منْ أمطاره[3]
قد غَرَسْتُ العين في حقلِ الوِداد ... من سراحِ العَيْن لي هذا الحصاد[4]
قد شأى الدارَين من يثربَ طِيب ... حبَّذا دارٌ بها مثوى الحبيب !
أنا للجاميِّ في الشعر فداءْ ... نظمه والنثر من جهلي دواء[5]
قال بيتاً بالمعاني يفهق ... فيه دُرٌّ منْ مديحٍ يبرُقُ :
« هو عنوان كتاب العالَمين ... سيِّد الكونين ، مولى الثقلين »

---

(١) نحن ممتزجون كما يمتزج الراح والزجاج .
فكأنما خمرٌ ولا قدح ... وكأنما قدحٌ ولا خمر

(٢) إشارة إلى قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عنده الرسول حين انتقل عنه إلى مكانٍ آخر .

(٣) هو بستان ناضر من مطر آذاره . والضمير للرسول ﷺ .

(٤) جمع ما جمع من المعاني من تسريح عينه في مآثر الرسول .

(٥) الشيخ عبد الرحمن الجامي من كبار العلماء والشعراء والصوفية في القرن التاسع الهجري .

كم يُريكَ العِشقُ من صهبائه ... فترى التقليدَ من أسمائه[1]
أحكِم العِشْقَ بتقليد الحبيبْ ... لتنال القربَ منْ ربٍّ مُجيب
في جِراء القلب فاقعدْ خاليا ... وإلى الحقِّ فهاجرْ راضيا
اقوَيَنْ بالحقِّ ثمَّ ارجع إليك ... واحطمنَّ اللاَّت والعزَّى لديك[2]
قوِّيَنْ بالعشق في سلطانه ... وابتغ الجلوة في فارانه[3]
تظفرنْ بالقربِ يا ذا السائلُ ! ... وتكن تفسير « إني جاعل[4] »

* * *

في بيان أنَّ الذَّات تضعفُ بالسُّؤال

أيها الجابي من الأسْد الخراجْ ! ... صِرْتَ كالثَّعلب خِبّاً باحتياج
ذلك الإعوازُ أصلُ العِلل ... كلُّ آلامك منْ ذا المُعضِل
سالبُ الرِّفعة من فكرٍ رفيعْ ... مطفىء الشَّمع مِنَ الذِّهن البديع
من كنوز الدَّهر أخرجْ ما تريد ... وخذِ الصَّهباء من دَنِّ الوجود
وعن الرَّحل ترجَّل كعمر ... احذَرن من منَّة الناس ، الحذَر[5]
صاح ! حتَّامَ اجتداءُ المنصِب ! ... فيم كالطفلِ ركوبُ القَصَب[6]
تجدِ الإفلاسَ بالسؤل أذلّ ... وترى السائلَ أخزى وأقلّ

---

(١) للعشق أشكال مختلفة منها التقليد أحياناً . وهو يدعو هنا إلى تقليد الرسول .
(٢) هاجر إلى الحق لتقوى ؛ ثم ارجع إلى نفسك فاحطم ما بها من أهواء .
(٣) فاران : اسم مكة أو جبالها .
(٤) إشارةً إلى الآية : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : لتكون خليفة الله في الأرض .
(٥) إشارة إلى قصة عمر حين سقطت درته من يده وهو راكب فنزل ليأخذها ولم يرض أن يناوله إيَّاها أحد .
(٦) ركوب عود من القصب أو الجريد كما يفعل الأطفال .

فـــرَّق الـــذاتَ ســـؤالٌ واجتـــداءْ ... فبـدت سينـاؤهـا دون ضيـاء[1]
إنْ يكـنْ فـي الـرزق والجَـدِّ غَنـاءْ ... وطغـىٰ حـولـك سيـلٌ مـنْ بـلاء
لا تـرُم فـي الأرض رزقـاً بـالبُكـاء ... لا تـرجَّ المـاء مـن عيـنِ ذُكـاء[2]
احـــذر الخـــزي أمـــام المصطفـــى ... يـوم يَخـزى كـلُّ سـاعٍ مـا وفَـى
مـن سمـاط الشَّمـسِ يقتـات القمـرْ ... فعليـه وَسـمُ نُعمـاهـا ظهـر[3]
جـــاهـــدِ الأيـــام والله استعـــنْ ... مـاء وجـه الملَّـة البيضـاء صُـنْ
علّـم النـاسَ الصـدوقُ الصـائـبُ ... أنْ « حبيـبُ الله سـاعٍ كـاسـبُ »[4]
ويـــح مـــنْ يحمـــل ذلَّ النِّعمـــةِ ... خـافـضَ الـرأس لثِقْـل المنَّـةِ
أرهـــقَ النَّفْـسَ بـوقـر الـذلَّـة ... بنقيـــرٍ بـــاعَ تـــاجَ العـــزَّة
مـرحبـاً بـالظـامـىء الضحيـانِ لا ... يسأل الخَضْـر شـراباً فـي الفـلا[5]
بسـؤالِ النَّـاس لـم يُنـد الجبيـنْ ... ذاكـم الإنسـانُ ، لا مـاءٌ وطيـن
تحت هذي الشمس يَمضي ذا الفتى ... عـالـيَ الـرأس كسَـرْوٍ قـد عتـا
زاد فـي العُسـر مضـاءً حـدُّهُ ... هـو يقظـانُ وغـافٍ جَـدُّه[6]
كُـن حَبـابـاً مـن عطـاءٍ ينفـرُ ... فـارغَ الكـأس ببحـرٍ يَـزخَـر[7]

* * *

---

(١) لا نور في سينائها يهدي إلى الحق . إشارة إلى قصة موسى .
(٢) لا تَسأل الماء ولو من عين الشمس .
(٣) السِّمة التي على وجه القمر سمة اجتدائه نور الشمس .
(٤) إشارة إلى الأثر : الكاسبُ حبيب الله .
(٥) لا يطلب من الخضر شربة ماء . وعند الخضر ماء الحياة كما في القصص .
(٦) همته يقظانة وإن كان جده نائماً .
(٧) يتخيل الشعراء حباب الماء كأساً فارغةً وهي في البحر . فضرب الشاعر الحباب مثلاً في العفة والإباء .

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعشق فتسخِّر قوى العالم الظاهرة والباطنة

أمرُها في الكون طرّاً يَحْكُمُ ... حينما الذَّات بعشقٍ تُحكم[1]

يدُها من قوَّة الحق أثرْ ... فإذا ما أومأت شُقَّ القمر

في خصومات الورى أقوى حَكَمْ ... صاغرٌ في حكمها داراً وجمْ[2]

اسْمعَنْ منِّي حديثاً عن وليّ ... اسمه في الهند مشهورٌ عليّ[3]

ذلك الصَّداح في المرج القديم ... قصَّ أخباراً عن الورد الشميم :[4]

سالكٌ سكران من خمرته ... قصد الأسواق في بغيته

وأتى العاملُ في موكبه ... معه الحرَّاسُ قد حفَّتْ به

صاحَ للتطريقِ جنديٌّ نكير ... أيها الأحمقُ أفسح للأمير

ومضى الدَّرويش في تسياره ... غارقاً في اللجِّ من أفكاره

فأتى ربُّ العصا في شرَّته ... ضارباً رأس الفتى في غفلته

فتنحَّى عن طريق العامل ... وهو في ذعرٍ وحزنٍ قاتل

ومضى يشكو إلى شيخ الطريق ... دمعُه من محبس العين طليق

---

(١) تحكم أي : تصير قويةً محكمة .

(٢) دارا وجمشيد من ملوك الفرس القدماء .

(٣) الشيخ أبو علي قلندر من كبار صوفية الهند في القرنين السابع والثامن . والقصة التي يشير إليها الشاعر وقعت بين الشيخ والسلطان علاء الدين الخلجي . وخلاصتها أنَّ أحد مريدي الشيخ ذهب إلى السوق ، وكان موكب العاهل قادماً ، فنادى أحد الحرس الدرويش ليفسح الطريق فلم ينتبه فضربه على رأسه فذهب إلى شيخه شاكياً ، فكتب الشيخ إلى السلطان : إما أن تعزل عاملك أو أنصِّبْ مكانك ملكاً آخر . فخاف السلطان وأرسل الشاعر الكبير أمير خسرو وكان ماهراً في الموسيقا فغنى بعض شعره على الرباب ، فلما آنس من الشيخ قبولاً أبلغه رسالة السلطان يطلب عفو الشيخ فعفا عنه . ويريد إقبال بهذه القصة بيان قوة النفس التقية المستغنية .

(٤) هذا البيت يشير إلى مطلع قصيدة فارسية للشيخ أبي علي قلندر فيها ذكر البلبل والورد .

زمجرَ الشَّيخ بقولٍ من ضَرَم ... مثلَ برقٍ في ذُرى الطَّود اضطرم
ثم أملى الشَّيخ سطراً من لَهبْ ... قال للكاتب في نار الغضبْ :
أمسكِ المِزْبَر واكتبْ ذا النذير ... أبلغ السُّلطان عن هذا الفقير :
« عاملٌ عندك غرٌّ قد عصى ... وعلا رأس غلامي بالعصا
اعزلِ العاملَ ، هذا الفاجرا ... أو أهَبْ مُلكك مَلْكاً آخرا »
عبدٌ حقٌّ فيه لله احتساب ... أرعدَ السلطانَ منه ذا الكتاب
آدهُ غمٌّ وخوفٌ لا يحول ... فحكى في لونه شمسَ الأصيل
قيَّد العاملَ بالقيدِ الثَّقيل ... واستغاث الشيخَ للصَّفح الجميل
ورأى خُسرو له خَيْرَ سفير ... ذلكَ الكوكبَ وضَّاء الضَّمير[1]
ساحرَ الألباب في ألحانه ... مستمدَّ الغيب في تِبيانه
ولها خسرو بأوتار الرَّبابْ ... فأهاج الشيخَ وجْداً وأذاب
فطرةٌ كالطَّوْد في عزّتهِ ... خَشَعتْ لِلَّحْنِ في رقَّته
احذرنْ لا تجرحَنْ قلبَ فقيرْ ... لا تزُجَّ النَّفس في نار السَّعير

***

قصة في معنى أن مسألة نفي الذَّات من مخترعات الأمم المغلوبة لتضعف الأمم الغالبة بهذه الطريقة الخفية

قد سمعنا أنَّ في عصرٍ قديم ... جَمْعَ ضأنٍ كان في مَرعىً يُقيمْ
وفَرَتْ نسْلاً بذا المرعى الخصيب ... فارغاتِ البال من ليثٍ وذيبْ
ثمَّ ألْوَى بمُناهنَّ القدَر ... ورمَى بالسَّهم فيهنَّ الدَّهر
دهمتها الأسدُ من آجامها ... ناشراتِ الذُّعْرِ في أيَّامها
آيةُ القوَّةِ حكمٌ قاهرُ ... سرُّها الظاهر فتحٌ ظافرُ

---

(١) أمير خسرو الدَّهلوي من كبار الشعراء في القرن الثامن الهجري .

ضـربَ الليـثُ طبـول النـوبـة ... آخـذاً آفـاق هـذي الثَّلـة[1]

وكسـا المَـرعـى بصبـغٍ أحمـرا ... ما سِوَى الفَرسِ لدى أسد الشَّرى

وانبـرى كبـش ذكـيٌّ ذو عُمُـر ... جـرَّب الأحـداث مـن حُلـوٍ ومُـرّ

غمَّـه مـا قـد يعـانـي سِـربُـه ... مـن فِعـال الأسْـد يَـدمَـىٰ قلبُـه

أمـرَه أحكـمَ فـي تـدبيـره ... وهـو يشكـو الـدَّهـر فـي تقديـره

بـاحتيـال العقـل يحمـي نفسـه ... كـلُّ رِخـوٍ ليـسَ يـرجـو بـأسـه

قـوة التـدبيـر فـي دفـع الضـرر ... فـي زمـانِ الضَّعـف أقـوى وأمـرّ

فـإذا مـا ثـارَ للثـأر الجنـونْ ... صـار عقـلُ العبـد خـلاَّق الفتـون

قـال : أمـرٌ حـار فيـه العـاقـلُ ... بحـرُ عـمٍّ ليـس فيـه سـاحِـلُ[2]

كيـف للضـأن فـالُ الأسَـدِ ... سـاعـدٌ رِخـوٌ وفـولاذُ يـدِ[3]

ليـس وعـظٌ مـنْ بليـغٍ قـادرا ... أن يـردَّ الكبـش ذئبـاً كـاسـرا

لكـنِ الليـثُ رآه حَمَـلا ... إنْ سهـا عـن نفسِـه أو غفَـلا

فـادَّعـى فـي القـوم دَعـوى مُلهـم ... مـرسَـلٍ لـلأسـد شُـرَّابِ الـدم[4]

قـال : كـلُّ القـوم « كـذَّابٌ أشـرْ » ... غـافـلٌ عـن يـوم نحسٍ مستمـرْ[5]

جئـتُ للنَّـاس بشـرعٍ مُحكَـم ... إنَّنـي النُّـورُ لطَـرْف مُظلِـم

عجَّلـوا التـوبـة عـن كـل قبيـح ... واتـركـوا الحـر إلـى الفعـل الـربيـح

ويـح جَلْـدٍ أُحكمـت فيـه قُـواهْ ... « نفـي ذاتٍ » هُـو إحكـام الحيـاه[6]

---

(١) طبل النوبة كان يضرب في أوقات معينة على أبواب الملوك .

(٢) قال الكبش . . إلخ .

(٣) ساعد الضأن ويد الأسد .

(٤) فادَّعى في القوم . أي ادعى الكبش .

(٥) « كذاب أشر » و« نحس مستمر » اقتباس من القرآن . جاء في الأصل .

(٦) مذهب إقبال قائم على أن الخير في إثبات الذات والشر في نفيها .

علَفُ العُشبِ به الروح تطيبْ ... عائفُ اللَّحم إلى الله قريبْ
حدَّةُ الأسنان عارٌ مُبرَم ... بَصَرُ الإدراك منها يُظلم
إنما القوةُ خسرانٌ مبينْ ... خُصَّت الجنَّةُ بالمستضعفين
طلبُ السُّلطان شرٌّ مستطيرْ ... خيرٌ الفاقة من عزّ الأميرْ
تأمنِ الحبَّةُ برقاً مُحرِقا ... وترى البيدرَ منه محرَقا[1]
ذرةً كُنْ لا كثيباً أفيحا ... لتنال النُّور من شمسِ الضُّحى
قُلْ لمن يُزهَى بذبحِ الغنم ... اذبح النَّفس بحقٍّ تغنَمِ
يقطع السُّبْل على هذي الحياه ... قوةٌ فيها وسلطانٌ وَجاه
يوطأ العشبُ فينمو صُعُدا ... يفتح الأعينَ من بعد الرَّدى[2]
أغفِلَنْ نفسكَ إمَّا تعقلِ ... إنَّما المجنونُ منْ لم يُغفِل
اسدُدنْ عيناً وأُذناً وفما ... ليجوز الفكر أقطارَ السَّما[3]
هذه الدنيا فناءٌ في فناء ... إنَّها وهمٌ فما فيها رجاء
كانتِ الأسْدُ جهاداً مَلَّتِ ... نازعاتٍ نحو عيشِ الدَّعة
عن هوىً أصغتْ إلى النُّصح المُنيمْ ... فدهاها الكبش بالسِّحر العظيم
كان فَرس الضأن من سُنَّتها ... فاقتدت بالضأن في شِرْعتها
جوهرُ الآسادِ أضحى خزَفا ... حين صار القوتُ هذا العلَفا
ذهب العُشبُ بنابٍ ذي أشَر ... أطفأ الأعينَ ترمي بالشَّرَر
ذلكَ القلبُ عن الصَّدر نأى ... جوهر المرآة فيها صَدِئا
فذوى في القلب شوق العَملِ ... وهُيامُ السَّعي خَلْف الأمل
ذهب الإقدامُ والعزمُ الأليلْ ... والسَّنا والعزُّ والمجدُ الأثيلْ

---

(١) الحبة الواحدة لا تبالي بالبرق ولكن البرق يحرق البيدر الكبير .

(٢) يداس العشب فينمو . فالذلة فيها نفع .

(٣) لعل فيها إشارة إلى ما يفعله نساك الهند ، وإلى الصورة التي تمثل ثلاثة قرود واحدٌ يسد فمه ، والثاني أذنيه ، والثالث عينيه .

بُـرثـن الفـولاذِ فيهـا قـد وَهَـنْ ... واستكـان القلـب فـي قبـرِ البـدن
ونمـا الخـوفُ بنقـص المنَّـة ... قَطَـع الخـوفُ جـذور الهمَّـة
كـلُّ داءٍ فـي سقـوط الهمـم ... يجعـل الأحيـاء مثـل الـرِّمَـم
نـامـت الأسـد بسحـر الغنـم ... سمَّـتِ العجـزَ ارتقـاءَ الأُمـم

* * *

في بيان أنَّ أفلاطون اليوناني الذي أثَّرتْ آراؤه في تصوُّف المسلمين وآدابهم كان على هذه الطريقة الغنميَّة ، وأن الاحتراز من آرائه واجبٌ

راهـبُ المـاضيـن أفـلاطُ الحكيـم ... منْ فريق الضأن في الدَّهر القديم
طَـرفُـه فـي ظُلمـة المعقـول ضـلّ ... فـي حـزون الكَـوْن قـد أعيـا وكـلّ
فكـرُه فـي غيـر محسـوسٍ فُتِـن ... صـدَّ عـن كـفٍّ وعَيـن وأُذن[1]
قـال : فـي المـوت بـدا سرُّ الحيـاه ... فـي خمـود الشَّمـع يـزدادُ سنـاهْ
حُكْمُـه فـي فكـرنـا جـدُّ عظيـمْ ... يمحـق الـدُّنيـا لـه جـامٌ مُنيـم
هـو شـاةٌ فـي لبـاس الآدمـيّ ... وهـو فـي الصـوفـيّ ذو بـأس قـويّ
عـالـمَ الأشيـاء سمَّـاه الهـراء ... وعَلَـتْ أفكـارُهُ فـوق السَّمـاء
فعلُـه « تحليـلُ أجـزاءِ الحيـاه » ... وجفـاف النَّبـع مـنْ مـاءِ الحيـاه
زعـم الخسـرانَ ربحـاً فكـرُهُ ... ودعـا الكـونَ فنـاءً سحـرُه
فكـرهُ يُغفـي ورؤيـا يخلُـقُ ... عينـه تُبصـر آلًا يَبـرُق[2]
حُـرمَ المسكيـنُ حـبَّ العمـلِ ... فقفـا معـدومَـه لا يـأتَلـي

---

(١) أعرض عن الحوَّاس .

(٢) يؤمن بعالم الأحلام لا عالم اليقظة ، ولا تبصر عينه الماء ، ولكن تبصر السراب . الآل : السَّراب .

منكـراً فـي الكـون مـا لا يُفقـد ... خـالقـاً فـي الكـون مـا لا يُشهَـد
عـالـمَ الإمكـان للحـيِّ وطـن ... عـالـم الأعيـان للميْـتِ حَسَـن[1]
ظَبيـةُ مـن خفـة لا يَجفـلُ ... غيـرُ خطَّـارٍ لـديـه الحجَـلُ[2]
لـم يُـلالـيء عنـده قطـرُ النَّـدى ... طيـرُه مـا فيـه صـوتٌ قـد شـدا
حبـةٌ فـي أرضـه تـأبـى النمـاءْ ... وفـراشٌ عنـده يلقـى الضيـاء[3]
فـي وغـى العـالـم نكـسٌ مُحجـمُ ... مُشفـقٌ راهبُنـا لا يُقـدم
قلبُـه يَعشـو لنـارٍ خـامـدهْ ... صـوّرتْ عينـاه دنيـا هـاجـدهْ
طـار مـن عـشٍّ إلـى الأوج العَلـيّ ... ثم لم يرجع إلى العش الخليّ[4]
هُلـك أقـوام بهـذا الثَّمَـل ... حُـرِمُـوا بـالنَّـوم ذوق العمـلِ

* * *

في حقيقة الشعر ، وانسلاخ الآداب الإسلامية

حـرقـةُ الإنسـانِ مـن كـور الأمـلْ ... نارُ هذا الطِّين من نورِ الأمل[5]
إنَّـه الخمـرة فـي كـأسِ الحيـاهْ ... وبـه وقـدةُ أنفـاسِ الحيـاه
الحيـاة الحـقُّ تسخيـرُ الـدُّنـى ... وإلـى التسخيـر تَـدعـوهـا المُنَـى
هـي للمقصـودِ فـي الـدُّنيـا سبيـل ... وهـي للعِشْـقِ مـن الحسـن رسـول

---

(١) الحي يعيش في عالم الإمكان ، عالم الحس ، والميت يعيش في عالم الخيال ، عالم الأعيان عند أفلاطون وهذا ردٌّ على أفلاطون .

(٢) خلق أفلاطون عالماً لا يثب ظبيه ولا يتبختر حجله . والحجل طير جميلة في مشيها تبختر .

(٣) الحبة في طبيعتها النمو والفراش في طبعه حب الضوء ولكن حبة أفلاطون تكره النمو ، وفراشه يكره الضوء .

(٤) رأى إقبال أن يخلق الفكر ليعود إلى عالم الحسّ ، لا ليبقى في عالم التفكير والتخيُّل .

(٥) الكور : مجمرة الحداد .

أمـــلُ الإنســـان أنَّـــى يظهـــر ... كيف يشجو الحيَّ هذا المزهرُ؟
كـــلُّ خيـــرٍ وبهيـــجٍ وجميـــل ... هـو فـي بيدائنا نعم الدَّليلْ[1]
حُسنُـه فـي القلـب نـورٌ يَسْطـعُ ... تجـــد الآمـــال منـــه تطلُـــع
خُلِـــقَ الحســـنُ نضيـــرَ الأمـــل ... وأدام الحســـنُ نـــورَ الأمـــل

* * *

مطلـعُ الحسـنِ ضميـرُ الشَّـاعـر ... طُـورُه صبـحُ الجمـالِ البـاهـر
زادتِ الحسـنَ جمـالًا نظـرتُـهْ ... زادتِ الفطـــرةَ حبّـــاً صنعتُـــه
غـــرَّد البلبـــلُ مـــنْ تلحينـــه ... ضـاءَ خـدُّ الـوَرْدِ مـن تلـوينـه
نـــاره كـــلَّ فَـــراش كـــاويـــهْ ... قِصـــصُ العشَّـــاق منـــه زاهيـــهْ
مُضمَّـرٌ فـي خَلفـه بحـرٌ وبـرّ ... ألْـف كـونٍ محـدَثٍ فيـه استتـر
كـم شقيـقٍ فـي الحشـا لـم يطلُـعِ ... وغنـــاهُ وبُكَـــى لـــم يُسمَـــع[2]
فكـــره للبـــدر والنجـــم نجـــيّ ... يُبـدع الحسـنَ ، وفـي القبـح عيـيّ
خَضِـرٌ فـي ليلـه مـاءُ الحيـاهْ ... تُـزهـرُ الأكـوانُ مـنْ مـاءِ بُكـاه[3]
نحـــن أغـــرارٌ بطـــاءُ الأرجُـــل ... ضـلَّ سـارينـا طـريـقَ المنـزل
لطُفـــتْ فـــي سَيـــرنـــا حيلتُـــه ... وَعَلـــتْ فـــي ركبنـــا نغمتُـــه
يحفـز الـرَّكـب لفـردوسِ الحيـاه ... ويُتـمُّ الـدَّور فـي قـوس الحيـاه[4]
فمضـى الـركبـانُ إثـر الجـرَس ... وشـدا الحـادي بصـوتٍ مـؤنِـس
وســرَت فـــي زَهـــرنـــا نفحتُـــه ... مـذ سـرت فـي روضنـا نسمتُـهُ
نفـــسٌ منـــه حيـــاةٌ تُـــزهـــرُ ... حُـــرَّةٌ لـــوَّامـــةٌ لا تصبـــرُ

---

(١) يقول : إنَّ الأمل وسيلةُ العمل ، والأمل يخلقه الميل إلى الخير والجمال .
(٢) ضمير الشاعر فيه شقائق لا يراها الناس ، وفيه بكاء وغناء لا يسمعونه .
(٣) إشارة إلى قصة الخضر واهتدائه إلى ماء الحياة في أرض الظلمات .
(٤) يكمل دائرة الحياة .

يـــأدِبُ النـــاس جميعـــاً للقِـــرى نـارُه كـالـرِّيح تسـري فـي الـورى

* * *

ويـــلُ قـــومٍ لهـــلاكٍ طـــائـــرُه صـــدَّ عـــن ورد حيـــاةٍ شـــاعـــرُهْ
كـــلُّ حُسْـــنٍ شـــاهَ فـــي مـــرآتـــه فـي الجسـوم السُّـمُّ مـن جَـرعـاتـه
تُـــذبـــلُ الأزهـــارَ منـــه القُبَـــل ويُعـــاف الشَّـــدوَ منهـــا البلبـــلُ
تهِـــن الأعصـــابُ مـــنْ أفيـــونـــه ويمـــوتُ الحـــيُّ مـــن تلحينـــه
يسلـــب السَّـــروَ جميـــلَ المَيَـــل ويـــردُّ الصقـــر مثـــلَ الحَجـــل[1]
هـــو حُـــوتٌ نصفـــه كـــالآدمـــيِّ كبنـــات البحـــر تقتـــاد الغـــويّ[2]
يُسحـــر الـــربَّـــان منهـــا بـــاللحـــون ولقـــاع البحـــر تهـــوي بـــالسَّفيـــن
يسلـــب القلـــب ثبـــاتـــاً لحنُـــه ويُـــري المـــوت حيـــاةَ فنِّـــه
يُلبـــس النَّفـــع لبـــاسَ الضَّـــرر ويُـــري الحســـنَ قبيـــحَ الصُّـــور
فـــي بحـــار الفكـــر يُلقيـــك فـــلا تشتهيـــه أو تطيـــقُ العمـــلا[3]
شِعـــره فينـــا يـــزيـــد الكلـــلا كـــأسُـــه فينـــا تـــزيـــد المَلـــلا
سَيـــلَ بـــرقٍ مـــا حَـــوىٰ نيســـانُـــه آل لَـــونٍ وشـــذًا بستـــانـــه[4]
فنُّـــه بـــالحـــقِّ لا يعتـــرف بحـــرُه مـــا فيـــه إلا الصَّـــدَفُ
نـــوَّمـــتْ ألحـــانُـــه يقظَتنـــا أطفـــأت أنفـــاسُـــه شعلتنـــا
بلبـــلٌ سُـــمُّ قلـــوبٍ نغَمُـــه ضِغْـــثُ وردٍ فيـــه ينـــوي أرقمـــه
خمـــره الـــلألاءةَ اتـــرك واحـــذرِ كـــأسَـــه والطـــاسَ والـــدَّنَّ اهجـــرِ

---

(١) السَّرو : شجر طويل يصفه الشعراء بالرشاقة والتمايل .

(٢) بنات البحر : حيتان خرافية نصفها الأعلى كالإنسان ، تغوي الملاحين بأنغامها حتى تغرق السفن .

(٣) أي لا تشتهي العمل ، ولا تطيقه .

(٤) نيسان من شهور الربيع يكثر فيه المطر . وهذا الشاعر الذي يصفه إقبال ليس في نيسانه سيل من البرق ، أي ليس في سحابه برق ولا مطر . وقد شبه إقبال وميض البرق بالسيل . والآل : السراب ؛ أي : بستانه سرابٌ من اللون والرائحة .

يـــا صـــريعـــاً خمـــرَهُ يَغْتَبـــقُ ... لـكَ صبـحٌ مـنْ سنـاهـا مشْـرِقُ
يـا بَـرودَ القلـب مـن ألحـانـه ... قـد شـربـت السُّـمَّ مـن تبيـانـه
يـــا دليـــلاً للـــرَّدى أفكـــارُهُ ... عُطِّلَـــتْ مـــنْ نغـــمٍ أوتـــارُه
أنـــت للـــذُّلِّ أرحـــتَ البـــدنـــا ... أنـت لـلإسـلام عـارٌ فـي الـدُّنَـى
مـنْ نسيـمٍ مَـرَّ يَـدمَـى خَـدُّكـا ... بعـروق الـورد يُلـوى قـدُّكـا
أخـزتِ العِشـقَ دُجَّـى صيحـاتُكـا ... غـضَّ مـن صـورتـه بهـزادُكـا[1]
شـاحـبَ الـوجـه بـدا مِـنْ ضُـرِّكـا ... بـردتْ نيـرانُـه مِـنْ قُـرِّكـا
عـــاجـــزُ الهمَّـــة مِـــنْ ذِلَّتكـــا ... وعليـــلُ الـــرُّوح مـــن عِلَّتكـــا
أدمـعُ الأطفـال فـي كـاسـاتـه ... كنـزه مـا اعتَـدَّ مـن آهـاتـه
آه مِـــنْ وغـــدٍ ذليـــلٍ يـــائـــس ... هـالـكٍ مـن رَكَـلات الحـارس[2]
صـار كـالنـاي هـزيـلاً نـائحـا ... شـاكـيَ الأقـدار جهـلاً صـائحـا
ليـس إلا الحقـدُ فـي جـوهـرِهِ ... ليـس إلا العجـزُ فـي مخبـره
يـائـسٌ فَسـل حليـف الخيْبـة ... شِقْـوَةٌ فـي خِسَّـةٍ فـي ذلَّـة[3]
نَـوحُـه روحُـك منـه فـي سَقـامْ ... قـد حمَـى جيـرانَـه طيـبَ المنـامْ
ويـحَ عشـقٍ قـد ذكـا فـي الحـرَمِ ... نـارُه بـاخـت ببيـت الصَّنـمِ !

* * *

صيـرفـيَّ القـول ! إن تبـغ النَّجـاهْ ... فـاجعلـنْ معيـارَه نـارَ الحيـاه
نيِّـــرُ الفِكْـــرِ يقـــود العمـــلا ... مثـلَ بـرقٍ قـادَ رعـداً جلجـلا

---

(١) بهزاد : مصور إيراني ماهر . يقول إقبال : إنَّ هذا الشاعر شوَّه صورة العشق . وفي الأبيات التالية يبين ما أصاب العشق من الذلة والخور على لسان شاعر السوء .

(٢) يستجدي أو يحاول السَّرقة فيركله الحارس .

(٣) هذه الأوصاف تعرب عن غيظ إقبال من الشعراء الذين أذلوا الآداب الإسلامية .

مـنْ بفكـرٍ صـالـحٍ فـي الأدب ؟ ... ارجعَـنْ يـا صـاحِ شطـر العـرب[1]
وسُلَيْمـى العُـرب يـا صـاحِ اعشقـا ... لتـــرى صبـــحَ الحجـــازِ ائتلقـــا
فـي ريـاض العجـم قطَّفـتَ الـزهَـرْ ... فـي ربيـع الهنـد سـرَّحـت البصـر
مـن حَـرور البيـدِ فـاشـربْ يـا رفيـقْ ... واشـربـنْ مـن تمـرهـا الـراحَ العتيـقْ
أسْلِمَـنْ رأسـكَ يـومـاً صـدرَهـا ... وأَلْقِيَـنْ فـي حـرِّهـا صـرصَـرهـا
قـد لبسـت الخـزَّ طـول الـزمـنِ ... فـألـفِ الكِـرْبـاس يـومـاً واخشُـنِ
كم وطئتَ الورد في طول المدى ... غـاسـلاً ، كـالـورد ، خـدّاً بـالنَّـدى
فعلـى رمـلِ الضَّحـارى المُضـرَمِ ... أقـدِمَـنْ يـومـاً وغُـصْ فـي زَمـزمِ
فيـم هـذا النـوحُ مثـلَ البلبـل ؟ ... وإلام العُـشُّ بيـن الظُّلـلِ ؟
قـد عـلا جـدُّ الهُمـا مـن صيـدكـا ... اجعلـن في الطود مثوى عُشِّكـا[2]
ابـن عُشّـاً حيـث لا تَـرْقـى الأنـوقْ ... تختفـي فيـه رعـودٌ وبـروقْ[3]
لتُـرى أهـلاً لأعصـار الحيـاهْ ... وتُـذيـبَ النَّفسَ فـي نـار الحيـاهْ

* * *

---

(١) إقبال معجب بالعرب الذين حملوا رسالة الإسلام إلى أقطار الأرض لا يصدُّهم شيء ، ويكبر الهمة والقوة والصبر فيهم ، ويمدح الأدب العربي القوي .

(٢) الهما : طائر خرافي إن سقط ظله على إنسان صار ملكاً ، والشاعر هنا يخاطب المسلم قائلاً إن الهما الذي يمنح الناس الحظ قد علا حظه بأنك صدته فأنت أعلى منه . فارفع عشك فوق الجبل .

(٣) الأنوق : العقاب .

في بيان أنَّ للتربية الذَّاتية ثلاث مراحل :
الأولى : الطَّاعة ، والثانية : ضبط النفس ، والثالثة : النيابة الإلهية

المرحلة الأولى
الطَّاعة

أَلْفَــةُ الكــدِّ شعــارُ الجمــلِ ... شيمــةُ الصَّبــر وَقــارُ الجمــلِ
صــامــتَ الأخفــافِ يمشــي مــاضيــا ... زَورقــاً فــي البيــدِ يَسـري هــاديــا
نقشــت وجــهَ الصحــارى أرجُلُــهْ ... شــاردَ النَّــوم قليــلاً أكُلــهْ
ثمِــلاً يختــالُ تحــتَ المحمَــل ... راقصــاً يُقــدمُ شطــر المنــزلِ
فــي المَــدى مــن راكبيــه أصبــرُ ... هــائــمٌ بــالسيــر عُجبــاً يَخطِــر

* * *

فــاحمــلِ الفَــرضَ قــويــاً لا تهــابْ ... وارجونْ منْ عنده حُسْنُ المآب[1]
اجهــدَنْ فــي طــاعــةٍ يــا ذا الخســارْ ... فَمِــنَ الجبــر سيبــدو الاختيــار[2]
بــامتثــال الأمــر يعلــو مــنْ رسـبْ ... وهَــوى الطَّــاغي ولــو كــانَ اللَّهــب
سخَّــر الأفــلاكَ فــي همَّتــهِ ... مــن ثــوى فــي القَيــد مــن شـرْعتِــه
قــد ســرى النَّجــمُ يــؤمُّ المنــزلا ... طــوعَ قــانــون لــه قــد ذُلِّــلا
ونمــا العشــب بقــانــون النَّمــاءْ ... فــإذا مــا حــاد يُجفَــى بــالعــراءْ
ولهيــبٌ دائــمٌ ديــنُ الشَّقيــقْ ... دمُه منْ ذاك يسري في العروق[3]
يــربــط الــذَّراتِ قــانــونُ الــوصــالْ ... فهــي بحــرٌ وهــي بــرٌّ بــاتصــال

---

(١) اقتباس من القرآن . وهو في الأصل .
(٢) إذا وفق الإنسان بين نفسه وبين القانون أطاع القانون مختاراً لا مجبراً .
(٣) الشقيق : شقائق النعمان . وهي في الشعر مثال الوجد والاحتراق .

كـلُّ شـيءٍ فيـه قـانـونٌ سـرى ... كيف في هذي المعاني يُمترى ؟[1]
ارجعـنْ يـا حُـرَّ دُستـورٍ قـديـمْ ... زَيّنـنْ رِجْلَـكَ بـالقيـد الـوسيـمْ
شـدّةً فـي شـرعنـا لا تشكـوَنْ ... وحـدودَ المصطفـى لا تعـدُونْ[2]

***

المرحلة الثانية
ضبطُ النَّفس

جَمـلٌ نفسُـك تـربـو بـالعلَـف ... فـي إبـاءٍ وعنـادٍ وصلَـفْ
فكُـنِ الحـرَّ وقُـدْهـا بـزمـامْ ... تبلُغـنْ مـن ضبطهـا أعلـى مَقـامْ
كـلُّ مـن فـي نفسـه لا يحكـمُ ... هـو فـي حُكـم سـواه مُـرغَـمُ
إنَّمـا صـوِّرت مـن طيـن لَـزِبْ ... سيط في أمْشاجه خوفٌ وحبّ :
خيفـةُ الـدُّنيـا وخـوفُ الآخـره ... خـوفُ مَـوتٍ ورزايـا فـاقـره
حـبُّ جـاهٍ وثـراءٍ وبلـدْ ... حُـبُّ زوجٍ وقـريـبٍ وولـدْ
مـن مـزاج الطِّيـنِ والمـاء البـدن ... مَـركـبُ الأهـواء ، مَغلـوبُ الفِتـن
مـنْ يَمسَّـك بعصـاً مـن « لا إلـه » ... فلتحطِّـم طِلْسـم الخـوف يـداه[3]
كـلُّ مـن بـالحـقِّ أحيـا نَفْسَـهُ ... لا تـرى البـاطـلَ يُحنـي رأسَـهُ
ليـسَ يـدنـو الخـوفُ منـه أبـدا ... ليـس ، غيـرَ الله ، يخشـى أحـدا

---

(١) في الأبيات السابقة ضرب الشاعر أمثالاً مختلفة لسير الأحياء والأشياء على قوانين .

(٢) ينصح المسلم بالتزام الشرع واحتمال شدته . فهذا قانون لا يسعد الإنسان بدونه . ويقول للمسلم كنت حراً باتباع دستورك القديم فارجع وقيد رجلك بهذا القيد الجميل ، ففي هذا القيد حريتك لا عبوديتك .

(٣) لا إله : اختصار لا إله إلا الله . وهكذا يستعملها الشاعر في كثيرٍ من شعره . قوله : إنما السبيل إلى إبطال طلسم الخوف أن تمسك عصا من التوحيد كعصا موسى تبطل السحر .

كـلُّ مـنْ مـوطنُـه إقليـم « لا » مـنْ قيـودِ الـزَّوج والـولـد خـلا[1]
مُعـرضٌ عمـا سـوى الله الأحـدْ يضـعُ السكِّيـن فـي حلـق الـولَـدْ[2]
واحـدٌ مـن نفسـه فـي عسكـرِ يبـذلُ الـرُّوحَ بيـومِ الخطَـرِ

* * *

درَّةُ التـوحيـد ، فـاحفظهـا الصـلاة حَجُّك الأصغر ، فاعرفها الصلاة
فـي يـد المسلـم هـذا الخنجـرُ يُقْتَـل الفحـشُ بـه والمنكـرُ
يفتـك الصـومُ بجـوعٍ وصـدَى ضـابطـاً بـالقسـط هـذا الجسـدا
وينيـرُ الحـجُّ قلـبَ المـؤمـنِ هجـرةُ الأهـل بـه والـوطـنِ
إنَّمـا الطـاعـة أسُّ الأمـة إنهـا خيـطُ كتـاب الملَّـة[3]
بـالـزكـاة العـابـدُ المـالِ ادَّكـرْ علَّمـت حـبَّ المسـاواة البشـرْ
تُكثـرُ المـالَ ، وشُحَّـاً تمحـقُ « لـن تنـالـوا البـرَّ حتـى تنفقـوا »
تلـك أسبـابٌ بهـا تَستحكِـمُ إنْ يكـنْ فـي القلـب ديـنٌ مُحكـم
اقـوَ يـا مـؤمـنُ بـالله القـويّ تحكُمَـن فـي ذلـك البَكـر الأبـيّ[4]

* * *

المرحلة الثالثة

النيابة الإلهية

إنْ خَطمتَ الصَّعبَ قُدْتَ العالما نـافـذَ الأمـرِ عليـه حَكَمـا[5]

---

(١) لا إشارة إلى نفي ما سوى الله .
(٢) يضع السكين في حلق ولده كإبراهيم الخليل .
(٣) خيط الكتاب ما تضم به صفحاته بعضها إلى بعض .
(٤) البكر : الجمل الفتي ، ويراد به الجسد مسايرة للتشبيه الذي بدأ به الفصل .
(٥) لا يزال الشاعر في تشبيه الجسد بالجمل . فالصعب هنا الجمل غير الذلول .

مشرقاً في الأرضِ ما دارَ الفلك ... فترى المُلك الذي يخلُد لكْ
نائبُ الحقِّ على الأرض سعيدْ ... حكمُه في الكون خُلْدٌ لا يبيدْ
هو بالجزءِ وبالكلِّ خبير ... وبأمر الله في الأرض أميرْ
في فسيح الأرض يمضي طاويا ... وعزمُه ، هذا البساط البالياً[1]
ينجلي منْ فكره مثلَ الزَّهر ... غيرَ هذا الكون أكوانٌ أخر[2]
يُنضج الفكرة فينا بالضَّرَمْ ... يُخرج الأصنام من بيت الحرمْ
رنَّ عودُ القَلْبِ من مضرابه ... يَقظٌ في الحق نومانُ به[3]
باعثٌ في الشَّيب ألحان الشبابْ ... ناشرٌ في الكون ألوان الشَّباب
هو في الناس بشيرٌ ونذيرْ ... وهو جُنديٌّ وراعٍ وأميرْ
مقصدٌ من « علَّم الأسما » هُوَه ... سرُّ « سبحان الذي أسرى » هُوَه[4]
مُحضرٌ منْ تحته طِرفُ الزَّمانْ ... حينما يُمسِكُ منه بالعنان[5]
يبعث الأرواحَ منه قولُ « قُمْ » ... وهي إلى أبدانِها مثلُ الرَّمم[6]
ذاتَه تتبَعُ ذاتُ العالَم ... سطوةٌ فيه نجاة العالَم
يبعث الميتَ بإعجازِ العملْ ... قِيَمُ الأعمالِ منه في بدَل[7]
سيرُه يخضرُّ في بيدائه ... كم كليمٍ هام في سينائه !
جدَّدَ الدُّنيا بتفسيرٍ جديدْ ... عبَّر الرؤيا بتعبيرٍ جديد
كونُه المكنونُ أسرارُ الحياهْ ... نغمةٌ يُضمرُ مزمارُ الحياهْ

---

(١) البساط البالي : الأباطيل الموروثة .
(٢) يخلق من فكره أكواناً أخرى ، لا يقيده ما هو واقع .
(٣) المضراب : أداة تضرب بها أوتار العود .
(٤) الهاء في هوه للوقف . والبيت مردوف والقافية في « الأسما » و« أسرى » .
(٥) يعدو تحته حصان الزمان ، أي يسير الزمان سريعاً إلى مقصده .
(٦) إن قال قم انبعثت الأرواح من قبور الأبدان .
(٧) يبدل قيم الأعمال بما يضع من معايير جديدة .

شـــاعـــرُ الفِطـــرةِ غنَّـــى طبعَـــه ... ليقيـــم الـــوزنَ إذْ أبـــدَعـــه
نقعنـــا ثـــار إلـــى أوجِ السَّمـــاء ... فبـدا الفـارسُ مـن هـذا الهبـاء[1]

* * *

فـي رمـــاد اليـــوم منَّـــا تـــرقُـــدُ ... شُعلـةٌ يـرمـي بهـا الكـونَ الغـدُ
روضـــةٌ تُضمـــرهـــا أكمـــامُنـــا ... ضـاءَ مـن صبـح غـدٍ أبصـارُنـا[2]
أنـت يـا فـارسَ طِـرف الـزَّمـنِ ! ... أنـت يـا نـوراً لعيـن الممكـنِ
مـــوكـــبَ الإنشـــاء هيَّـــا زيِّـــنِ ... وتمكـــنْ فـــي ســـواد الأعْيُـــن
قُـمْ فسكِّـن مـن ضَجيـج الأمـمِ ... وامـــلأ الآذان زهـــرَ النَّغَـــم
جـدِّدَنْ فـي النـاس قـانـون الإخـاء ... وأدِرهـــا كـــأسَ حـــبٍّ وصفـــاءْ
أبلـغ النـــاس رســـالاتِ السَّـــلامْ ... وأعـدْ فـي الأرض أيـام الـوئـام
مـنْ بنـي الإنسـان أنـت الأمـلُ ... أنـت مـنْ ركـب الحيـاة المنـزلُ
أذْبلَـتْ كـفُّ الخـريـف الشجـرا ... فـاغـدُ فـي الـروض ربيعـاً نضِـرا
نحـن مـن فيضـك نسمـو للقُلَـلْ ... في جهاد الكون نمضي كالشُّعل[3]

* * *[4]

---

(١) يكثر في الفارسية ذكر الفارس والغبار . يقال مثلاً : رب فارس في هذا الغبار . والشاعر يقول هنا : قد أصابنا ما أصابنا ومرت بالناس محن فارتفع غبارهم فظهر هذا الفارس من هذا الغبار يعني أن هذا الإنسان الكامل لا يناله الناس إلا بعد حوادث شديدة .

(٢) الأكمام جمع كم الزهرة قبل أن تنفتح ، يقول : إنَّ الكم عندنا سينفتح عن روضة ، وعيوننا تضيء بنور المستقبل .

(٣) الأبيات السبعة الأخيرة خطاب للإنسان الكامل أو النائب الإلهي .

(٤) هنا عنوان فصل حذفته وحذفت معه اثنين وعشرين بيتاً لم أجد في ترجمتها فائدة . والكلام بعدها متصل بما قبلها .

يـا أخـا الـوردة كـن صنـوَ الحجـرْ ... وكـن السـورَ لبستـان الـزَّهـر[1]
آدميَّـاً صـوِّرن مـن تُـربكـا ... ثـم شيِّـد عـالَمـاً بـدعـاً لكـا
أنـت إن كنـت تـرابـاً هيِّنـا ... فليضـع غيـرُك منـك اللبنـا
أيهـا الصَّـارخ مـن جَـور الـدَّهـر ... يـا زُجـاجـاً يشتكـي جـورَ الحجـرْ
فيـمَ هـذا النـوح ؟ مـاذا المـأتـمُ ؟ ... وإلام الصَّـدرَ حُـزنـاً تَلـدِم ؟
مضمـرٌ فـي السعـي مضمـونُ الحيـاهْ ... لـذَّة التخليـق قـانـون الحيـاهْ
قُـمْ فشيِّـد عـالمـاً دون مثيـل ... وخُـضِ النـار وأقـدِمْ كـالخليـل
إنمـا السَّيـرُ علـى حُكـم الـزَّمـانْ ... هو رَمْيُ التُّرس في وقت الطِّعانْ
إنَّمـا الحـرُّ الشجـاع الفطِـنُ ... مـن قفـا الآثـارَ منـه الـزَّمـنُ
وإذا الـدُّنيـا عَتـتْ عـن أمـره ... حـاربَ الـدَّهـر ، ولـم يعبـأ بـه
يهـدم المـوجـودَ فيمـا آثـرَا ... يمنـح الـذرَّاتِ شكـلاً آخـرَا[2]
يصـرفُ الأيـامَ عـن كـرَّاتهـا ... يمنـع الأفـلاك مـن دوراتهـا[3]
خـالقـاً مـن قـوةٍ فـي قلبـه ... ذلـك العصـرَ الـذي يـرضـى بـه
فـإذا أعـوز عيـشُ الـرَّجُـلِ ... فـالحيـاةُ المـوتُ مـوتَ البطـل
حبـذا عشـقٌ بغَـى الأمـر الجليـلْ ... وجنـى فـي النَّـار ورداً كـالخليـل
تتجلَّـى فـي مِـراس المُعْضـلِ ... قـوة كـامنـةٌ فـي البطـل
عُـدّة الأنـذال حقـدٌ لا سـواه ... استمع : صاح ، ذا شرع الحياه :
الحيـاةُ الحـقُّ بـأسٌ يظهـرُ ... حُـب الاستيـلاء فيـه مضمـرُ
ربَّ عفـوٍ كـان مـن آفـاتهـا ... يكسـرُ المـوزونَ مـن أبيـاتِهـا
يحسَـب العجـزَ قُنـوعـاً خـانـعُ ... لصـروف الـدهـر ذلٌّ طـائـعُ

---

(١) لا تكن وردة وكن كالحجر صلابةً ، وكن سوراً يحمي الأزهار .

(٢) يغير نظام الموجودات إن لم تلائمه . يعني يسخّر عالم الطبيعة في مراده .

(٣) يغير ما يزعمه الناس من تأثير الفلك وحكم الأيام .

قـاطـعٌ سُبـلَ الحيـاة الخَـوَرُ ... قَلْبُـه خَـوفـاً وكِـذْبـاً يُضْمـرُ
قَلْبُـهُ مـنْ كـلِّ خيـرٍ فـارغُ ... ليثـه فـي كـلِّ خبـثٍ والـغُ
فـي كميـنٍ راصـدٌ هـذا اللئيـمْ ... فاحذرنْ يا صاحبَ العقل السليمْ
احـذرنْ يـا صـاحِ مـنْ تـزيينـه ... إنَّـه الحِـربـاء فـي تلـوينـه[1]
إنَّـه يخفـى علـى أهـل النظـر ... لَبَـسَ الحـقّ عليهـم واستتـر
فـي ثيـاب اللين حينـاً يظهـرُ ... وهـو حينـاً فـي اتضـاعٍ يُستَـر
وهـو طَـوراً فـي ثيـابِ المُجبَـرِ ... وهـو طـوراً فـي حجـابِ القَـدَر
وهـو حينـاً فـي لبـاس التَّـرف ... يُلبـسُ الصِّحـةَ ثـوبَ الـدَّنَـف
مـا سـوى القـوةِ للصِّـدق دَعَـمْ ... اعـرفـنْ نفسك ، هـذا جـامُ جم[2]
هـي مـن حقـل الحيـاة الحـاصـل ... فُسِّـر الحـقُّ بهـا والبـاطـلُ
مـدَّعـاه فـي غنـىً عـن حجـة ... إنْ تحـدَّى المـدَّعـي بـالقـوة
تجعـل البـاطـل حقَّـاً مـاثـلاً ... وَهَـنُ الحـقّ يُحـقُّ البـاطـلا
سطـوة القـوَّة تُحلـي مـا أمـرّ ... إنْ تقـل للخيـر شـرٌّ فهـو شـرّ[3]
أيُّهـا الغـافـلُ عمَّـا حُمِّـلا ... أنـت فـي الكـونيـن أعلـى مـزلا
افتحـنْ عينـاً وأُذنـاً وفمـا ... تُبْصـرِ الحـقَّ طـريقـاً مُعلَمـا

* * *

(١) الضمير في هذا البيت والأبيات التالية يعود إلى الخور . وفيها يبين إقبال تعذير الضعفاء والتماس أسماء مختلفة لضعفهم .

(٢) جام جمشيد وهي كأس خرافية كانت ترى فيها الأقاليم السبعة .

(٣) ينبغي أن يذكر القارىء أنَّ إقبالاً يعني قوة الروح والخلق أيضاً .

قصة فتًى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري[1] شاكياً بغي أعدائه

مُجتبى هُجويرَ مقصودُ الأمَمْ ... من رأى الجِشيّ مثواه الحرم[2]
قطع الأطوادَ واجتازَ السُّدود ... باذراً في أرضنا بذر السُّجود
زمن الفاروق منهُ يُشرقُ ... وبه للحقِّ يعلو منطقُ
حارسُ العزَّة منْ أمِّ الكتاب ... معقلُ الباطل منه في تَباب
حيَّت البنجابُ من أنفاسه ... صُبْحُنا نوَّر من نبراسه
ذا رسولُ العشقِ ، وهو العاشق ... فيهِ سرُّ العِشْق بادٍ بارقُ

* * *

قصةٌ أسْرِدُها في أسْطرِ ... طاوياً في الكِمِّ روضَ الزَّهَر :
قد أتى لاهورَ منْ مروَ فتى ... قدُّه كالسَّرْوِ عالٍ قد عتا
جاء عند السَّيد العالي الجنابْ ... كاشفاً منْ نوره عنه الضَّبابْ
قال : إني في عُداةٍ لؤمُوا ... كزجاجٍ بصخورٍ يُصدَم
علِّمني أيُّها الشيخ الكبيرْ ... كيف عيشي بين أعداء كثير
فأجاب الشيخ ، من فيه الجمال ... قد تجلَّى في إطارٍ من جلال :

---

(١) الشيخ علي الهجويري مؤلف كتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » في التصوف . كان من كبار الصوفية الذين وفدوا على البنجاب ، ووعظوا فيها ، ونشروا الدعوة الإسلامية . توفي سنة ٤٦٥هـ ومزاره في لاهور ، يقصده الناس من كل صوب ، ونسبته إلى هجوير إحدى قرى غزنة .

(٢) الشيخ معين الدِّين الجشيّ أحد عظماء الصوفية ودعاة الإسلام في الهند . أسلم بدعوته كثيرٌ من الهنادك ، أقام في أجمير وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ ، ومزاره أعظم المزارات الإسلامية في الهند ، ويشير إقبال في هذا البيت إلى زيارة الجشيّ قبر الهجويري في لاهور واعتكافه عنده زمناً .

أيها الغافلُ عن سرِّ الحياهْ ... لا يَميزُ الخيرَ من شرِّ الحياهْ
حرِّرَنْ نفسَك من يأسٍ وغمّ ... أنت بأسٌ نائمٌ ، قُمْ لا تنمْ
إن رأى النَّفس زجاجاً حجرُ ... فهو في الحقِّ ، زجاجٌ يُكسر
وإذا خارت قواه السائرُ ... قطع السُّبْلَ عليه الفاجرُ
كم ترى نفسك طيناً قد حُقِر ... شعلةَ الطُّور من الطِّين أثِرْ
فيمَ شكواك الرفيقَ النافعا ... فيمَ شكواك العدوَّ الخادعا
كم عدوٌّ لك ، في الحق صديقْ ... أنت بالأعداء ذو غُصنٍ وريق
قوة الأعداءِ فضلاً يَعلمُ ... من مَقامَ « الذَّات » حقّاً يَفهم
يوقظُ الخَصْمُ قِواك الهاجدهْ ... مثلَ ما تحيي الموات الراعدهْ[1]
قوةُ العزم تذيب الحجرا ... لا يبالي السيلُ صخراً إنْ جرى
تشحذُ العزمَ عِقابُ السُّبُل ... امتحانُ العزم بُعدُ المنزلِ[2]
ما حياةٌ دونَ عزمٍ مُحْكَمِ ؟ ... ما غَناءُ العيش مثلَ النَّعَم ؟
زلزلِ العالمَ وافعل ما ترى ... إن حَبَتْك الذَّاتُ عزماً مُسْعَرا
اهجرنَّ الذَّات إن تبغ الفناءْ ... واعمُرنَّ الذات إن شئت البقاءْ
ما الرَّدى ؟ أن يدركَ الذاتَ الوَسَنْ ... أتراه بُعدَ روحٍ وبدن ؟[3]
يا أخا يوسف في الذَّات أقمْ ... ومنَ السِّجن إلى المُلك استقِم[4]
أحْكمنَّ الذات وانهض عاملا ... ناصراً للحقِّ ، سرّاً حاملا
هاكَ سرّاً في حديثٍ مؤنسِ ... افتح الكِمَّ بحَرِّ النفَس[5]
« حبذا سرّ حبيب يُضْمَرُ ... في حديثٍ عن سواه يؤثر[6] »

---

(١) السحابة الراعدة : الممطرة .
(٢) العقاب : جمع عقبة .
(٣) الردى : أن تغفل الذات لا أن يفارق الروحُ البدن .
(٤) كن مثل يوسف أقام في نفسه فأحكمها ، فمضى من السجن إلى الوزارة .
(٥) أبدي السر في قصة قصيرةٍ ككم الزهرة .
(٦) هذا البيت من شعر جلال الدين الرُّومي .

قصة الطائر الذي أجهده العطش

طـائـرٌ مِـنْ ظمـإٍ قـد جهـدا ... كـدخـانٍ نفَسـاً قـد صعَـدا
قَـدْ رَأى ألمـاسـةً مثـلَ النَّـدى ... صـاغهـا مـاءً لعينيـه الصَّـدى
خَـدَعتـه شـذرةٌ مثـلُ الشَّـرر ... فـرأى الجاهـل مـاءً فـي الصَّخَـر
لـم يجـدْ ريّـاً بضَـرْبِ المِنقَـر ... لـم يُصـب مـاءً بنقـر الجـوهـر
قـالـتِ الشَّـذرة : جُنِّبـتَ الهُـدى ... تضـرب المنقـار في جسمي سُدى
لسـتُ مـاءً . لا تـرانـي سـاقيـه ... مـا أنـا مـن أجـل غيـري بـاقيـه
جـاهـلٌ يقصـد هضمـي مـا اهتـدى ... لحيـاةٍ نـورُهـا منهـا بـدا
كـلُّ منقـارٍ بمـائـي ينكسـرْ ... وتـرى الإنسـان منـه ينبهـر
مـا رأى الطـائـرُ فيهـا أربـا ... فتـولَّـى عـن سنـاهـا لغَبـا
حسـرةٌ فـي صـدره تتَّقـدُ ... زفـراتٍ لحنُـه يصَّعَّـد

* * *

وأضـاءت مثـلَ دَمْـعِ البلبـلِ ... قطـرةٌ فـي غُصْـنِ وردٍ خَضِـل
لضيـاء الشمـس فيهـا مِنَّـةٌ ... ولخـوف الشمـس فيهـا رعـدة[1]
كـوكـبٌ يـرعَـد مِـنْ نَسْـلِ السَّمـاءْ ... شـاقـه الجلـوة فـي هـذا الفضـاء[2]
غـرَّه الأكمـام والـزَّهـر الخصيـبْ ... لـم يـزوَّد مـن حيـاةٍ بنصيـب[3]
قطـرةٌ مـنْ دَمْـعِ صـبٍّ تبهَـر ... زانـتِ الهُـدْبَ وكـادت تقطِـر

---

(١) هي مضيئة بنور الشمس ، وهي في خوفٍ أن تجفَّ في أشعة الشمس .
(٢) قطرة الندى كأنها كوكب من السماء تجلى على الأرض ، والندى في شعر إقبال يرمز أحياناً للأمور العلوية .
(٣) الأكمام : أكمام الزهر ، وهذه القطرة سريعة الزوال ، لم تأخذ نصيباً من الحياة الذاتية .

فمضى الطائر فيها راغبا ... بلَّ بالقطرة حَلقاً لاهبا
أيُّها الباغي عدوّاً تقهرُ ! ... قطرةٌ أنت ، تُرى ، أم جوهر ؟
حينما الطائر أضناه صداه ... حيَّ نفساً بحياةٍ منْ سِواه
كانت الشَّذرةُ عضباً يُرهَب ... لم تكنْ قطرةَ طلٍّ يُشربُ
قوةَ الذَّات احفظنها أبدا ... وكنِ الألماس لا قطر الندى
أنضج القطرة كالطَّود تُرى ... حاملاً غيماً مُفيضاً أنهرا
أثبتِ الذَّات وفيها حَقِّق ... فِضةً كن بالتئام الزِّئبق[1]
ومنَ الذَّات أَبنْ أسرارها ... حرِّكَنْ عن لحنها أوتارها

* * *

قصة الألماس والفحم

قصةٌ أخرى بها أُدلي إليك ... يفتح الحقُّ بها باباً عليك :
قال للألماس فحمُ المعدِن : ... يا حليفَ النُّور طول الزَّمن !
نحن صنوان نَمانا والدُ ... أصلُنا في الكون أصلٌ واحدُ
وعلى التيجان أنت الزينةُ ... وأنا في التُّرب حظِّي الذلَّة
لك حسنٌ في المرايا يسطعُ ... وأنا مِنْ كفِّ ترب أضيَع
من ظلامي قد أضاء المجمرُ ... ورماداً آض فيَّ الجوهر
مَوطىءَ الأقدام بين البشَرِ ... قد رموا في مهجتي بالشَّرَر
إنَّ حالي ببكاء لَحَرى ... هل ترى أصلي وفصلي هل ترى ؟
إنَّني موج دُخانٍ يُعقَد ... كلُّ ما فيَّ شرارٌ يَصعدُ
ومن الأنجم فيكَ الرَّونقُ ... كلُّ جنبٍ فيك نورٌ يُشرق

---

(١) كن في صلابة الفضَّة باجتماع الذرات المضطربة كالزئبق .

تـــارةً نـــورٌ بعينَـــيْ قيصـــرا تـــارةً فـــصٌّ يـــزيـــن الخِنجـــرا

* * *

قـال : فـاسمـع يـا رفيقـي وافهمـا ينضـج التـربُ فيغـدو خـاتَمـا
شـنَّ فيمـا حـولـه حـربـاً ومـرّ وغـدا بـالحـرب صلبـاً كـالحجـر
هيكلـي مِـنْ نضجـه قـد نـوَّرا وبصـدري كـم شعـاعٍ أسفـرا
أنـت مِـنْ ضَعـفٍ وكيـان تنفَـق وبليـنٍ فـي قـوام تُخْـرَق
اهجُـرنْ خـوفـاً وغمّـاً لا تهُـن وانضَجَنْ كالصَّخر والألماس كُن
مـن أجـاد السعـي والأخـذ معـا فهـو فـي الـدَّاريـن بـدرٌ طلعـا
وبحِجْـر الكعبـةِ انظـر حجـرا كـانَ مـنْ قبـلُ تـرابـاً حُقِـرا
جـاوَزَ الطـورَ عـلاءً لا جـرم ورَجَـتْ تقبيلَـهُ كـلُّ الأمـم
قـوةُ الأحيـاء عـزٌّ ونجـاهْ والـونَى والـذلُّ مـنْ ضعـفِ الحياه

* * *

قصَّة الشيخ والبرهمي ، ومحاورة نهر الجنج وجبل همالا في معنى دوام حياة الأمة بالتمسُّك بسنتها

بـرهمـيٌّ فـي بنـاريـسَ علـمْ غـائـصٌ فـي فكـر كـونٍ وعـدَم[1]
بـرجـالِ الله يحفَـى فِعلُـه ومـن الحكمـة وافٍ كِفلُـه
عقلُـه فـوق الثـريَّـا قـد عـلا ذهنـه مـاضٍ يحُـلُّ المشكـلا
فكـره العنقـاءُ إمـا حلَّقـا شعلـةٌ منهـا السَّمـاك احتـرقـا
كـأسُـه دهـراً خَلَـتْ مـنْ خمـرةٍ قـد حمـاهُ الـراحَ سـاقـي الحكمـة
فـي ريـاض العلـم ألْمَـى شبَكـا طـائـرَ المعنـى بـه مـا أدركـا

---

(١) بناريس : المدينة المقدسة في الهند عند الهندوس .

فكـرَه أدْمَـى ولكـنْ لـم تـزلْ ... عُقـد الأكـوانِ فيـه دون حـلّ
أعـربَـتْ عـن يـأسـه آهـاتُـه ... وحكـت حَيـرتَـه نظْـراتُـه
سـار يـومـاً نحـو شيـخٍ كـامـلٍ ... رُبَّ صَـدْرٍ بفـؤادٍ آهِـلِ
لقـيَ الشَّيـخ بنفـس راجيـه ... تحسـنُ الصَّمت ، وأذنٍ واعيـه :
فـأهـاب الشيـخ : يـا خِـدنَ السمـا ... اهبطـنَّ الأرضَ وارعَ الـذِّمَمـا
ضقـتَ فـي الأرض مجـالًا فعـلا ... فكـرُك المقـدام فـي أوج العُلَـى
طـاويَ الأفـلاك ! فـي الأرض قُـمِ ... لا تطِـرْ تطلـب سـرَّ الأنجُـم
لا أقـولُ اهجـرْ غـداً أصنـامكـا ... كـافـرٌ أنـت فخـذْ زُنَّـاركـا
يـا أمينـاً لتـراث الأوَّليـنْ ! ... لا تـدعْ نهـجَ الجـدود الأقـدَمين
بـاجتمـاعِ الشَّمـل تحيـا الأمَّـة ... وكـذاك الكُفـر فيـه وَحـدة
لـم يكمَّـل فيـك حتـى كفـرُكـا ... ليـس أهـلاً لفـؤاد صـدرُكـا
إنَّ إبـراهيـم فينـا هُجِـرا ... وبَعُـدتُـمْ أنتـمُ عـن آزرا[1]
قيسُنـا مـا هـام خلـف المحمَـل ... فـي جنـونِ العِشْـق لمَّـا يكمُـلِ
إنَّ شمـع الـذات فينـا لانطفـاءْ ... كيـف يُجدينـا طـوافٌ فـي السمـاءْ

***

جـاش نهـر الجنـج يـومـاً جـائـلا ... فـي سفـوح مـن هِمـالا قـائـلا :
حـامـلاً مـن بَـرَدٍ أوقـارَه ! ... عـاقـداً مـن أبهـرِ زُنَّـاره ![2]

---

(١) يدعو هذا الشيخ إلى استمساك البرهمي بدينه وكماله فيه ما دام برهمياً . ويرى الكمال ولو في الكفر خيراً من النقص . ثم يقول : إنَّ الموحدين لا يسيرون على نهج إبراهيم الذي كسر الأصنام ، والوثنيين لا يتبعون آزر الذي نحتها .

(٢) الخطاب من نهر الجنج لجبل همالا ، وخلاصة المحاورة : أن النهر يعيِّر الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه ، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته . وهذه المحاورة تصوِّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها، وأنَّ نفيها ، أو الغفلة عنها يودي بها .

صاغك الحقُّ نجيَّاً للسَّماء ... وحمى رجلَك سيراً في العراء
قُيِّدت رجلُك عن سيرٍ فما ... هيبةٌ فيك ورأسٌ قد سما ؟
إنما العيش مسيرٌ وُصلا ... وحياةُ الموْج في أن يجفِلا
غضِبَ الطَّودُ لقول النَّهَرِ ... فرمت أنفاسُه بالشررِ
قال : يا مرآة وجهي ! ويلكا ... كم حوى صدري بخاراً مثلَكا
إنَّ هذا السَّيْرَ فيهِ الحَيْنُ لكْ ... منْ يزُل عنْ نفسه يوماً هلكْ
بمقَامٍ لكَ هلاَّ تأبَه ! ... أفخارٌ بالرَّدى يا أبلهُ !
يا وليد الفَلك المرتفعِ ! ... صِرْتَ دونَ السَّاحل المتَّضِعِ
قد وهبتَ النَّفس بحراً غاصبا ... وأبحت الرُّوح لصاً سالبا
كُنْ كوردٍ في رُباه عاكفِ ... لا تَرُم للريح كفَّ القاطف[1]
إنَّما العيشُ نماءٌ في المكانْ ... وبروضِ الذَّات قطفُ الأقحوانْ
في دهورٍ لم تُزحَزحْ أرجُلي ... أتُراني زائلاً عن منزلي ؟
وإلى الأفلاك قدِّي يصعد ... فعلى سفحي الثُّريا ترقد
أنت تَفنى في خِضَمٍّ خِضرِمِ ... وقلالي مسجدٌ للأنجمِ
وبعيني لاح سرُّ الفلكِ ... وبسمعي طيرانُ المَلكِ
وبنارِ الجدِّ طولَ الدَّهَر ... قد حوى صدري صنوفَ الجوْهرِ
« صخرٌ قلبي وناري في الصَّخر ... ليس للماء إلى ناري ممرّ[2] »
قطرةً إن كنت فاحفظ نفسكا ... جاهد الأمواج واجنُب يأسكا
وابتغِ النُّور وكنْ درّاً يُضيءْ ... ثم كن قُرْطاً على وجهٍ وضيء
أو فزد واعلُ سحاباً ممطرا ... يُشعل البرق ويهمي أبحرا[3]

---

(١) الريح : الرائحة . لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك .

(٢) اقتباس من جلال الدين الرومي مع تغيير في اللفظ .

(٣) إنْ كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة . أو كن سحاباً ذا برقٍ ورعدٍ يجتدي منك البحر ماءه .

يبسط البحرُ لجدواك يدا ... شاكياً منْ فاقةٍ يرجو النَّدى
فهو في فيضك دون الموجة ... وهو في جدواكَ بادي الذِّلَّة

***

في بيان أنَّ حياة المسلم لإعلاء كلمة الله
وإن كان الباعث على الجهاد « جوع الأرض »
فهو حرامٌ في شريعة الإسلام

صبغةَ الله أنِرْ في قلبكا ... والهوى والصِّيتَ دَعْ في حبِّكا
إنَّما المسلم بالحبِّ قهر ... مسلمٌ لا حبَّ فيه قد كفر
غضَّ بالحقِّ ، وبالحق نظَر ... وله في الحقِّ نومٌ وسَهَر
في رضاه لرضا الحقِّ فناء ... كيف يرضى النَّاس هذا الادِّعاء ؟[1]
في رُبى التَّوحيد أرسى العَمدا ... وعلى الناس جميعاً شهدا
وعليه يشهدُ الدَّاعي الأمين ... شاهدٌ أصدقُ كلّ الشَّاهدين
فدعِ القال إلى الحال الجلي ... وأضىءْ بالحقِّ ليلَ العملِ
وكن الدرويش في زيِّ الأميرْ ... ذاكراً لله يقظانَ الضَّمير
واقصِدَنَّ الحقَّ في كل الفِعالْ ... يسطَعَنْ فيك من الحقِّ جلالْ
خيرُ الحرب إذا رمتَ الإلـه ... شرُّ السِّلمُ إذا رُمتَ سواه
نحن إن لم يُعلِ حقّاً سيفُنا ... اكتسى في الحرب عاراً صفُنا

***

(١) الحق : الله تعالى . يبلغ المؤمن درجة يفنى فيها رضا الحق في رضاه . أي يكون رضاء رضا الحق . والشطر الثاني مأخوذ من جلال الدين الرومي .

شيخنا الشيخ (ميانميرُ) الوليّ ... منْ سَناهُ كلُّ سِرٍّ ينجلي[1]

كان ثَبْتاً في طريق المصطفى ... مِزْهَر العِشْقِ بحقٍّ عَزَفا

قبرُه الإيمان في أوطاننا ... مشعلُ النُّور على بلداننا

سجدَ النَّجمُ على أعتابه ... كان مَلْكُ الهند من طُلاّبه

غرس المَلْكُ هواه في الفؤادْ ... طالباً في حرصه فتح البلادْ

بالهوَى أضرَم ناراً قلبَهُ ... مُقرئاً « هل من مزيد » عَضبَه[2]

دوّخت أجنادُه كلَّ وطنْ ... وتوالى الفتحُ في أرض الدَّكَن

دَيدن المسلم للحقِّ التجاء ... يُحكم التدبيرَ منه بالدُّعاء

قصدَ الشيخَ العليَّ القَدْرِ ... راجياً منه دعاءَ الظَّفر

صمتَ الشيخُ لقول المالك ... وصغَى كلُّ مريدٍ سالك

قطع الصَّمتَ مريدٌ أقدما ... أمسكت إحدى يديه درهما

قال : مولايَ ! اقبل النذرَ الحقيرْ ... أنتَ للمسكين بالحقِّ نصيرْ

عَرَقي من كلِّ عضو قد همى ... قبل أن تمسك كفي الدِّرهما

قال : سلطاني به أولى يدا ... سائلٌ في حلة المُلك بدا[3]

---

(١) القصة التي نظمها الشاعر في هذا الفصل كانت بين السلطان شاهجهان والشيخ ميانمير وشاهجهان أحد سلاطين الدولة الإسلامية المغولية في الهند . ولا تزال آثاره في العمارة زينة الهند كلها ومفخرتها . وهو باني المزار ذائع الصيت « تاج محل » في مدينة أجرا. شاده لزوجه ممتاز محل . حكم (١٠٣٧ ـ ١٠٦٨هـ) ومير محمد المعروف بميانمير هو أحد مشايخ الطريقة القادرية في الهند ولد في السند سنة ٩٣٨هـ . وأخذ عن شيخه الشيخ محمد خضر ، ثم انتقل إلى لاهور ، فأخذ عن مشايخها . وقد عظمت مكانته ، فكان يزوره السلطان جهانجير ثم ابنه شاهجهان صاحب القصة . وتلمذ له عبد الحكيم السيالكوتي المعروف في علم الكلام . توفي سنة ١٠٤٥هـ ومزاره مقصد الزائرين في لاهور اليوم .

(٢) هل من مزيدٍ جاءت في الأصل بلفظها العربي . يعني جعل سيفه يقول : هل من مزيد .

(٣) قال الشيخ : سلطاني . . إلخ .

مَلْكنا أفقر من كلِّ البشرْ ... وعلى الشمس تولَّى والقمر
جوعُه بالنَّار يُصلي العالمين ... عينه فوق سماط الآخرين
سيفُه بالقَحْط والموت رمى ... نفسَه يَبني ويُردي عالَما
ضجت الأقوامُ من فقر لديهْ ... شقي المسكينُ من جوع يديه
حُكْمُه في النَّاس شرٌّ وأشَر ... قطَعَ الطُّرْقَ على رَكْب البشَرْ
بخداعِ النَّفس والجهل دعا ... نهبَه فتحاً . وبئس المدَّعَى
عسكرُ الملك وما قد أسروا ... بسيوف الجوع منه شَذَرُ
غصَّةُ السائل جوع السائل ... وخَرابُ المُلك جوعُ الدائل
منْ لغير الله سلَّ المُغْمَدا ... سيفَه في صَدْرِهِ قد أغمَدا

***

نصيحة مير نجاة النقشبندي المعروف بباباي صحرائي
(الأب الصَّحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند

أنتَ كالوردِ مِنَ الأرض بدا ... منْ ضمير الذَّات نِلتَ المولدا
لا تَعَدَّ الذَّاتَ واخلُد أبدا ... قطرةً كُنْ واشرب البحر صدى[1]
إنَّما الرِّبحُ بهذي الثروةِ ... والغِنى في حفظِ هذي السلعةِ
أنتَ موجودٌ وفي خوف العَدَمْ ... يا أسيرَ الوهم أخطأتَ الفَهَم
عنديَ الخُبْر بأوتارِ الحياهْ ... سأُنبِّيكَ بأسرارِ الحياهْ :
غوصةٌ في النفس غوصَ الدرَّةِ ... وظهورٌ بعد هذي الخلوة
هي جمعٌ منْ رمادٍ شرَرا ... واشتعالٌ بَعدُ يُعشي البصرا
هي حولَ الذَّات طوفٌ فاعلَمِ ... واجعلَنْ نَفْسَكَ بيتَ الحرَم
حَلِّقَنْ في اللَّوح عن جذب التراب ... منْ هُوِيٍّ لا تخف ، مثل العقابْ

---

(١) كن قطرة لا ترضى بغاية فهي تشرب البحر في ظمئها . الصدى : الظمأ .

أنـتَ إنْ لـم تـكُ طيـراً ويحكـا ... فعـن الغـار فـابعـد عُشَّكـا[1]

أيهـا الجـاهـد فـي كسـب العلـومْ ... عن إمام الرُّوم خذ نصحَ الحكيم

« إنَّمـا العلـمُ لـدى الجسـم شقـاء ... وهـو فـي القلـب دواءٌ وشفـاء »[2]

قصَّـةُ الـرومـي تقضـي بـالعجـب : ... كـان فَيضـاً مـن علـوم فـي حلَـبْ

وعلـى رجليـهِ للعقـلِ قيـود ... فـي ظـلام العقـل بـالفُلـك يَـرُود

هـو مـوسـى دون طـورٍ يُشـرق ... مـا درى مـا العشـقُ أو مـنْ يعشـقُ

وعـن الإشـراق والشـكِّ حكـى ... ومـن الحكمـة درّاً سلكـا[3]

وعـن المَشَّـاء[4] حـلَّ العقـدا ... كـلُّ خـافٍ مـن سنـاه قـد بـدا

وحـوالَيـه صِـوانُ الكتُـبِ ... وعلـى فيـه بيـانُ الكتُـب

* * *

أمَّ يـومـاً مكتـبَ المُـلا جـلالْ ... شيـخُ تبـريـز بـأمـرٍ مـن كمـال[5]

قـال : مـاذا القـالُ والقيـلُ ومـا ... مـنْ قيـاسٍ ودليـلٍ أوْهَمـا

صـرخَ الـروميُّ : مهـلاً يـا جهـول! ... لا تهـوِّن مـنْ مقـالاتِ العقـول

اخـرُجـنْ مـنْ مكتبـي يـا أبلـهُ ! ... قـالَنـا والقيـلَ أنَّـى تفقـه ؟

قـالُنـا أرفـعُ ممَّـا تعقـل ... سُـرُج الإدراكِ منـه تُشعَـل

نـارُ شمسِ الـديـن زادت حُـرَقـا ... فـرمـى مـنْ روحـهِ مـا أحـرقـا

قـاستطـارَ البـرقُ مـنْ نظـرتِـهِ ... وتلظَّـى التُّـرْبُ مـن شُعلتِـهِ

---

(١) إشارة إلى قصة الغار والحمامة التي عششت عليه . يعني إن لم تكن ذا همةٍ تطير عن الأرض فلا تطلب المنزلة الرفيعة .

(٢) بيت من جلال الدين الرومي .

(٣) سلك الدر : نظمه في السلك .

(٤) أي : الحكماء المشائين .

(٥) شيخ تبريز شمس الدين التبريزي الصوفي الذي أرشد جلال الدين الرومي إلى التصوف ، وكمال هو : كمال الدين الجنيدي شيخ شمس الدين .

فـإذا الأدراكُ مـنْ نـارِ القلـوب ... محـرقٌ والكتْـبُ منهـا فـي لهيـبْ
جهـل الـرومـيُّ عشقـاً أُضـرِمـا ... مـا درت أوتـارُه ذا النَّغمـا
قـالَ : هـذي النـارُ مـا قصَّتُهـا ؟ ... أحـرقـت أسفـارَنـا وقـدتُهـا
قـال شمسُ الـديـن يـا ذا المسلمُ ! ... ذوقَنـا والحـالَ أنَّـى تعلَـم ؟
حـالُنـا أرفـعُ ممـا تُفكِـرُ ... ولظـانـا الكيميـاءُ الأحمـر[1]

***

تجمـع الحكمـةَ زاداً بَـردا ... فسحـاب الفكـر يهمـي بَـردا[2]
مِـنْ هشيـمٍ فيـك أذكِ اللهبـا ... مِـنْ تـرابٍ فيـك أطلِـع شُهُبـا
مـنْ لهيـبِ القلـبِ عِلـمُ الكـامـل ... مقصـدُ الإسـلامِ تـرك الآفـل[3]
صـدَّ إبـراهيـمُ عمَّـا يـأفُـلُ ... فحـوتـه كـالجِنـان الشُّعَـل[4]
قـد نَبَـذتَ الـدِّيـن ظِهـريّـاً ومـا ... تبتغـي بـالـدِّيـن إلا الـدِّرهمـا
أيُّهـا السـاعـي لكُحْـل المُقَـل ... غـافـلاً عمَّـا بـه مـن كَحَـل[5]
مـن فـم التِّنيـنِ فـابـغِ الكـوثـرا ... واسْـألـنْ مـاءَ الحيـاةِ الخنجـرا[6]
حجـرَ الكعبـة مـن بيـت الـوثَـنْ ... التمس والمسكَ في الكلب اطلبن
طفِّـيء العشـقَ بعلـم الحـاضـرِ ... لا تـؤمِّـلْ كـأسَ هـذا الكـافـر

---

(١) انتهت قصة الرومي والتبريزي .
(٢) بردا الأولى فعل ماض ، والثانية : البرد الذي ينزل من السحاب .
(٣) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل في القرآن الكريم وقوله حينما أفل الكوكب ثم القمر : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . وكأن الشاعر تصور الآفل خامداً . فقال : إن علم المسلم من نار القلب . والإسلام ترك ما يأفل ، أي : يخمد .
(٤) إشارةً إلى قصة إلقاء إبراهيم في النار ، وكونها برداً عليه وسلاماً .
(٥) الكحل سواد طبيعي في منابت أشفار العين . يقول الشاعر : أيها الساعي للجمال المصنوع غافلاً عن جماله الطبيعي ، يعني : المسلم المقلد غيره ، الغافل عما عنده .
(٦) يعني : اركب الأهوال وراء ما تبتغي ، واطلب المنفعة عن كلِّ ضار ، واجعل ماء الخنجر أي بريقه ماء الحياة .

قد براني السَّعيُ في كل بعيدْ ... وعرفتُ السِّرَّ في العلم الجديدْ
وحباني سرَّ هذي الجنَّة ... قيِّمُ البستان بعد الخِبْرة
علمُ ذا العصرِ حجابٌ أكبرُ ... يعبد الوُثْنَ وفيها يَتْجر
من حدود الحسِّ لا ينطلقُ ... وله الظاهرُ سجنٌ مُغلَقُ
زلقت رجلاه في سُبْلِ الحياة ... وضعتْ في حلقهِ السَّيفَ يداهْ
كشقيقٍ فيه نارٌ هامدهْ ... شعلةٌ كالطَّلِّ فيه بارده[1]
منْ لهيبِ العِشق تخلو فِطرتُهْ ... في طلابِ الحقِّ تبدو خيبتُه
عِلَلُ العقل لها العشقُ دواءْ ... مبضعُ العِشْق لدى العقل شفاءْ
سَجدَ العالمُ للعشقِ الجليل ... هو محمودٌ لأصنامِ العقول[2]
جامُه منْ نَشْوةِ الرَّاحِ خلا ... ليله عن وَجْد « يا ربِّ » سلا[3]

* * *

سَرْوكَ الباسقُ قد أغفلْته ... كلُّ سَرْوٍ غيرَهُ أكبرتَه[4]
أنت كالنَّاي خلِّي من جواكْ ... بلُحون الناس أعليت صداكْ
تبتغي نفسَك في سوقِ سِواكْ ... وسماطَ النَّاس تجدوهُ يداكْ
مِنْ سراجِ النَّاس نادينا استعر ... أحرقَ المسجدَ مِنْ ديرٍ شرزْ
ظَبْيُنا خاف سوادَ الكعبةِ ... فرماهُ صائدٌ في الثُّغرة[5]

---

(١) علم هذا العصر فيه نار كنار الشقائق لا حرارة فيها ، وله بريق كبريق الندى لا نار فيه .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب مكسر الأصنام . يعني : أن العشق كمحمود ، والعقول كالأصنام .
(٣) الضمير في هذا البيت يرجع إلى العقل أو علم العصر الحاضر ، ليس في كأسه نشوة . ولا في ليله دعاء « يا رب » وما فيه من وجد .
(٤) يرجع يخاطب المسلم .
(٥) نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد .

ورقُ الـــوردةِ كـــالعَـــرفِ انتشَـــرْ ... جـافِـلاً مـن نفسـه! عُـدْ للمقَـرّ[1]

يـا أميـنَ السـرِّ مِـنْ أمِّ الكتـابْ ... هـل إلـى وحـدة مـاضينـا إيـاب ؟

نحـــن حُـــرَّاسُ حصـــونِ الأمَّـــةِ ... كُفـــرنـــا تـــركُ شعـــارِ الملَّـــةِ

أكـــؤسُ السَّـــاقـــي أراهـــا كِسَـــرا ... حَفْـلُ نُـدْمـان الحجـازِ انتشـرا

تعمـــرُ الكعبـــةُ مِـــن أصنـــامِنـــا ... يضحـكُ الكُفْـرُ علـى إسـلامنـا[2]

شيخُنـــا بـــاع الـــدُّمَـــى مِلَّتَـــهُ ... جـــاعـــلاً زُنَّـــاره سُبْحتـــهُ[3]

شيَّـــخَ الشَّيْـــخَ بيـــاضُ الشَّعَـــر ... وهـــو لـــلأطفـــال مثـــلُ السُّخَـــر[4]

قلبـــهُ بيـــتٌ لأصنـــامِ هـــواهْ ... فهـو صِفْـرٌ مقفـرٌ مـن « لا إلـه »[5]

يَلبـس الخِـرْقَـةَ مـنْ يُـرخـي الشعَـر ... آهِ ! للتَّـاجـر بـالـدِّيـن اتَّجَـر

بمـــريـــديـــه أدام السَّفَـــرا ... فـــي هُـــدَى أمَّتـــه مـــا فكَّـــرا

أعْيُـنٌ عُمْـيٌ حكـاهـا النَّـرجِـسُ ... وصُـــدورٌ مـــن قلـــوب تُفلِـــسُ

عبَّـــد الأشيـــاخَ فينـــا المنصِـــبُ ... حُـــرمـــةُ الأمَّـــة منهـــم تَـــذْهَـــبُ

واعـــظٌ عينـــاه شطـــرَ الـــوَثـــنِ ... وفتـــاوَى تُشتَـــرى بـــالثَّمـــن

وجهَـــه للحـــان ولَّـــى شيخُنـــا ... « يـا رفـاقـي بعـدُ مـا تـدبيـرنـا »[6]

* * *

---

(١) يرى إقبال أنَّ الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه وأخلاقه وسننه . ويبعد في مساعيه دون أن ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلتئم ورقها . فإذا تفرق الورق فنيت .

(٢) نحن مسلمون ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا .

(٣) الدُّمى : جمع دمية ، يراد بها الإنكليز وما عندهم من مال ومناصب . . إلخ .

(٤) يعني : أن الشيخ صار شيخاً بابيضاض شعره لا بعلمه وتقواه . والأطفال يسيرون وراءه ساخرين منه . وأحسب الشاعر يعني ضرباً من رجال الطرق في الهند .

(٥) « لا إلـه » اختصار لا إلـه إلا الله حيثما جاءت في شعر إقبال .

(٦) مأخوذ من بيت لحافظ الشيرازي :

شب أز مسجد سوى ميخانه آمد بيرما ... چيست ياران طريقت بعد أزين تدبيرما

الوقت سيف[1]

نضَّـــر اللهُ تـــرابَ الشَّـــافعـــيّ ... سَحَـــرَ الألبـــاب هـــذا الألمعـــيّ
فِكْـــرُهُ قـــد صـــاد نجمـــاً لامعـــا ... حيـن سمَّـى الـوقـت سيفـاً قـاطعـا
فـــاتَ خـــوفـــاً ورجـــاءً صـــاحبُـــه ... كفُّـــه كـــفُّ كليـــمٍ ، ضـــاربُـــه
تُغـــدق الصَّخـــرةُ مـــنْ ضـــربتـــه ... ويَغيـــض البحـــرُ مـــن صـــوْلتـــه
كـانَ هـذا السَّيـفُ في كـفِّ الكَليمْ ... فشـأ التَّـدْبيـرَ بـالعـزمِ الصَّميـم
شـــقَّ صـــدرَ البحـــر لمـــعُ القبَـــس ... صيَّـــر القلـــزُم مثـــل اليَبَـــس
وبهـــذا السَّيـــفِ يـــومَ الخطَـــر ... زَلْـــزَلَـــتْ خيبـرَ كـفُّ الحيـدر[2]

* * *

ممكـــنٌ إبصـــارُ دورِ الفلَـــك ... وتـــوالـــي نُـــوره والحلَـــكِ
يـا أُسيـرَ اليـوم والأمـس انظـرا[3] ... انظـرنْ فـي القلـب كَـونـاً سُتِـرا
أنـتَ فـي النفـس بـذرتَ البـاطـلا ... وحسبـتَ الـوقْـتَ خطّـاً طـائـلا
وذرعـتَ الـوقـت طـولاً ، للشَّقـاءْ ... بـــذراعٍ مـــنْ صَبـــاح ومســـاءْ
وجعلـــتَ الخيـــطَ زُنَّـــاراً لكـــا ... صِـرتَ لـلأصنـام نـدّاً ويلكـا !
صِـرْتَ يـا إكسيـرُ تُـربـاً سـافـلا ... يـا وليـدَ الحـقِّ صِـرْتَ البـاطـلا
اقطـــع الـــزنَّـــار حـــرّاً لا تَهُـــنْ ... شمعـةً فـي محفِـل الأحـرار كُـنْ
إيـه يـا غـافـلُ عـن أصـل الـزَّمـانْ ... كيـف تـدري مـا خلـودُ الحيـوان[4]
يـا أسيـر الصُّبـح والمُسـى اعقِلَـنْ ... « لي مع الله » بها الوقت اعرفَنْ[5]

---

(١) الوقت سيف من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه .
(٢) حيدر : علي بن أبي طالب .
(٣) انظرا : فعل الأمر مع نون التوكيد الخفيفة .
(٤) الحيوان : الحياة .
(٥) إشارة إلى الأثر : لي مع الله وقت لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ويريد=

كـلُّ مـا يظهـرُ ، مـنْ تِسيـاره ... والحيـاةُ السـرُّ مـنْ أسـراره[1]
مـا مِـنَ الشَّمـس أراه يـوجَـد ... إنَّهـا تفنـىٰ وهـذا يخلُـد
وبـه الشَّمـسُ أضـاءت والقمـر ... وبـه فـي العيـشِ مـا سـاء وسـرّ
قد بسطْتَ الوقت بسطاً كالمكان ... وفَـرَقْـتَ اليـومَ مـن أمسِ الـزَّمـانْ
يـا شـذاً قـد فـرَّ مـنْ بستـانـه ... وحبيـسَ السِّجـنْ مـنْ بنيـانـه[2]
وقتُنـا بيـن الحنـايـا سـافـرُ ... ليـسَ فيـه أوَّلٌ أو آخِـر
الحيـاةُ الـدَّهـر يـا مَـنْ عـرفـا ... « لا تسبوا الدَّهر » قول المصطفى

* * *

نكتـةً كـالـدُّرِّ خـذهـا رائقـة ... بيـن حـرٍّ ورقيـقٍ فـارقـة :
حيـرةُ العبـد مسيـرُ الـزَّمـنِ ... حيـرةُ الأزمـانِ قلـبُ المـؤمـن
ينسـج العبـدُ عليـه كفَنـا ... مـن صبـاحٍ ومسـاءٍ مُـذْعِنـا
وتـرى الحـرَّ مـن الطيـن نجـا ... نفسـه حـول الليـالـي نسجـا
قفـصُ العبـدِ صبـاحٌ ومسـاءْ ... يُحـرَم التحليـقَ فـي جـوِّ السمـاءْ
وبصَـدْرِ الحـرِّ ثـار النفَـسُ ... طـائـر الأيـام فيـهِ يُحبَـس
فطـرة العبـد حُصـولُ الحـاصـلِ ... ليـس فـي تفكيـره مِـن طـائـلِ
فـي مقـامٍ مـنْ همـودٍ راكـدُ ... نَـوْحُـه ليـلاً وصبحـاً واحـدُ
ومـن الحـرِّ جـديـدُ الخلقـة ... كـلَّ حيـنٍ ، وحـديـثُ النَّغمـة
قيَّـد العبـدَ صبـاح ومسـاء ... وثـوى فـي فمـه لفـظُ القضـاءْ[3]

= الشاعر أن يقول إن الوقت حال الإنسان ، لا ساعات الفلك .

(١) الضمير يرجع إلى الوقت .

(٢) يقول الشاعر : إنك أحياناً كالرائحة لا تثبت في بستانها ، وأحياناً سجين في سجن بنته يد تسير مع ساعات الزمان ، وتحبس نفسك فيها والوقت هو أنت .

(٣) لفظ القضاء والقدر ، يعتلُّ به ، ويحيل الأمور عليه .

وأرى الحـــرَّ مُشيـــراً للقَـــدَرْ صـوَّرت كفَّـاه أحـداثَ الـدَّهَـر[1]
عنـده المـاضـي التقَـى والقـابـل عـاجـلٌ بيـن يـديـهِ الآجـل[2]

* * *

ضـاقَ عـن معنـايَ حـرفٌ وصـدَى عجـزَ الإدراكُ فـي هـذا المـدى
قلـتُ ، واللفـظُ مـن المعنـى خَجِـلْ وشكـا المعنـى مـنَ اللَّفـظ المَحِـلْ
مـات معنـىً فـي حـروف يُحبَـس نـارَه يُخمـدُ منـك النفَـسُ
سـرُّ غيـبٍ وحضـورٍ فـي القلـوبْ رمـزُ وقـتٍ ومـرورٍ فـي القلـوبْ[3]
إنَّ للـوقـتِ لَلَحنـاً صـامتـا ولـه فـي القلـب سـرّاً خـافتـا[4]
أيـنَ أيـامٌ بهـا سيـفُ الـدهَـر صـرَّفتْـه فـي أيـادينـا القُـدَر ![5]
قد غرسنا الدِّين في أرض القلوب وجلـونـا الحـقَّ مـن ستـر الغيـوبْ
ومِـنَ الـدُّنيـا حلَلنـا العُقَـدا واستنـار التُّـربُ منّـا سُجَّـدا
مِـنْ دنـانِ الحـقِّ صـرَّفنـا الـرَّحيـق وهَـدَمْنـا حـانـةَ العصـرِ العتيـقْ
يـا مـديـرَ الـرَّاح فـي أضـوائهـا ومُـذيـبَ الكـأسِ مـن لألائهـا[6]
مـن غـرورٍ واختيـالٍ تَسْكَـرُ ومـن الفقـر لـدينـا تَسْخَـرُ !
كـأسُنـا كـانـتْ سِـراجَ المحفِـل صَـدْرُنـا كـانَ لقلـبِ مُشعَـلِ
إنَّ هـذا العصـرَ مِـنْ آثـارنـا مـن عَجـاجٍ ثـارَ فـي تسيـارنـا

---

(١) عزم الحر من القضاء ، ويقول الشاعر في هذا : إن القضاء يستشير الحرَّ فيما يفعل .
(٢) لا يعتل بأن شيئاً قد فات وقته وأن شيئاً لم يحن وقته . بل عزمه يطوع كل وقت لما يريد .
(٣) القافية مردوفة والروي في حضور ومرور .
(٤) أبيات إقبال هذه في الوقت وفي التفريق بين العبيد والأحرار من أروع ما عرفته الفلسفة والشعر .
(٥) في هذا البيت والأبيات بعده يذكر إقبال ماضي المسلمين .
(٦) في هذا البيت وأبيات تليه يخاطب الشاعر أهل الغرب المسيطرين على العالم .

روضةُ الحقِّ ارتوت مِنْ دمنا ... عزَّ أهلُ الحقِّ في الدنيا بنا
كبَّر العالَمُ من تكبيرنا ... كعَباتٍ شادَ مِنْ تعميرنا
« اقرأ » الحقُّ لنا قَدْ علَّما ... بيدينا رزقَهُ قد قسَّما[1]
لا تهوِّنْ قَدْرَ حرٍّ أعدَما ... أن تَرى التَّاج مضى والخاتما
إن نكنْ عندك أصحابَ الخسارْ ... قُدماء الفكر أحلافَ الصَّغارْ
فلدينا عزَّةٌ مِنْ « لا إلٰه » ... نحن لِلْكَونينِ حُرَّاسٌ أبَاهْ
قَدْ تركنا غمَّ أمسٍ وغد ... ووفينا لحبيبٍ أوْحَدِ
نحنُ ورَّاثُ هداةٍ للبشرْ ... نحنُ عند الحقِّ سرٌّ مدَّخر
لا تزال الشمس تُبدي نورنا ... غيمُنا فيهِ بروقٌ وسَنا
ذاتُنا المرآة للحقِّ ، اعلَمِ ... آيةُ الحقِّ وجودُ المسلمِ

* * *

دعاء[2]

أنت في الكَوْنِ كروحٍ مُستسِر ... روحُنا أنت ، ومنَّا تَستتر
منكَ فيه نغمةٌ عُودُ الحياهْ ... في هواكَ ، الموتُ محسودُ الحياهْ
عُدْ فسكِّنْ ذي القلوبَ البائسهْ ... عُدْ فعمِّر ذي الصدورَ اليائسهْ
عُدْ فكلِّفنَا الفِعال الماجدا ... ألْهبنَّ العِشق فينا الخامدا
إنَّنا نشكو تصاريفَ القضاءْ ... أنت تُغلي السِّعْرَ والأيدي خَلاء[3]
عن فقيرٍ لا تحجِّب ذا الجمال ... عشقَ سَلْمانَ امنحنَّا وبلالْ
عَيْنَ سُهْدٍ لفؤادٍ قَلِق ... امنحنَّا واضْطرابَ الزِّئبَق

---

(١) يشير إلى أول سورة في القرآن : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ .
(٢) الخطاب لله تعالى .
(٣) يعني تكلفنا واجبات عظيمة وليس في يدنا اليوم أسبابها .

آيــةً أظهِــر مــن الآي المبيــن ... لنَـرى أعنـاق قـومٍ خـاضعيـن[1]
أظهِـر البـركـانَ مِـنْ أعـوادنـا ... وامـحُ غيـرَ الله فـي نيـراننـا
كفُّنـا ألقـت بخيـط الـوَحْـدَة ... كم ترى في أمرنا مِنْ عُقدة ؟[2]
قَـدْ مضينـا كنجـومٍ حـائـرة ... إخـوةٌ لكـنْ وجـوهٌ نـافـرة
انظمَـنْ فـي السِّلـك هـذا الـورقـا ... جَـدِّدَنْ سنَّـة حُـبٍّ أخلقـا[3]
ابعثنَّـا مثـل مـا كنَّـا لكـا ... ائتمـن فيمـا تـرى أحبـابَكـا
منـزلَ التَّسليـم أبلـغْ رَكْبَنـا ... عـزمَ إبـراهيـم يسِّـره لنـا
علِّمـنَّ العشـق مـنْ أفعـال « لا » ... رمـزَ إلا الله علِّـم غـافـلا[4]

* * *

أنـا كـالشمـع لغيـري أُحْـرَق ... وبـدمعـي كـلُّ حفـلٍ يَشْـرَقُ
رَبِّ ! هذا الدمع نورٌ في القلوبْ ... ذو هَيـاجٍ واضطـرابٍ ونحيـبْ
أبـذرُ الـدَّمـعَ فتنمـو شُعَـلُ ... نـارُ شِقْـر الـرَّوض منهـا تَنصِـل[5]
أمـسِ فـي قلبـي ، وعينـاي الغـدُ ... أنـا فـي الجمـع فـريـدٌ مُـوحـد[6]
« ظـنَّ كـلٌّ أننـي نعـم السميـرْ ... ليس يدري أيُّ سرٍّ في الضمير »[7]
أيـن يـا ربَّـاه فـي الـدُّنيـا النـديـم ... نخـلُ سيناءَ أنـا ، أيـن الكليـم ؟

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤].

(٢) يعني : أضاع المسلمين خيط الاتحاد ، فتعقدت أمورهم .

(٣) الورق : ورق الكتاب ، والسلك : الخيط الذي يجمع به الورق .

(٤) « لا » : يريد النفي في كلمة التوحيد ، نفي ما سوى الله ، و« إلا الله » هي الإثبات في هذه الكلمة .

(٥) الشقر : شقائق النعمان . وهي زهر أحمر يضرب به المثل في الاحتراق ، ولكنَّ الشاعر يقول إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي .

(٦) قلبه متصل بذكرى الماضي ، ولكن عينيه تريان المستقبل ، وتطمحان إليه . وهذا معنى يكرره إقبال .

(٧) البيت من فاتحة المثنوي لجلال الدين الرومي في وصف الناي .

ظـالـمٌ نفسـي فَكَـمْ عنَّيتُهـا ... شُعـلاً فـي صَـدْرِهـا أذكيتُهـا
شُعـلاً للحـسنِ تـذرو مـا بـه ... وتَشُـبُّ النَّـارُ فـي أثـوابـه[1]
وبهـا العقـلُ جنـونـاً عُلِّمـا ... وبهـا أُحـرِق مـا قـد عُلِمـا[2]
قد علَتْ من حرِّها شمسُ السماءْ ... حـولهـا لِلْبَـرقِ طـوْفٌ فـي الفضـاءْ
كـلُّ عِـرْق فـيَّ نـاراً يقطـرُ ... شُعَـلاً يَنبُـتُ فـيَّ الشَّعَـرُ
بلبلـي يلفـظ هـذا الشـررا ... فتـراه نَغَمـا مستعـرا
صَـدْرُ عصـري مـا بقلـبٍ يـوهـن ... نَـوْحُ قيسٍ حينَ يخلـو المَحْمِل[3]
يخفـق الشَّمـعُ وحيـداً وَيْلَـهُ ! ... فـي فَـراشٍ لا يـرى أهـلاً لـه[4]
كـم أرجِّـي مُسعـداً لـي فـي البشـر ... ونجيَّـاً كـم أرجِّـي فـي الـدَّهَـرْ

***

يـا مـن الأنجـمُ منـه تستنيـر ! ... أرجِعـنْ نـارَكَ مـنْ روحـي الكسيـر
اسلُبَـنْ نفسـيَ مـا أودعتَهـا ... عَطِّلـنْ مِـنْ نـورهـا مـرآتَهـا
أو فهـبْ لـي وجـهَ خـلٍّ لَبِـقٍ ... هـوَ مـرآةٌ لعِشْـقٍ مُحـرقِ

***

يَخفُـقُ المـوجُ بمـوجٍ فـي العُبَـاب ... لا يسيـرُ المـوج إلّا فـي صِحـاب
ومَـعَ الكـوكـبِ يَسـري الكـوكـبُ ... وعلـى الأقمـارِ يحنـو الغَيْهَـبُ
ومـعَ اللَّيْـلِ نهـارٌ أبـدا ... ومسيـرُ اليـومِ يقتـادُ غـدا
نهـراً ، أُبصـرُ ، يَفنَـى فـي نَهَـر ... ونسيـمَ الـرَّوض فـي عَـرْفِ الـزَّهَـرْ

---

(١) نار تحرق المحسوسات ، وتنفذ إلى البواطن .
(٢) هذه النار نار العشق تخرج بالعقل عن حدوده الضيقة . وتحرق ما لقنه الناس من علم . انظر الكلام عن العشق والعقل في مقدمة ضرب الكليم .
(٣) يبكي إقبال لخلوّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلو المحمل من ليلى .
(٤) يعني : أنه كالشمع ، لا يجد فراشاً أهلاً لناره . ليس له أصحاب ، أو تلاميذ يفقهون عنه ما يقول .

رُبّ حـــانٍ آهـــلٍ مـــنْ شَـــربـــه ... راقـــصَ المجنـــونُ مجنـــونـــاً بـــه
أنـــت يـــا واحـــدُ لا شبـــهَ لكـــا ... عـــالَمـــاً أنشـــأتـــهُ مـــنْ أجلكـــا
وأنـــا مثـــلُ شقيقـــاتِ الفَـــلا ... مُفْـردٌ ، فـي بُهـرَة الجمـع خَـلا[1]
هَـــبْ نجيًّـــاً يـــا ولـــيَّ النِّعمـــة ... مَحـرمـاً يُـدرك مـا فـي فطـرتـي
هَـــب نجيّـــاً لَقِنـــاً ذا جنَّـــة ... ليـسَ بـالـدُّنيـا لـه مِـنْ صلـة[2]
رُوحَـــه أودِع مِـــنْ أنَّـــاتيـــهْ ... وأرى فـــي قلبـــه مـــرآتيَـــه
وأســـوِّيـــه بطينـــي مُحكمـــا ... وأُرَى آزرَه والصَّنمـــــــا[3]

* * *

(١) الشقيقات : جمع شقيقة واحدة الشقائق التي تسمى شقائق النعمان . هو وحيد وإن كان جماعة .

(٢) يريد إقبال نجياً مجنوناً . والجنون في لغة إقبال الهيام والإقدام إلى غير حدٍّ .

(٣) يكون له ناحتاً كآزر ويكون صنماً له يتوجه إليه توجه العابد إلى الصنم .

القسم الثاني

رُموز نفي الذَّات

(أسرار بيخودي)

٢ ـ رموز بيخودي (أسرار نفي الذَّات)
باللغة الفارسيَّة

هذه المقالة الفلسفية المنظومة باللُّغة الفارسيَّة نشرها محمد إقبال عام ١٩١٨م وهي من حيث الاسم تبدو أنها ضد الكتاب الأول ، لكنَّها في الحقيقة تفسر ، وتبيِّن نفس النظرية ، وتعتبر التتمة اللاَّزمة له ، وقد طبعت أحياناً القصيدتان في مجلدٍ واحدٍ بعنوان « أسرار ورموز » هنا يكمل محمد إقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد والقوى أو الذات الكاملة وبين الجماعات الَّتي تعيش فيها .

وأما الموضوعات الرئيسية فهي علاقة الفرد بالمجتمع ، والإنسانية ، والطبيعة الاجتماعية المثالية ، والمبادىء الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة .

محتوى الديوان

يبدأ الشاعر المنظومة بتمهيد في ارتباط الفرد والأمَّة ، ثم يعقد الفصول التالية :

١ ـ الأمَّة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوَّة .

٢ ـ أركان الأمة الإسلاميَّة .

أ ـ **التوحيد** : ويستطرد في بيان التوحيد إلى فصول أخرى ، كما يعقد فصولاً أخرى للتمثيل .

ب ـ **الرسالة** : وفي هذا العنوان فصول أخرى منها أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية ، والمساواة ، والأخوة بين بني آدم ، ويقصُّ قصصاً شتَّى في

هذا الصَّدد . وأن الأمة المحمَّدية قائمة على التوحيد ، والرسالة ، فلا يحدُّها مكان ، وأنَّ الوطن ليس أساس الأمَّة ، وأنَّ الأمة المحمدية لا يحدها زمان ، ودوامها موعود ، وأنَّ نظام الأمة لا يكون بغير القانون ، وقانون أمَّة محمد القرآن ، وأنَّ نجاح الأمة باتباع الشريعة الإلهية ، وأن حسن سيرة الأمة بالتأدُّب بالآداب المحمَّدية .

٣ ـ حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً ، ومركز الأمة الإسلاميَّة الحرم .

٤ ـ الاجتماع الحقيقي لا يكون إلا بقصدٍ يقصد إليه ، ومقصد الأمَّة المحمدية حفظ التوحيد ، ونشره .

٥ ـ توسيع حياة الأمَّة بتسخير قوى العالم . وكمال حياة الأمَّة أن تحسَّ ذاتها كما يحسُّ الفرد ، وينشأ هذا ، ويكمل بحفظ سنن الأمَّة .

٦ ـ بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة واحترامها من قواعد الإسلام .

٧ ـ السيدة فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ لنساء الإسلام .

٨ ـ خطاب إلى المسلمات .

٩ ـ خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص .

١٠ ـ مناجاة المصنف الرَّسول الَّذي بُعث رحمةً للعالمين .

ويبيِّن محمد إقبال في هذه المنظومة فكرة أنَّ « الوطن ليس أساس الأمَّة » فيقول : إنَّ العصبيات الوطنية قطعت أرحام الأمم ، ويبيِّن كيف هجر النَّصارى دين عيسى وتقطع أمرهم بينهم . . . كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون .

ويذكر ميكافيلي الإيطالي ، وأثره في سياسة أوربة إلى أن يقول :

جعل الملك إلهاً دينه ... كلُّ قبحٍ ناله تحسينه
وزن الحقَّ بربع وجدى ... ولدى الملك خنوعاً مسجدا

صيَّـر الحيلـة فنَّـاً محكمـا فـزهـا البـاطـل ممـا أعلمـا[1]

ويخاطب المرأة المسلمة :

احـــذري فتنـــة عصـــرٍ مهلـــك وإلـــى صـــدركِ ضمِّـــي وُلْـــدكِ
بَعُـــدَتْ عـــن عشّهـــا فـــي خطـــرٍ هـــــذه الأفـــــراخ ، لا تَطِـــــرِ
فيـــك تسمـــو للمعـــالـــي فطـــرةُ فـــاتبعـــي الـــزهـــراءَ ، نعـــمَ الأســـوةُ
عـــلَّ غصنـــاً منـــكِ يـــأتـــي بِحُسيـــن فتـــرى النضـــرَةَ رَوْضَـــات ذَوَيْـــن

* * *

(١) إقبال ـ للدكتور عبد الوهاب عزام ص١٣٧ .

جـدْ بنَفْـسِ الـذَّاتِ . لا تهـابْ
اجْتَهدْ ، واللهُ يَهْديكَ الصَّوابْ

(جلال الدِّين الرُّومي)

تمهيد

مهداةٌ إلى الأمَّة الإسلاميَّة

إيـه يـا مُنكـراً أحـاديـثَ عشقـي ... ليس بي حُرقةٌ تكون بغير عُرفي[1]

ختـمَ اللهُ إليـكِ الأممـا ... بـكِ حقَّـاً كـلَّ بَـدءٍ خُتمـا

كـم تقـيٍّ فيـكِ كـالـرسْـل مُنيـبْ ... وجـريـحِ القلـب رفَّـاء القلـوب

لـكِ طـرفٌ بـالنَّصـارى سُحِـرا ... وعـن الكَعبـة أبعْـدتِ السُّـرى[2]

يـا مـنِ الأفـلاكُ مِـنْ هَبـوتِهـا ... « مـنْ رنـا الكـونُ إلـى طلعتهـا »[3]

سـرتِ كـالمـوج دؤوب السَّفـرِ ... « أيـن تبغيـن مُـرادَ النَّظـر ؟ »[4]

كفَـراشٍ فـي لظـى الحـبِّ اصبـري ... وخـذي عُشَّـكِ بيـن الشـررِ

أحْكمـي العشـق بـروح قـدْ صفـا ... جـدِّدي العهـد بحـبِّ المصطفـى

صحبـةَ النَّصـرانِ قلبـي هجـرا ... حينمـا وجهـكِ عنـدي أسفـرا

ورفيقـي رهـنُ حسـنِ الآخـريـن ... واصـف الطـرَّة منهـم والجبيـنْ

---

(١) ترجمة بيتٍ لعرفي الشيرازي صدَّر به الشاعر هذه التقدمة . ومعناه : لا يستطيع أحدٌ إنكار ما أصف من آلام عشقي . فإنه إن شعر بالآلام التي أصفها فهذه الآلام لا تكون بي ولكن به هو . إنني أصف شيئاً لا يمكن أن يكون في قلب غيري ، فكيف يستطيع إنكاره ؟!

(٢) يعني أهل أوربة الذين سيطروا على الهند وغيرها حقبةً .

(٣) الأفلاك من الهبوة التي أثرتها في جهادك على الأرض .

(٤) الشطران بين الأقواس بيت للشيخ سعدي الشيرازي .

سـدَّةَ الساقـي بخـدَّيـه يَـدوسْ ... منشـداً قصَّـة غلمـانِ المجـوسْ[1]
وأنـا فيـكِ قتيـلُ الحـاجـبِ ... وتُـرابٌ فـي حِمـاكِ الحـادب
أنـا مـنْ نظـم مـديـحٍ أرفـعُ ... لسـتُ ممَّـن لأميـرٍ يَـركـعُ
كـمْ مـرايـا صُغتُهـا مـنْ كلِمـي ... فَعَـنِ إسكنـدرَ تعلـو هِممـي[2]
لا تَـرى المنّـةَ جيـدي تـأطِـر ... من زهور الروض حِجْري صَفِرُ[3]
مُقْـدِمٌ فـي الـدَّهـر مثـل الخِنجـرِ ... منْ قلوب الصَّخر مائي أمتري[4]
أنـا فـي نـار الحيـاة الشَّـررُ ... فـي ثيـابٍ مـنْ رمـادي أسْتَـرُ

* * *

قَصَـدَتْ بـابـكِ روحـي فـي خشـوع ... فـي هـدايـا مـن لهيـبٍ ودمـوعْ
إنَّ فـي الـزرقـاء يمَّـاً يقطـرُ ... فـوق قلـبٍ لا هـبٍ لا يفتـرُ
أجمـعُ القطـر ربيعـاً جـاريـا[5] ... وإلـى روضِـكِ أزجـي صـافيـا
قـد حُييـت الحـبَّ مـنْ محبـوبنـا ... أنتِ قلبٌ قد ثوى في صدرنا[6]
قـذف العشـقُ بقلبـي حُـرَقـا ... صـاغَ مـرآةً فـؤادي المُحـرَقـا
وشققـتُ الصَّـدر ، كـالـورد لـكِ[7] ... مُـدنيـاً مـرآتـه مـن وجهـك

---

(١) يعني : أنَّ الشعراء الآخرين فتنوا بذكر ألحان وغلمان المجوس ، وهؤلاء في الشعر الفارسي كغلمان النَّصارى في الشعر العربي يقرن ذكرهم باللهو والسكر ؛ إذ كانوا خدم الحانات .

(٢) مرآة إسكندر مشهورة في الشعر الفارسي ، يقال : إنه كان يرى فيها الأقاليم ولعلَّ أصل الخرافة منارة الإسكندرية ومراياها . ويقول الشاعر هنا : إنَّ في شعري مرايا كمرآة إسكندر ، فلست في حاجةٍ إليها .

(٣) يعني : أنه لا يجني الزهر في حجره بل يستكبر أن يجنيه استغناءً عنه .

(٤) حذف بعد هذا بيتان .

(٥) الربيع : النهر الصغير .

(٦) محبوبنا الرسول ﷺ .

(٧) يتخيل الشعراء أن الورد يمزق صدره حين يتفتح ، ويقول الشاعر : إن العشق صاغ قلبه=

لتنـــالـــي نظـــرةً مـــنْ سِحـــرِكِ وتُـــرَيْ مغلـولـةً فـي شَعـرِكِ[1]
ثـم أشـدو قِصَصـاً مـنْ أمسـك فـأذَكِّـي حُـرَقـاً فـي نفسِـكِ

* * *

أســأل الحــقَّ حيــاةً تحصُــف لفــريــقٍ نفسَــه لا يعــرف
نــائــحٌ والليــل ســاجٍ ســادلُ يهجَـعُ النـاسُ ودمعـي هـاطـلُ
تصطلـي روحـي بحـزنٍ وألـمْ وردُ « يـا قيُّـوم » أُنسي فـي الظُّلـمْ
أمـلاً فـي الصـدر صيَّـرتُ دمـا ليُـرَى فـي أدمُعـي مُنسجمـا
مـا احتـراقـي كشقيـقٍ أبـدا فيم أستجدي من الفجر النَّدى[2]
أنـا كـالشَّمـع دمـوعـي غُسُلـي فـي ظـلام الليـل أذكـى شُعَلـي
محفـلُ النـاس بنـوري يُشـرقُ أنشـرُ النُّـور ونَفسـي أحـرقُ
مـا لنـاري فـي الحشـا مـن فَتـرةٍ مـا بـأسبـوعـي فَـراغُ الجمعـة[3]
إنَّ روحـي فـي سحيـق الجَسـد آهـةٌ ثـوبَ غبـارٍ تـرتـدي[4]
مُـذْ بـرانـي الحـقُّ فجـرَ الخلقـة زلـزلـتْ أوتـارَ عـودي أنَّتـي
أنَّـةٌ للْعِشْـق تُفشـي سـرّهُ آهـةٌ فـي العِشْـق تُـذكـي جمـرهُ
تجعـل العصـفَ لهيبـاً يُحـرقُ وفَـراشـاً مـنْ تـرابٍ تخلُـق[5]

* * *

= مرآة وهو يشق صدره فيضع هذه المرآة أمام الأمة الإسلامية لترى فيها حقيقتها .

(١) أي لتقدري جمالك ، وتدركي مزاياك ، وتحبي نفسك .

(٢) الشقيق : زهر أحمر يجعله الشعراء مثلاً للاحتراق . ويقول إقبال : ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له ، ولماذا أستجدي الندى من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر . أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندى .

(٣) أيامه كلُّها عملٌ وجهدٌ ، ليس فيها يوم راحة .

(٤) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردى الإعصار بالغبار .

(٥) تجعل العصف ـ وهو الهشيم ضعيف اللهب ـ ناراً قوية تحرق غيرها ، وتخلق من التراب فراشاً هائماً يهفو على النار .

في ضمير العِشْقِ وَسْمٌ كالشَّقَرْ ... ولـه وردةُ وجدٍ تستعرْ
هذه الوردة أحبُو صَدركِ ... في سُباتٍ منك أذكي حشرَكِ
لأرى في تُربكِ الروضَ الينيعْ ... وبأنفاسكِ أرواحَ الرَّبيعْ

***

في معنى ارتباط الفرد والأمَّة

رحمةٌ للفرد حِجْرُ الأمَّة ... كاملٌ جوهرُه في الملَّة
فالْزَمَنَّ الجمعَ جهْدَ المستطاعْ ... في ذُرا الأحرار كنْ مثلَ الشعاعْ
واحْفَظَنْ ما قاله خيرُ البشر : ... كلُّ شيطانٍ منَ الجمع نفرْ
فَرْدنا مرآته أمَّتُهُ ... وكذا مرآتها صورتُه
وهما سِلْكُ نظامٍ ودُرَرْ ... أو نجومٌ تتجلَّى في النَّهَر[1]
قيمةُ الأفرادِ جدوى الملَّةِ ... ومن الأفراد نظم الأمَّة[2]
وإذا الواحدُ في الجمع نما ... كان كالقطرة صارت خِضْرِما
جُمعَ الماضي له في لُبِّه ... والتقى الغابرُ والآتي به
صلة الأمس تراه والغَدِ ... وقتُه لا ينتهي كالأبدِ
هو بالأمَّة قلبٌ طامحُ ... وهو بالأمَّة سعيٌ رابحُ
روحه من قومه ، والبدنُ ... سرُّه مِنْ قومه والعَلَنُ
بلسانِ القوم يشدو منطقا ... وَمِنَ الأسلاف يَقفو طُرُقا
تُنضجُ الفطرةَ فيه الصُّحبةُ ... فتراه الفردَ وهو الأمَّةُ
تُحكِمُ الوحدةَ فيه الكثرةُ ... وهي ، بالوحدةِ فيه ، وحدة[3]

---

(١) نهر المجرة .
(٢) قيمة الأفراد من فضل الأمَّة عليها .
(٣) كثرة الأمة لا تضر بوحدة الفرد بل تحكمها ، والكثرة فيها موحدة بوحدة الفرد . ورأي=

أفـرِدِ اللَّفـظ مـن البيـت تـرى ... جـوهـر المعنـى لـديـه انكسـرا[1]

تَسْقُـطُ الأوراقُ مـن غصـنٍ ينيـع ... فتُـرى محـرومـةً وصـلَ الـرَّبيـعْ

طفئـت أنغـامُ أعـوادٍ غِنـاء ... فـاتهـا مـنْ زمـزم الأمَّـة مـاء

يُحـرَم الفـردُ الـوحيـدُ المقصِـدا ... فتـرى نظـمَ قُـواه بَـدَدا

تجمـعُ الأمَّـةُ شمـلَ المُنّـة ... فيـه تحبـوه عظيـمَ الهمَّـة

نشَـأتْ بـالقيـد حـرّاً مطلقـا ... أثبتـتْ فـي الأرض سَـرْواً بَسَقـا[2]

ظَبيُـه الـوثّـابُ مِسكـاً يَعبـق ... إنْ حـواهُ مـن نظـامٍ وَهَـق[3]

أنتَ لم تعرفْ «خودي» من «بيخودي» ... أنـت لا ريـبَ مـن الشـكِّ رَدِي[4]

إنَّ فـي طينـك نـوراً قـد بـدا ... بشعـاعٍ منـه أبصـرتَ الهـدى[5]

كـلُّ غـمٍّ ورضـاً مـن دورتـهْ ... أنـت حـيٌّ بتـوالـي ثَـورتِـه

أنـت منـه أنـت حقّـاً ، وأنـا ... أنـا وهـو الفـرد لا يـرضـى ثُنـا[6]

يخلـقُ النَّفـسَ ويَـذْرو ويُقِـرّ ... ذو دلالٍ فـي خضـوعٍ مستتـر[7]

= إقبال أن غاية الجماعة تقوية الفرد وإسعاده ، وهو لا يفنى فيها .

(١) الفرد في الجماعة كلفظ في بيت من الشعر إن فصلت اللفظ من البيت اختل البيت ، وتعطل معنى اللفظ .

(٢) تقيد الفرد بقيود الجماعة لا يعبده بل يحرره ، وثباته في الجماعة ينميه مثل الشجرة تثبتها في الطين فتنمو وإن لم تثبت في الأرض لم تنم .

(٣) الوهق : حبل فيه آخية يصطاد به يعني : أن قيد النظام للإنسان يمنع وثوبه ولكن يكمله ويطيبه .

(٤) أثبت خودي ، ومعناها : الذَّاتية ، وبيخودي : أي نفي الذاتية على لفظهما في الأصل يعني الشاعر أنَّ الإنسان إن لم يميز مواضع الذاتية من مواضع نفيها اشتبه عليه أمره ، وهذا أساس فلسفة إقبال . انظر المقدمة .

(٥) يعني : الذاتية .

(٦) وجودك منه ووجودي منه ، وهو مع هذا فرد لا يثنى .

(٧) هذا النور الذي يسميه الذاتية يصنع نفسه ويثبتها ويفرقها . وله دلال يظهر في صورة خضوع ، يعني أنه غالب ، وكأنه مغلوب .

يـأسـرُ الشعلـةَ هـذا الشَّـررُ ... لهـبٌ مـنْ حـرِّه مُستعـرُ[1]
حـرةٌ رهـنُ قيـودٍ فطـرتُـه ... جـزؤه بـالكُـلِّ حـاطـت قـوَّتـه
لكفـاح دائـمٍ تنـزُو قُـواه ... هو يُسمَى الذاتَ أو يُسمَى الحياه
يستثيـرُ الحـربَ فـي جلـوتِـه ... حيـن يُبـدي النَّفس مـنْ خلـوتـه[2]
يقطـع الجبـرُ عليـه الطـرُقـا ... ولـهُ بـالحـبِّ فـرعٌ سَمَقـا[3]
تتشظّـى الـذَّاتُ فـي أمَّتهـا ... لتُـرى الـروضـةُ مـنْ زهـرتهـا[4]
نكتـةً خـذهـا بكـفٌ مِخْـدَم ... « وانصـرف عنِّيَ إن لـم تفهـم »[5]

* * *

في معنى أنَّ الملَّة تنشأ من إخلاص الأفراد وأنَّ تكميل تربيتها بالنبوَّة

مـا ارتباطُ الجمعِ ، أنَّى يوصَفُ ؟ ... قصـةٌ أوَّلُهـا لا يُعـرفُ
إنَّنـا نبصـرُ فَـرداً فـي الجميـعْ ... زهـرةً نقطـف فـي هـذا الـربيـع[6]
فِطـرةٌ تنهـجُ نَهْـجَ الـوَحـدةِ ... إنّمـا تـزهـرُ وَسْـط الـرَّوضـة
كـلُّ فـردٍ بـأخيـه ائتلفـا ... مثـلَ درٍّ فـي سُمـوطٍ ألِّفـا
لَفَّهـم فـي عيشهـم معتَـرَكُ ... كـلُّ فـردٍ بـأخيـه مُمسِـكُ

---

(١) شررٌ صغير ، ولكنه كبيرٌ في معناه يقوى على الشعلة الكبيرة .
(٢) يظهر من خلوته أي يبدو في الكون فيثير حرباً هي جهاد الحياة الدائم .
(٣) الجبر والإكراه يقطع عليه الطريق ، وهو بالحق والاختيار ينمو ويعظم .
(٤) تفرق الذات نفسها فتنمو من زهرتها روضة ، أي : تعظم وتكثر بهذا التفريق .
(٥) هذا الشطر من المثنوي لجلال الدين الرومي .
(٦) مذهب إقبال أنَّ غاية الجماعة سعادة الفرد ، وأن الفرد لا يفنى من أجل الجماعة .

مـــن جِـــذابٍ تتـــوالـــى الأنجـــمُ كـوكـبٌ مـنْ كـوكـبٍ مستحكِـمُ

* * *

كـان رَكـبُ النَّـاسِ مـأواهُ الجبـالْ ومـــــروجٌ وسُهـــــوب ورمـــــالْ

نسجُـــه مـــا أُحْكِمـــتْ لُحْمَتُـــهُ فِكْـــرُهُ مـــا فُتِّحَـــت زهـــرتُـــهُ

عـــودُهُ مـــا بلحـــونٍ رَنَّمـــا لحنُـــه لمَّـــا يُـــؤلِّـــفْ نَغَمـــا

لـــم يُثِـــره مِـــنْ رجـــاءٍ مِضْـــرب لـــم يَخـــزه بـــزبـــانـــى مطلـــب[1]

محفـلٌ غُفْـل حـديـثِ المـولـد جـامُـه مـن خمـره غيـر نـدي[2]

لـــم يُـــرعـــرعْ فـــي ثَـــراه نجمُـــه كـــزْمُـــه مـــا فـــارَ فيـــه دمُـــه[3]

فكـــره دارٌ لغيـــلانِ الخيـــالْ خـائـفٌ مـنْ وهمـه فـي كـلِّ حـالْ

ذو وجـــودٍ ضيِّـــقٍ ميـــدانُـــه قـد أحـاطـت فكـرَه جُـدرانُـه

طينُـــه مـــن خيفـــةٍ قـــد خُلقـــا قلبُـــه مِـــنْ قَصْـــفِ ريـــحٍ خَفَقـــا

روحُـــه مـــنْ كـــلِّ صَعْـــبٍ تهـــرُبُ يَـــدُهُ فـــي أرضـــه لا تضـــربُ

كـــل مـــا ينمـــو بـــأرضٍ يقطِـــفُ كـــلُّ مـــا تـــرمـــي سمـــاءٌ يلقَـــفُ

* * *

ثـــم يهـــدي الله ذا قلـــبٍ بصيـــر يكتـب الأسفـار مِـنْ حـرفٍ يسيـر

عـــازفٌ فـــي كـــلِّ نفْـــسٍ ينفُـــث وحيـــاةً فـــي مـــواتٍ يَبعـــث

تقبـــسُ الـــذرَّة مِـــنْ أنـــواره كـــلُّ قَـــدرٍ حـــالَ فـــي معيـــاره[4]

يَنشـــر الأنفـــسَ منـــه نَفَـــسُ بشعـــاعٍ منـــه يُـــزهَـــى مجلِـــسُ

---

(١) المضرب ما يضرب به أوتار العود .

(٢) يعني : ليس عنده نشوة العمل والإقدام .

(٣) النجم : النبت الذي لا ساق له .

(٤) أي : تغيرت قيم الأشياء بما أتى به من مقاييس جديدة .

شفـــةٌ تُحيـــي وعيـــنٌ تَجـــذبُ ... وحَّـــدا الأشتـــات هـــذا عجَـــبُ[1]

يَهَـــبُ النَّـــاسَ جـــديـــدَ النَّظـــر ... يَجْعَـــلُ البيـــدَ كـــروضٍ نَضِـــرِ[2]

فتـــرى الأمَّـــةَ مِنْـــهُ ســـائـــره ... بلهيـــبٍ مِنْـــهُ حَـــرَّى ثـــائـــره

شـــرراً فـــي قلبهـــا قَـــدْ أشعـــلا ... فـــأحـــالَ الطِّيـــنَ فيهـــا شُعَـــلا

سيـــرهُ يعطـــي التـــرابَ البصَـــرا ... فـــإذا الـــذرَّةُ سينـــاءَ تَـــرَى[3]

عـــارِيَ العقـــل بجـــدواه كســـا ... وَهَـــبَ الثـــروةَ هـــذا المفلِســـا[4]

ينفُـــخُ الجمـــرة فـــي مـــوقِـــده ... ويـــذيـــب الغِـــشَّ مـــن عسجـــده[5]

ويفـــكُّ العبـــدَ مِـــنْ أغـــلالـــه ... ويُجيـــر القِـــنَّ مـــن أقيـــالـــه

قـــائـــلاً أن لســـتَ عبـــداً فـــاعلَـــمِ ... أتَـــرى قـــدرَك دون الصَّنَـــم[6]

يجـــذب الإنســـانَ شطـــر المقصـــد ... جـــاعـــلَ الشَّـــرع زمـــامـــاً فـــي اليـــدِ

نكتـــةَ التـــوحيـــد يـــوحيهـــا إليـــه ... أدبَ الطـــاعـــة يمليـــه عليـــه[7]

***

---

(١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتى يصيرا كنفسٍ واحدة .

(٢) يهب الناس نظراً جديداً فيرون الأشياء على غير ما رأوها قبلاً ، فرب حسن يصير قبيحاً ، وقبيح يصير حسناً .

(٣) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء . الذرة لا ترى إلا في نور الشمس ، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات ، وينير الظلم ، فترى الذرة طور سيناء .

(٤) العقل عريان مفلس حتى يمده الرسول فيكسوه ويغنيه أي : هو يهدي العقل ويقويه .

(٥) يشعل العقل ، ويميز له الخبيث من الطيب .

(٦) الناس يعبدون الصنم ويستعبدون الإنسان فيقول الرسول للإنسان لست عبداً ، ولست قدراً من الأصنام .

(٧) يقيده بالشريعة ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فترى الإنسان حراً من عبادة الكبراء مقيداً بالشرع .

أركان الأمَّة الإسلاميَّة

الركن الأول : التوحيد

طـوَّفَ العقـلَ بـدنيـا العِلـلِ ... قـاده التَّـوحيـد شطـر المنـزلِ
أعـوَزَ المنـزلُ هـذا السـابـلا ... زورقُ الفكـر أضـلَّ السـاحـلا
في « آتي الرحمن عبداً » مُضمرُ ... رمـزُ تـوحيـدٍ لقلـبٍ يُبصـرُ[1]
يبتلـي التـوحيـدُ فيـك العمـلا ... فيجلِّـي لـك سـرّاً أُغفِـلا
يُشـرق الـدِّيـنُ بـه والحكمـةُ ... ويُـرى الأيـدُ بـه والمُكنـةُ
قـد تجلَّـى حيـرةً للعـالِميـن ... وتجلَّـى عمـلاً فـي العـاشقيـن
يـرتقـي فـي ظلِّـه المتَّضِـعُ ... ويصيـر التُّـربُ تِبْـراً يَسطـع
يجتبـي التـوحيـدُ عبـداً ثـابَـرا ... فيـردُّ العبـد خلقـاً آخـرا
فهـو فـي الحـق حثيـثٌ دائـبُ ... دمُـه كـالبـرقِ فيـه لاهِـبُ
ريبـهُ يَفنَـى ويحيـا العَمـل ... عينُـه فـي الكـونِ يَقظـى تعمَـلُ
فـي « مقـام العبـد » إن تثبـتْ قـدم ... جَـرَّة السـائـلِ تُصبـحْ جامَ جـم[2]
« لا إلـه » الـروحُ فـي أمتنـا ... « لا إلـه » اللَّحـن فـي نغمتنـا[3]
« لا إلـه » السـرُّ فـي أسـرارنـا ... « لا إلـه » السمـط مـن أفكـارنـا
صـار قلبـاً إنْ حـواهـا حجـرُ ... كـلُّ قلـبٍ لـم تُتِـرْه ، مَـدَرُ
يتلظَّـى الكـونُ مـنْ زَفـرتِهـا ... ويضـيءُ القلـبُ مـنْ وقـدتهـا
وتُسيـل القلـب مـاءً فـي الصـدور ... تصهـر المـرآة منـه فـي الحَـرور

---

(١) إشارة إلى الآية في سورة مريم ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

(٢) كأس جشميد التي ترى فيها الأقاليم السبعة . أي إن صدقت النية في مقام العبودية لله وحده ينقلب السائل ملكاً ووعاؤه الذي يجتدي فيه يصير كأس جمشيد .

(٣) تقدَّم أنَّ « لا إله » اختصار كلمة التوحيد .

شعلةٌ في روحنا مثلُ الشَّقيق ... كلُّ ما نمتاره منها الحريق
بيَّض التَّوحيدُ مُسودَّ البَشَرْ ... فأبو بكرٍ أخوه وعمر
ليس إلا القلب قربٌ وابتعادْ ... وهذه الكأسُ بها هاجَ الفؤاد
وحدة القلب قوامُ الأمَّة ... أشرقتْ سيناءُ من ذي الجلوة
قد هدى الأمَّة سُبْلَ العمل ... هذه الفكر بها والأمل
نزعةٌ واحدةٌ في قلبها ... فعيارُ الحُسْنِ والقُبْحِ بها
لا يُجيد الفكرُ في قيثاره ... دونَ نارِ الحقِّ في أوتاره[1]
نحن في الإسلام أبناءُ الخليلْ ... من « أبيكم » خذ إذا شئت الدَّليلْ[2]
أُممٌ قد عبدتْ أوطانَها ... وبنتْ من نسبٍ بنيانَها
أترى الأوطانَ أصلَ الأمم ... تُعبَد الأرضُ بها كالصَّنم؟
إنَّما الأنسابُ فخرُ السُّفهاءْ ... حُكمها في الجسم ، والجسمُ هَباءْ
ضمَّنا في الحقِّ أسٌّ آخرُ ... هو في الألباب منَّا مُضمَرُ
قد خلصنا من حدودٍ وقيود ... قلبنا في الغيب إذ نحن شهودْ[3]
ضمَّنا ، كالزهر ، نظمٌ مضمرُ ... بصرٌ ليس يراه مُبصرُ[4]
وُحِّد الرئيُ لنا والفكرةُ ... كسهامٍ جمعتْها جَعبةُ[5]
نحن فكرٌ وخيالٌ واحد ... ورجاءٌ ومآلٌ واحدُ
نحن من نعمائه حِلفُ إخاءْ ... قلبنا والرُّوحُ واللفظ سواءْ

* * *

---

(١) الفكر وحده لا يجدي ، ولا بد له من حرقة الإيمان .
(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] .
(٣) أمتنا مؤسسة على العقيدة لا على الأرض . فقلوبنا ليست رهن الحس بل هي منصلة بالغيب ، أي بالمعاني التي لا تحدها الأوطان .
(٤) نظامنا قائم غير مرئي ، كالبصر لا تدركه الأبصار .
(٥) الرئي : المظهر .

في معنى أنَّ الخوف ، والحزن ، واليأس أمهاتُ الخبائث[1] وقاطعاتٌ طريق الحياة ، وأنَّ في التوحيد دواءَ هذه العلل الخبيثة

عُـدَّة المـوت قُنـوطٌ مُحبـطُ ... والحياة الحقُّ أن « لا تقنطوا »[2]

إنمـا العيـشُ رجـاءٌ يُـوصـل ... فقنـوطُ الحـيِّ سـمٌّ يَقتـل[3]

يـأسـك القبـر إليـه تـرجـع ... إن تكـنْ ألْـوَنْـدَ فهـو المصـرع[4]

رُبّـت الخيبـة فـي أكنـافـه ... ونمـا العجـز علـى ألطـافـه[5]

آهِ مـنْ نـوم الحيـاةِ المُخـدِر ... إنَّـه آيـةُ ضعـفِ العنصـر

كحلُـه فـي العيـن يُعمـي البصـرا ... ويـردُّ الصُّبـحَ ليـلاً أكـدرا[6]

نفـسٌ منـه سَمـومٌ للحيـاه ... كـلُّ ينبـوعٍ بـه جـفَّ ثـراه

وهـو للغـمِّ حليـفٌ واصـلُ ... إنَّمـا الغـمُّ لحـيٍّ قـاتـلُ

يـا سجيـنَ الغـمِّ أبصِـر واسمـعِ ... من رسول الله « لا تحزن » وعي[7]

ذلـك النُّصـح سـرى فـي قلبـه ... فغـدا الصِّـديـقُ صـدِّيقـاً بـهِ

نمـا المسلـم مثـلَ الكـوكـبِ ... بـاسـمٌ فـي سعيـه والـدَّأبِ

---

(١) مأخوذ مما جاء في الأثر من تسمية الخمر أم الخبائث .

(٢) مقتبس من القرآن ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

(٣) رجاء يوصل : دائم لا ينقطع .

(٤) ألْوَنْد : جبل عال مشرف على مدينة همذان يعني : إن تكن كجبل ألوَند في اليأس مصرعك .

(٥) الضمير اليأس في أكنافه تشب الخيبة ، وبفضله ينمو العجز .

(٦) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلاماً .

(٧) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

حـرِّرِ النَّفـس مـنَ الغـمِّ ودَعْ ... إنْ عـرفـت الله ، أغـلالَ الطَّمـعْ
قـوةُ الإيمـانِ تُحيـي فـاعلَمـنْ ... وِرْدَ « لا خوفٌ عليهم » فاقرأنْ[1]
قلبـه مـن « لا تخـف » قلـبٌ سليـمْ ... حين يمضي نحو فرعونٍ كليمْ[2]
خـوفُ غيـرِ الله قتْـلُ العمـلِ ... وهـو لـلأحيـاء قطـعُ السُّبُـلِ
وبـه العـزمُ يخـاف الغِيـرا ... وتـرى المِقْـدَام منـه حَـذِرا
مـن نمـا ذا البـذر يـوماً فـي ثَـراهْ ... حَـرمتْـه مـن تجلِّيهـا الحيـاهْ
فهـو فسـلٌ وهـو شـادٍ يَعْـزِف ... يـد شُلَّـت وقلـبٌ يـرجُـفُ
يسـرِقُ الـرجـلَ قُـوَى تسيـارهـا ... يسلـبُ الـرأسَ قـوى أفكـارهـا
إنْ تجلَّـى لعـدوٍّ خـوفُكـا ... هـانَ كـالـوردِ ، عليـه قطفُكـا
سيفُـه يـزدادُ فتكـاً فـي اليـد ... عينُـه فيـك حسـام لا يَـدي[3]
غلَّنـا الخـوفُ ، وكـم فـي بحـرنـا ... مـنْ عُبـابٍ مـائـجٍ فـي دهـرنـا
إنْ أبَـى النَّغمـة يـومـاً مِـزهـرُكْ ... فمـنَ الخـوف تنـدَّى وتـرُكْ
فـاعـزِكِ الأذنَ يَثُـر فيـه الغنـاء ... ويهـزَّ اللحـنُ آفـاقَ السَّمـاءْ
كـلُّ شـرٍّ فـي فـؤادٍ يُضْمـرُ ... أصلـه الخـوفُ ، إذا مـا تُبصِـرُ
مـنْ ديـار المـوت عيـنٌ قَـدِمـا ... مثـل ميـم المـوت قلـبٌ أظلمـا[4]
عينُـه تلبيـسُ آثـارِ الحيـاه ... أذنـه تـدليـسُ أخبـار الحيـاه[5]
يُـزهـر الخِـبُّ بـه والمَلِـق ... ونفـاقُ القلـبِ منـه يـورقُ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

(٢) إشارة إلى قصة موسى وفرعون وقول الخالق عن موسى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين .

(٣) لا يؤدي دية من قتله .

(٤) عين : جاسوس . والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة . فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت . وفي الأصل ميم مرك . ومرك : موت . فالميم في الأصل والترجمة .

(٥) تشوه مظاهر الحياة عينه . وتحرف أخبار الحياة أذنه .

ثـوبـه للـزُّور سترٌ والـريَـبْ حِجْـرُه الفتنـةُ فيـه والحـرَبْ
حُـرِمَ الخـوفُ طُمـوحَ الهمَّـةِ فهـو خـدنٌ لحليـف الـذِّلَّـةِ
كـلُّ مـن يفقـد سـرَّ المصطفـى يجـدُ الإشـراكَ فـي الخـوْفِ اختفى

* * *

محاورة السَّهم والسَّيف

قـال سهـمٌ مـرهـفٌ يـوم الـزِّحـامْ قـال للسيـف وللحـرب ضـرامْ
يـا مـن الجَنَّـة فـي أعطـافـه ذو الفقار العضبُ من أسلافه ![1]
خـالـداً صـاحبْـتَ يَفْـري الفيلَقـا وعلـى الشَّـام نشـرتَ الشفقـا[2]
نـارُ قهـر الله فـي جـوهـرِكـا جَنَّـةُ الفـردوس مـأوى ظلِّكـا !
إننـي فـي الجـوّ أو فـي جَعبتـي حيثمـا كنـت ، بجسمـي شُعلتـي
وإذا القـوس رمتنـي للثُّبـور بَصُـرَتْ عينـي بـأحنـاء الصُّـدور :
إنْ خـلا الصَّـدرُ مِـنَ القلـبِ السَّليـم مـا بـه يـأسٌ ولا خـوفٌ مقيـمْ
نَفـذ النَّصـل خِـلالَ الأعظُـمِ فكسـوتُ الجسـمَ درعـاً مـن دمِ
وإذا حَـلاَّه قلـبٌ مـؤمـنُ نـورُه الظَّـاهـرُ ممَّـا يُبطـنُ
ذاب روحـي مـن فـؤاد وَقـدا وهمـىٰ نصلـي كقطْـرات النَّـدى

* * *

---

(١) ذو الفقار : سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) في الأصل وعلى الشام نثرت الشفقا . وشام في الفارسية بمعنى الليل .

قصَّةُ

السُّلطان عالمكير والأسد[1]

إنَّ عـالمكيـر عـالـي المنـزلِ ... مـن بنـي تيمـور فخـرِ الـدُّول
كـانَ لـلإسـلامِ منـه عِـزَّةُ ... ولحكـم الشـرع فيـه حُـرمـةُ
آخـرُ الأسهـم فـي جُعبتنـا ... فـي ذيـاد الكفـر عـن ملَّتنـا
غَـرَسَ الإلحـاد فينـا أكبـرُ ... فنمـا فـي طبـع دارا يُـزهِـر[2]
وخبـا فـي الصـدر مصباحُ الفـؤادْ ... وبـدت أمتنـا رهـنَ فسـادْ
فتـولَّـى الهنـد فـي ذي المحنـةِ ... زاهـدٌ ربُّ حسـامٍ مُصلـتِ
اجتبـاه الحـقُّ للـديـن المبيـن ... اجتبـاه أجـلَ تجـديـد اليَقيـنْ
أحـرَق الإلحـاد مـنْ بـرق الحُسامْ ... وأنـار الـديـنَ فـي هـذا الظـلامْ
حـرَّف الجُهَّـالُ عنـه مـا جـرى ... فكـرُهـم عـن قصـده قـد قصَّـرا
كـان إبـراهيـمُ بيـت الصنـمِ ... فـي لظـى الحـقِّ فَـراشـاً يـرتمـي
كـان فـي الأمـلاك فـرداً خيِّـرا ... زهـدُه مـنْ قبـره قـد ظهـرا[3]

---

(١) هو محيي الدين عالمكير الملقب أورنغ زيب ، أحد عظماء الملوك في دولة المغول في الهند ، وكان حريصاً على نشر الإسلام في الهند ملتزماً حدود الشرع ، حكم الهند من سنة ١٠٩٩هـ إلى سنة ١١٤٨هـ ، انظر ترجمته في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلامة عبد الحيّ الحسني ، الجزء الثاني ، طبع دار ابن حزم بيروت .

(٢) أكبر هو جلال الدين أكبر من أعظم سلاطين المغول في الهند ، حكم خمسين سنة ، وحاول أن يجمع بين الإسلام والأديان الأخرى في دينٍ سمَّاه الدين الإلهي ، وكان يتقرّب إلى الهنادك ، ويرعى شعائرهم . ودارا أخو عالمكير المذكور هنا .

(٣) شاهجهان بن تاج محل لزوجه . فلما ولي عالمكير لم يبنِ لأبيه مزاراً بل دفنه بجانب زوجه في تاج محل . ثم بنى لنفسه قبراً صغيراً ساذجاً .

ذاكـم المَلـك الفقيـر الجـاهـد ... زينـة العـرش المليـك المـاجـد[1]
سـار صبحـاً مُـوغـلاً فـي غَيضـة ... معـه مـن جُنْـدِه ذو ثقـة
فـي نسيـم الصبـح نشـوانَ خَطَـر ... سـامعـاً تسبيـح طيـرٍ فـي الشجـرْ
وامَّحى السلطانُ في شوق الصلاه ... مـن مجـاز حـثَّ للحـقِّ خُطـاه
وأتـى ليـثٌ مَهيـبٌ فَتِـك ... صـوتُـه يَـرعَـد منـه الفلـكُ
شـمَّ ريـحَ الإنـس بُعـداً فـدنـا ... وعلـى السلطـان أهـوى البُـرثُنـا
فـإذا الخنجـر منـه فـي اليـد ... بـاقـراً كـالبـرق بطـنَ الأسـد
لـم يفـزَّع قلْبـه بـالبغتـة ... خـال ليـث الغـاب ليـث الصُّورة[2]
ثـمَّ للحـقِّ دعـاه الـولَـهُ ... فـي صـلاة الـوجـد معـراجٌ لـه[3]
مثـل ذا القلـب الـذي لـم يَهـنِ ... دارُه بـالحـقِّ صـدرُ المـؤمـن
إنمـا العبـد أمـامَ الحـقِّ « لا » ... وهـو للـزور « نعـم » لـن يَبطُـلا[4]
أيهـا الغـافـل! قلبـاً حصِّـلا ... هيِّئـنْ للحِـبِّ هـذا المحمـلا[5]
ابـذلِ النَّفـسَ تَنَلْهـا لا مفـرّ ... ذلَّ للحـقِّ تَنـلْ عـزَّ الـدَّهَـر
أحـرقـنْ بـالعشـق خـوفـاً وانهـدَا ... حمـلاً فـي الحـق ليثـاً للعِـدى
إنَّ خـوفَ اللهِ إيمـانٌ جلـيّ ... ثـمّ تقـوى غيـرِه شـركٌ خفـي

***

(١) زينة العرش لقب هذا السلطان (أورنك زيب) .
(٢) توهم الليث صورة ليث .
(٣) ثم دعاه الوجد إلى الصلاة مرةً أخرى .
(٤) العبد لدى مولاه يفنى ولكن يثبت في جهاد الباطل واللفظان العربيَّان « لا » ، و« نعم » في الأصل .
(٥) الألف في حصلا نون التوكيد الخفيفة .

الركن الثَّاني

الرسالة

تـاركُ الآفِـل ، مِـنْ قبـلُ الخليـل ... هُـو للـرُّسْـل علـى النَّهـج دليـل
إنَّـــه لله فينـــا آيـــةُ ... رُبِّيـــتْ فـــي قلبـــه ذي الملَّـــةُ
﴿ طهِّـــرا بيتـــي ﴾ إليـــه أنـــزلا ... بعـد سَيْـلٍ مـن دمـوعٍ سُيِّـلا[1]
قفـــرةً مـــن أجلنـــا قـــد عَمَّـــرا ... وبنَـى البيـتَ الـذي قـد طَهَّـرا
﴿ تـب علينـا ﴾ نضَّـرت زهـرتهـا ... فنَمـتْ فـي أرضنـا روضتُهـا[2]
صـوَّر الـرحمـنُ منَّـا هيكـلا ... وحبـاه الـروحَ ممَّـا أنـزلا
أحـرُفـاً كنَّـا ولَسنـا كَلِمـا ... فتـألَّفنـا كبيـتٍ نُظِمـا
بـالـرسـالاتِ بـدا تكـويـنُنـا ... شـرعُنـا منهـا ومنهـا دينُنـا
ذاكَ مَـن « يهـدي إليـه مـن يـريـدْ » ... حلقـةً منهـا حـوالينـا يشيـد[3]
حلقـــةٌ ذاتُ محيـــطٍ يُعجـــزُ ... سـاحـةُ البطحـاء فيهـا مـركـز[4]
نحـــنُ ممَّـــا جمَّعتنـــا أمَّـــةُ ... أُرسلـت للنَّـاس فيهـا الـرَّحمـة
مَـوْجُنـا فـي بحـرهـا متَّصـلُ ... مـوجـةٌ مـنْ مـوجـةٍ لا تُفصـل
أمـــةٌ فـــي حـــرزِ سُـــور الحـــرَم ... فـي حفـاظٍ مثـلَ أسْـد الأجـم[5]

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

(٢) إشارة إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج : ١٦] .

(٤) بطحاء مكة .

(٥) إشارة إلى بيت البردة :
أحـلَّ أمتـه فـي حـرز ملَّتـه ... كالليث حلَّ مع الأشبال في أجم =

إنْ تحقِّق ممعناً في كَلِمي ... نظرةَ الصِّدِّيق ربّ الفَهَم
فالنبيُّ الروح فينا والعَصَبْ ... وإلى القلبِ منَ الربِّ أحَبّ
سِفْرُه في القلب نبعُ القوَّة ... شَرعهُ حَبْلُ وريدِ الأمَّة
قطعُ حبلٍ منه للموت رَديف ... كذبول الورد في ريح الخريف
حيَّتِ الأمة منْ تريِاقه ... صُبحها نوَّر من إشراقه
وحَّد المرسلُ فينا النغَما ... والطَّوايا والمُنى والألَما
كثرةُ الألَافِ عينِ الوَحْدة ... ومنَ الوحْدَةِ نَشء الأمَّة[1]
وحدة القصد حياة الكثرة ... مقصدُ المسلم دينُ الفطرة
علَّم الفطرة خيرُ الرُّسلِ ... فمضينا للهُدى كالشُّعَل
بحرُه أخرجَ هذا الجوهرَا ... نحنُ روحٌ واحدٌ منه سَرى
هذه الوَحْدةُ ما لم تفقَدِ ... تحفظُ المسْلِمَ حتَّى الأبدِ
ختم الله علينا شِرْعَتهْ ... وعلى المرسَل فينا بعثَته[2]
محفلُ الأيَّام منا يَبسمُ ... خُتِمَ الرُّسْل بنا والأممُ
خدمةَ السَّاقي إلينا صرفا ... جامَه الآخِرَ فينا خلَّفا
« لا نبيٌّ بعدُ » فضلٌ عُرفا ... إنَّه حرمةُ دينِ المصطفى[3]
إنَّه قوةُ هذي الملَّة ... إنَّه سرُّ اتحاد الأمَّة
كلُّ دعوى بعدها للأفَنِ ... أحكِمَ الإسلامُ طولَ الزَّمن
ما سوى الحقِّ قلاه المسلمُ ... قائلاً : « لا قوم بعدي » فاعلموا

***

---

(١) الكثرة المؤتلفة هي في الحقيقة وحدة لا كثرة . وإذا ائتلفت الكثرة فاتحدت نشأت الأمَّة .

(٢) في حاشية الأصل بيت من البردة :

لما دعا الله داعينا لطاعته ... بأكرم الرسل كنَّا أكرم الأمم

(٣) لا نبي بعدي فضل من الله على هذه الأمة . ومكانة الإسلام من هذا .

في بيان أنَّ مقصود الرسالة المحمَّدية
تمكين الحرِّية والمساواة والأخوَّة بين البشر

عبد الإنسانُ أصنام البَشَرْ ... فهو في عُدْمٍ وذلٍّ محتقر
قيصرُ العَسفِ وكِسرى قيَّدا ... منه جيداً ثمَّ رجلاً ويدا
ومن القسِّيس والمَلْك طِلابْ ... بخراج الحقل ، والحقلُ خرابْ
نصب الأشراك للصَّيد الضرَعْ ... بائعُ الجَنَّة أُسْقُفَّ الخُدَع
حقله قد عاث فيه البَزْهمنْ ... ومجوسٌ أحرقت ما قد خَزنْ
أضعفَ الرقُّ لديه الهِمما ... لَحنُه في عوده سالَ دما

* * *

وأميناً بعث المولى به ... سلَّم الحقَّ إلى أصحابه
رفعَ العُبدانَ بالحقِّ إلى ... سُرُر الخاقان والزُّورَ قَلى
بثَّ في بَردِ الرَّماد الشُّعَلا ... فعلى برويزَ فَرهادُ علا[1]
سلب السُّلطانَ حِزْبَ الآمرينْ ... فسما بالحقِّ قدرُ العاملينْ
عزمُه هدَّ قديماتِ الصُّوَر ... وبنى حصناً جديداً للبشر
بثَّ روحاً حيَّت الموتى بها ... وافتدى الأعبدُ منْ أربابها
مولدٌ مات به العصر القديم ... وبيوتُ النَّار والوثْنِ حطيم
أزهرَ التحريرُ في روضته ... هذه الصَّهباء من كرمَتِه
عصرنا اللآلاء في أنواره ... فتحَ الأعينَ في أحجاره[2]
خطَّ في العالم سطراً مُبدَعا ... أمةً فاتحةً قد أبدعا

---

(١) برويز ملك عظيم من ملوك الفرس . وفرهاد مهندس فارسيٌّ له مع برويز وجاريته شيرين رائعة في الأدب الفارسي .

(٢) المدنية الحاضرة من آثار البعثة الإسلامية فهذا العصر جاء إلى الوجود في حجرها .

صدرُها من وَقدة الحقِّ أضاء ... ذرَّةٌ منها أنارت في ذُكاء
أشرق الكون بها إذ يبتنى ... كعباتٍ منْ بيوت الوثنِ
ولدتها الأنبياء القُدُم ... فإذا الأتقى لديها الأكرمُ
إخوةٌ فيها جميعُ المؤمنين[1] ... طينها حريةٌ في العالمين
المساواة لديها فطرةُ ... ومن التمييز فيها نفرةُ
نسلُها كالسَّرو حرٌّ قد علا ... عهدها أحكِم من ﴿ قالوا بلى ﴾[2]
سجدة الحقِّ بسيماها غُرَر ... قبَّل النجمُ ثراها والقمر

* * *

قصة

أبي عبيد وجابان

في معنى الأخوَّة الإسلاميَّة[3]

مُسلمٌ في حَومةِ الحربِ أسَرْ ... قائداً منْ جيش كِسْرى ذا خَطرْ
قائدٌ ربُّ خداعٍ ماكرُ ... عجمَ الأيامَ ذئبٌ غادرُ
لم يعرِّفْ آسريه باسمه ... أو يحدِّث أحداً عن وسمهِ
قال للآسر : يا ذا الكرمِ ... آمنَنِّي . ذاك شأنُ المسلمِ
وضع الجنديُّ في الغمد الحسام ... مُعلنا أنْ دَمُك اليوم حَرام
وخبَتْ في الحرب نيران العَجَم ... وهوى منْ آلِ ساسانَ العلَمْ
فإذا المأسورُ جابانُ الكبيرْ ... قائدٌ في جند إيران أميرْ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

(٣) أبو عبيدة الثقفي : أحد قواد المسلمين في فتح العراق ، وجابان : قائد فارسيّ .

أقبل الجند بصوتٍ قارع ... يسأل القائد قتل الخادع
بُو عبيدٍ قائد العُرْب الأبيّ ... عزمُه في الحرب عن جيش غنيّ[1]
قال يا قوم : ألسنا المسلمين ... نغمةً واحدةً في العالَمينْ
من أبي ذرٍّ علتْ أو حَيْدر ... من بلالٍ سُمعتْ أو قَنبرِ[2]
كلُّ جنديٍّ أمينُ الملَّةِ ... صلحُه والحربُ عهدُ الأمَّة
إنَّ جابان عدوٌّ غَشِمُ ... لكنِ الأمنَ حَباه مسلمُ
دَمُه اليوم عليكم حُرِّما ... أمةَ المختار ! أوفوا الذِّمَما

***

قصة

السلطان مراد والعمَّار[3]

في معنى المساواة الإسلاميَّة

أخرجتْ أرضُ خُجندٍ صانعا ... نال في التشييد صيتاً ذائعا
صانعاً فرهادُ حقّاً وَلدا ... لمراد مسجداً قد شيَّدا[4]
غضب السُّلطان منْ تقصيره ... لم يرَ الإتقانَ في تعميرِه
قدَحت عينُ المليك الشَّررا ... ويدَ المسكين فوراً بترا
سار للقاضي حزيناً يجأر ... دمُه من يده يَنْهَمِرُ
قال : يا مَن قولُه الحقُّ المبين ! ... يا حفيظاً شرعَ خيرِ المرسلين !

---

(١) بو عبيد هكذا جاءت في الأصل واقتضى الوزن وذكر الاسم إبقاءها كما جاءت .
(٢) الحيدر : علي بن أبي طالب وقنبر خادمه . يعني : أن نغمة ينطق بها بلال ، أو قنبر هي نغمة علي وأبي ذر . سواء فيها الكبير والصغير ، والسيد والمولى .
(٣) مراد : أحد أمراء خوقند في تركستان في القرن الثالث عشر الهجري .
(٤) فرهاد مهندس له قصة رائعة معروفة في الأدب الفارسي .

لستُ للسُّلطان عبداً فاسْمَعِ ... حكِّم القرآن فينا واقطعِ[1]
قرعَ الحاكم سنَّ المُبلسِ ... ودعا السُّلطانَ نحو المجلس
فأتى السلطانُ يخشى ذنبَه ... هيبةُ القرآن تُدمي قلبَه
عينُه من خجَلٍ للقَدَمِ ... وعلى خدَّيه لونُ النَّدَمِ
وقف الخصمان : خصمٌ يشتكي ... وخصيمٌ في ثياب الملكِ
جَهر السلطان : إنِّي نادمُ ... لا أردُّ الحقَّ إنِّي جارم
وتلا القاضي : « حياةٌ في القصاصْ » ... ذاك قانونُ حياةٍ . لا مناص
ليس دون الحرِّ عبدٌ مسلمُ ... وحَّدَ المعمارَ والمَلْكَ دمُ
سمع القرآن يُملي حكمهُ ... فنضا السلطانُ فوراً كمَّه[2]
إذ رأى الخصمُ الذي قد فعلا ... آيةَ « الإحسان والعدل » تلا[3]
قائلاً : « لله أعفو وكفى ... إنَّني أعفو لأجل المصطفى »
نَملةٌ عزَّت سُليمان القويّ ... انظرن سطوة قانون النَّبيّ
جمع القرآنُ مولىً وفتاه ... وذوي التيجان سوَّى بالرعاء

***

في بيان أنَّ الأمة الإسلاميَّة مؤسسة على التَّوحيد فلا تحدُّها الأمكنة

قلبنا الخفَّاق يأبى مَوطِنا ... رِيحُهُ العاصفُ تأبى مسكنا[4]

---

(١) اقطع يد السلطان قصاصاً .
(٢) شمَّر كمَّه استعداداً لقطع يده .
(٣) آية : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] القطع عدلٌ ؛ والعفو إحسانٌ .
(٤) حذف قبل هذا أبيات فيها حديث وقعة كربلاء .

ليسَ مِنْ هندٍ وروم قلبُنا ... ما سوى الإسلام فيه أرضُنا

كعبٌ الشَّاعرُ في خير العباد ... أنشد المِدحةَ من « بانتْ سعادْ »[1]

نَظَمَ الدُّرَّ منيراً في ثناه ... من سيوف الهند سيفاً قد دعاهُ[2]

مَنْ على الأفلاك فيه رفعةُ ... لم ترقهُ لبلادٍ نسبةُ

قال : سيفٌ من سيوف الله قلْ ... يا نصير الحقِّ زوراً لا تقلْ

وكذا كَمْ قالَ ذو القَدْرِ العلي ... من سَناه كحلُ عين الرُّسل :

ليَ مِنْ دنياكمُ قد حُبِّبا ... بعضُ ما فيها حلالاً طيبا[3]

إنْ تكنْ سرَّ المعاني تعلمُ ... فافهم النُّكتة في « دنياكمُ »

كان في الدُّنيا وفيها ما سَكَنْ ... ذلك المشرقُ في ليل الزمَنْ

مِنْ سَناه قد تجلَّى العالمُ ... مُشرقاً إذ كان طيناً آدمُ

لستُ أدري ما حِماه والوطنْ ... أنا دارٍ أنَّه فينا سكن[4]

قد رأى في أرضنا دنيا لنا ... وهو في الدُّنيا كضيفٍ بيننا

إذ أضعنا القلب في هذا اليَبَاب ... وفقدنا النَّفس في هذا الترابْ

لا تحدُّ الأرضُ قلبَ المسلمِ ... لا يُرَى في تيهِ « أنَّى وكمِ »[5]

ليس للمسلم في الأرض عَطنْ ... حائرٌ في قلبه كلُّ وطنْ[6]

---

(١) كعب بن زهير الذي مدح الرسول بالقصيدة المعروفة : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .

(٢) إشارة إلى البيت :

إنَّ الرسول لسيفٌ يستضاء به ... مهندٌ من سيوف الهند مسلولُ

(٣) إشارة إلى الحديث : « حبب إلي من دنياكم ثلاث . . » إلخ . لم يقل الرسول من دنياي ، أو دنيانا بل قال : دنياكم .

(٤) سكن الإنسان : من يسكن إليه من أهلٍ ، أو صديق .

(٥) لا يتيه في عالم العلل والمقادير .

(٦) يقول إقبال في ديوان ضرب الكليم :

إنما الكافر حيرا ... ن له الآفاق تيه

وأرى المؤمن كوناً ... تاهت الآفاق فيه =

حصِّـلِ القلـبَ ففـي وُسْعَتـهِ ... ضـلَّ هـذا الكـونُ فـي فُسْحتـه
عقـدةَ الأقـوات حـلَّ المسلـمُ ... هجـر الـدارَ الإمـامُ الأعظـم[1]
أمـةً مـلء الـدُّنَـى قـد أسَّسـا ... جعـل التَّـوحيـد فيهـا أسُسـا
صـارتِ الأرضُ لـدينـا مَسْجِـدا ... إذ أشـاعَ الفَضْـلَ فينـا وهـدى
ذلـكَ المحمـودُ فـي الـذِّكرِ الحكيـمْ ... ذلـكَ المحفـوظُ بـالله الـرَّحيـم
تفـزعُ الأعـداءُ مـنْ هيبتـهِ ... فـي ارتعـادٍ مـنْ سَنـا طلعتـهِ
فلمـاذا أرضَ أهليـهِ هجـرْ ؟ ... أتـراه خشيـة الأعـداء فـرّ ؟
حجـبَ القصَّـاصُ معنـى القصَّـةِ ... غلطـوا فـي فهـم معنـى الهجـرة
هجـرةٌ شَـرْعُ حيـاةِ المسلـمِ ... هجـرةٌ سـرُّ ثبـاتِ المُسْلـم
إنهـا التِّسيـار نَحْـوَ الـوُسعـةِ ... ولأجـل اليـمِّ تـركُ القطـرة[2]
اهجـرِ الـزَّهـرة أجْـلَ الـروضـة ... إنَّ هـذا الخسْـرَ ربـحُ الكثـرةِ
شـرفُ الشَّمْـسِ مسيـرٌ مطلـقُ ... فيـه مـن فـوق البـرايـا تخفُـق
لا تكـنْ نهـراً مـن السُّحْـب يُمَـدّ ... وكـن البحـرَ ، عُبـاباً لا يُحَـدّ
اقصـدن تسخيـر كـلِّ العـالَـم ... لتُـرى سلطـانَ أهـلِ العـالَـم
لا يقيّـدك مُقـامٌ فـي الـورى ... وكـنِ الحـوتَ يَسيـحُ الأبحُـرا
كـلُّ مـن حُـرِّر مِـنْ ذُلِّ الجهـات ... فلـكٌ يُـزهِـرْ مـنْ كـلِّ الجهـاتْ
تـركَ الـوردَ شـذاهُ فسـرى ... فـي فسيـح المـرْجِ عِطْـراً نَشَـرا
يـا أسيـراً قـد ثـوى فـي روضـةٍ ... عنـدليبـاً هـائمـاً فـي وردةِ !
سيِّـرَنْ نفسـك حـرّاً كـالصَّبـا ... ثـم عـانـق كـلَّ أزهـار الرُّبَـى

= يعني : أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم ، بل يسخرها كما يشاء .

(١) الإمام الأعظم رسولُ الله ﷺ .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب .

احذرنْ منْ خدعة العَصْرِ الجديدْ التباسَ النَّهج حاذرْ يا رشيدْ

***

في بيان أنَّ الوطن ليس أساس الأمَّة

قطَّعوا الأرحام بين الإخوةِ صيَّروا الأوطان أسَّ الأمَّةِ
قدَّسوا الأوطان إعجاباً بها قسَّموا الإنسان أسراباً بها
طلبوا الجنَّة في « بئس القرار » « فأحلُّوا قومهم دار البوارْ »[1]
محق الجنَّة هذا الشجرُ ليس إلا الحربَ فيه ثمرُ
أنْكَرَ الإنسانُ وجهَ الإخوة وانتهت قصَّةُ الإنْسانيةِ
ذهبَ الإنسانُ روحاً وانقضى بقيتْ أقوامُه وهْوَ مَضى
مَنْصِبُ الدِّين حواهُ السَّاسة فنمتْ في الغربِ هذي الآفةُ
دينُ عيسى بطلت قصَّتُه وَخَبتْ في دُوره شُعلتُهُ
عجز الأسقفُ عنْ تقديره حادتِ الأزلامُ عن تدبيره
قوم عيسى حقروا بِيعَتَهُ أبطلوا في سوقهم سكَّتَهُ
مزَّق الدَّهريُّ ثوب المذهب ومن الشيطان قد وافى نَبي
ذا الفُلورنَسيُّ عبدُ الوثن كحلُه أودَى بنور الأعينِ[2]
خطَّ للأملاك سِفراً منكرا وبذورَ الحربِ فينا بذرا
مزَّقَ الحقَّ بحدِّ القَلم فطرةٌ تؤثرُ عَيش الظُّلَمِ
آزرُ العصر ، بدا تزويرُه خطَّةً بِدعاً جلا تفكيرهُ
جعل المُلكَ إلهاً دينُه كلُّ قبح ناله تحسينُه

---

(١) اقتباس من القرآن جاء في الأصل .
(٢) الفلورنسيُّ : ميكافلي ، مؤلف كتاب الأمير الذي أحلَّ للملوك كلَّ وسيلةٍ تبلغ بهم الغاية .

جعـــل النفـــع عيـــارَ الـــذِّمَـــمِ حينمـــا خـــرَّ لهـــذا الصَّنـــمِ[1]
صـــارت الحيلـــةُ فنّـــاً مُحكمـــا ونمـــا البـــاطـــلُ ممَّـــا علَّمـــا
خطـــةً لِلْـــوَهْـــنِ فينـــا حبَكـــا فـي طـريـقِ الـدَّهـر ألقـى حَسَكـا
أرمـــدَ النَّـــاسَ بهـــذي الحكمـــة إذْ دعـــا التـــزويـــرَ بـــالمصلحـــة

***

في بيان أنَّ الأمة المحمدية ليس لها حدودٌ زمانيَّة أيضاً

أرأيـتَ الطَّيـر فـي عُـرسِ الـربيـع وهيـــاجَ الكِـــمِّ والـــوَرْدَ الينيـــعْ
وعَـــروسُ الـــزَّهـــر نَشـوَى النَّغَـم وعلـى الأرض قُـرىً مـنْ أنجـمِ
غسَـــل العُشْـــبَ دمـــوعُ السَّخَـــرِ وشـــدا المـــاءُ لنـــومِ النَّهَـــرِ
وإذا الكـــمُّ علـــى الغصـــن رَبـــا منحتْـــه حِجـرَهـــا ريـــحُ الصَّبـــا
دَمِـــيَ البـــرعـــومُ مِـــنْ قطفتـــهِ ومضـى كـالـرِّيـح عـن روضتـه[2]
عَشَّـــشَ الـــوُرْقَ وطـــار البلبـــلُ وشـــذًا فـــرَّ وطـــلٌّ ينـــزل[3]
ليـس يُكـرى مـن ربيـع رونـقُ حيـــن تـــذوي زهـــرات تَعبِـــقُ
محفـــل الأزهـــار بـــاقٍ يضحـــك لا يُبـــالـــي كنـــزُه مـــا يُهلـــك
مـوسـم الأزهـار أبقـى فـي الـدَّهَـر هـــو أبقـــى مـــن ورودٍ وزهَـــر[4]
لا يبـــالـــي جـــوهـــراً قـــد كُســـرا مَعـدن يُنمـي ويُبـدي الجـوهـرا
كـم شـروقٍ وغـروبٍ ، لا مقـرّ ! أكـؤسٌ تـؤخـذُ مـن دَنِّ الـدّهَـر

---

(١) الصنم : الملك .
(٢) الريح : الرائحة .
(٣) تذهب طير وتجيء أخرى ، وتسير الرائحة وينزل النَّدى . فالروضة باقيةٌ على تبدل ما فيها .
(٤) موسم الزهر أبقى من آحاد الزهر . فالزهرة تذبل ، والموسم يدوم .

خمـرةٌ مـنْ شَـربِهـا لا تنفَـدُ ... تـذهـب الآمـاس والبـاقـي الغـدُ[1]
ثـابـتٌ فـي الـدَّهـر تقـديـرُ الأمـمْ ... مـن مَسيـر الغـدِ سيَّـارِ القَـدَمْ
يَسفُـر الخِـلُّ وتبقـى الصُّحبـة ... يـرحـل الفـرد وتبقـى الأمَّـة[2]
ولهـا عيـشٌ ومـوتٌ آخـرُ ... ثـم ذاتٌ وصفـاتٌ أُخَـرُ
ينشـأ الفـردُ مـن الطِّيـن القليـل ... تـولـد الأمـة مـن قلـبٍ جليـلْ
نفَـسُ الأمَّـة يُحصَـى بـالمئيـنْ ... ويعيـش الفـرد عَشْـراتِ سنيـن
وحيـاةُ الفَـرْدِ روحٌ فـي بـدنْ ... وحيـاة الشعـب فـي حفـظِ السُّنَـنْ
مـوت فـردٍ نَضْـبُ وردٍ للحيـاه ... مـوتُ قَـوْمٍ تـركُ قصـدٍ للحيـاه

* * *

كممـاتِ الفـردِ تفنـى الأمـمُ ... ولهـا يـومـاً قضـاءٌ يُحتَـمُ
أمـةُ الإسـلام تـأبـى أجـلا ... أصلها الميثاق في ﴿قالوا: بلى﴾[3]
لا تخـاف المـوتَ هـذي الأمَّـةُ ... ﴿ نحـن نـزّلنـا ﴾ لـديهـا حجـةُ[4]
دامَ ذكـرٌ مـا أقـام الـذَّاكـرُ ... بـدوام الـذِّكـر دامَ الـذَّاكـر[5]
ذلـك المصبـاح أنَّـىٰ يُطفَـأ ؟ ... قال ربي عالماً : ﴿ أن يطفئوا ﴾[6]
أمَّـةُ الحـقِّ إلـى الحـقِّ تُنيـبْ ... أمَّـةٌ يَعْشَقُهـا أهـلُ القلـوب[7]

---

(١) الآماس : جمع أمس .
(٢) يسفر ، أي : يُسافر .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] يعني : أنّها قائمة على عقيدةٍ أزليةٍ عامةٍ خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة .
(٤) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .
(٥) المعنى : إن كان الذكر محفوظاً فلا بدَّ أن يدوم الذَّاكر ، فلا ذكر بدون ذاكر .
(٦) الآية : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] .
(٧) إلى الحق تنيب : الحق هنا الله تعالى .

مُضلتٌ بالحقِّ ذا السَّيفُ الصَّقيلْ ... مُضلتٌ من غمد آمال الخليل[1]
ما سوى الحقِّ محاهُ برقُه ... ليعيد الحقَّ حيّاً نطقُه
نحنُ للتَّوحيد أقوى حجةٍ ... للكتابِ اختارنا والحكمةِ[2]

* * *

أضمرَ الدَّهرُ علينا ثارَهُ ... مخفياً في صدره تاتاره
أطلق الفتنةَ منْ أحبالها ... ورمى بالطَّوْدِ من أثقالها
فتنةٌ موطئُها هامُ الأممْ ... نظرةٌ منْ طرفها قتلٌ عمَمْ
أنفُ هَوْلٍ في حشاها يرقُدُ ... ليسَ للأمسِ بمثواها غدُ
سطوةُ الإسلام للتّربِ هَوَتْ ... ما رأت بغدادُ روما ما رأَتْ
لكن اسألْ ذلكَ الدَّهر المُليمْ ... محدَثَ الأفعالِ ذا المكرِ القديمْ
روضنا كان لهيبُ التتر ... حَلْيَنا كان نِثارُ الشَّرر[3]
فلإبراهيم فينا فطرةٌ ... وإلى المولى لدينا نسبةُ
من لهيب قد جنينا زهَرا ... نار نمرودٍ رَدَدْنا كوثرا
كلُّ نارٍ يوقدُ الدَّهرُ لنا ... زهراتٌ حين تأتي روضَنا

* * *

ذهب الروم وفُضَّ الموكبُ ... شرقُها أقوى وأقوى المغربُ
كأسُ ساسان من الغمِّ دَمُ ... حانُ يونان خرابٌ مُظلم[4]

---

(١) إبراهيم الخليل : كان يأمل أن تخرج من ذريته أمةٌ موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

(٣) يعني : كانت نار التتر علينا برداً وسلاماً ، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم .

(٤) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي=

وعنتْ مِصْرُ لدهرٍ عَرِمٍ ... وَثَوتْ أعظُمُها في الهَرَمِ
وأذانُ الحقِّ فينا خلَدا ... أمةُ الإسلام تبقى أبدا
إنَّ للكونِ منَ العِشْق حياه ... وبه أجزاؤه شدَّت قُواه
أحيت العِشْقَ قلوبٌ تُسعَر ... شَبّها منْ « لا إله » الشَّرر[1]
إنْ نكنْ كالكمِّ نُطوَى كَمَدَا ... فرَدانا فيه للرَّوضِ رَدَىٰ[2]

* * *

في بيان أنَّ الأمة لا تنتظم بغير شريعة
وشريعة الأمة المحمَّدية القرآن

أمَّةٌ خلَّت يداها السُّننا ... ككثيبٍ منْ رمال وَهَنا
سيرةُ المُسْلِم شرعٌ وكفى ... ذلكُم باطنُ دينِ المصْطَفى
بانتظامِ الصَّوْتِ تعلو النَّغمةُ ... وهي من دونِ نظامٍ ضجَّةُ
إنَّما في الحلق مَوجٌ من هَواء ... يَعلَق النَّظمُ به فهْوَ غِناء
صاحِ هلْ تعلم ما سُنتكا ؟ ... أيَّ سرٍّ ضَمنتْ قدرتُكا ؟
الكتابُ الحيُّ والذِّكرُ الحكيم ... حكمةٌ في الدَّهر تبقى لا تريمْ
إنَّ فيه سرُّ تكوين الحياه ... يستمدُّ النكس أيداً مِنْ قُواه
لفظهُ لا ريبَ أو تبديلَ فيه ... آية لا لَبس أو تأويلَ فيه
قوةٌ فيه تشدُّ الخورَا ... وبها يرمي الزجاجُ الحجرا

= حتى ظهور الإسلام .

(١) يعني : أنَّ الأمة الإسلامية تبقى بما في قلوبها من الوجد والهيام والإقدام على العمل وهذا العشق حياة العالم .

(٢) إن كنا في ضيق وغم منطوين ككم الزهرة فحياة هذه الروضة ، هذا العالم ، رهن بحياتنا إن متنا ماتت .

قطَّعَ الأشراكَ عن صيدٍ كسير ... فدعا الصَّيَّادُ منه بالثُّبورْ
ذا بلاغٌ آخِرٌ للمرسلين ... قد تلاه « رحمةٌ للعالمين »
ترفعُ الخاملَ فيه رفعةُ ... وتقيمُ الرأسَ منه سجدةُ
قاطعو الطرْقِ هداةً صُيِّروا ... من كتابٍ ، كم كتابٍ سَطَّروا
والبوادي منْ سراجٍ زَهَرا ... قد أضاؤوا بالعلومِ الفِكَرا[1]
الَّذي يُصدَعُ مِنْهُ الجبلُ ... وعلى الأفلاك منه وَجَلُ[2]
ذلك الينبوعُ منْ آمالنا ... قدْ حواه الصَّدْرُ منْ أطفالنا
انظُرِ الظمآنَ في حَرّ القفارْ ... عينُه حمراء منْ وَقْد النَّهار
عَنْسُه كالظَّبي في تَعْدائِها ... دمُها كالنَّارِ في رمضائها
طائفُ الصَّحراء يأبى الجُدُرا ... ضاربٌ في البيدِ يقلي الحضرا
خَفَقَتْ في قلبه هذي السُّوَرْ ... فاستقرَّ الموج فيه كالدُّرر[3]
قرأ الدرس مِنَ الآي المبينْ ... فغدا بالحقِّ حرّاً لا يَمين
حكمَ الدُّنيا جميعاً عدلُه ... عَرْشَ جمٍّ وطئته رجلُه[4]
مُدُناً قد شيَّدتْ هَبوتُه ... ورياضاً أنْبَتتْ زهرتُه[5]

* * *

إنَّ إيمانك في قيدِ الرُّسوم ... سننُ الكفرِ لكَ السِّجنُ المقيمْ
أمرُكم قطعتمُ فهو « زبُر » ... مُسرعي السَّيرَ إلى شيءٍ نُكُرْ[6]

---

(١) زهر السراج : أضاء .
(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .
(٣) سكن اضطرابه واطمأن ، موجه الثائر سكن واستقر كالدرة في الماء .
(٤) جم : جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء .
(٥) الهبوة : الغبار الذي يثور في الحرب ، أو سير الأرجل الكثيرة ، ونحوها .
(٦) إشارة إلى الآيتين : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون : ٥٣] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ

سَكِرَ الصُّوفيُّ من أحواله ... وانتشى باللَّحن مِنْ قوَّاله[1]
قلبهُ شعرَ العراقيِّ تلا ... ومن القرآن أقوى وخلا[2]
تاجه والعرش صوفٌ وحصيرْ ... فقره يَجبي رباطاً للفقيرْ[3]
وأخو الوعظِ جُزافاً قائلُ ... كلِمٌ عالٍ ، ومعنى سافِلُ
قولُه مِنْ ديلميٍّ وخطيبْ ... فعلُه حِلف ضعيفٍ وغريبْ[4]
لكتاب الله حقٌّ . فاقرأنْ ... كلَّ ما تبغيه منه فاطلبَنْ

* * *

في بيان أنَّ التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد

عصرنا هذا مليءٌ بالفِتَن ... طبعُه خلقُ شرورٍ ومِحَنْ
محفلُ الماضين فيه مقفر ... صوَّحتْ فيه حياةٌ تنضُر
أنكرتْ أنفسَنا أنظارُنا ... وجَفَتْ نغمتَها أوتارُنا
شعلةُ التَّوحيد فينا سَلَبا ... نارَه والنُّور منَّا سَلبا
وإذا ما اعتلَّ تقويم الحياه ... فَمِنَ التقليدِ للقومِ نجاه
سُننُ الآباء حَبلُ الملَّة ... ومِنَ التقليد جمعُ الأمَّة
يا خليّاً في خريفٍ من ثَمرْ ... ارقب الغيث ولا تجفُ الشَّجر[5]

= ﴿إِنَّا مُنذِرُونَ﴾ [القمر : ٦] .

(١) القوَّال : منشد القصائد الدينية ، وهو معروف بهذا الاسم في إيران والهند .

(٢) العراقي : شاعرٌ صوفيٌّ فارسيٌّ .

(٣) يعني : أنه يأخذ مالاً من الفقراء المقيمين في الأربطة .

(٤) الديلمي والخطيب من رواة حديث الضعفاء . والضعيف والغريب من أنواع الحديث . بين الشاعر أنهم تتبعوا المحدثين غير الثقات والأحاديث غير الصحيحة يستدلون على أقوالهم وأفعالهم .

(٥) يعني : يجب الاستمساك بسنن الآباء حتى تعود للأمة سيرتها . كما ينتظر صاحب =

قد حُرِمْتَ البحرَ فاذكر خُسرَكا ... يا قليلَ الماءِ واحفظْ نهركا[1]

فعسى سيلُ الجبالِ الهادرُ ... منه في مجراك لجٌّ زاخرُ

حالُ إسرائيلَ فيها تَبْصِرَه ... إنْ تكنْ روحُك روحاً مُبصره

انظرنْ كيف ابتلاها الزَّمنُ ... وَعَرتْها في الخطوب المِحَنُ

وجهُها في كلِّ حينٍ يُلطمُ ... كادَ في أعراقها يَفنى الدَّمُ

عصرتْ عنقودَها كفُّ الخُطوبْ ... ذكرُ هارون وموسى في القلوب

إنْ خبا في اللَّحن منها قبَسُ ... لم يزل في الصَّدر منها نفَسُ

سار في إثر الجدود المحملُ ... حينما انفضَّ لديها المَحفلُ

يا من انفض له جمعٌ وجاه ... وخبا في صدره شمعُ الحياه

آيةَ التوحيد في القلب اسطُرا ... ومنَ التقليد أمسك بالعُرا

اجتهادٌ في زمان القهقرى ... يذهبُ الأقوامَ منه شذرا

اقتداءٌ برسومِ الأوَّلين ... هو أولى ، لا اجتهاد الغافلين

لم يُصبْ آباؤنا بالهَوَسِ ... طهُرتْ أعمالُهم كالأنفُسِ

فكْرُهُم كان رقيقاً مرهَفا ... فعلهمُ أوفى بشرعِ المصطفى

فِكَرُ الرازي ونجوى جعفر ... أينَ ؟ والعُربُ هداةُ البشرِ

ضيَّق الدينُ علينا يسرَه ... وادَّعى كلٌّ لئيم سِرَّه

قد جهلت الدِّين عنه حائدا ... الْزَمَنْ يا حُرُّ نهجاً واحدا

باحَ لي بالسرِّ نبَّاضُ الحياه ... إنَّما في الخلف مقراضُ الحياه[2]

وحدةُ الشرع حياةُ الأمة ... فمن القرآن روحُ الملَّة

نحنُ طينٌ وهو قلبٌ لا جَرَمْ ... هو « حبلُ الله » من شاء اعتصَم

= الشجر أيام الخريف إيراقه وإثماره في الربيع ، ولا يقطعه أو يهمله .

(١) إن قلَّ الماء في نهرك فاحتفظ بالنهر عسى أن تأتيه السيول بالماء فيزخر مرةً أخرى .

(٢) كلمتا نبَّاض ومقراض في الأصل .

فـانتظـمْ فـي سلكـه كـالـدُّررِ أو غبـاراً فـي الـرِّيـاح انتشـرِ

* * *

في بيان أنَّ كمال سيرة الأمَّة من اتِّباع الشَّرع الإلهي

لا تقـلْ فـي الشـرع معنًـى مُضمـرُ ليـسَ إلَّا النـورَ تحـوي الـدُّرَرُ
جـوهـرٌ أبـدعَ فيـهِ القـادرُ جـوهـرٌ بـاطنـه والظـاهـرُ
ليـس علـمُ الحـقِّ غيـرَ الشِّـرْعـة ليـس غيـرَ الحـبِّ أصـلُ السنَّـة
شـرعُنـا للفـرد مِـرقـاةُ اليقيـنْ ترتقـي منـه مقـامـاتُ اليقيـن[1]
شِـرعـةُ الحـقِّ نظـامُ الأمـم ومـن النَّظـم دوام الأمـم
إنَّ فيـه الأيـد يـا مـن أخلَصـا اليـدُ البيضـاءُ فيـهِ والعصـا
قـامَ لـلإسـلام بـالشَّـرعِ قـوام بـدؤه الشَّـرعُ وبـالشَّـرع الختـام
لـكَ أيـدِي نكتـةَ الشَّـرع المبيـن أنتَ مَن في حِكْمةِ الدِّين أمينْ :
إنْ يعـارِض ذو عنـادٍ مسلمـا فـي أداءِ النَّفـل مـا إنْ لـزمـا
صـارَ هـذا النفـلُ فـرضُ الأمـة فـالحيـاةُ الحـقُّ عيـنُ القـدرة
وإذا جيـشُ عـدوٌّ فـي الـوغـى تـرك الإعـدادَ والسِّلـمَ بَغـى
وقضـى أوقـاتَـه فـي الـدَّعـة تـاركـاً لِلْحَـرْبِ أخـذَ العُـدَّة
فحـرامٌ أخـذه بـالبغتـة قَبْـلَ أن يـأخـذ كـلَّ الأهْبَـةِ
سـرُّ هـذا الأمـر يـا ذا البصـر : « الحيـاةُ العيـشُ بيـن الخَطـرِ »
يتحـدَّاك بـرضـوى العـاليـه فـي امتحـانٍ لِقِـواكَ العـاتيـه[2]
ويـنـاديـك أن اقصـمْ ظهـرهـا وبحـدِّ السيـف فـاصهـرْ صخـرهـا
ليـس كـفـءَ الليـث فـي صـولتـه حمَـلٌ يـرجـفُ فـي ذلَّتـه

---

(١) مرقاة اليقين ومقلمات اليقين في الأصل بلفظهما العربي .
(٢) في الأصل : جبل ألوند . واستبدلت به رضوى في الترجمة .

إنْ حكى الضَّعوةَ صقرٌ كاسِرُ ... فهْوَ كالضَّعوة واهٍ خائِرُ

كتبَ الشارعُ ربُّ الحكمة ... لكَ هذا اللوحَ ، لوحَ القُدْرَة

يَشْحذُ العزم بنارِ العمل ... ويرقِّيكَ لأعلى مَنْزِل

وإذا تَلْغَبُ يعطيك القُوى ... ويربِّي منك طوداً ما خَوى

إنَّ دين المصطفى دينُ الحياه ... شَرْعُه للنَّاس قانون الحياه

إنْ تكنْ أرضاً يصيِّركَ السَّماءْ ... ويربِّيك كما الحقُّ يشاءْ

يصقل المرآةَ مِنْ صخرٍ شديد ... وينقِّي الزَّينَ منْ قلبِ الحديدْ

ضيَّع القومُ شعارَ المصطفى ... ضيَّعوا رَمز بقاءٍ عُرِفا

ذلك الغصن العسِيُّ المعتلي ... مُسلمُ الصَّحراء ربُّ الجَمَلِ

الذي البطحاء أزكتْ غَرْسَهُ ... وريَاحُ البيد ربَّت نفسَه

أذْبَلتْهُ اليومَ ريحُ العَجم ... صيَّرته النايَ روحُ العَجَمِ

قاتلُ الآساد ذبحَ الغنم ... وطءُ نملٍ مسَّه بالألم

من أذابَ الصَّخرَ من تكبيره ... راعه البلبل في تصفيره

من علا الطودَ سريعاً مُصعِدا ... غلَّ بالتُّكلان رجلاً ويدا

من برى الأعناق ضرباً عَضبُه ... يَلْدِمُ الصَّدر ويَدمَىٰ قلبُه

مُوقظ الآفاق مِنْ خطْواتهِ ... قُيِّدت رجلاه في خَلْواته

منْ أطاع الناسُ طرّاً أمرَه ... واجتدى دارا وكسرى برَّه

رضي القُنع وأكدَى جِدُّه ... وارتضى الكِدْيةَ عِزّاً جَدُّه

شيخنا أحمدُ[1] منْ في قُرْبه ... تكسبُ الشَّمسُ سناً في قلبه

قال يوماً لمريدٍ فهمٍ ... احذرنْ يا صاح فكرَ العجمِ

فكرُهم إنْ كان للنّجم ارتقى ... فهْو منْ سُنتنا قد مرَقا

---

(١) هو الشيخ أبو العباس أحمد الرفاعي ، صوفيٌّ عراقيٌّ من كبار الصوفية ، مؤسس الطريقة الرِّفاعية ، انضمَّ إليها خلقٌ كثيرٌ من الفقراء ، كان له به اعتقادٌ كبير ، توفي سنة (٥٧٧هـ) (١١٨٢م) .

يـا أخـي فـاسمـعْ لهـذا الـرَّشَـدِ ... استمـع نُصْـحَ الإمـام المُـرشِـد
وبهــذا الحــقِّ فــاشــدُد قلبكــا ... واتبـع العُـرْبَ تُصِـبْ شِـرعَتكـا

* * *

في بيان أنَّ حُسْنَ سيرة الأمَّة منَ التأدُّب بالآداب المحمَّدية

سـائـلٌ مثـل قضـاءٍ مُبْـرَم ... صـاحَ بـالبـابِ بصـوتٍ مُبـرِم[1]
بـالعصـا صُلـت عليـه غضبـا ... فهـوَى مـنْ يَـده مـا قشبـا[2]
إنَّ هـذا العقـلَ فـي شـرْخِ الشَّبـابْ ... لا يبـالـي بضـلالٍ وصـوابْ
ورأى الـوالـدُ فعلـي فنفـر ... وذوى فـي وجهـه روضُ الـزَّهـر
آهـةٌ فـي فمـه تلتهـب ... قلبُـه فـي صَـدْرِه يَضْطـرب
كـوكـبٌ فـي عينـه قـد ومضـا ... نـوَّر الهُـدبَ قليـلاً ومضـى[3]
روحـيَ الغـافـلُ فـي الجسـم ارتعـدْ ... ومضـى الصَّبـرُ وخـلاَّنـي الجلَـدْ
مثـلَ فـرْخٍ فـي الخـريـف انتفضـا ... مـنْ ريـاحِ اللَّيـل فـي العُـشِّ قضَـى
قـال لـي الـوالـد : يـومَ المحشـر ... تلتقـي أمَّـةُ خيـر البشـرِ
الغُـزاة الغـرُّ مـنْ أمَّتـه ... وأولـو الميـراث مـن حِكمتـه
والنجـومُ الـزُّهْـرُ أربـابُ الصَّفـاء ... حجـةُ الـدِّيـن فـريـقُ الشُّهـداءُ
وأولـو العلـم وأربـابُ القلـوب ... وأولـو الزُّهـد وأصحـاب الذُّنـوب
وعـلا فـي لـجِّ هـذا المحشـر ... صـوتُ هـذا السـائـل المنكسـرِ

---

(١) وقعت هذه القصة في سيالكوت بلد إقبال وقصَّها على الناس كثيراً . ومبرم في آخر البيت بمعنى ممل .
(٢) قشب : جمع وكسب .
(٣) يعني دمعت عينه ، علق الدَّمع بأهدابه ثم سقط .

أيها الحائر في ذا الموكب ! ... ما جوابي حين يلحاني النَّبي :
« قد حباك الحقُّ طفلاً مسلما ... لم تُنلْه من كتابي مغنما
هيِّن الأشياء قد شقَّ عليك ... لم يَصِرْ ذا الطِّينُ إنساناً لديك[1] »
وأنا في العَتْب من خير الرُّسُلْ ... بين خوف ورجاء وخجَلْ
أفكِرنْ في الأمر واذكر يا بُنيّ ... أمةَ المختار إذ ترنو إليّ
لحيتي البيضاء في الحشر انظرِ ... رِعدتي في الخوف والحزن اذكرِ
لا تزد عبء أبيك الوَهنِ ... عند مولاي غداً لا تُخزِني
أنت كِمٌّ في فروع المصطَفى ... فتفتَّح في ربيع المصطفى
نظرةً من روضهِ فالتمسِ ... وسناً من خُلْقه فاقتبسِ
مرشدُ الرُّوم الذي قطرتُه ... قد حوت بحراً ، سَمَتْ قولته :[2]
« لا تجذَّ الحبل من خير البشرْ ... لا تقل عندي فنون وبَصر »
فطرةُ المسلم طرّاً رأفةُ ... قوله والفعل كلٌّ رحمةُ
العظيمُ الخُلْق منْ شقَّ القمر ... رحمةٌ عمَّت ونُورٌ للبشر
لستَ منْ معشَرنا فاعتزلِ ... إنْ تكنْ منه بعيدَ المنزلِ
طائرٌ أنت على دَوْحتنا ... شدْوُه واللَّحنُ منْ نغمتنا
إنْ تكنْ ذا نغمةٍ لا تُفرد ... بسوى بستاننا لا تُغْردِ[3]
كلُّ من أوتي حظّاً منْ حياه ... في سوى بيئته يلقى رداه
بلبلٌ أنتَ ؟ ففي الرَّوض امرَح ... ومع السِّرْب بلحن فاصدَحِ
إنْ تكنْ صقراً فلا تغش البحَارْ ... ليس إلا خلوةَ الصَّحراء دار[4]

---

(١) هذا قول النبي لوالد إقبال في المحشر .
(٢) جلال الدين الرومي . وما بين القوسين من ديوانه المثنوي .
(٣) أغرد : أطرب بالتغريد .
(٤) الصقر يعيش في الصحراء ، والبلبل بين الأشجار فليلزم كل بيئته .

أو تكـن نجمـاً فنـوِّر فـي سَمـاك لا يكـنْ مَسـراك إلا فـي الحِبـاك

* * *

قطـرَ نيسـانَ اجمعـنْ إنْ تـردِ واجعلنْ في الروض مأواه النَّدِي[1]
لتـراهُ مثـلَ قطـراتِ النَّـدى تحضـنُ الأكمـامُ منهـا ولـدا
وانشِـف الأنـداء مـنْ جـوهـرهـا واسلـبِ الـلألاء مـنْ عنصـرهـا
بشُعـاعِ الصُّبْـحِ وضَّـاء البُكـر الـذي مـن سحـره ينمـو الزَّهَـر[2]
لـن تـرى دُرَّك إلا كـالحبَـاب لـنْ تـرى سَعْيَـكَ إلا فـي سـرابْ
ألقِهـا فـي اليـمّ تُعْقَـدْ جـوهـرا مـاؤهـا يسطـعُ نجمـاً نيِّـرا
قطـرُ نيسـان عـن اليـمِّ نـأى لجفـافٍ . لـن تـراه لـؤلـؤا

* * *

طينـةُ المسلـم درٌّ يـا بُنـيّ مـاؤهـا والنُّـورُ مـنْ بحـر النَّبـيّ
قطـرَ نيسـان ! فغُـصْ فـي مـوجـه وابـرزنْ ، درّاً صَفَـا ، مـن لجـه
صاح ! من شمس الضُّحى كن أنورا كـن ضيـاءً ليـس يخبـو الـدَّهَـرا

* * *

في بيان أنَّ حياة الأمَّة تحتاج إلى مركزٍ محسوس وأنَّ مركز الأمَّة الإسلاميَّة البيت الحرام

عقـدةٌ تنحـلُّ مـنْ أمـر الحيـاه حين أفشي لكَ منْ سرِّ الحياه :
كخيـالٍ جَفَلَـتْ مـن نفسهـا حُـرَّةٌ قـد نفـرت مـن حبسهـا[3]

---

(١) مطر شهر نيسان الذي ينشأ منه اللؤلؤ في ظن القدماء .
(٢) متصل بالبيت الذي قبله ؛ أي : انشف الماء بشعاع الصبح .
(٣) الأوصاف في هذا البيت وما بعده أوصاف الحياة .

وقتُها ما فيه أمسٌ وغدُ ... في دُنَى الأوقات ليست تُصْفَدُ
أنظرنْ نفسَك حيناً واعتبرْ ... لستَ إلَّا جَوَلاناً يستمرّ
شعلةٌ فيها أعدَّت سِتْرها ... منْ دخانٍ فأشاعت سرَّها
ماؤُها قد عقدته في دُررْ ... ليُرى السَّيرُ سكوناً في النَّظر
نارُها في نفسها تُخفي الحريق ... وتُرَى في الغُصْن أزهارَ الشقيق[1]
فكرُك العاجزُ عنها أوهِما ... طيرانَ اللَّون وَرداً جُسِّما[2]
ما أوى للعُشِّ هذا الطائرُ ... هو طيْرٌ وهْو لون طائر[3]
هو حرٌّ وحواه مَحبِسُ ... وهو في النَّوح لحوناً يَنبُس[4]
ريشُه ينسلُ طيراً كلَّ حينْ ... يخلقُ الأسبابَ منه كلَّ حين
عُقداً تعقد في أعمالها ... وتحلُّ العقد في تجوالها
تسكنُ الطِّين على إسراعها ... لتزيد السَّير في إهطاعها[5]
كم لحونٍ في جواها رُقِّدِ ... يومُها ميلادُ أمسٍ وغدِ
في سهولٍ كلَّ حينٍ وحزونْ ... كلَّ حين في اختراعٍ وفنون
إنْ تكنْ كالرِّيح تأبى محبسا ... تنزلُ الصَّدر فتُدعى نَفَسا
حولَها منْ خيطها ناسجة ... حولَها مِنْ خيطها عاقدة
هي في العُقْدة مثلُ الحبَّة ... مضمرٌ فيها فروعُ الدَّوحةِ
تفتحُ العَيْنَ على ما تُضمر ... فإذا الدَّوحة منها تَظهر

---

(١) نار الحياة تخفي حرها ، وتظهر أعراضها في مظاهرها . ومثل الشاعر بأزهار الشقيق التي جعلها الشعراء مثلاً للالتهاب .

(٢) الحياة حركةٌ دائمة يتوهمها الإنسان ثابتة . يقول إقبال : الفكر العاجز عن إدراك الحياة يرى جسماً يسميه ورداً وليس هو في الحق إلا لوناً في طيران مستمر .

(٣) الطير : الطيران . والحياة طيران ولون طائر . لا ثبات لها ، ولا تستقر في عش .

(٤) الحياة مقيدة بأشكال وهي في الحقيقة لا تحويها هذه الأشكال . ونوحها وغناؤها متصلان .

(٥) تضع نفسها في الطين (تزرع وتغرس) لا لتسكن فيه بل تزيد إسراعاً في سيرها .

خلعةُ الطِّين عليها تُرفَد ... فإذا عينٌ وقلبٌ ويدُ[1]

تؤثر الخلوةَ في الجسم الحياه ... وتجلَّى نشأةَ العمِّ الحياه[2]

هكذا سنَّة ميلاد الأمم ... مركزٌ فيه حياةٌ تنتظم[3]

إنَّما المركز روحُ الدائرة ... نقطةٌ ، فيها محيطٌ ، ضامره

ومِنَ المركزِ للقوم نِظام ... وَمِنَ المركز لِلْقَوْم دوام

نقطة المركز منَّا الحَرمُ ... لحنُنا والوجدُ فينا الحرمُ

نفَسٌ في صَدْرِنا يتَّقد ... روحنا الغالي ، ونحن الجسد

مِنْ نداه نَضَرت أغصاننا ... حَيَّ من زمزمه بستانُنا

نحنُ مِنْ دعواه في الدنيا دليل ... نحنُ فيه من براهين الخليلْ[4]

صوتنا يندَى به في الأمم ... واصلاً مُحدَثَنا بالقدمِ

وحَّد الملَّة طوفٌ حوله ... فهي صُبح قد حوى صدرٌ له

وُحِّدتْ في حَسْبه كثرتُنا ... أُحكِمتْ من وحدةٍ قوتُنا[5]

إنَّ في الجمع حياةَ الأممِ ... إنَّ هذا الجمع سرُّ الحرَم

* * *

أيُّها المسلمُ يا ذا البَصر ! ... قومُ موسى عبرةٌ فاعتبرِ

زهدوا في مركزٍ قد جمَّعا ... فتراهم في البرايا قطعا[6]

يا عليلاً شاكياً جورَ الزَّمن ... يا أسيراً غَلَّه وهم وظنّ

---

(١) الحياة تلبس الطين فتراها حيواناً له عين . . إلخ .

(٢) العمّ : الجماعة الكثيرة .

(٣) تولد الأمة حين تجمع الحياة في مركز معين ، في شريعة ، أو قانون ، أو مقصد .

(٤) الخليل : إبراهيم . نحن الدليل على صدق ما يدعي للحرم من أنه يجمع الناس ، ويكون مركز الأمة . ونحن برهان على تحقيق ما أمله الخليل في الحرم .

(٥) في حساب الحرم كثرتنا وحدة . وبهذه الوحدة تستحكم قوتنا .

(٦) حذفت هنا أبيات في وصف اليهود .

اجعلـن ثـوبـك ثـوب المحـرِم ... أطلِـع الصُّبـحَ بليـلٍ مُظلـم
افـنَ كـالآبـاء مـا بيـن السجـود ... اسجدنْ حتى تُرى عينَ السجود[1]
مـن خشـوع المسلميـن الأوليـن ... سيطـروا بـالحـقِّ بيـن العـالميـن
فـي سبيـل الحـقِّ شـوكـاً وطئـوا ... فـإذا الـروضـةُ هـذا المـوطَـأُ

***

في بيان أنَّ الاجتماع الحقيقي من الاستمساك بمقصد ، ومقصد الأمَّة الإسلاميَّة حفظُ التَّوحيدِ ونشرُه

اعـرفـنْ عنِّـي لسـانَ الكـائنـاتْ ... ففعـالُ الكـون فيهـا كلمـات
ينظـمُ المقصـدُ أشتـاتَ الحيـاه ... فتـراهـا « مطلعـاً » راع الـرواه[2]
طِـرفُنـا مـن تحـت مهمـازِ الطَّلـبْ ... صـرصـرٌ مـا نـدَّ عنـه مـن أربْ
إنمـا يُبقـي الحيـاةَ المقصـدُ ... هـو أشتـات قُـواهـا يَنضِـدُ
حينمـا تـدري الحيـاةُ المطلبـا ... تجعـل الكـونَ إليـه سببـا
وبـه الأشيـاءُ طـرَّاً تنقُـد ... فتـردَّ الشـيء أو تعتقـد[3]
يُبحـر الـرُّبـان أجـلَ السـاحـلِ ... وإلـى المنـزل سَيـرُ السَّـابـل
وعلـى قلـبِ الفـراش الحُـرَقُ ... لسـراجٍ حـولـه يحتـرقُ[4]
طـاف قيـسٌ فـي الصحـارى ولَهـا ... قـاصـداً ليـلاه يـرجـو وَصْلهـا
مـا اقتفينـا فـي الصَّحـارى أثـرا ... مُنـذ ليـلانـا أقـامـت فـي القُـرى

---

(١) السجود الأول جمع ساجد .
(٢) المطلع هنا مطلع القصيدة .
(٣) اعتقد المال : اقتناه . إذا عرف الإنسان مقصده نقد به الأشياء ، فرد بعضها ، وأخذ بعضها .
(٤) يذكر أمثلة من المقاصد : الساحل للسائر في البحر ، والمنزل للسائر في البر ، والاحتراق للفراش ، وليل لقبس .

إنمـــا المقصـــودُ روحُ العمـــلِ ... كيفَـــه والكـــمَّ منـــه تجتلـــي[1]

دوَران الـــدَّم فـــي أعـــراقنـــا ... مســرعٌ بـالجـدِّ فـي أغـراضنـا

الحيـــاةُ الحـــقُّ منـــه تستعِـــرْ ... تجمـع النَّـار بـه مثـلَ الشَّقِـرْ[2]

هـــو مضـــرابٌ لعُـــودِ الهمَّـــة ... مـــركـــزٌ يَجـــذبُ كـــلَّ القـــوَّةِ

حـرَّك الأعضـاء فـي ركـب البشـر ... جـامعـاً شتَّـى عيـونٍ فـي نظـر[3]

فكـنِ المجنـونَ فـي هـذا الحبيـبْ ... طُـفْ بـه طـوف فـراشٍ بـاللهيـبْ

أبـــدعَ القمـــيُّ فيمـــا أسمعـــا ... علَّـم الأوتـار معنـىً مُبـدَعـا[4]

رامَ نَقْـشَ الشَّـوك حينـاً رَجِـلُ ... فـاختفـى عـن نـاظـريـه المحمَـل

لحظـةً يـا صـاحبـي إن تغفُـلِ ... ألـفَ ميـلٍ زاد بُعـدُ المنـزلِ

ذاكـمُ العـالَـمُ دَيـرٌ قـدُمـا ... بـامتـزاج الأمَّهـاتِ انتظمـا[5]

كـم وكَـم يُنبـت مـن مقصبـةٍ ... ليـراعٍ فيـه نـار النَّـوحـةِ

كـم تـدمَّـت مـن يـديـه روضـةُ ... لتـربَّـى مِـنْ شقيـقٍ زهـرةٌ[6]

كـم تُـرى نقشـاً وكـم تمحـو يـداه ... ليُـرَى نقشُـك فـي لـوحِ الحيـاه

كـم مـن الأرواح بُثَّـت أنّـةُ ... لتَعَـالَـى مـن أذانٍ نغمـةٌ[7]

---

(١) يتبين للعمل كيفه وكمه من مقصوده .

(٢) الشقر : الشقائق . والضمير يعود إلى المقصود الحياة تستعر به . وتجمع في نفسها ناراً كما تجمع الشقائق النار ، في خيال الشعراء .

(٣) يجمع الأعين المختلفة على نظر واحد .

(٤) القمي : ملك القمي الشاعر . والإشارة إلى بيت له معناه .
« ذهبت لأنقش الشوك من قدمي فاختفى المحمل عن عيني . غفلت لحظة فبعدت طريقي مئة سنة » .

(٥) امتزاج الأمهات اختلاط العناصر . والتركيب بلفظه العربي في الأصل .

(٦) هذا البيت والذي قبله بيت واحد في الأصل . والمعنى أنَّ التكمل في العالم شاقٌّ أليمٌ ينبت غابات من أجل نغمة ناي ويخرب روضات من أجل زهرة ، وقد تقدَّم هذا أول الكتاب .

(٧) تعالى : تتعالى .

ورجـــالَ الـــزور دهـــراً ربَّبـــا ... وعلـــى الأحـــرار والَـــى الحَـــرَبـــا
ثَـــمَّ فـــي طينـــك إيمـــانـــاً بـــذر ... كِلْمـــةَ التـــوحيـــد مـــن فيـــك نَشَـــرْ
نقطـــةٌ دارَ عليهـــا العـــالَـــمُ ... كلمـــةٌ صـــار إليهـــا العـــالَـــم
قـــوةٌ فيهـــا تُـــديـــر الفَلَكـــا ... وبهـــا الشمـــسُ تُنيـــرُ الحَلكـــا
لـــؤلـــؤ البحـــر نمـــى مـــنْ نـــورهـــا ... بـــه المـــوجُ طمـــا مـــنْ نـــورهـــا
نَفحُهـــا صيَّـــر طينـــاً سنبُـــلا ... وَجـــدُهـــا صيَّـــر ريشـــاً بلبـــلا[1]
فـــي عـــروقِ الكَـــرْمِ منهـــا شُعلـــة ... وبطيـــن الكـــأس منهـــا لمعـــةُ
لحنهـــا فـــي مِـــزْهَـــر الكَـــون استتـــر ... أيهـــا العـــازفُ! يـــدعـــوك الـــوتَـــر
نغمـــاتٌ فيـــك تَســـري كـــالـــدَّمِ ... أعمـــلِ المضـــرابَ فـــي ذا النغَـــم
كِلْمـــةُ التَّـــوحيـــد منـــك المقصـــدُ ... أنـــت للتكبيـــر فيهـــا تـــوجَـــدُ[2]
الجهـــاد المـــرُّ حِلـــفُ المسلـــم ... أو يُـــدوِّي الحـــقُّ بيـــنَ الأمـــمِ
أنـــتَ لا تـــدري بـــآيـــات الكتـــابْ ... أمـــةَ العَـــدْل يسمِّينـــا الخطـــاب
أنـــتَ فـــي الأيـــام نـــورٌ وبصـــرْ ... شـــاهـــدٌ أنـــتَ علـــى كـــلِّ البشـــر[3]
ادعـــوَنْ كـــلَّ لبيـــبٍ ، أبلـــغِ ... وعـــن الأمّـــيِّ قـــولًا بلِّـــغ
قـــولـــه مـــا فيـــه نُطـــقٌ عـــنْ هـــوَى ... صـــادقٌ مـــا ضـــلَّ يـــومـــاً أو غـــوى[4]
نبْـضَ هـذا الكـون قـد جسَّـت يـداه ... فتجلَّـــى ســـرُّ تقـــويـــم الحيـــاه
نضَّـرَ الأزهـار فـي رَوض الـدَّهَـر ... ومحـــا الأدنـــاسَ عنهـــا والكـــدَرْ
دينُـــه فيـــه الحيـــاةُ الخـــالـــده ... لا تـــراهـــا عـــنْ هُـــداهُ حـــائـــده
أيهـــا التـــالـــي الكتـــابِ المنـــزَل ... شمِّـــرنْ ، لا تقعُـــدنْ عـــنْ عمـــلِ

---

(١) السنبل : نبات طيب الرائحة .

(٢) فيها : في الدنيا .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(٤) إشارة إلى الآيات : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم : ١ ـ ٣] .

يعشق الأصنامَ عقلُ الأمم ... ناحتٌ أو عابدٌ للصَّنم
هو أحيا سُنّةً من آزرا ... محدِثاً فيها إلهاً للورىٰ
اسمه لونٌ ودارٌ ونسب ... هو من سفك دماء في طربْ[1]
وعَلَى أقدام هذا الصَّنمِ ... ذُبحَ الإنسانُ ذَبْحَ الغنمِ
أيها الشاربُ من كاس الخليلْ ! ... يا حميَّ النفْس من طاس الخليل !
سيفَ « لا موجود إلا هوْ » خُذِ ... وبه الأصنام هذي فاجذُذِ
في ظلام الدَّهر أشرِق للملا ... وانشرنْ حقّاً عليكَ اكتملا[2]
خجلتَا لك في اليوم العسيرْ ... حينما يسألك الهادي البشيرْ :
قد أخذت الحقَّ عنّي ما دهاك ... لم تبلِّغه بحقٍّ لسواك !

***

في بيان أنَّ توسيع حياة الأمَّة بتسخير قوى العالَم

مؤمناً بالغيبِ غير الغافل ... كارهاً كالسَّيل قيدَ السَّاحل!
اعلُ عن ذا الطِّين غصناً ناضرا ... وصِلِ الغائبَ واغزُ الحاضرا
ذلك الحاضرُ تفسير الغيوبْ ... وهو مفتاحٌ لتسخير الغُيوبْ
ما سوى اللهِ لتسخيرِ العملْ ... صَدرُه للرَّمي ، فاقذِف لا تُبَلْ
ما سوى اللهِ تراه يُخلق ... لترى سهمَك فيه يمرُق[3]
عقدةٌ تلقاك بَعْدَ العُقدةِ ... ليُرَى في الحلّ لُطفُ الحيلة
فسِّرَنْ يا كِمُّ ! روضاً نفسكا ... سخِّرَنْ يا طلُّ ! ذي الشمس لكا
من يسخِّر عالَم الحسِّ سما ... ومن الذَّرَّة يُخرجْ عالَما

---

(١) يعبد الناس في هذا العصر عصبية الأنساب والأوطان ، فيسفكون الدماء .
(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] .
(٣) في الأبيات المتقدمة دعوة إلى تسخير عالم الحس ، وبيان أنَّ هذا التسخير يؤدي إلى معرفة عالم الغيب .

كلُّ ما في الكون من بحرٍ وبرّ ... لوحُ تعليمٍ لأربابِ النَّظر
أيُّها النائمُ طالت غفلتهْ ... عالَم الحسِّ جفته همَّتُهْ
قُمْ وفتِّح بصراً قد سُكِّرَا ... لا تحقِّر عالَماً قد حُقِّرا
إنَّه توسيعُ ذاتِ المسلم ... وامتحانٌ لصفاتِ المسلِم
هو يبلوك بسَيف الزَّمنِ ... لترى أنَّ دماً في البدَن
اضربِ الصَّدر بقهر القوَّةِ ... اختبرْ عظمَك في ذي الصَّدمة
جعل الحقُّ الدُّنَى للخيِّرين ... وجلاها لعيون المؤمنين
هذه الدُّنيا طريقُ الظَّعَنِ ... هذه الدُّنيا محكُّ المؤمنِ
فأسِرَنْها قبلَ أن تأسركا ... لا تُضِعْ في جوفها جوهرَكا
أدهِمُ الفكر الذي يطوي الفضاء ... والذي يجتازُ آفاقَ السَّماء
ساقَه في الكونِ حاجاتُ الحياه ... فهو في الأرض وفي النَّجم خُطاه
يبتغي في الكون تسخير القوى ... لتُرى فيه بأعلَى مُسْتوى
نائبُ الحقِّ ، بحقِّ آدمُ ... حكمه في الأرض ماضٍ حاكِم[1]
لكَ منْ ضيقكَ ، منها سعةُ ... ولأعمالك فيها فسحةُ
صهوةَ الرِّيحِ اعلُوَنْها آمرا ... ألْجمَنْ هذا الجوادَ النَّافرا
شقَّ قلب الطَّوْدِ عن جوهره ... شقَّ موجَ البحر عن درٍّ به
ألفُ كون في فضاء تُكفَتُ ... رُبَّ شمسٍ قد حوتها ذرَّةُ
بشعاعٍ أظهرنْ ما احتجبا ... واكشفَنْ عنْ كلِّ سرٍّ حُجِبا
من شُعاع الشَّمس ناراً فاقبِسِ ... ومنَ السَّيلِ بروقاً فاخلِسِ[2]
ثابتُ الأنجم أو سيَّارُها ... التي قد عُبدتْ أنوارُها
كلُّها يا صاحِ عُبدانٌ لكا ... وإماءٌ سُخِّرتْ من أجلِكا
سيِّرنْ فكرك فيها عسَسا ... سخِّرن آفاقها والأنفُسا

---

(١) يعني أنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض بالحقِّ ، وحكمه فيها نافذ .

(٢) استخرج الكهرباء من سيل الماء .

افتح العينَ وأنعِمْ نظَرا ... أبصرن في الراح معنىً مُضمَرا
كم ضعيفٍ في قويٍّ أمَرَا ... حين في الكون أجال البصرا
أيُها المقصود من أمرِ ﴿ انظروا ﴾ ... كيف في آفاقها لا تنظر ؟[1]
قطرةٌ من نفسِها ذاتُ خَبَرْ ... خمرةٌ في الكرم ، طلٌّ في الزَّهَر
وهي في البحر تراها جوهرا ... جوهراً كالنَّجم في الليل سرى
كالصَّبا لا تهفُ حولَ الصُّوَرِ ... اطلبنْ في الروض معنى الزَّهَرِ
دون مضرابٍ لحوناً سيِّرا ... ومن الأحرف طيْراً طيِّرا[2]
أيُها الظَّالع في حَزْنِ الحياه ... أيُها الغافل عنْ طعنِ الحياة
بلِّغ السَّعيُ الرفاقَ المنزلا ... أنزَلوا ليلى وحَطّوا المحملا
وبقيتَ اليوم قيساً مبلسا ... في الصحارى عاجزاً مستيئسا
« علَّمَ الأسماءَ » فخرُ الآدميّ[3] ... حكمةُ الأشياء نصرُ الآدميّ

* * *

في بيان أنَّ كمال حياة الأمَّة أن تشعر بنفسها كالأفراد وأنَّ توليد هذا الشعور وتكميله ، من الاحتفاظ بسنن الأمَّة ورواياتها

أرأيتَ الطفلَ يا ذا البَصَرِ ! ... ما له عنْ نفسهِ من خبرِ
ليس يدري ما قريبٌ وبَعيدْ ... كرةَ النَّجم بكفَّيه يريد
ما سوى الأمِّ يرى منه الجفاءْ ... همُّه أكلٌ ونومٌ وبكاء
ليس تدري أذنُه ما النغمةُ ... لحنُه ثورتُه والضجَّةُ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .
(٢) إشارة إلى آلات البرق ، والهاتف ونحوها .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

فكـــره غُفـــلٌ ضعيـــفُ الأثـــرِ ... قـــولُـــه فيـــه صفـــاءُ الجـــوهـــرِ
ليـــس فـــي تفكيـــره إلا الســـؤالْ ... أين ؟ أنَّى ؟ ومتى ؟ في كلِّ حال
كـــلُّ نقـــشٍ عنـــده ينطبـــعُ ... وهـــو كـــلٌّ غيـــرَه يتَّبـــع
عينـــه إمَّـــا بكـــفٍّ تُطبـــق ... تتنـــزَّى روحُـــه فـــي قلَـــقِ
فِكْـــرُه فـــي الجـــوِّ واهٍ حـــذرُ ... كصُقَيـــرٍ لاصطيـــادٍ يُجبـــرُ
خلـف صيـدٍ فـي حِـذَار يُـرسلُـه ... ثُـــمَّ يـــدعـــوه إليـــه يُعجلـــه[1]
ثـــم غشَّـــاه لهيـــبُ الفِكَـــرِ ... فـــرَمَـــى خُـــذروفُـــه بـــالشَّـــرر[2]
فتـــــراه عينُـــــه مُسْتعلنـــــا ... فيـدقُّ الصَّـدر يعنـي : هـا أنـا[3]
ومـــنَ الـــذِّكـــرى ينمِّـــي نفسَـــه ... غـــدَه يـــربـــطُ فيـــه أمسَـــه
ينظـمُ الأيـامَ خيـطُ الـذّهـبِ ... نسَـقَ الـدرُّ بسمـطٍ مُعجِـب
جسمـه يُـرمِـي ويُكـري قـائـلا : ... مثـل مـا كنـتُ أرانـي مـاثـلا[4]
« أنـا » هـذي بـدءُ مقصـود الحيـاه ... اليقظـــة فـــي عـــود الحيـــاه
مثَـــلُ الأمَّـــة حيـــن النَّشـــأةِ ... مثـــلُ الطِّفـــل ضعيـــفَ المُنَّـــة
هـــي طفـــلٌ نفسَـــه لا يعـــرفُ ... جـوهـرٌ غشَّـى عليـه الصَّـدَفُ
يـومُـه بـالغـدِ لـم يـوصـلْ ولا ... بصبـــاحٍ ومســـاءٍ سُلســـلا
وبعيْـنِ الكـون إنسـانـاً يُـرَى ... كـلَّ شـيءٍ مـا عـداه أبصـرا[5]

---

(١) كالصقر الصغير الذي يُعلَّم الصيد ، يتلطف صاحبه في إطلاقه وراء الصيد ودعوته إلى الرجوع .

(٢) ثم يعلق التفكير به فيرمي فكره بشرر كما تدار جمرة النار في خذروف فيتطاير منها الشرر . وفي الأصل « زرجك » وهي لعبة يديرها الصبيان يتطاير منها الشرر . والخذروف قرص يدار بخيط فيسمع له دويّ .

(٣) يدرك الطفل نفسه فيعني بها ويقول ها أنا . وكان يرى غيره لا نفسه .

(٤) يرمي ويكري : يزيد وينقص . يشعر الإنسان بأنه مع تغير جسمه لا تتغير ذاته .

(٥) هي في الكون كإنسان العين يرى كلَّ شيء إلا نفسه ، فهي تقلد وتتبع ولا تعتمد على نفسها .

بَعْـدَ لأيٍ طـرَفُ الخيـط بـدا ... بعـد مـا حلَّـت يـداهـا العُقـدا[1]

فـإذا رازَ قُـواهـا الـدَّهَـرُ ... يتجلَّـى ذا الشعـورُ المضمـرُ[2]

أسطـراً تمحـو ، وأخـرى تسطُـر ... صفحـاتٍ بيـديهـا تَـزبـرُ

يُبلِـس الفـردُ إذا مـا انتشـرا ... عِقْـدُ أيـامٍ عليـه قُـدِّرا

نـورُ قـومٍ مـن مـداد السِّيَـر ... نفسَـه يعـرفُهـا بـالـذِّكَـر

أمـةٌ قـد نسيَـت سيـرتَهـا ... ينسـخُ الـدَّهـرُ غـداً آيتهـا

أنـت سفْـرٌ كتبتـه السِّيـرةُ ... خَيْطُـه أيـامُـك الموصـولـةُ

ثـوبنـا أيـامُنـا فـي الـزَّمـن ... وخيـاطُ الثَّـوب حفـظُ السُّنـن[3]

مـا تـرى يـا غِـرُّ تـاريـخ البَشَـرْ ؟ ... قصـةٌ ! أسطـورة ؟ لَهـو سَمَـر ؟

فـي سَنـاه أنـت بـالنفس بصيـرْ ... فـي هـداه أنـت بـالسَّيْـر خبيـرْ

إنَّـه أعصـابُ جسـمِ الأمَّـة ... إنَّـه فـي الـروح مثـلُ الشُّعلـةِ

هـو يجلـوك كسيـفٍ مخـذَمِ ... ثـمَّ يـرمـي بـك بيـن الأمـم

أيُّ عـودٍ ذي فنـون تسحَـر ! ... نغمـاتُ الأمـس فيـه تُـؤثَـر

خـامـدُ الشُّعلـة ، فيـه يُشْعـلُ ... يـومُـه لـلأمـس فيـه مـاثِـلُ

شمعـه كـوكـبُ بختِ الأمـم ... وسنـا اليـوم وأمـسِ المظلـم

عينـه تُبصـرُ مـا قـد عَبَـرا ... وتُـرى المـاضـيَ حيَّـاً مُحضَـرا

وعتيـقُ الـرَّاح فـي كـاسـاتـه ... وخُمـارُ الأمـس فـي نَشْـواتـهِ

صـائـدٌ يَـرجـعُ فـي أشـراكنـا ... طـائـراً قـد طـار مـن بستـاننـا

فـاذكـر التـاريـخَ واستحكِـمْ بـه ... عِـشْ بـأنفـاسٍ مضـت ، فـي طبِّـه

أحكِمـنْ وُصْلـةَ يـومٍ وغـدِ ... والحيـاةُ امـضِ بهـا طـوعَ اليـدِ

---

(١) تكون كالذي معه خيط معقد يحل عقده حتى يجد طرف الخيط فيمكنه الانتفاع به .

(٢) راز الإنسان الشيء : حاول رفعه ليعرف ثقله .

(٣) الخياط : الإبرة .

وقـــدِ الأيـــام قَســـراً بمِهـــازْ أو فعِـش أعمـى بليـلٍ ونهـازْ[1]
صاحِ ! منْ ماضيك تبدو حالُكا ومـنَ الحـال بـدا استقبـالُكـا
إن تُـرِدْ خُلْـدَ حيـاةٍ فصِـلِ مـا مضـى بـالحـالِ والمستقبَـلِ

***

في بيان أنَّ بقاء نوع الإنسان بالأمومة ، وأنَّ حفظ الأمومة واحترامها منْ أصول الإسلام

نغَمـاتُ المـرءِ عَـزْفُ المـرأةِ هـو مـن محنتهـا فـي عـزَّة
كسـت الـذِّكـرانَ ربَّـاتُ الحجـالْ إنَّ ثوب العِشْق من نَسجِ الجَمال[2]
عَشَـقُ الحـقِّ رَبـاهُ حِجـرُهـا ذلـك اللحـنُ حـواه صـدرُهـا
الـذي قـدْ بهَـر الكـونَ سَنـاه قـرَن الطيـبَ إليهـا والصَّـلاه[3]
جهـلَ القـرآنَ جَهـلاً مُسلـمُ قـد رآهـا أمـةً لا تُعْظـمُ
إنَّمـا الأمُّ علينـا رحمـةُ وإلـى الـرُّسْـل لـديهـا نسبـةُ
رأفـةُ المـرسَـل فـي رأفتهـا سيـرُ الأقـوامِ مـن صنعتِهـا
ومـن الأمِّ علـتْ أقـدارُنـا وبِسيمـاهـا بـدا مِقـدارنـا[4]
لفظـة الأمَّـة فيهـا نُكـتُ أتُـرى فكـرك فيهـا يَثبـتُ ؟
إنمـا الأمـة مـنْ وصـل الـرحِـمْ دونـه أمـرُ حيـاة لا يتـمّ
قـال خيـر الخلـق ، وهـو الحجـةُ : تحـت رِجـل الأمّهـاتِ الجنَّـةُ

---

(١) المهار : الزمام .
(٢) إكبارالرجل المرأة وحبها يدعوانه إلى الإقدام والعمل ، وكذلك تهديه المرأة وتلهمه .
(٣) إشارة إلى الأثر : حبب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة .
(٤) المقدار هنا القدر ، أي مستقبل الناس مكتوبٌ في سيما الأم .

كُشفت بالأمّ أسرارُ الحياه ... بخلال الأمّ تَسيارُ الحياه
وبها في نهرنا يعلو العُبابْ ... ويدوم الموج فيه والحَبابْ

***

هذه الغِرّة بنتُ القرية ... عَبلةُ الجِسْم وغُفْل السِّحنة
حيَّة العَيْن ، كَهامُ المِقوَل ... دون تعليمٍ وصقلِ الصيقل[1]
ألَم الأمّ عليها يثقُل ... وجهُها يُعربُ عما تَحمِلُ
أمرنا يُحكَمُ من آلامها ... صبحُنا يشرق من إظلامها[2]
إنْ تَهبْ من حِجرها للأمَّةِ ... مسلماً حقّاً عظيم النَّجدةِ
والتي رقَّت وخفَّت مَحمِلا ... باطنُ المرأة فيه عُطِّلا[3]
شعَّ نور الغَرب في فكرتها ... وتُرى الثورةُ في مقلتها
قطَّعتْ أوصال هذي الأمَّةِ ... حين طاشت عينُها بالنَّظرةِ
إنَّ حرِّيتها أصلُ البلاء ... إنَّ حرِّيتَها فقدُ الحياءْ
ليلها ما ضاء فيه نجمُها ... لم يطق أعباء أمٍّ علمُها[4]
ليتها لم تَنْمُ في روضتنا ... ليتها تُغْسَلُ من حُلَّتنا

***

أنجمُ التَّوحيد في غيبِ الأبدْ ... مضمراتٌ ليس يحصيها عَددْ
لم تُسَيَّبْ بَعْدُ من قَيد العدَم ... لم تُقيَّد بعدُ في كيفٍ وكمّ
جَلَواتٌ في دجانا تُضمَر ... في ظلام الكون عنَّا تستترُ
قطراتٌ لم تَزِنْ زهرَ الرُّبى ... وزهورٌ لم تفتِّحها الصَّبا

---

(١) كهام المقول : عيية اللسان . عينها خفرة ، ولسانها قليل الكلام .
(٢) تعاني الظلام في أيامها ليشرق صبحنا : أي نسعد بشقائها .
(٣) صدفت عن الحمل والوضع .
(٤) لم يضىء في ليلها نجم : لم يولد لها ولد .

إنمـا تنبـتُ هـذي الـزهَـراتْ ... نـاضـراتٌ فـي ريـاض الأمهـات
أيهـا العـاقـلُ ! مـالُ الأمَّـة ... ليـس مـن عِقيـانهـا والفضَّـةِ
إنَّـه أولادهـا مِـلءُ الأمـل ... فـي ذَكـاءٍ ونشـاطٍ وعَمـلْ
تحفـظ الأمُّ إخـاء الأمَّـة ... وقُـوى قـرآنِنـا والمِلَّـة

* * *

في بيان أنَّ سيِّدة النِّساء فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ للنِّساء المسلمات

أمُّ عيسـى نسبـةٌ واحـدةُ ... بثـلاثٍ تـزدهـي فـاطمـةُ :
قـرَّة العيـن لخيـر الأوَّليـن ، ... خـاتـمِ الـرُّسْـلِ ، وخيـرِ الآخِـرين
نـافـخُ الـرَّوح بـدنيـا الـوَهَـنِ ... خـالـقُ العَصْـرِ جـديـدِ السُّنَـن
وهـي زوجُ المـرتضـى ذا البطـلِ ... أسـدِ اللهِ الحكيـمِ الفيْصـلِ
ملـكٌ فـي الكـوخ زهـداً قـد أقـام ... كـلُّ مـا يملـك درعٌ وحُسـامْ
وهـي أمُّ السَّيـديـنِ الأكـرمَيـن ... حسـنٍ خيـرِ حليـمٍ وحُسَيـن
ذا سـراجٌ فـي ظَـلامِ الحـرَمِ ... حـافـظٌ وَحْـدَة خيـرِ الأمـم
ازدرى الملـكَ ابتغـاء الألفـةِ ... أطفـأ النِّيـرانَ بيـن الإخـوةِ
ذاك فـي الأبـرار ربُّ العَلَـمِ ... أسوةُ الأحرار في الخَطْب العَمي
سيـرةُ الأولاد صنـعُ الأمَّهـات ... وخِـلالُ الخيـرِ طبـعُ الأمَّهـاتْ
زهـرةٌ فـي روضـة الصـدق البتـولْ ... أسـوةُ النِّسـوة فـي الحـقّ البتـولْ
فـاقـةُ السَّـائـل أذرت دمعهـا ... ليهـوديٍّ أبـاعـتْ درعَهـا[1]
كـلُّ مـن فـي الأرض قـد طـاع لهـا ... ورضـاهـا حيـن تُـرضـي بعلَهـا
نُشِّئـتْ مـا بيـن صبـرٍ ورضـا ... في الفَمِ القرآنُ ، والكفُّ الرَّحَى

---

(١) أباع : عرض للبيع ، أي عرضت درعها للبيع لتعطي سائلاً .

دمعُها من خشية الله جرى ... في مصلاَّها يفوقُ الجوهرا
لقطَ الروحُ الأمينُ الدُّرَرا ... وعلى العرش المعلَّى نثرا
أنا لولا الشَّرع عن هذا نَهَى ... وإلى شرعِ الرسول المنتهى
طفْتُ حولَ القبرِ إجلالاً لها ... ناثراً منْ سَجَداتي حولها

***

خطابٌ إلى المرأةِ المسلمة

مُشعلٌ مصباحُنا من نارِكِ ... عِرضُنا في الصَّون من أستاركِ
خَلْقُك الطَّاهرُ فينا رحمةٌ ... قويَ الدِّينُ به والأمّة
طفلُنا علَّمتِه حين الفِطام ... كِلْمةَ التوحيد منْ قَبل الكلامْ
صِيغَ مِنْ حُبِّك أطوارٌ لنا ... فِعْلُنا ، أقوالنا ، أفكارُنا
برقُنا في سُحُبٍ منك ثوَى ... شَعَّ في الأطواد ، والبيدَ طوَى
ضاء دينُ الحقِّ من أنفاسِكِ ... ونما التوحيدُ في أحجاركِ
ذلكِ العَصرُ غرورٌ ماكرُ ... وعلى الأديانِ باغٍ فاجرُ
عقلُه أعمى وبالله كفَرْ ... كم جهولٍ في شِراكِ قد أسَرْ
عينُه عينُ وقاحٍ فاتكِ ... بِشباكِ الهُدْبِ كم منْ هالكِ !
صيدُه يحسَب حرّاً نفسَهُ ... مَيْتُه يزعمُ قصراً رَمْسَهُ[1]
بكِ يخضرُّ غِراس الوَحدةِ ... بكِ ينمو رأسُ مال المِلَّة
لا تسيري غيرَ نهج السَّلَفِ ... لا تبالي بجدىً أو تَلَفِ
احذري فتنةَ عصرٍ مُهلكِ ... وإلى صَدْرِكِ ضمِّي وُلْدَكِ
بَعُدتْ عن عشِّها في خطرِ ... هذه الأفراخ ، لمَّا تطِرِ

---

(١) الأسير في أغلال هذا العصر يظنُّ نفسه حراً ، والميت يحسب رمسه قصراً لا يدري هذا أو ذاك ما هو فيه من عبودية أو هلاك .

فيكِ تسمو للمعالي فطرةُ ... فاتبعي الزهراءَ ، نعمَ الأسوَةُ
علَّ غصناً منك يأتي بحُسَيْن ... فترى النضرَةَ رَوْضاتٌ ذَوَيْن

***

خلاصة مطالب المنظومة
في تفسير سورة الإخلاص
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

ظهر الصِّدِّيقُ لي في الحُلُمِ ... مُزهِراً منه ترابُ القدَم
ذا « أمنُّ الناسِ » فينا مَن جَلا ... طُورُنا منه الكليمَ الأولا[1]
هو ثاني اثنين في الدِّين وفي ... صحبة الغار وفي القبر ، الوفي[2]
قلتُ : يا صفوةَ أصحابِ الصَّفاء ... مطلَعَ الدِّيوان من أهل الوفاء !
بكَ قرَّ الأسُّ في بُنياننا ... فانظرنْ ما الطبُّ من أدوائنا
قال : حتَّامَ أسيرُ الوَهَمِ ... سورةُ الإخلاص بُرء السَّقَم
نَفَسٌ في كلِّ صدر جائلُ ... وهي للتوحيد سرٌّ هائلُ
فاجلُ هذا السرَّ في كل الفِعالْ ... ولتكن منه مثالًا للجمال
الذي سمَّاك عبداً مُسلما ... بكَ للوحدةِ في الدُّنيا سَما
قلتَ : أفغانٌ ، وتركٌ وعَجمْ ... لم تَزُلْ عما تعودتَ القَدَمْ
طهِّرنَّ الحقَّ من هذي السِّماتْ ... اقصدِ البحر وخلِّ القَنواتْ
يا أسيراً لِسماتٍ ويحكا ! ... قد بَعُدتَ اليوم من دَوحتِكا
أبدل الوحدةَ بالتثنيةِ ... لا تقطِّع صاحِ ! حبلَ الوَحْدَةِ

---

(١) إشارة إلى الحديث : « أمنُّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر » .
(٢) كان ثاني الرسول في الدخول في الإسلام وفي الغار ، وفي القبر إذ كان أول من دفن بجانبه .

عـابـدَ الـواحـدِ ! وحِّـد واهجـرن ... كـلَّ تفـريـقٍ وللحـقِّ ارجعَـنْ
أيُّهـا المُغفـلُ معنـى الكلـمِ ... أثْبِتَـنْ فـي القلـب ألفـاظَ الفَـمِ
أمـةً قطَّعتَهـا فـي أمـمِ ... وهَـدَمْـتَ الحصـنَ فيـه تحتمـي
قُـوَّةَ الإيمـان زِدْ بـالعمـلِ ... مـات إيمـانٌ إذا لـم يَعمـلِ

* * *

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾

أشعِـرَنَّ القلـبَ « الله الصمـد » ... تَخَلَّصَـنْ مِـنْ قيـد أسبـابٍ وحـدّ
ليـسَ عبـدُ اللهِ عبـدَ السبَـب ... مـا الحيـاةُ الحـقُّ دورَ اللَّـولـب[1]
ليـسَ غيـرَ الله يـرجـو المسلـمُ ... وهْـو للنَّـاس جميعـاً سَلَـمُ
لا تبُثَّـنَّ شَكـاةً أحـدا ... لا تمـدَّنَّ إلـى الخَلـق يـدا
بـالشعيـر اقنـع ، تقيَّـل حيـدرا ... مـرحبـاً فـاقتلـه ، وافتـح خيبـرا[2]
فيـمَ لـلأجـواد حمـلُ المِنَـنِ ... أنـت ، مـنْ لا ونعَـم فـي حَـزنِ
لا تـرُم رزق لئيـمٍ يُنغـصُ ... يـوسفٌ أنـت ، فـأنَّـى ترخُـصُ ؟
إنْ تكـن نمـلاً وكنـتَ المقْعَـدا ... لا تـؤمِّـل مـنْ سليمـان جَـدَى
خفِّـفِ الـزاد ، طـريـقٌ وعِـرُ ... عـشْ ومـتْ حـرّاً . عـداك الغَـرَرُ
اجعلن « أقلِلْ من الدُّنيا » الشِّعارْ ... و« تعـش حـرّاً » بهـا كـلَّ الفخـار[3]
وكـن الإكسيـرَ لا التُّـربَ بهـا ... معطيـاً لا سـائـلاً . فـي حبِّهـا[4]

---

(١) إن أخْلَصَ الإنسان لله ، وتوكَّل عليه لا يقيده ما يقيد الناس من أسباب ، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته ، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادةُ الإنسان وعزيمته .
(٢) مرحب : أحد رؤساء اليهود في خيبر ، قتله عليٌّ رضي الله عنه .
(٣) إشارة إلى ما يروى عن عمر رضي الله عنه : « أقلل من الدنيا تعش حراً » .
(٤) الضمير يرجع إلى الدنيا .

« بـو علـيٍّ » ليـس مجهـولًا لـديـك ... جَرعةً من كأسه أهدى إليك :[1]
« تخـت قـابـوس اركلـنْ بـالأرجـل ... ابـذل الـرأس وبـالعـرض ابخـلِ »
يُفتـــح الحـــانُ عَجـــولًا نفسَـــه ... لفقيـــرٍ لـــم يـــدنِّـــس كـــأســـه

* * *

قـائـدُ الإسـلام هـارون الـرشيـدْ ... مَنْ سقَى نقفورَ من ماءِ الحديد[2]
قـال : يـا مـالـكُ مـولـى الأمَّـةِ ... أنـــت يـــا رونـــقَ وجـــه الملَّـــةِ
أنـت يـا بلبـلَ فـردوسِ الحـديـث ... إنَّـني أرغـب فـي درسِ الحـديـث
لِـمَ يُخفـى ذا العقيـقَ اليمـنُ ؟ ... اقصـدَن بغـداد ، نعـم الـوطـن[3]
حبَّـذا زهـرةُ أيـامِ العـراق ... حبَّـذا حسـنٌ بـه الأعيـنَ راقْ
تـربُـه فيـه مـنَ السُّقْـمِ نجـاه ... قـاطـرٌ مـنْ كـرْمِـه مـاءُ الحيـاه
قـال : « إنـي خـادمٌ للمصطفـى ... وبحسبـي حبُّـه لـي شـرَفـا
أنـا ، مـن قُيِّـدتُ فـي حُبِّـي لـهُ ... كيـف أنـأى عـن مكـانٍ حلَّـهُ
لـي فـي يثـرب حـبٌّ واشتيـاق[4] ... أيـن مـن ليلي بهـا صبحُ العـراق ؟
ويقـول العشـق : أمـري امتثـلا ... لسـتُ أرضـى بملـوكٍ خَـوَلا
أنـت تبغـي أن تُـرَى لـي سيِّـدا ... أن تُـرى مـولـىً لحـرٍّ عُبِّـدا
ألتعليمـك أغشـى بـابَكـا ... خـادمُ الأمَّـة لا يعنـو لكـا
إنْ تَـرُمْ فـي الـديـن علمـاً يُقتنَـى ... فـاغشيَـنْ حَلْقـة درسـي هـاهنـا »

* * *

---

(١) هو أبو علي قلندر أحد كبار الصُّوفية في الهند ، وقد سبقت ترجمته في القسم الأول لديوان « الأسرار والرموز » ، وما بين القوسين من شعره .

(٢) نقفور : أحد ملوك البيزنطيين حاربه الرشيد فهزمه .

(٣) اليمن : من مواطن العقيق . يعني : لماذا يبقى مالك في الحجاز كما يبقى العقيق في معدنه .

(٤) في الأصل : أنا حيٌّ بتقبيل تراب المدينة . وقد خففت العبارة في الترجمة .

الـذي استغنَـى جـديـرٌ بـالـدَّلال ... فـي دلالٍ عنـده كـلُّ جمـال
صبغـةَ الحـقِّ مَـن استغنـى اكتسَـى ... ورأى صبـغَ سـواه دَنَسـا
أنـت مِـنْ غيـرك تجـدو علمكـا ... بطـلاء منـه تَطلـي وجهكـا
أنـت منـه بِشعـارٍ تفخـرُ ... أنـت ذا أمْ غيَّـرتـك الغِيَـر ؟[1]
خَشَعـتْ أرضُـك مـن أمطـاره ... وخـلا البستـانُ مـنْ أزهـاره
مطـراً مِـنْ مـزنـه لا تجتـدي ... لا تُبِـدْ زرعَـك عمـداً بـاليـدِ
سَلْسَلَـتْ عقلَـكْ أفكـارٌ لـه ... مـلأتْ حَلْقَـكَ أوتـارٌ لـه
مستعـارٌ كَلِـمٌ فـي فمكـا ... مستعـارٌ أمـلٌ فـي قلبكـا
أعـوزتْ طيـرَك ألحـانُ الغنـاء ... ليس في سروك في الجوِّ رُواء[2]
أنـت فـي كـأسـك خمـراً تجتـدي ... وكـذاك الكـأس جـدوى فـي اليـد
لـو يعـودُ اليـومَ فينـا ذو النظـرْ ... من به تصديق ﴿ ما زاغ البصر ﴾[3]
مـازَ صـدقـاً وكـذبـاً سمعُـه ... وابتلـى كـلَّ فـراشٍ شمعـه[4]
ثـم نـادى « لستَ منـي » يـا فتـى ... ويلتـا يـا ويلتـا يـا ويلتـا
فَـإلامَ العيـشُ مثـلَ الأنجـمِ ... يَطْلُـعُ الصُّبـحُ لهـا بـالعـدَم
أنـت قـد غـرَّك صبـحٌ كـاذبُ ... أنـت عـن نَفْسِـك حقّـاً ذاهـب
أنت شمسٌ نَفسَك اعرِف كلَّ حين ... لا تُضئْهـا مـنْ نجـوم الآخـريـن
إنَّ فـي قلبـك نفسـاً مـن سـواك ... بـاعَـتِ الإكسيـرَ بـالتُّـربِ يـداك
بسـراجِ النـاس مغنـاك أضـاء ... وبخمـر النَّـاس فـي الـرأس انتشـاء

---

(١) هل أنت أيها المسلم كما عهدتك ، أم أنت إنسان آخر .
(٢) السَّرو : شجر طويل شكله كالسنبلة دائم الخضرة ، جميل التمايل . يقول الشاعر إنَّ طيرنا لا يستطيع الغناء كالطير ، وسرونا ليس له رواء كالسرو .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] .
(٤) لو عاد الرسول صلوات الله عليه لميز الصادق والكاذب ، وعرف شمعه الفراش الذي يهفو إليه حباً .

لـك حـولَ الشَّمـع فـي الحفـلِ دوار ... اغشَينْ نارك . هل في القلب نار[1]
ابـقَ فـي مثـواك مثـلَ البصـر ... لا تـدَعْ عُشَّـك مهمـا تَطِـر[2]
حَـيَّ فـردٌ نفسَـه قـد عَـرفـا ... وقبيـلٌ عـن سـواه صَـدفـا[3]
عـن طـريـق المصطفـى لا تـذهبَـنْ ... واتـرك الأربـابَ ، واللهَ اعبُـدَنْ

* * *

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

قـد عـلا قـومُـكَ عـن لـونٍ ودَمْ ... وعـلا أسـودُه حُمـرَ الأمـم
فـي وضـوءٍ قطـرةٌ مـن قنبـر ... هـي أغلـى مـن دمٍ مـن قيصـرِ
اتـركـن عمَّـاً وأمَّـاً وأبـا ... وكَسلمـان إلـى الـديـن انسبـا[4]
يـا خليلـي اسمـع حـديثـي واعقِـلا ... مـن خـلايـا النَّحـل هـذا المثـلا :
قطـرةٌ مـن شَقـرٍ كـالقَبَـسِ ... ثـمَّ أخـرى مِـنْ بيـاضِ النَّـرجـسِ
لـم تقُـلْ هـذي : أنـا نَيلَـوْفَـرُ ... أو تقـلْ هـاتيـك إنِّـي عَبهَـرُ
شـأنُ إبـراهيـمَ فـي ملتنـا ... ديـن إبـراهيـم فيـه شهـدُنـا
إنْ جعلـت الـدمَ ركـنَ الملَّـة ... صـدَعـتْ دعـواك جمـعَ الإخـوة
فـي ثَـرانـا ليـس ينمـو بَـزْرُكـا ... أنـتَ مـا أسلـم حقّـاً فكـرُكـا

---

(١) هنا يقول الشاعر : لا تكن فراشاً يهفو على نار غيره بل اصطل نارك إن تكن في قلبك نار .

(٢) مذهب إقبال أن يثبت الإنسان في نفسه ، يبعد السير ولكن لا يخرج من منهاجه . فليكن كالبصر ، يتقلب في العالم ، وهو مكانه ، وكالطائر يحلق في الجو ولا ينسى عشه . يعني أن يكون في فكره وعمله صادراً عن عقيدته وإحساسه هو .

(٣) حياة الفرد أن يعرف نفسه ويعتدَّ بها ، وحياة الجماعة أن تعتمد على نفسها ، وتصدف عن غيرها .

(٤) يروى أنَّ سلمان الفارسي رضي الله عنه سئل عن نسبه ، فقال : سلمان بنُ الإسلام .

ابـــنُ مسعـــودٍ سِـــراجُ المتَّقيـــن جسمـهُ والـرُّوح وَجْـد المُخبتيـن
أجَّ مـــن مـــوت أخيـــه صَـــدْرُه وأذابَ القلـــبَ منـــه جمـــرُه
لـم يجـفَّ الـدَّمـع مـن حـرقتـه نـاحَ نَـوحَ الأمِّ فـي لَـوعتـهِ :
« آهِ للقـــــارىء درسَ العظـــــةِ ورفيقـي فـي طـلابِ الحكمـةِ »
« آهِ للسَّـــرو الـــذي قـــد وَرَفـــا وشـريكـي فـي ولاءِ المصطفـى »
« عينُـــه تُحـــرَم إبصـــار النَّبـــيّ وأنـــا أشهـــد أنـــوار النبـــي[1] »

* * *

مـا مـن الأنسـاب يَقـوَى وصلُنـا ليـس مـنْ رومٍ وعُـرب أصلُنـا
إنمـا حـبُّ الحجـازيِّ الحبيـب قـد حبانـا ذاكـمُ الـوصلَ القريـب
حَسْبُنـــا آصـــرةٌ مـــنْ حُبِّـــهِ حسـبُ عيـن نشـوةٌ فـي قـربـه
جـدَّد الـدَّهـرُ بنـا سيـرتَـهُ مُـذْ حـوت أعـراقُنـا نشـوتَـه
عشقُـــه سِـــرُّ اجتمـــاع الأمَّـــةِ نبضَـــت منـــه عـــروقُ الملَّـــة
صلـةُ العِشْـقِ لنـا أقـوى سَبـب هو في الروح ، وفي الجسم النسب
أيهـا العـاشـق خـلِّ النَّسبـا خـلِّ إيـران ، وخـلِّ العَـربـا
نـــورُ حـــقٍّ مثلَـــه أمَّتُـــه قـد نمـت أغصـانَنـا دوحتُـهُ
« نـور حـقٍّ مـا حـواه نسـبٌ ثوبُ حقٍّ ، لا سِدًى أو لُحمةُ »[2]
مـن ثـوى فـي نسـبٍ أو بلـدِ قد غَفا عن ﴿ لم يلدْ ولم يُولَد ﴾

* * *

---

(١) يقصد الشاعر من هذه القصة أن ابن مسعود بكى أخاه لما جمعهما من صلة بالنبي لا من صلة النسب .

(٢) البيت لجلال الدين الرومي .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

صاحِ ! ما المسلمُ للدُّنيا احتقرْ ... عامِراً بالحقِّ قلباً قد عمر ؟
زهْرةٌ من شَقِرٍ في القُننِ ... لم تَرُعها طلعةٌ من مُجتنِ
نَفساً ينفخ فيها السَّحَرُ ... فتراها لهباً يستعرُ
تُشفق الزُّهرُ عليها تحسَبُ ... أنَّها خُلِّف عنها كوكبُ
النَّدى منها نُعاساً يَغسِل ... وشُعاعُ الشَّمس فيها قُبَلُ
﴿ لم يكن ﴾ أمسِكْ بها واشدُد يدا ... لتُرى في الناس حُرّاً أوحَدا
ذلك الواحدُ لا شرِكَ له ... عبدُه يأبى شريكاً مِثلَه
قد سما المسلم أعلَى مَنْ سَما ... ليس يرضى بمُسامٍ في السَّما
وِردُه ﴿ لا تحزنوا ﴾ في المأزِق ... ﴿ أنتم الأعلَون ﴾ تاجُ المَفرِق
حملَ الكونين طرّاً ظَهرُه ... وحوى برّاً وبحراً صدرُه
أذْنُه للرَّعد إمَّا جَلجلا ... صدرُه لِلْبَرق إمَّا نزلا
قاتِلُ الزُّور ، وللحقِّ وزَرْ ... أمرُه المعيار في خيرٍ وشرّ
جمرُه كلُّ لهيبٍ في حشاه ... جوهرٌ فيه كمالٌ للحياه
ليس في ضوضاء هذي الأمم ... نغمةٌ إلا أذانَ المُسلمِ
هو في العفو وفي البذل عظيمْ ... وهو حين القَهر ذو طبعٍ كريم
لُطفُه في الحَفلِ جبرُ المنكسِرْ ... قهرُه في الحرب صهرٌ للحجَر
هو في الرَّوض صفيرُ البُلبلِ ... وهو في البِيد انقضاض الأجدل
قلبه تحت سَماءٍ لا يقرّ ... هو فوق الزُّهرِ ما إن يستقرّ
طائرٌ ينقُر نجمَ الحُبكِ ... طائراً فيما وراء الفَلَكِ
أنتَ ، يا منْ لم يَطِرْ منك جَناحْ ! ... دودةٌ في ظلمةِ التُّرب تُراح
مستكينٌ تشتكي جور الزَّمانْ ... قد أصبتَ الذُّلَّ من هَجر القُران[1]

---

(١) القران : القرآن .

قد هَبَطْتَ الأرضَ طُهراً كالنَّدى ... بالكتاب الحيِّ أمسكت يدا
فإلام العيشُ في التُّرب ؟ ارحلا ... اصعدَنْ فوق السمواتِ العُلَى

* * *

شكوى المصنف إلى من أرسل رحمةً للعالمين

نَضَّرَتْ منك مُحيَّاها الحياه ... ورأت تعبيرَ رؤياها الحياه
الجهاتُ الستُّ نورٌ يَسطعُ ... منك ، والأقوامُ جمعاً تَبعُ
إنَّ فقراً فيكَ ذخرُ الكائنات ... قد تعالى بك قدرُ الكائنات[1]
أنتَ أشعلتَ مصابيح الحياه ... وحبوتَ النَّاس من رقٍّ نجاه
صُورُ الكون بدت من دونكا ... فاقةً تشكو وتشكو الحَلَكا
نَفَسٌ منك أطار الشَّررا ... فاستحالَ الطِّينُ مِنْهُ بشرا[2]
وَسَمَتْ للنَّيرينِ الذَّرَّة ... وتجلَّتْ من حَشاها القوّة
من أبي أنت وأمي أقرب ... مذ رأى وجهَك طَرفي المعجَبُ
عشقُك النارَ بجسمي يُضرِم ... فليُذِبْ روحيَ منه ضَرَمُ
ومتاعي أنَّهُ مثلَ الرَّبابْ ... إنها المصباح في بيتي الخراب
كيف لا يُبدي شَجٍ أتراحَه ؟ ... كيف لا يُبدي زجاجٌ راحه ؟
ضلَّ عنْ سرِّ النبيِّ المسلمُ ... مؤنثاً قد صار هذا الحرَم[3]
كلُّهم في قلبه يثوي هُبَلْ ... ومناةٌ فيه والعُزَّى تحُل

---

(١) الفقر عند إقبال ، كما هو عند الصوفية ، ألا يستغنى الإنسان إلا بالله . انظر مقدمة « ضرب الكليم » .

(٢) يعني : أنَّ الكائنات قبلك كانت في ظلامٍ وفاقةٍ وحاجةٍ إلى من يبعث فيها الحياة والقوة .

(٣) المسلم صار بيت أوثان بما في نفسه من أهواء ، وعبادة للكبراء .

شيخُنـــا يفضلـــه البـــرْهَمَـــنُ ... سُمنـــاتٌ رأسَـــه يستـــوطـــنُ[1]
هجر العُربَ ، وفي العُرْبِ عِصَمْ ... وأطـال النَّـوم فـي حـانِ العجـم
فـتَّ بَـردُ العُجـمِ فـي أعضـائـه ... دمعُـــه أبـــردُ مـــنْ صهبـــائـــه
هـو ، كـالكـافـر ، يَخشى الأجـلا ... صَـدْرُه مـن قلـب حـيٍّ قـد خـلا
داؤه كـــلُّ طبيـــبٍ مـــا شفـــا ... فحملـتُ النَّعـشَ عنـد المصطفـى
هـــالكـــاً عـــزَّفتـــه مـــاء الحيـــاه ... ومـــن القـــرآن أســـرار النَّجـــاه
قلـتُ عـن أحبـاب نجـدٍ قِصَّتـي ... حَـدثـتْ عـن روضِ نجـدٍ نفحتـي
فـأضـاء الحفـلَ مـن لحنـي أيـاة ... ودَرى قـومـي أسـرار الحيـاة[2]

* * *

قيـلَ : أُهـدي سحـر أوْرُبَّـة لنـا ... وبقـانـونِ الفـرنـج افتتنـا[3]
واهبـي عـودَ سُلَيمـى كـرَمـا ... والأبـوصيـريَّ بُـرداً كـرُمـا[4]
اهـدِ للحـقِّ ، الـذي قـد أفَكـا ... الـذي يجعـل مـا قـد ملكـا[5]
إنْ يكـن قلبـي غَـوَى لا يُبصـرُ ... أو سـوى القـرآنِ لفظـي يُضْمِـرُ
أنـت يـا مـن نـورُه صبحُ العُصـور ! ... أنـت يـا عـالـمَ أسـرارِ الصـدور !
اهتكـنْ أستـار فكـري وافضحـنْ ... طهِّـرن مـن شـوكتي روضَ الـزَّمـن
وحيـاتـي اقطـع لأجـل الأمَّـةِ ... واكفيَـنْ شـرِّي أهـلَ الملـةِ
أبعدنْ عن روضتي الغيث المَريع ... واحـرمنِّـي مـن شـآبيـبِ الـرَّبيـع
جفِّـفِ الـراح بكَـرمـي عـاجـلا ... وامـلأنْ واحـيَ سُمَّـاً قـاتـلا

---

(١) سمنات : بيت أصنام معروف في الهند أخربه السلطان محمود الغزنوي ، ويعيد الهنادك بناءه اليوم .
(٢) الأياة : شعاع الشمس .
(٣) القانون : آلة موسيقية . وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع .
(٤) الأبوصيري الشاعر ناظم البردة . وعود سليمى يراد به قوة العرب في الأدب والغناء .
(٥) اهد من ادعى أن فلسفتي مأخوذة من الفرنج ؛ لأنه يجهل ما في دينه من قوانين .

واخـــزِيَنِّـــي يـــوم حشـــر الأمـــم ... واحـــرمَنِّـــي منـــك لثـــمَ القـــدَم
أو أكن أخلصت نصحي في البيانِ ... ونظمـــت الـــدُّرَّ مـــنْ سـرِّ القُـــرانِ
فـــدعـــاءٌ منـــك أجـــري وكفـــى ... بـــكَ كـــمْ نـــال وضيـــعٌ شـــرَفـــا
اســـألـــنَّ اللهَ ربَّ العـــرش لـــي ... يجعلَـــنْ عشقـــي قـــرينَ العمـــل
ربِّ قـد أنعمـتَ بـالـرُّوح الحـزيـن ... ونصيباً شئتَ لـي مـن علـمِ ديـن
فـاجعلَـنْ فـي الفعـل حظِّـي أوفـرا ... واجْعَلـــنْ قَطـــرَ ربيعـــي دُررا

* * *

أمـــلٌ آخـــر فـــي القلـــب أقـــام ... مُـذْ حـوىٰ قلبيَ فـي الـدنيـا مُقـام
هـــو فـــي صـــدري كقلبـــي نـــزلا ... شـــاهـــداً صبـــحَ حيـــاتـــي الأوَّلا
أمـــلٌ أذكيـــتُ منـــه لهبـــي ... مُـذْ شـدا بـاسمـك أمـي وأبـي
كلَّمـــا غيَّـــض منِّـــي الـــزمـــنُ ... ودهـــانـــي ريبُـــه والمِحـــنُ
شـــبَّ فـــي قلبـــيَ هـــذا الأمـــلُ ... ونمـــا بـــالعتـــق فيـــه الثَّمَـــل
إنَّـــه تحـــت تـــرابـــي جَـــوهـــرُ ... كـــوكـــبٌ فـــي جنـــح ليلـــي يُسفِـــر

* * *

همـــتُ حينـــاً بـــذواتِ الحـــوَرِ ... وتعشَّقْـــــتُ ذواتِ الطُّـــــرَرِ
وعلـــى الـــرَّاح صحبـــت الغـــانيـــه ... حيـــن أطفـــأتُ ســـراجَ العـــافيـــه
وأحـــاطـــت بَيْـــدري نـــارُ البُـــروقْ ... وغـــزا قلبـــيَ قُطَّـــاع الطـــريـــقْ
وبـــروحـــي لـــم يـــزل هـــذا العُقـــار ... وبكيســـي لـــم يـــزل هـــذا النُّضـــارْ

* * *

لبـــس الـــزُنَّـــارَ عقلـــي الآزريّ ... وغـــزا روحـــي بـــالنقـــش الفـــريّ[1]

---

(١) الأزري المنسوب إلى آزر ناحت الأصنام ، وهذا العقل الوثني نقش في روحه نقشاً عجيباً .

في إسار الشكِّ أمضيت سنينْ ... وهو في رأسي مقيمٌ لا يَبين
أحرُفاً ما نلتُ منْ عِلم اليقين ... ومن الحكمة في الريب رهين[1]
لم يَلُح في ليل عُمري نورُ حقّ ... لم يُنِرْ ليلي شعاعٌ من شفَقْ
وفؤادي مُضمرٌ هذا الرجاء ... صدَفٌ في قلبه دُرٌّ أضاء
ثمَّ مِنْ عينيَّ دمعاً سَجَما ... وتجلَّى في فؤادي نغما[2]

***

يا مَن القلبُ سِواه أغفلا ! ... اتذنَنْ أذكر هذا الأملا
سيرتي ما ضاء فيها العملُ ... كيف مثلي مثلَ هذا يأمُلُ ؟
أنا مِنْ إظهاره في خجَلِ ... منك لُطفٌ يسَّرَ الجُرأة لي
يا رحيماً بك للناس مفاز ... كلُّ ما أبغيه موتي في الحجاز[3]
هَجْرُ غير الله شأنُ المسلمِ ... كيف لي عيشٌ ببيت الصنم ؟
حسرةُ المسلم إنْ حُمَّ الممات ... أن يكون الدَّيرُ مثوى للرُّفات[4]
ويلَ يومي ، وهنيئاً لغدِي ... إن أقُمْ في ذا الحِمَى من لَحَدي
حبَّذا أرضٌ تراها موطنا ! ... حبَّذا تربٌ تراه مسكنا !

---

(١) الحكمة : الفلسفة .

(٢) هذا الأمل الّذي كرر الشاعر ذكره وأطال في وصفه تحوَّل دمعاً سجم في عينيه ، ونغماً رنَّ في قلبه .

(٣) كرَّر الشاعر هذا الرجاء في شبابه قبل وفاته بثلاثين سنة إلى أن توفي ، وروى الأستاذ يوسف جشتي شارح دواوينه الشعرية أنَّ أحد أصحاب محمد إقبال دخل عليه في يناير سنة ١٩٣٨م (أي : قبل وفاته بثلاثة أشهر) وأخبره أنه عزم على الحجِّ ، وسأله أن يدعو اللهَ ليقبل حجَّه ، فبكى إقبال بكاءً شديداً وقال : بل أسأل الله أن ييسِّر لي زيارة روضة الحبيب ﷺ .

(٤) يعني : أن بلاد الهند يسيطر عليها الإنكليز ، وليست بلاداً إسلامية خالصةً ، فهي ليست جديرة أن يعيش فيها المسلم ، أو يعبر فيها .

« دارُ حبِّـي ومليكـي والسَّكـن ... أيُّها العُشَّاقُ ! ذا نِعْمَ الوطن »[1]
كـوكبـي أطلِعْـهُ بـالسَّعـد غـدا ... فـي ظـلال الـدَّار هـبْ لـي مـرقـدا
ليـرى الـراحـةَ قلبـي القلِـقُ ... ويـرى الهـدأةَ هـذا الـزئبـقُ
أيُّهـا الـدَّهـر انظـرَنْ هـذا السَّـلام ... قـد رأيـتَ البـدءَ فـانظـرْ مـا الختـامْ

***

(١) هذا البيت أحسبه مقتبساً من جلال الدين الرومي . والسكن هنا : من يسكن إليه الإنسان ، ويطمئن .

الديوان الثالث

رسالة الشرق

پيام مشرق

نقله إلى العربية

الدكتور عبد الوهاب عزام

طبع هذا الدِّيوان أوَّل مرّة باللغة الفارسية عام ١٩٢٣م ، وكتب الشَّاعر فوق عنوان الديوان : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة : ١١٥] وكتب تحته : « جواب ديوان الشاعر جوته » .

وقدَّم محمد إقبال هذا الدِّيوان على أنَّه شعر الفارسيَّة الكامل ، لأنَّه قدَّم إلى القارىء اللغة الفارسية في مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشِّعر الفارسي من الغزل والرُّباعي والبيتي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويُصادفنا في الديوانِ الشعرُ الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت .

والدِّيوان روضةٌ من الشِّعر تختلف أزهارها ، ونوارها ، وضروب النبات فيها وألوان وصنوف الرَّيحان فيها ، وروائحه جمعت أشتات الزهر من المشرق والمغرب .

* * *

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان على هذه الأقسام :

القسم الأول : شقائق الطور ، وهي رباعيات .

القسم الثاني : الأفكار ، وهي إحدى وخمسون قطعة وقصيدة .

القسم الثالث : الخمر الباقية ، وهي قصائد صوفية ، رمزية من الضَّرب الّذي يسمَّى في اصطلاح الأدب الفارسي والأردوي غزلًا ، وهو غير الاصطلاح العربي ، وعدد الغزليات في هذا القسم خمسٌ وأربعون .

القسم الرابع : نقش الفرنج ، وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة ، يذكر فيها الشَّاعر بعض شعراء أوربة وفلاسفتهم ، وينقد مذاهبهم وآراءهم ، فيقبل منها ويردّ .

القسم الخامس : الدَّقائق ، وهي قطع صغيرة ، وأبيات مفردة ألحقها الشاعر بهذا الدِّيوان . وقد ترجم هذا الديوان بكامله إلى العربيَّة شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو يُقدَّم إليكَ الآن مع مقدمة الشاعر .

* * *

مقدمة محمد إقبال[1]

لديوان « رسالة الشرق »

نظمتُ بيام مشرق لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه الشاعر الألماني الإسرائيلي هاينا :

« هذه باقةٌ من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق ويتبين من هذا الديوان أنَّ المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق » .

ما المؤثرات وما الأحوال التي كتب فيها جوته هذه المجموعة من الأشعار التي هي أحسن آثاره ، والتي سمَّاها هو باسم « الديوان » .

لا بدَّ للإجابة عن هذا السؤال أن نبين إجمالًا هذا التأثير الذي سمي في تاريخ الأدب الألماني التأثير الشرقي . وددت أن أفصِّل في هذه المقدمة الكلام في هذا التأثير ، ولكن المراجع الكثيرة التي يحتاج إليها في هذا البحث لم تتيسر في الهند . وقد بين بال هورن مؤلف تاريخ آداب إيران في مقالٍ له مقدار ما كان جوته مديناً لشعراء الفرس . ولكن العدد المشتمل على هذا المقال من مجلة نارو أندسود لم يمكن الحصول عليه في خزانة كتب في الهند ، ولا من ألمانيا . فلا مناص من أن أعتمد في كتابة هذه المقدمة على ما أذكر من دراستي السابقة وعلى الرسالة المختصرة المفيدة البارعة التي كتبها في هذا الموضوع مستر « شارلس ريمي » .

كانت طبيعة جوته المتطلعة تميل منذ الحداثة نحو الأفكار الشرقية ، وفي

---

(١) كتبها محمد إقبال بالأردوية ، ونقلها إلى العربية خلال ترجمة هذا الديوان الأستاذُ الدكتور عبدُ الوهاب عزَّام .

استراسبورج حيث كان يتعلَّم القانون لقي هردر ذا المكانة والصيت في الأدب الألماني . ويعترف جوته في سوانحه بما تركت صحبة هردر في نفسه .

لم يكن هردر يعرف الفارسيَّة ، ولكن لغلبة النزعة الأخلاقية عليه كان لكتب سعدي أثر بليغ في نفسه حتَّى ترجم بعض فصول كلستان إلى اللغة الألمانية . ولم يكن لحافظ الشيرازي هذه المكانة عنده ، وهو يقول داعياً معاصريه : قد غنينا كثيراً على أسلوب حافظ وقد وجب الآن أن نقتدي بسعدي . ولكن مع حب هردر الآداب الشرقية هذا الحبَّ لا يُعرف في شعره أو مؤلفاته الأخرى أثرٌ من هذه الآداب . وكذلك كان شلر معاصر جوته الثاني بعيداً عن تأثير الشرقيين . وقد مات قبل ظهور التأثير الشَّرقي ، وينبغي ألا نغفل عن هذه المسألة : إنَّ قصتَه « توران دخت » أخذت خطتها من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع التي كتبها نظامي الكنجوي في « هفت پيكر » واستهلَّها بقوله :

كفت كز جملهٔ ولايت روس
بود شهري بنيكوئي چو عروس

***

وسنة ١٨١٢ نشر فون همر ترجمةً كاملةً لديوان حافظ : وبهذه الترجمة ابتدأ التأثير الشرقي في آداب الألمان . وكان عُمُر جوته إذ ذاك خمساً وستين سنة . وكان هذا على حين بلغ انحطاط الألمان غايته في كلِّ ناحية . لم تكن طبيعة جوته مهيأة للمشاركة عملاً في الحركات السياسية في وطنه ، فلما ضاق بالاضطراب الشائع في أوروبة أخذت روحه القلقة المحلقة تلتمس عشاءً في فضاء الشرق الساكن الآمن .

وقد أثارت أناشيد حافظ هياجاً كبيراً في أفكاره ، فاختار آخر الأمر « للديوان الغربي » صورةً متميزة ثابتة ، ولكن ترجمة فون همر لم تكن مؤثرةً في جوته فحسب ، بل كانت مأخذاً لخيالاته العجيبة الغربية ، فيبدو نظمه أحياناً كأنَّه ترجمةٌ حرَّةٌ من شعر حافظ ، وأحياناً تجد قوةَ تخيُّله في مصرعٍ

واحدٍ مهيعاً جديداً تنير فيه مسائل في الحياة بالغةً في الدِّقة والصُّعوبة .

يقول بيل شوسكي كاتب سوانح جوته المعروف :

كان جوته يرى صورته في نغمات بلبل شيراز ، وكان يخطر له بين الحين والحين أنَّ روحه لبست صورة حافظ ، فعاشت في بلاد الشرق . فنحن نجده شبيه حافظ في ذلك السُّرور الأرضي ، وتلك المحبة السَّماوية ، وذلك اليسر ، وذلك العمق ، وذلك الغليان والتوقد ، وتلك السَّعة في المذهب ، وهذا النُّور القلبي ، وذلك التحرُّر من الرسوم والقيود . بل في كلِّ أمر حافظ ، لسان الغيب ، وترجمان الأسرار ، وكذلك جوته . ولحافظ عالم من المعاني في ألفاظٍ بسيطةٍ في ظاهرها ، وكذلك في طريقة جوتِه المطبوعة تتجلَّى الحقائق والأسرار ، وكلاهما نال إعجاب الأمير والصعلوك ، وكلاهما أثَّر في فاتحي عصره العظام « يعني حافظ في تيمور ، وجوته في نبوليون »[1] وكلاهما في عصر اضطرابٍ عامٍّ وخراب ، حافظ على السكون والطمأنينة في قلبه مبتهجاً بالمضيِّ في ترنمه القديم .

ثم جوته مدينٌ في أفكاره لغير حافظ : للشيخ عطار ، وسعدي ، والفردوسي ، وللأدب الإسلامي عامَّةً . فقد كتب في بعض المواضع غزلًا في قيود القافية والرديف ، وهو يستعمل في لغته استعاراتٍ فارسيَّةً بغير تكلُّف مثل : جوهر الأشعار ، وسهام الأهداب ، والطرَّة المعقودة ، بل هو في فورة الفارسية لا يحترز من الإشارة إلى الولوع بالمرد . ثم أسماء أقسام الديوان فارسية كذلك مثل « مغنى نامه ـ ساقي نامه ـ عشق نامه ـ تيمور نامه ـ حكمت نامه ، وغيرها » ومع هذا كلِّه فليس هو مقلداً أيَّ شاعرٍ فارسيٍّ . فطرته الشعرية حرَّةٌ ولا ريب . وإنما غناؤه في مروج الشقائق المشرقية عرضيٌّ محض . وهو لا يفرط في غربيته ، وإنما يقع بصره وحده على الحقائق الشرقية التي تلائم

---

(١) لا تصحُّ رواية التقاء حافظ وتيمور فقد توفي الشاعر قبل أن يفتح تيمور شيراز .

فطرته الغربية . ولم يمل إلى التَّصوُّف العجمي قط . وكان يعلم أنَّ أشعار حافظ تفسر في المشرق تفسيراً صوفيّاً ، ولكنه لم يكلف إلا بالغزل محضاً ، ولم يهتم بالتفسير الصُّوفي في كلام حافظ أيَّ اهتمام .

وكانت معارف مولانا الرُّومي وحقائقه الفلسفية مبهمةً عنده . لا يمكن أن ينكر الرومي رجلٌ مدح سبنوزا (فيلسوف هولندي كان يقول بوحدة الوجود) وأعمل قلمه في الدفاع عن برونو (فيلسوف إيطالي وجودي) »[1] .

والخلاصة أنَّ جوته في الديوان المغربي اجتهد في إظهار الروح العجمية في الأدب الألماني .

***

وقد أكمل الأثر الشرقي الذي بدأ في ديوان جوته الشعراء الذين جاؤوا بعده : بلاتن ، وروكرت ، وبودن ستات .

فأمَّا بلاتن ؛ فقد تعلَّم الفارسيَّة لمقاصد أدبيَّةٍ ، ونظم غزلًا في القافية المردوفة ، بل في العروض الفارسي ، ونظم رباعيات ، ونظم قصيدةً في نبوليون . واستعمل الاستعارات الفارسية بغير تكلُّفٍ ، مثل جوته : عروس الورد ، والطرة المسكية ، وشقائق العذار . وهو مولع بالتغزُّل المحض كذلك .

وأمَّا روكرت ؛ فكان ماهراً في الألسنة الثلاثة : العربية ، والفارسية ، والسنسكريتية . وكان لفلسفة الرومي مكانةٌ عظيمةٌ في رأيه . وتأثير مولى الروم فيما كتب من غزلٍ كان أوضح ، وكانت مصادره من الأشعار الشرقية أوسع بما عرف من لغات الشرق .

وقد التقط لآلىء الحكمة من مخزن الأسرار لنظامي ، وبهارستان جامي ،

---

(١) يعني أنَّ الرومي كان من القائلين بوحدة الوجود ، فلو عرفه جوته لعني به ، كما عني بهذين الفيلسوفين .

وكليات أمير خسرو ، وكلستان سعدي ، ومناقب العارفين ، وعيار دانش ، ومنطق الطير ، وهفت قلزم ، بل زين كلامه بقصص وروايات إيرانية ترجع إلى ما قبل الإسلام . وقد أحسن نظم بعض واقعات التاريخ الإسلامي وأشخاصه مثل موت محمود الغزنوي ، وغزو محمود سومنات ، والسلطانة رضية[1] وموضوعات أخرى .

وأكثر شعراء الأسلوب الشرقي قبولاً بعد جوته : بودن ستات ؛ الذي نشر منظوماتٍ بالاسم المستعار « مرزا شفيع » وقد لقيت هذه المجموعة الصغيرة من القبول ما اقتضى طبعها مئة وأربعين مرة في مدَّةٍ قصيرة . أحسن هذا الشاعر تصوير الرُّوح العجمية حتى بقي الناس في ألمانيا زمناً طويلاً يحسبون أشعار مرزا شفيع ترجمة شعر فارسي .

وقد استفاد بودن ستات من أمير معزي ، وأنوري كذلك .

ولم أرد أن أذكر في هذا الصدد هاينا معاصر جوته المشهور ، إذ لم يكن في الجملة ذا صلةٍ بالتأثير الشَّرقي ، ولم يهتمَّ بما اقتبس شعراء ألمانيا من الشعر الشَّرقي إلا ديوان جوته ، على أنَّ الأثر العجمي بين في مجموعته المسماة « الأشعار الجديدة » وقد أجاد جداً في نظم قصة محمود ، والفردوسي ، ولكنَّ قلبَ هذا الشاعر الألماني الحرَّ لم يستطع الإفلات من شرك سحر العجم ، حتى لقد تصوَّر نفسه مرَّةً شاعراً إيرانياً أُجلي إلى ألمانيا يقول :

« يا فردوسي ! يا جامي ! يا سعدي ! إنَّ أخاكم في سجن الغم يخفق حنيناً إلى أزهار شيراز » .

ثم نذكر من مقلدي حافظ الأدنين منزلةً ، دومر ، هرمن ستال لوشكي ، ستابك ، لتز ، لنت هولد ، وفون شاك . وهذا الأخير كان ذا منزلةٍ عاليةٍ في العلـم ، ونظمه قصة إنصاف محمود الغزنوي ، وقصة هاروت وماروت

---

(١) من دولة المماليك التي قامت في دهلي .

مشهور . وأوضح الآثار في كلامه : أثر عمر الخيام .

وبعد فلا بدَّ من بحثٍ طويلٍ لكتابة تاريخ كامل لتأثير الشرق في الأدب الألماني ، والمقابلة بين شعراء إيران وألمانيا ، لتقدير أثر العجم تقديراً حقّاً ، ولكن لم يتيسَّر الوقت ، ولا العدَّة لهذا البحث . ولعلَّ هذا البحث المختصر يثير قلب أحد الشبان للتَّحقيق والتدقيق في هذا الشأن .

***

وأما « پيام مشرق » الذي كتب بعد « الديوان الغربي » بمئة سنة فلست في حاجة إلى الإبانة عنه . فسيرى الناظرون فيه بأنفسهم أنَّ أكثر ما يرمي إليه هو النظر في الحقائق الأخلاقية ، والدينية ، والمذهبية ؛ التي تتَّصل بالتربية الباطنية في الأفراد والأمم . ولا ريب أنَّ بين ألمانيا قبل مئة سنة وأحوال الشرق الحاضرة تشابهاً ما ، ولكن الحقيقة أنَّ الاضطراب الباطن في أمم العالم . . الذي لا نستطيع تقدير خطره لأننا متأثرون به ـ هو مقدمة انقلاب حضاري وروحاني عظيم جداً .

كانت الحرب العظمى التي قامت في أوربة قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وأن الفطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنساناً جديداً وتخلق عالماً جديداً لإقامة هذا الإنسان . عالماً يرى هيكله غير البين في مؤلفات آين شتاين ، وبركسون .

لقد رأت أوربة بعينيها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية ، والأخلاقية ، والعلمية . وسمعت من سنيور نيتي « الذي كان رئيس وزراء إيطالية » قصة « انحطاط الفرنج » المحزنة ، ولكن واأسفاه لم يستطع عبَّاد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذي كان يثور في الضمير الإنساني .

وإذا نظرنا نظرةً أدبيةً خالصةً نرى أنَّ اضمحلال قوى الإنسان بعد الحرب لا ييسر نشوء مُثُلٍ روحيةٍ صحيحةٍ ناضجة . بل يخشى أن تغلب على طبائع

الناس هذه الإباحية المنهوكة الضعيفة الأعصاب التي تفرُّ من مصاعب الحياة ، والتي لا تميز بين نزعات القلب وأفكار العقل . لا شكَّ أنَّ أمريكا عنصر صحيح في الحضارة الغربية ، فلعلَّ هذا الإقليم خالص من قيود الروايات القديمة ، ولعلَّ وجدانه الاجتماعي يقبل راضياً الأفكار والنزعات الجديدة .

* * *

إنَّ الشَّرق ، ولا سيما الشَّرق الإسلامي ، يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة . ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبيَّن أنَّ الحياة لا تستطيع أن تُبدِّل ما حولها حتى يكون تَبَدُّلٌ في أعماقها ، وأنَّ عالماً جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجي حتى يوجد في ضمائر الناس قبلاً . هذا قانون الفطرة الثابت الذي بينه القرآن في كلماتٍ يسيرةٍ وبليغةٍ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١] إنه قانونٌ يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والاجتماعي . وقد اجتهدت في كتبي الفارسية أن أبيِّن للناس صدقه ، وأنَّه لجدير بالإكبار كلُّ مسعىً في العالم ـ ولا سيما في بلاد الشرق ـ يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية ، فيولد أو يجدد فيها سيرةً إنسانيةً صحيحةً قوية .

* * *

وأختم بالثناء على صديقي جودهري محمد حسين . ام . اي ، قد رتَّب مُسوَّدات « پيام مشرق » للطبع . ولولا احتماله هذه المشقة لكان عسى أن يتأخَّر نشرُ هذه المجموعة مدَّةً طويلة .

إقبال

* * *

القسم الأول

شَقَائِق الطُّور

- ١ -

شَهيـدُ دَلالـه حَفْـلُ الـوجـود وكـلُّ الكـائنـاتِ مـن السُّجُـود[١]
ألـم تـرَ أنَّ شمـسَ الأُفـقِ لاحـتْ بـوجـهِ الصُّبـح مـن أثـر السُّجُـودِ ؟

- ٢ -

بقلبـي مـن تحـرُّقـه ضيـاءُ ويجلـو النُّـور فـي عينـي البكـاءُ
فـزاد مـن الحيـاة نـوىً غبـيٌّ يقـول : العشـقُ مـسٌّ أو هُـراءُ

- ٣ -

نسيـمُ العِشْـقِ فـي الجنَّـات جـارِ ويُنمـي العِشْـقُ أزهـار البـراري
ويختـرقُ البحـارَ لـه شعـاعٌ فيهـدي العشـقُ حيتـان البحـار

- ٤ -

رمـوزُ العِشْـقِ فـي ورَق الشقـائـقْ وغـمُّ العِشْـقِ فـي رُوحِ الخـلائـقْ
وإن تَصْـدَع طبـاقَ الأرض تُبصـر نصيبَ العِشْـقِ من دمِ كـلِّ عـاشِـقْ

- ٥ -

ومـا كـلٌّ لـه فـي الحُـبِّ كفـلُ ومـا كـلُّ الـوَرَى للحُـبِّ أهـلُ
علـى وَرَقِ الشَّقـائـق وَسْـمُ غـمّ ويخلـو مـنْ شـرار القَلـب لَعْـلُ[٢]

- ٦ -

بهـذا المـزج مثـلَ الـرِّيح[٣] أسْـري عـلامَ أهيـمُ فيـه ؟ لسـتُ أدري
فـإنْ أظفـرْ وإن أُخفـقْ فـإنّـي شهيـدُ تضـرُّمِ الآمـال عُمْـرِي

---

(١) جمع ساجد .
(٢) اللعل : أي العقيق .
(٣) الريح : الرائحة .

- ٧ -

يقول العندليبُ : أيا صحابي ! أغيرُ الغمِّ في هذا التراب ؟
يَشيخُ الشوكُ في عَرضِ الفيافي ويذوي الوردُ في عُمُر الشبابِ

- ٨ -

لبَدْءٍ أو ختامٍ لَستُ أسْرِي أنا سرٌّ أحاولُ كَشْفَ سرِّ
فإنْ بَدتِ الحقيقةُ دون ستر رجعتُ إلى « لعلَّ » و« ليت شعري »

- ٩ -

أقلبي ! كالفراش هوى ، إلامه ؟ ولا تمضي مضاء فتى ، إلامه ؟
بنارِكَ فاحترقْ يوماً وأقدمْ بنارِ الأجنبيِّ صلَى ، إلامه ؟[1]

- ١٠ -

أقمْ بدناً على كفِّ الغُبار[2] شديدَ الأسْر صُلْباً كالحجار
وقلباً فيه جيَّاشاً بهمّ كنهرٍ في حمى الأطواد جار

- ١١ -

أنجمَ الصُّبح تُسرع في فراقٍ لعلّك من رُقادي ضقتَ ذَرعا
ضللتُ بغفلتي سُبُلي ولكن أتيتَ وجُزْتنا يقظانَ تسعى

- ١٢ -

وكم ذا في الوجود من الحُبور ! أرى اللَّذاتِ في شَوق الظهورِ
ويَصدَع غُصنَه بُرعومُ زَهرٍ فيبسم للحياةِ منَ السُّرور

- ١٣ -

تقول فراشةٌ منْ قبل خلقٍ أنلني لمحةَ قلقِ الحياة
رمادي فاذرُه سَحَراً ولكن أذقْني ليلةً حُرَق الحياة

---

(١) هذه الرباعية مردوفة . فيها الروي قبل الكلمة المكررة .
(٢) يكثر التعبير في الفارسية عن الإنسان بكف غبار « مشت خاك » .

- ١٤ -

بني الإسلامِ ! سرٌّ في ضميري ... يُضيء كرُوحِ جبريلَ الرسولِ
أخادع آزريَّ الطبع عنه[1] ... فهذا السرُّ من سرِّ الخليل

- ١٥ -

أراكَ بسرِّ أفلاكٍ تجولُ ... وتجهلُ سرَّ نفسك يا جهولُ
فوَجِّه - كالنواة - إليك عينا ... ليُنبت منْ قرارتك النخيلُ

- ١٦ -

تَغنَّى طائرٌ سحراً طويلا ... فأبدَعَ شدوَه نغماً وقيلا :
أبِنْ عمَّا بصدرك لا تدعْه ... غناءً أو أنيناً أو عَويلا

- ١٧ -

أتبغي عند مِثلي مِنْ شرابٍ ... يرُدُّك منْ وجودك كالبعيد
فلا تطلُبْ بسوقي مِنْ متاعٍ ... سوى صدرٍ تمزَّق كالورودِ[2]

- ١٨ -

تَسوءُكَ رَوضتي مَرأىً إذا لم ... يَسرُّكَ في طلابٍ بذلُ روحِ
أُبيِّن في عُروق الوَرد سِرّاً ... ربيعي ليس من لونٍ وريحِ

- ١٩ -

أنا في الروض مُنفردٌ غريبٌ ... على غصْني أنوحُ مع الرِّياح
فإنْ تكُ من رقاق القلب فابعُد ... فإنَّ دمي ليرشَحُ في نُواحي

- ٢٠ -

أهاب إسكندرُ بالخضر : أقبلْ ... وعان الكدَّ في بحر وبرِّ
وموتنْ في الوغى تزدَدْ حياةً ... إلامَ تحيد عن كرٍّ وفرِّ ؟

---

(١) آزري الطبع : الذي يشبه آزر والد إبراهيم ، وكان ينحت الأصنام ، وكان ولده الخليل يدعو إلى التوحيد .

(٢) جمعُ ورد . والورد في خياله يمزِّق صدره ليتجلَّى جماله .

- ٢١ -

لـــه نقـــشٌ يُجـــدَّد كـــلَّ حيـــنٍ فـــلا تَبقـــى الحيـــاةُ علـــى غِـــرار
فـإنْ صـوَّرت يـومـك مثـل أمـسٍ فمـا يَحـوي تـرابـك مِـنْ شـرار

- ٢٢ -

بهـذا المَـرجِ مـا علَّقـتُ قلبـي مضيـتُ ولـم تعـوِّقنـي القيـودُ
كـريـح الصُّبـح طفـتُ بـه قليـلاً مضيـتُ ونضّـرت منِّـي الـورودُ

- ٢٣ -

أجـاش بقطـرتـي بحـراً وردَّتْ حُميَّـاه تـرابـي جـام جـمٍّ[1]
أقـام العقـلُ أصنـامـاً بـرأسـي خليـلُ العِشْـق بـادَرهـا بهـدمِ

- ٢٤ -

أتيـتَ الطُّـور تلْتمـسُ التجلِّـي فـروحُـك منـك ليسـت فـي وصـال
فـأَقْـدِمْ فـي طـلابـك آدميَّـاً كـذاك اللهُ فـي طلَـب الـرِّجـال

- ٢٥ -

لخـوفِ المـوت قلبُـك فـي ارتعـادٍ ولـونُـك حـالَ مـنْ خـوفِ الشَّتـاتِ
فنفسَـك أُحْكُمَـنْ وازدد نضـوجـاً فـإنْ تفعـل تعـشْ بعـد الممـاتِ

- ٢٦ -

دَع الـــرازيَّ فـــي تفسيـــر آي فـــإنَّ ضميـرنـا نعـم الـدليـلُ
يضـرَّم عقلُنـا والقلـبُ يصلـى بـذا نمـرودُ فسَّـر والخليـلُ

- ٢٧ -

فـأبلـغْ شـاعـر الألـوانِ عنِّـي : لهيبُـك كـالشَّقـائـق لا يَضيـرُ
فنفسَـك لا تُـذيـب بنـارِ قلـبٍ ولا ليـلاً لمحـزونٍ تنيـرُ
جميلُـك أو قبيحُـك لا أراه جَعلـتَ عيـاره ربحـاً وخُسَـرا
بهـذا الحفْـلِ مـن مثلـي وحيـداً ؟ أرى الـدُّنيـا بعيـنٍ فـيَّ أخـرى

---

(١) كأس جمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية كان يرى فيها العالم .

- ٢٨ -

دع الشُّطآن لا تركنْ إليها ... ضعيفٌ عندها جَرسُ الحياةِ
عليك البحرَ صارع فيه موجاً ... حياةُ الخلدِ في نَصَبٍ تُواتي

- ٢٩ -

أتكثرُ لي حديثاً عن حياةٍ ... ولستُ أراكَ فيها بالحقيقِ ؟
سَكِرْتُ بلذَّة التَّسيار حتَّى ... جعلتُ منازلي مِيْلَ الطَّريقِ[1]

- ٣٠ -

مَرَرْتُ بزهرةٍ ذبلتْ فقالتْ ... وجُودي مثلُ ما طارَ الشرارُ
يذوبُ لِمحْنَةِ النقاشِ قلبِي ... فليسَ لنقشِ ليقته قرار

- ٣١ -

أرى الدُّنيا على سعةٍ كحوتٍ ... من الأيام في بحرٍ عميقِ
فقلبَك أبصرنْ واعجب لبحرٍ ... منَ الأيام في كاسٍ غريق

- ٣٢ -

أنا في المرح حِدّيثُ الطيورِ ... ومقوَلُ كلِّ بُرعومٍ صَغير
فأسْلَمَ للصَّبا تُربي بموتي ... فما لي غيرُ طوفٍ بالزُّهور

- ٣٣ -

أوادي الورد يُبدي كلَّ شيءٍ ... فما سرُّ الشَّقائق في لهيبِ ؟
بأعيننا الرُّبى أمواجُ لونٍ ... فكيف تُرى بعينِ العندليبِ

- ٣٤ -

دماغي يَعشق الأصنام كفراً ... يربُّها ويعبد كلَّ حين
فأبصر في فؤادي نارَ عشقٍ ... بعيدٌ أنت مِن سنَني ودِيني

---

(١) يعني : أن كلَّ منزل يبلغه يعدُّه علامة على الطريق لا غاية . والميل الحجر يبين المسافة .

- ٣٥ -

عـوالـمُ مِـنْ نجـومٍ لا تُحَـدُّ ... يطيـر الفكـر فيهـا لا يُـردُّ
ولكـن فـي خفـايـا القلـب يُلفـى ... لمـا يحتـويـه الحـدُّ ، حـدُّ

- ٣٦ -

بسلسلـةِ القضـاء ربطـتَ رجـلاً ... وفـي سعـةِ العـوالـم ضقْـتَ حـالا
فقُـم إن كنـتَ فـي ريـبٍ وحـاول ... تجـدْ للـرَّجـل فـي الـدنيـا مجـالا

- ٣٧ -

بضـربـك قـد علـتْ أنغـامُ رُوحـي ... أفـي روحـي وخـارجَهـا تكـون ؟
بـرقـك خـامـدٌ وبـك اشتعـالـي ... بـلا كيـفٍ فكيـف تُـرى بـدونـي

- ٣٨ -

أيـا قلبـي ! أيـا قلبـي ! أيـا قلبـي ! ... أيـا فُلْكـي ! ويـا بـرِّي وبحـري !
قَطَـرْتَ علـى تُـرابـي كـالنَّـدى أمْ ... نبـتَّ بتُـربتـي بُـرعـوم زهـرِ ؟

- ٣٩ -

أتسـأل مـن أنـا مـن أيـن جيـت ... حبيـتُ بمـا علـى نفسـي طُـويـتُ
بهـذا البحـر مثـلَ المـوج أسـري ... إذا لـم أطـو فـي نفسـي فنيـتُ

- ٤٠ -

عليـك السَّيْـرَ لا تـرغـب مَقيـلا ... وسـرْ كـالشَّمـس لا تَـرقُـبْ دليـلا
وهَـبْ لـلآخـريـنَ متـاعَ عقـلٍ ... ونـارَ العِشْـق فـاحْفَظْهـا بَـديـلا

- ٤١ -

ألا يـا عشـقُ ! يـا رمـزَ الفـؤاد ! ... ويا زرعي النضير ! ويا حصادي !
تقـادمَ أهـلُ هـذا التُّـرب فـاخـرجْ ... بـآدم مُحـدَثٍ مـن ذا الـرَّمـاد

- ٤٢ -

يـرى قلـبُ الشُّجـاع الليـث وهمـاً ... وفـي قلـب الجبـان الظَّبـي بَبْـرُ
فـإن تجبُـنْ رأيـت المـوجَ وحشـاً ... وإنْ تشجُـعْ فـإنَّ البَحْـرَ بـرُّ

- ٤٣ -

أخمـراً خلْتنـي أمْ كـأسَ خمـرِ ودُرّاً خلتنـي أم كيـس درّ
أرانـي غيـر روحـي وهـي غيـري متـى أنظـر إلـى مكنـون سـرّي

- ٤٤ -

تقـول : بطيـرنـا عَلِقـتْ قيـودُ وفـي شَـركِ الجسـوم لهـا همـودُ
ومعنـى الـرُّوح بـالأجسـام يعلـو مِسـنٌّ سيـوفنـا هـذي الغُمـودُ

- ٤٥ -

فكيـف بقلبنـا وُلِـدَ الـزَّجـاءُ وكيـف سـراجُ منـزلنـا يُضـاء
ومـن فـي العيـن يبصـر ؟ مـا يـراه ؟ وكيـفَ حـوَىٰ النُّهـى طيـنٌ ومـاءُ

- ٤٦ -

لنـا كـون لأزميـلٍ ونحـتٍ يقلِّبـه صبـاحُـك والمسـاءُ
مثـالٌ مـن تُـراب لـم يكمَّـل يسـوِّيـه بمبـرده القضـاءُ

- ٤٧ -

طـريقُـك فـانحتنـه فـي كفـاحٍ طـريـقُ سـواك مسلكُـه عـذابُ
فـإنْ أبـدعـت فـي عمـلٍ فـريّ وإنْ يـك مـأثمـاً فلـك الثـوابُ

- ٤٨ -

دليـلُ القلـب لا يـرضـى نـزولًا ولا يُـرضيـه مـاؤك والتُّـرابُ
فـلا تحسبـه فـي جسـدٍ مقيمـاً فـلا يـرضـى بشـطٍّ ذا العُبـاب

- ٤٩ -

تَخـذْتُ لخلـوتـي طينـي ومـائـي وبُـوعـدَ بيـن أفـلاطٍ وبينـي
فلـم أستجـد يـومـاً عيـن غيـري ولـم أر عـالمـي إلَّا بعينـي

- ٥٠ -

تـرى رمـز الحيـاة بكـل كـمٍّ مجـازٌ فيـه يـا قلبـي الحقيقـه
بتُـربٍ مظلـمٍ ينمـو ولكـن لـه عيـنٌ إلـى شمـس الخليقـه

- ٥١ -

يُضيء على المروج وكلِّ سَهْبٍ وكاسُ الورد فيه نورُ حُبّ
وما تَغْشَى الورى ظلماتُ ليلٍ فحرقته السِّراج لكلِّ قلب

- ٥٢ -

وبالعدَمِ استزابت ثمَّ راغت فحلَّت قلبَ آدم للثَّواء

- ٥٣ -

بقلبي سرُّ جُثمانٍ وروحٍ فلا فزع إذا أجلي أتاني
فإمَّا غاب عن عينيَّ كونٌ فباقٍ ألفُ كونٍ في جناني

- ٥٤ -

مزاجَ الزَّهر أعرف في يقينٍ وريحُ الورد في خَلَد الغصونِ
وحبَّبني إلى الأطيار أنِّي عَرَفْتُ لها مقاماتِ اللُّحونِ

- ٥٥ -

نظامُ الكون منْ شعر الرَّجاء له الأوتار مِنْ وتَر الرَّجاء
بعيني كلُّ ما يمضي ويأتي هو اللَّمحاتُ مِنْ دهر الرَّجاء

- ٥٦ -

يهيمُ القلبُ في أثر الرَّجاءِ وصدري من ضجيجٍ في عناءِ
فلا تطمعْ جليسي ! في حديثي فإني مِنْ فُؤادي في نداءِ

- ٥٧ -

أرى الحكماءَ تحطمُ كلَّ شكلٍ ومِنْ هذا الوجودِ بسومنات[1]
يريدون الملائك في طلابٍ وما ظفروا بآدم في الحياة

- ٥٨ -

جلستُ مع الطبيعة ألف عامٍ وُصِلْتُ بها وعن نفسي فُصِمْتُ
قُصارى سيرتي في ذاك أن قد نحتُّ ، وقد عبدتُ ، وقد حطَمْتُ

---

(١) معبد أصنام معروف في الهند .

- ٥٩ -

بنفسي جلوةُ الأفكارِ ، ما هذا ؟ وحولي محشر الأسرارِ ، ما هذا ؟
أبِن لي يا حكيمُ : يقيم جسمي وروحي دائم التَّسيار . ما هذا ؟

- ٦٠ -

بكيفك إنْ تُحِطْ خُبراً وكمِّك يفضْ مِنْ قطرةٍ لك فيض يَمِّك
فيا قلبي لم استجداءُ شمسٍ ؟ من الأنفاس نوِّرْ ليلَ غمِّك

- ٦١ -

أفق ما القلبُ بالأنفاس يَحيا ولا هُو رهنُ ما يبقى ويفنى
أخا الأوهامِ لا ترهَبْ حِماماً فإنْ نَفسٌ مضى فالقلبُ يبقَى

- ٦٢ -

إلى أهل التَّصوُّف والصفاء رجالُ اللهِ أربابِ الضياء :
أنا عبدُ الهمَّة عبد نفس بنورِ النَّفس للخلَّاق راء

- ٦٣ -

بعُدَّة حاننا الغبرا غُبار ودورةُ كأسِنا الفُلكُ المُدار
حديثُ جهادنا مُضنٍ طويل ودُنيانا لقصَّتنا اختصار

- ٦٤ -

وما علَّقتُ بالأنغام قلبي وفي نغَم الحياة أنا الخبيرُ
وقد غنَّيتُ في الأغصان حتَّى تَصيحَ الطَّيرُ : من ذا ؟ يا زهورُ !

- ٦٥ -

أثرتُ بنغمتي كلَّ النوادي ومن شرَرِ الحياةِ جَعلتُ زادِي
أضاء القلبُ من عقلي ولكنْ جعلتُ عيار عقلي في فؤادي

- ٦٦ -

رددتُ العُجم فتياناً بزمْري وراجَ متاعُهُمْ منْ بعد خُسرِ
وكانوا هائمين بكلِّ وادِ وقافلةً نَظَمْتُهُم بشعري

- ٦٧ -

بـروحِ العُجْـمِ مِـنْ نَغَمـي شـرار قـرعـتُ لهـم بـأجـراسـي فسـارُوا
وعـاليـتُ الحـداء لهـم كعُـرْفـي[1] تبـاطـأ محمـلٌ ونـأتْ ديـارُ

- ٦٨ -

نفثـتُ النَّـار مِـنْ روحـي نفثـتُ وصـدرَ الشَّـرق قلبـاً قـد وَهَبْـتُ
وصيَّـر طينَـه لهبـاً نُـواحـي كبـرقٍ فـي سجـايـاه نَفَـذْتُ

- ٦٩ -

بـأغصـانِ الـرَّجـاء جنيـتُ أكـلاً وأفضـى الـدَّهـر بـالسـرِّ المنيـع
أرامـيّ اخـشَ للبستـان ربَّـاً فـإنَّ معـي رِسـالاتِ الـرَّبيـع

- ٧٠ -

بحـار العُجـم ليـس لهـا قـرارُ وفـي أحشـائهـا دُررٌ كبـارُ
ولكـنْ لا أحـبُّ ركـوبَ بحـرٍ إذا لـم يُخـشَ فـي مـوجٍ خطـارُ

- ٧١ -

علـى دُنيـاك تقضـي بـالهـوانِ وسترٌ للمغيَّـب كـلُّ آن
فـأحْكـم يـومَـك المشهـودَ واعلـمْ بـأنَّ غـداً ضميـرٌ فـي الـزمـانِ

- ٧٢ -

كَـرِهْـتَ سيـادةَ الإفـرنـجِ لكـنْ سجُـودُكُ للقبـابِ وللقبـورِ
ألفـت عبـادةَ السَّـادات حتَّـى لتنحـتُ سـادةً لـك مـن صخـورِ

- ٧٣ -

إلام تعيـش فـي رثِّ الإهـاب ؟ إلام تعيـش نمـلاً فـي تـرابِ ؟
فَطِـرْ كـالصَّقـر معتـزمـاً وحلِّـقْ إلامَ أسيـرُ حـبٍّ فـي اليَبَـابِ ؟

---

(١) إشارة إلى بيت عرفي الشيرازي :

نـوارا تلـخ تـرمي زن جـوذوق نغمـه كمـا يـابـى
حدى راتيز ترمى خوان چون محمل راكران بينى

- ٧٤ -

اتخذ في الوردِ والأزهار عشاً ومِنْ طيرِ دروساً في انتحاب
وإنْ ينقصْ قُواك الشيبُ فاؤخُذْ من الدُّنيا نصيباً من شباب

- ٧٥ -

أهابَ بمسمعيَّ تُراب قبرٍ : وتحت الأرض يُمكن أن يُعاشا
له نَفَسٌ وليس لديه روحٌ ذليلٌ في مُرادِ سواه عاشا

- ٧٦ -

سماطي ليسَ فيه ما يروقُ ولا في الكأس لألأتُ الرَّحيق
غزالي يغتذي عُشب المَوامي ولكن صدرُه مسكٌ فتِيق

- ٧٧ -

قُلوبُ المسلمين قبسن ناري ودمعي من عيونهمُ هَتونُ
برُوحي مَحْشر قد غابَ عنهم فلم تر ما رأيتُ لهم عيونُ

- ٧٨ -

أرى للعشقِ تصريفاً عجيباً يقلِّب كيف ما يهوى القلوبا
رماك بأدْمعٍ وسباكَ نفساً وصيَّرني إلى نفسي قريبا

- ٧٩ -

رأيتك لا تزالُ أسير طينٍ إلى تُركٍ وأفغانٍ تُردُّ
أنا بشرٌ بلا لونٍ وريحٍ وللتوران أو للهند بعدُ

- ٨٠ -

أثار الشِّعْرُ في جنبيَّ نارا ورَدَّ التُّربَ في طُرقي شَرارا
حديثَ الحبِّ حاوَلَهُ لساني فزاد السرَّ تبياني سِرارا

- ٨١ -

تولَّى بعدُ عن عقلِ الفنون وأدمىٰ قلبه عِشْقُ الشُّجونِ
فلا تستفتِ إقبالاً لشيءٍ فإنَّ حكيمنا رَهْنُ الجنونِ

* * *

القسم الثاني

أفكـــار

الوردةُ الأولى

لا أرى في المُروجِ لي من قريع ... أنـا أُولـى زهـورِ هـذا الـرَّبيـع
أبتغـي فـي الغـديـر صـورة نفْسـي ... لأرى وجـهَ مـؤنـسٍ لـي سميـع
فـي سُطـوري رسـالـةٌ بيـراع ... خـطَّ سطـر الحيـاة فـي تـرصيـع
أمس قلبي ، وعبرةُ اليوم عيني ، ... وغـدي مُنْيتـي وكـلُّ بـديـع
وأنـا النَّجـمُ خلَّفتـه الثُّـريّـا ... نَسَـجَ التُّـربُ ثـوبَ وردٍ عليَّـا

* * *

دعاء

أيـا مـالئـاً كـاسـي بحـانـةِ فِطـرتـي ... أذبْ طينَ كأسي من حرارة خمرتي
وصيِّـرْ أنيني ثـروة العشـق واجْعَلَـنْ ... تـرابـاً بسينـائـي تسعِّـر شُعلـة
إذا مـتُّ فـاجعلني سِرَاجَ شقيقةٍ[1] ... وبـالبيـدِ أحـرقني وزدْ نـار وسْمتي

* * *

رائحةُ الورد

وحوراءَ في الخُلد ضاقتْ فقالتْ : ... « جَهلنـا بمـا تحتنـا مِـنْ جهـاتِ
يحيِّـرُ عقلـي نهـارٌ وليـلٌ ... ومـا قيـل عـن مَـوْلـدٍ أو ممـات
غَـدَتْ ريـحَ وردٍ وذرَّتْ بغُصْـنٍ ... فحلَّـت بعـالـمِ مـاضٍ وآت

---

(١) يعني : زهرةً من الشقائق .

وتَفتَّـــح عينـــاً وتَبَسَّـــم كمّـــاً ... وبعـد نمـاءٍ هَـوَتْ فـي شتـات
لهـذي الطليقـة لـم تبـق ذكـرى ... سـوى آهـةٍ سمَّـت بـالشَّـذاةِ[1]

* * *

نشيد الوقت

قـد أحـاطَ الشَّمسَ حِجري ... وحـوى الأنجـم صَـدْري
أنـــا لا شـــيء ولكـــنْ ... فيكُـــمُ روحـــيَ تســـري
أنـــا فـــي دُورٍ وقفـــرِ ... أنـــا فـــي كـــوخٍ وقصـــرِ
أنـــــــا داءٌ ودواءٌ ... وأنـــا عيْشـــةٌ يُسْـــر
أنـــا سيـــفُ الـــدَّوران[2] ... أنـــا عَيـــن الحيـــوَان[3]
إنَّ جنكيـــــزَ وتيمـــــو ... رَ قليـــلٌ مـــن غُبـــاري
ثـــورةُ الإفـــرنـــج فيهـــا ... نَفَثَـــاتٌ مـــنْ شـــراري
إنَّمـــا الإنســـان والـــدُّنيـــا ... نُقـــوشـــي وابتكـــاري
ودمـــــاءٌ مِـــنْ قلـــوبٍ ... فـــي ربيعـــي كـــالبُهـــار
أنـــا لَفْـــحُ النِّيـــرانِ ... أنـــا رَوْض الـــرِّضـــوان
أنـــا سيَّـــارٌ مقيـــمٌ ... إنَّ هـــذا الأمـــرَ إمـــرُ
إنَّ فـــي خمـــرةِ يـــومـــي ... مـــنْ غـــدٍ يظهـــر سِـــرُّ
ألـفُ كـونٍ ، فـانظُـرَنْهـا ... فـــي ضميـــري تستســـرُّ
ونجـــومٌ فـــي حبـــاك ... وقبـــابٌ فـــيّ خُضـــرُ
أنـــا ثـــوبُ الإنســـان ... أنـــا ســـرُّ الـــرحمـــن

---

(١) الشذاة : الرائحة .
(٢) دوران الفلك .
(٣) ينبوع الحياة ، وعين الحياة في الأساطير شرب منها الخضر ، فلم يمت .

سِـرِّي التَّقـديـرُ والتـد بيـر مـنْ سحـرِ فنـونِـكَ
أنـت مجنـونٌ بليلـى أنـا صحـراءُ جنـونـك
أنـا كـالـرُّوح بَـرِّي مـن خيـالات ظنـونـك
أنـت فـي جـوفـي سـرٌّ وأنـا سـرُّ شُـؤونـك
أنـا حـاد أنـت نُـزْلُ أنـا حَقْـلٌ أنـت حـاصـل
أنـت فيَّـاضٌ بلحـنٍ أنـت نـار فـي المحـافـل
يـا أسيـر الطِّيـن فكِّـر أنـت عـنْ قلبـكَ غـافـل
انظـرنْـه مـلءَ كـأسٍ وهـو بحـرٌ دون سـاحـل
إنَّ مـوجـاً فيـك يعلـو منـه يبـدو طـوفـانـي

***

الرَّبيع

- ١ -

هلـمَّ فـإنَّ سحـاب الـربيـع يخيِّـم فـوق الـرُّبـى والـوهـاد
وشَـدْو العَنـادلِ فـي كـلِّ وادِ
ودُرَّاجُـه والقطـاء فـي تهـادي
على حافة النَّهر جذْلى شوادي
شقيـقٌ وورْدٌ ضحـوكٌ يُنـادي
فطـرفـك سـرِّح بهـذا المُـراد
هلـمَّ فـإنَّ سحـاب الـربيـع يخيِّـمُ فـوق الـرُّبـى والـوِهـاد

- ٢ -

هلـمَّ فمـلءُ الـرُّبـى والسُّهـولِ قـوافـلُ أزهـاره والـوُرودِ
نسيـمُ الـرَّبيـع علـى كـلِّ عـودِ
وللطَّيـر إبـداعُهـا فـي النشيـدِ

ومزَّقتِ الجَيْبَ حُمْرُ الخدود[1]
جنى الحُسنُ ناشىء زهرٍ نَضيدِ
وللعِشْق إبداعُ غمٍّ جديدِ
هلمَّ فملء الرُّبى والسهولِ قَوافلُ أزهارِه والورودِ

- ٣ -

صفيرُ البلابلِ ملءُ الجِواء وصوتُ الصَّلاصلِ ملءُ النَّسيم[2]
دمُ المرج في جوفه كالحَميمْ
فيا قاعداً صامتاً لا يريمْ !
دعِ الصمت واتركْ وَقار الحليمْ
وخَمْرَ المعاني اشربَنْ يا سقيمْ !
تدثَّر بوردٍ وغنَّ النديمْ
صفيرُ البلابلِ ملءُ الجِواء وصوتُ الصَّلاصل ملءُ النَّسيم

- ٤ -

دعِ الدُّورَ واطلبْ فسيح البراري وانظر إلى صفحاتِ الجمال
على حافة الماء دونَ ملالِ
تأمَّلْ تَرَقْرُقَ ماءٍ زُلالِ
وحدِّقْ إلى نَرجسٍ ذي دَلالِ
بُنَيَّاتُ نيسان ذاتُ اختيالِ
وقَبِّل عيوناً لها كاللآلي
دعِ الدورَ واطلبْ فسيح البراري وانظر إلى صفحات الجمال

- ٥ -

وعَيْنَ البصيرة فانظر بها أيا غافلاً عن عيان الخَلْقِ !

---

(١) شقائق النعمان .
(٢) الصلصل : الفاختة ، أو طائر يشبهها ، والكلمة نفسها في شعر إقبال .

شقيـقٌ بـدا حَلَقـاً فـي حلَـقْ
بـأعطـافـه لهـبٌ قـد عَلِـق
علـى كبـدٍ فيـه ذات حـرق
يلـوح نـدىً مـن دمـوعِ الفَلَـق
فحـدِّق إلـى أنجـم فـي شفـق[1]
وعيـنَ البصيـرة فـانظـرْ بهـا أيـا غـافـلاً عـن عيـان الخَلْـقِ

- ٦ -

ثـرى المـرجِ صـرَّح فـي هَيْجـه بمـا أضمـرتْ مُهَـجُ الكـائنـاتِ
فَنـاءُ الصفـات وكـونُ الصفـاتِ
ومـا أبـدتِ الـذَّات مـنْ جَلـواتِ
ومـا خِلْتَـهُ مـن معـانـي الحيـاةِ
ومـا خِلْتَـه مـن معـانـي الممـاتِ
فليـس لـه هـاهنـا مـنْ ثبـاتِ
ثـرى المـرجِ صـرَّح فـي هَيْجِـه بمـا أضمـرتْ مهـجُ الكـائنـاتِ

* * *

الحياةُ الخالدة

لا تظـنَّ الخمَّـارَ وافـى ختـامـاً كَمْ مِنَ الرَّاح في عُروقِ الكروم !
يجمُـل المـرحُ لا بثـوبِ حيـاةٍ مـزَّقْتـه النَّسيـمُ كـالبُـرعـوم
مـنْ يُحـطْ بـالحيـاة لـم يـرض قلبـاً لـم تَخِـزْه المنـى بشـوكٍ أليـمِ
مُحكمـاً كـالجبـال عـشْ ، لا ضعيفـاً واهـنَ النَّـار طـائشـاً كـالهشيـم

* * *

---

(١) يشبه النَّدى على الشقيق بالأنجم في الشفق .

أفكار النجوم

سَمِعْتُ بكوكبٍ لأخيه يشكو : لنا بحرٌ وليس يَلوحُ ساحلُ
خُلقنا للمسير بلا وقوفٍ فليس لركبنا أبداً مَنازلُ

* * *

فإنْ تمض النجوم كما نراها فما جدوى العناء ؟ وما نُفيدُ ؟
بأشراك الزَّمان لنا إسارٌ سعيدٌ مَنْ يُجانبه الوُجود

* * *

لَهذا العبءُ محمله شديدُ فليتَ وجودَنا عدمٌ أبيدُ
كرهتُ القبَّة الزرقاء أوجاً حضيضُ التُّربِ خيرٌ لو نريدُ[1]

* * *

فطوبى لأبي آدم في طعانٍ قد استولى على طرْف الزَّمان
خليقٌ بالحياة له قوامٌ يُجدَّد أو يُخلَّق كلَّ آن

* * *

الحياة

بكى في الظَّلام سحابُ الرَّبيع فقال : الحياة بكاءٌ مديدْ
فقال له البرُّ في ومضه : هل الضِّحْكُ في لمحة ؟ لا تزيدْ
فمن أبلغَ الروضَ هذا الحديث فصَار حوارَ النَّدى والورودْ ؟

* * *

---

(١) لو كان لنا إرادة واختيار .

محاورة العلم والعِشْق

العلم :

أنـا سـرُّ الكـواكـب والجهـات ... وفـي قيـدي ثـوى مـاضٍ وآت
وعينـي حـدَّقـت فيمـا أمـامـي ... ومـا نظـري وراء السَّـابحـات ؟
وكـم نغَّمـتُ فـي عُـودي وبـوقـي ... وأسـراري عـرَّضْـتُ بكـلِّ سـوْق

العشق :

بسحـركَ سُجِّـرت هـذي البحـارُ ... ومـلءُ الجـوِّ سَمُّـك والشـرار
وكنـتَ لـي الصـديـق فكنـت نـوراً ... ونـورك مـذ هَجَـرتَ حمـاي نـارُ
وُلـدتُ الأمـس فـي حـرم الـرحيـم ... وصـرْتُ اليـوم فـي قيـد الـرجيـم
هلـمَّ فَـرُدَّ روضـاً ذا اليبـابـا ... ورُدَّ مَشيْـبَ دُنيـانَـا شَبـابـا
هلُـمَّ بـذرّةٍ مِـنْ نـار قلبـي ... أقـم فـي الأرض فـردوسـاً عُجابـا
كـلانـا الـدَّهـرَ خـلٌّ لا يجـورُ ... للحـنٍ واحـدٍ بـمّ و زيـرْ

* * *

غناءُ النجوم

وجـودُنـا نظـامُنـا ... وسُكْـرنـا انسجـامُنـا
فـي دَوْرنـا دوامُنـا ... لا يُـرتجـى مقـامُنـا
فـي فلـكٍ مـرامنـا ... ننظـر سـائـراتِ
وجلـوةَ الشهـودِ ... ومظهـرَ البـدود[1]

---

(١) جمع بد ، وهو الصنم ، معرب بت .

ومعـــرَكَ الـــوجـــودِ والعـــدْمِ والمـــوجـــودِ
والغَيـــب والمشهـــودِ ننظـــر ســـائـــراتِ
وحَلبـــةَ الطِّعـــانِ ونشـــأةَ الشُّجعـــانِ
وغِيـــرَ التيجـــانِ وذِلَّـــةَ السُّلطـــانِ
ولعـــبَ الـــزَّمـــانِ ننظـــر ســـائـــراتِ
مضـــى زمـــان المـــولـــى والعبـــدُ قـــد تـــولَّـــى
سِكنـــدرُ قـــد ولَّـــى وقيصـــرُ قـــد ذلَّا
والـــوثـــنُ اضْمَحـــلاَّ ننظـــر ســـائـــراتِ
والصمـــتَ والصيـــاحـــا والـــذُّلَّ والكفـــاحـــا
والخنْـــعَ والطمـــاحـــا وتـــارةً أفـــراحـــا
وتـــارة أتـــراحـــا ننظـــر ســـائـــرات
عقلُـــك فـــي عَقـــدٍ وَحـــلّ مِنْ كمْ وكيف في شُغُل
مثـــل غـــزال قـــد عُقِـــل مضطـــربٌ ومضمحـــلّ
ونحـــنُ فـــي العليـــا نحـــلّ ننظـــر ســـائـــراتِ

***

مـــا السـرُّ مـــا الظهـــور ؟ ومـــا الـدُّجـى مـا النُّـورُ ؟
مـــا القلـبُ مـــا الشعـورُ ؟ مـــا فطـــرةٌ ضجـــورُ ؟
مـــا الغيـــبُ والحضـــورُ ؟ ننظـــر ســـائـــراتِ
كُفـــركَ عنـــدنـــا أمـــمُ حـــولـــك عنـــدنـــا لمـــمُ
يـــا مـــن بصـــدرِه خضـــمُ قنعـــتَ بـــالظِّـــل انسجـــمْ
نحـــنُ بعـــالـــمٍ نهـــمُّ ننظـــرُ ســـائـــراتِ

***

نسيمُ الصُّبح

أجـــيء مـــن لـــجِّ بَحـــرِ ... ومـــن قـــلال الجبـــالِ
مُسيَّـــراً لســـت أدري ... مـــن أيـــن شُـــدَّت رحـــالـــي
أُزجـــي لِطـــائـــر غـــمٍّ ... بشـــرى ربيـــعِ الجمـــالِ
ونـــاثـــراً تحـــت عُـــشٍّ ... نِثَـــارَ زَهـــرٍ غَـــوالِ
بخُضـــرة أتـــرَدَّى ... وبـــالشقيـــق اتصـــالـــي
حتَّـــى يهـــجَّ فيـــه ... لـــوناً وريحـــاً وصـــالـــي
يمـــسُّ أوراق وردٍ ... تلطُّفـــي واحتيـــالـــي
فـــلا تميـــلُ غصـــونٌ ... مـــن طـــوفـــيَ المتـــوالـــي
وشـــاعـــرٍ هيَّجَتْـــهُ ... همـــومُ عِشْـــقٍ لقـــالِ
مـــزجـــتْ أنفـــاس صـــدري ... بلحنـــه والمقـــالِ

***

نصيحة صقر لفرخه

تعلَّـــم بنـــيَّ بـــأنَّ الصُّقـــوْ ... لهـــا قلـــبُ ليـــثٍ وجســـمٌ صغيـــر
فكـــنْ مُحْكَـــم الـــرأي شهمـــاً جســـورا ... علـــيَّ السجـــايـــا أبيـــاً غيـــورا
بُغـــاث الطيـــور اهجـــرنهـــا بعيـــدا ... ودعهـــا إذا لـــم تُـــردْ أن تصيـــدا
فتلـــكَ الـــرعـــاديـــدُ نســـلُ اللئـــام ... تـــدسُّ منـــاقيـــرهـــا فـــي الـــرَّغـــامْ
أرى البـــازَ صيـــداً لمـــا اصطـــاده ... إذا قلَّـــد الصيـــد مـــا اعتـــاده[1]
فكـــم بـــاشـــقٍ قـــد أتـــاه النَّـــوى ... بصحبـــةِ لقَّـــاطِ حـــبٌّ هـــوى

---

(١) يعني : إنْ قلَّد الصقرُ الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيداً لها مغلوباً على أمره .

فنفسكَ فاحفظْ وعِشْ في جذل ... جريئاً متيناً قويَّ العضل
ودَعْ للدَّراريج ليـنَ الجسد[1] ... وكن مخلباً كالمُدى أو أحدّ
متاعُ الحياة ، تعلَّم ، جهادُ ... وصبرٌ على محنةٍ واجتهادُ
نقول لفرخِ عقابٍ عتيق : ... « بريق الدِّماء يفوق العقيق »
ولا تبغ سِرْباً كَسِرْب الغنم ... توحَّدْ كقومك منذ القدم
سمعتُ وصاة الصّقور العتاق ... بألا نقيم بظلٍّ وساق
فليس لنا في رياضٍ مجال ... فسيحُ الفيافي لنا والجبال
ولقطك حبّاً بأرض خطاء ... حبانا الإله عنانَ السَّماء
فأمَّا خطىً في التُّراب النجيب[2] ... فأشرف منه حمام ريب
فإنَّ بساطَ البزاة الحجر ... يحدُّ مخالبهنَّ الصَّخر
نماك الأوابدُ زرق العيون ... كأنك عنقاء جوٍّ متين
أصيلٌ أبيٌّ بيوم الخطر ... كفيلٌ بإنسان عين النَّمر
جناحُك منْ سَطَوات البروق ... من الشُّهب فيك كريمُ العروق[3]
فَطِرْ في السموات لا تخشَ خطبا ... وكلْ ما أصبتَ يبساً ورطبا
ولا تقبلنَّ طُعمةً من أحد ... وكنْ راشداً واستمعْ للرَّشد

***

سوس الكتب

(الأرضة)

سمعتُ : بمكتبي ليلةً ... يُنادي الفراشة سُوسُ الكتاب

---

(١) دراريج : جمع دراج وهو طائر معروف .
(٢) يعني : الصقر ونحوه ، وكلمة النجيب في الأصل .
(٣) الشهب : أي البيض ، وفيها تورية بشهب السماء .

يقـول مـررتُ بكتْـب ابـن سينـا ونقَّبْـتُ فـي كتُـبِ الفَـاريـابـي
ولـم أدر حكمـة هـذي الحيـاة وما زلت من ظُلمتي في حجابِ
تُجيـبُ الفـراشـةُ فـي حُـرقـةٍ : أرى نكتـةً لا تُـرى فـي كتـابِ
رأيـتُ الكفـاحَ يُعـدُّ الحيـاه رأيـت الكفـاحَ يُمـدُّ الحيـاه

***

الشَّقيقة[1]

نـارٌ بِصَـدْرِ عِشْـقٍ فـي أزلٍ أنيـرُ
شمسـاً أُرى وفـي كـلّ ذرَّة أثـور
شـرارَهـا مـن نـاري السمـاءُ تستعيـر
حللـتُ صَـدْرَ مَـرجٍ كنفـسِ أدورُ
وكـالنَّـدى مـن تُـربـيَ غُصـنٌ بـدا نضيـرُ
قـال : قفـي قليـلاً ولهبـي يغـورُ
ومـا ثـواء قلـبٍ مـن ألَـمٍ يسيـرُ ؟
ثـوى بضيـق غُصـنٍ فـي قلـقٍ يفـور
حتَّـى كُسيـتُ لـوناً وعبـقَ العبيـر
فـراشـةٌ فـي قلـقٍ تطيـرُ كـلَّ نـاحيـه
علـى اللَّهيـب رفـرفَـتْ حتَّـى كـأنَّـه هيَـه
أنـا وأنـت قـاليـه[2]
أو كـوكـبٌ فـي صـدره مُستتـرُ الضِّيـاءِ

---

(١) واحدة الشقائق ، التي تسمى شقائق النعمان ، وهي في الشعر مثال لحرقة القلب . انظر المقدمة .

(٢) يعني : تحبُّ الوحدة وتكره التَّعدد ؛ الذي يقال فيه : أنا وأنت .

وقـــد تـــدلّـــى هـــابطـــاً فـــي الأرضِ لاجتـــلاءِ
مـــن فلـــك السَّمـــاءِ
أو قمـــر مصغّـــرٌ بجلـــوةٍ تمـــامُ
فمنّـــةُ الشمـــس علـــى شُعـــاعـــه حـــرامُ
لـــم يحـــوه مُقـــام
يـــا لـــك مـــن يـــراعـــة تصـــوَّرت مـــن نـــورِ
مَسيـــرهـــا سِلْسِلَـ ـــةُ الغيـــابِ والحضـــورِ
وسنَّـــة الظهـــور
يـــا مشعـــلاً للطَّيـــر فـــي معتكـــرِ الظَّـــلام
مـــا حُـــرقـــة أحسستهـــا فـــأنـــت فـــي هُيـــام ؟
حـــرارةُ الإقـــدام
نحـــن ـ وقـــد نبتنـــا مثلـــك مـــن تـــراب ـ
نجهـــل فـــي اضطـــرابِ نبصـــر فـــي اضطـــراب
نُخفـــق فـــي الطِّـــلاب
أقـــولُ قـــول واعٍ مجـــرِّبٍ شفيـــق :
لا تسعيَـــنْ لنُـــزْلٍ وامـــضِ علـــى الطَّـــريـــق
وارضَ بـــذا التـــوفيـــقِ

***

الحقيقة

تقـول لبطـةٍ صَحبـت عُقـاب : أرى مـا أدركـتْ عينـي سـرابـا
أجـابتهـا محـاورةً بحـق ولكنـي أرى مـاءً عُبـابـا
فقـال الحـوتُ فـي لُـجٍّ عميـق : هنـا شـيءٌ ويضطـرب اضطـرابـا

***

حداء

نغمةُ حادي الحجاز

يـــا نـــاقتـــي الخطَّـــارهْ
وظبيتـــــي المعطـــــارهْ
وعُـــدَّتـــي والشَّـــاره
والمـــــالُ والتجـــــارهْ
يـــا دولتـــي السيـــارهْ !
حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلنـــا قـــريـــبُ
مطـــربـــةُ الـــرُّغـــاء
جميلـــــةُ الـــــرُّواء
محســـــودةُ الحسنـــــاء
وغَيـــــرةُ الحـــــوراء
بُنيَّـــــةَ الصَّحـــــراء !
حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلنـــا قـــريـــبُ
كـم غُصتِ فـي السَّراب
فـــي وقـــدة اليبـــاب
وسـرتِ لـم تهـابـي
فـي اللَّيـل كـالشُّهـاب
والنَّـومُ عنـك نـائـي
حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب
قطعـــةُ غيـــمٍ غـــادي
سفينـــــةُ الـــــروَّاد
كـالخضـر فـي البـوادي

تمضيـــن فـــي ســـداد
فلـــذةَ قلـــب الحـــادي !
حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب
هُيـــامـــكِ الـــزِّمـــام
وسَيـــــركِ الأنغـــــام
يتعبُـــــك المُقـــــام
لا الجـــــوع والأوام
والسَّفـــــر المُـــــدام
حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب
ممسيـــةٌ فـــي اليمـــنِ
مصبحـــةٌ فـــي قَـــرَنِ
تـــريـــنَ حُـــزنَ الـــوطـــنِ
كـــالخـــزِّ تحـــت الثَّفـــنِ
إيـــه غـــزالَ الخُتَـــنِ !
حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب
بـــدر السمـــاء نَعســـا
خلـــف التِّـــلال خَنســـا
والصُّبـــحُ قـــد تنفَّســـا
مـــزَّق هـــذا الغلَســـا
والـــريـــح تـــزجـــي نفســـا
حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب
لحنـــي دواءُ السَّقـــم
والـــروحُ مـــلءُ نَغمـــي
يحـــدو الـــركـــاب كَلِمـــي
مـــنْ جَـــارحٍ وبلســـم

هلـــمَّ بنـــتَ الحـــرمِ !
حُثِّـــي الخطـــى قليـــلاً منـــزلُنـــا قـــريـــب

* * *

بين الله والإنسان

خَلَقْـــتُ الأنـــام لطيـــنٍ ومـــاء خلقـــتُ تتـــاراً وزنجـــاً وفُـــرسـا
خلقـتُ مـن التُّـرب هـذا الحـديـد وسهمـاً خلقـتُ وسَيفـاً وتُـرسـا
وفـأسـاً خلقـتَ لجـذعٍ وغُصـنِ وسجنـاً صنعـتَ لطيـر مغنِّـي

الإنسان :

خلقـتَ الظَّـلام فصُغـتُ السِّـراج وطينـاً خلقـتَ فصُغـتُ الكـؤوسـا
خلقـتَ جبـالاً وبيـداً ومـرجـاً خلقـتُ حـدائقهـا والغـروسـا
أنـا مـنْ حجـارٍ صنعـتُ مـرايـا أنـا مِـنْ سمـومٍ صنعـت دوايـا

* * *

اليراعة

تَقـولُ يـراعـةٌ : لا تحسبنِّـي كنَمـلِ السُّـوء يـألمنـي رفيقـي
ولا أعشـو إلـى نيـران غيـري كمـا يهفـو الفـراش علـى الحَريـقِ
إذا حلَـك الظـلامُ كعيـن ظبـيٍ أنـرتُ بنـورِ أضـلاعـي طـريقـي

* * *

وَحْدة

قَـدْ قلـتُ للبحـر يـومـاً فـي مـوجـه المتعـالـي

أراك حلـــــف طـــــلابٍ فمـــا تُكـــنُّ ببـــالِ ؟
وكَـــمْ ـَـويـــتَ بصـــدرٍ مـــن لامعـــات الـــلآلـــي
أفيـــكَ مثْلـــيَ صـــدرٌ بجـــوهـــر القلـــبِ حـــالـــي ؟
فصـــدَّ عنِّـــي بجَـــزرٍ ولـــم يـــردَّ ســـؤالـــي
وقلـــتُ للطـــود يـــومـــاً : يـــا خـــاليـــاً مـــنْ عَنـــاء
أنـــال سَمْعَـــكَ صـــوتٌ مـــن زفـــرة وبُكـــاء
إنْ كنـــتَ تحـــوي عقيقـــاً بـــه عـــروقُ دِمـــاء
فـــواسنـــي بحـــديـــثٍ إنِّـــي حليـــفُ شقـــاء
فَصَـــدَّ عنِّـــي صَمـــوتـــاً ولـــم يـــردَّ ســـؤالـــي
جَـــدَدْتُ فـــي السيـــر حتَّـــى أتيْـــتُ بـــدرَ السَّمـــاء
فقُلـــتُ : يـــا نضـــو سيـــرٍ إلـــى متـــى فـــي مَضـــاء
الأرضُ مـــرجُ زهـــورٍ مـــن نـــورِكَ الـــلألاء
أخْلـــفَ نـــورِكَ قلـــبٌ فـــي حـــرقـــةٍ وعنـــاءِ
رأى الكـــواكـــبَ تـــرنـــو فلـــم يـــردَّ ســـؤالـــي
وقُلـــتُ لله ربِّـــي مـــن بعـــد طـــوف البـــريَّـــة :
أمـــا بـــدنيـــاكَ هَـــذي مـــنْ ذرَّة لـــي نجيَّـــة ؟
أكـــلُّ طينـــيَ قلـــبٌ وذي البـــرايـــا خليَّـــة
طـــابـــت مُـــروجٌ ولكـــنْ ليســـت بشـــدوى حـــربـــه
أجـــابنـــي بـــابتسَـــامٍ ولـــم يـــردَّ ســـؤالـــي

***

قطرةُ النَّدى

قـــد قيـــل لـــي تـــدلَّـــي مـــنْ فَلَـــكِ الـــدَّراري
وَاسْتحكمـــي وسيـــرِي للبحـــرِ ذي التَّيَّـــارِ

فـي المـوجِ لا تحـاري
تحـوَّلـي واخْتَـاري
فـي الـدُّرر الكبـارِ
فمـا رضيـتُ بحـراً لصُحبتـي بحـالِ
عفـتُ احتسـاءَ رَاحٍ تَسلُبنـي خـلالـي
مـا ضقْتُ مـن خصـالي
وعشـت فـي اعتـزالِ
قطـرتُ كـاللآلـي
الـورد لـي سـؤول : مـا خطْـبُ طيـر السَّحـرِ
ومـا جهـاتُ النَّظـرِ ؟
ومـا وَرَاء البَصَـرِ ؟
مـا الشَّوْك حول الزَّهـر
مـا نحـن فـي اصطحـاب ؟ مـن نحـنُ يـا ودُودُ ؟
مـا طـائـري المغنِّـي رجَّحـه الأملـود ؟
مـا يقصـدُ الغـرِّيـد ؟
ومـا الصَّبـا تُـريـد ؟
مـا العـالَـمُ العَتيـدُ ؟
فقُلـتُ : المُـروجُ حـر بُ الحيـاة فـي الآفـاق
حَفـلٌ لـهُ نظَـام مـنْ لـذَّة الفـراقِ
الـرُّوحُ مـنْ إشْـراقِ
ونَفسـي أشـواقـي
سـرٌّ مـن الخَـلاَّقِ
مِـنْ فلـكِ هُبُـوطـي مـن طينـةٍ فتقـتِ
مِـنْ لـذَّةِ التَّجلِّـي نمـوتِ إذ أشـرقـتِ

في الغُصْنِ قَدْ خَفَقْتِ
كم حُجُبٍ مزَّقتِ
نفسك قدْ حقَّقتِ

الدَّهرُ في اخضِرار مِنْ دَمْعِنا في السَّحَرِ
وذي الجهات طرَّاً خِداعُنا في النَّظر
بالصَّدر سربُ الزُّهُر[1]
من قَلْبنا كالشَّررِ
ونُورنا في البَصَر

في ثوبِ وردٍ إبرُ مِنْ شوكة تصول
شوكٌ ، أجلْ ، ولكن نادمه الجميل
مِنْ عشقهِ نحيلُ وعنده الخليلُ
في روضهِ أصيل

القَلْبَ أخلينهْ من صُحْبَةِ الدُّهورِ
عينك فافتحَنْهَا لِلْكَوكَبِ المنير
وصحبةِ البصير مثلي هلُمَّ طيري
وفي الفلكِ الكبيرِ

***

العشق

فكريَ قد أجدَّ كلَّ سيرِ وطَافَ بَينَ حرمٍ ودَيْرِ
عدتُ للطلاب في البَرَاري مرتدياً بالنَّقعِ كالإعصارِ

---

(١) الزُّهُر : النُّجوم .

بغيـرِ خضـرٍ أطلُـبُ المنـازل[1] يحمـلُ رحلـي للخيـالِ كـاهـلُ
تطلُـبُ راحـاً كـأسـيَ الحطيـمُ كـالصُّبـح مـن شبـاكـهِ النَّسيـمُ
منطـويـاً كـالمَـوجِ فـي البحـارِ حيـران كـالإعصـار فـي الصّحـاري
عشقُـكَ فَـاضَ بغتـةً بقلبـي وحـلَّ كـلَّ عُقـدةٍ فـي لبِّـي
عـرَّفنـي الـوُجـودَ والفَنـاء وصـار ديـري حَـرمـاً وضَّـاء
علـى حَصيـدي مـرَّ كـالبُـروق[2] عـرَّفنـي لَـذَاذةَ الحـريـقِ
صُعِقـتُ تـوّاً وسُلبـتُ حِسِّـي فُصِلْتُ من نفسيَ مثلَ العَكْسِ[3]
رَفَعـتُ للعَـرْشِ العلـيِّ تُـربـي بـالسـرِّ قَـدْ أفْشَيْتـه لِقَلْبـي
وبلَغـتْ سَفينتـي مُـرسَـاهَـا وفـاضَ قُبحـي رونقـاً وتَـاهَـا
عنـدي حـديـثُ العِشـق لا سِـواه لا أحمـلُ المـلامَ فـي بَلـواهُ
غنيـتُ عَـنْ وَمـضِ العُلـومِ حَسبـي خفقـي ونَـاري ودُمـوعُ الحـبِّ

***

حياتَك فابغِ في الخطر الجليل

غـزالٌ بـثَّ شكـواه غَـزَالا فَقَـال سـأقصُـدُ البلَـدَ الحـرامَـا
أرى الصَّيَّـاد حـولـي كـلَّ حيـنٍ فـلا أستطيـعُ فـي أرضٍ مُقـامـا
أبـدِّل خيفـةَ الصَّيَّـاد أمْنـا وأنفـي الغـمَّ عـن قلبـي المعنَّـىٰ
أجـابَ رفيقُـه أن يـا خَليلـي حَيـاتَـكَ فـابغِ فـي الخَطَـرِ الجَليـل
ونفْسَـكَ فَـاشحـذنْ فـي كـلِّ آنٍ وعش أمضَى من السيف اليمَاني

---

(١) بغير دليل ، كما دل الخضر الإسكندر .

(٢) يكثر في الشعر الفارسي ذكر إحراق البرق البيدر ، ويكني به الصوفية عن قطع العشق علائق الإنسان بالدُّنيا .

(٣) العكس : الصورة . والكلمة نفسها في الأصل .

ففـي الأخطـار لِلْهِمَـمِ اختبـارُ لأرواحٍ وأجسـادٍ عيـارُ

***

الحياة

قـد سـألنـا عـن الحيـاةِ حَكيمـاً قـال : خَمـرٌ يطيـبُ فيهَـا الأمـرُّ
قُلـتُ : بـل دُودةٌ نمـت فـي تُـرابٍ قـال : لا ! بـل سَمَنـدر لا يقـرُّ[1]
قلتُ : والشر طبعها . قال : لا بل خيـرَهـا قـد جَهلـتَ والجَهـلُ شـرُّ
قُلـتُ : مـا شـوقهـا يسيـر لنُـزْلٍ قـال : فـي الشـوقِ منـزل مستسـرُّ
قُلتُ : في الطِّين خَلْقُها قال فانظُر : شقّـت الطيـن حبَّـةٌ فهـي زهْـرُ

***

الحور والشاعر

(معارضة لقصيدة الحور والشاعر لجوته)

الحور :

لا الخمـرُ يـومـاً تطيّبُـكَ ولا إلينـا أنـتَ نـاظـرُ
إنِّـي عَجِبْـتُ لشـاعـرٍ بهـوى الأحبـةِ غيـرِ شـاعـرِ
مِـنْ حُـرِّ أنغـامِ الـرَّجـاء وحـرقـةِ الطَّلـب المثـابـر
نَفـسٌ تـذيـبُ بلـوعـةٍ وتغـزُّلٌ يشجـو المـزاهـرِ
وخلقـتَ بـالألحـان دنيـا كَ العجيبـةَ خَلْـقَ شـاعـرِ
تبـدو لهـا إرَمُ كمـا يبـدو لعيـنٍ فِعْـلُ سـاحـرِ

---

(١) السَّمندر : حيوان خرافي يعيش في النَّار .

الشاعر :

تَخْـدَعَـنْ قلـبَ مسـافـرٍ بـالسِّحْـرِ مـنْ وخَـزات قـاتـلِ
مـا إنْ تحـاكـي لـذَّةً وخـزاتِ شَـوكٍ فـي المجـاهـلِ
مـاذا أقـولُ وفطـرتـي لا تَـرتضـي دَعـة المنـازلِ
قلبـي علـى قلـقٍ كمـا تهفـو الصَّبـا حـولَ الخمـائـلِ
فـإذا نظـرتُ إلـى جميـلٍ رائـعٍ حلـوِ الشَّمـائـلِ
خَفَـقَ الفـؤادُ إلـى الَّـذي يعلـوه حسنـاً فـي المحـافـلِ
فمـنَ الشـرار إلـى النُّجـوم إلـى الشُّمـوس رقـيّ آمـلِ
إنِّـي ليهلكنـي القـرارُ فمـا أعـوجُ علـى المـراحـلِ
وإذا شـربـتُ مـنَ الـرَّبيـع الكـاس تسـري فـي المفـاصـلِ
أشـدو بشعـرٍ آخـرٍ وربيعـي الآتـي أغـازلُ
طلبـي النهـايـةُ فـي الَّـذي لا ينتهـي فيـه المُسـائـلُ
لا صـابـرٌ نَظَـري ولا قلبـي عـن الآمـالِ غـافـلُ
تـودي قلـوبُ العـاشقيـن بـدارة الخلـدِ المُـوَاصـلُ
لا صـوتُ محـزونٍ ولا ألَـم ولا واسٍ يسـائـلُ

***

الحياةُ والعمل

(جواب لنظم هاتنا[1] المسمَّى سؤالات)

يقـول السـاحـل المسكيـنُ : دهـراً حييتُ ولم يَبِنْ لي ما أكون.. ؟

---

(١) هاتنا : شاعر ألماني .

فقال الموج في صخبٍ وسيرٍ : وجودي السَّيرُ والعَدَمُ السُّكون

* * *

الملكُ لله

طارقٌ أحرق السَّفين فقالوا : ليسَ هذا منْ فعله برشيد
غرباءٌ ومن لنا برجوعٍ ذا خطارٌ في الشرع غيرُ سديد
أمسك السَّيفَ طارقُ في ابتسامٍ قائلاً واثقاً بعزمٍ شديد :
مُلكنا اليوم خالصاً كلُّ مُلكٍ إنَّه مُلك ربِّنا المعبود

* * *

النهر[1]

انظر النهر جارياً في هُيامٍ بين خُضر المروج مثل المجرَّه
كان في المهد في السَّحاب نؤوماً شاقه السَّير في مروجٍ وخضره
يبعث اللحنَ جارياً فوق صخرٍ صافي اللَّون في بهاءٍ ونضره
يقصد البحر ذا العبابُ طروبا وعَزوفاً عن كلِّ شيءٍ غريبا
مَنَحتْهُ يدُ الرَّبيع طريقاً من أقاحٍ ونرجسٍ وشقيقِ
يضحك الوردُ إنْ تلبَّث لدينا ويقول البرعوم : قف يا صديقي
وهو قالٍ عرائسَ المرج ماضٍ في الرُّبى والوهادِ غير رفيقِ

---

(١) ترجمة نظم جوته المسمَّى نغمة محمد مع تصرفٍ كبير . وفي هذا النظم الذي كتب قبل « ديوان الغرب » بكثير أحسن الشاعر في بيان تصوير الإسلام للحياة ، وقد أريد بهذا النظم أن يكون جزءاً من قصةٍ إسلامية لم تكمل . وإنما أردنا بهذه الترجمة أن نبين عن رأي لجوته فحسب .

وعـزوفـاً عـن كـلِّ شـيءٍ غـريبـا ... يقصـد البحـرَ ذا العُبـاب طـروبـا
ومئات الأنهار في الحَزْنِ والسَّهل ... تُنـاديـه : يـا فسيـحَ المجـالِ
قَـدْ حمـانـا المسيـرَ قِلّـةُ مـاءٍ ... فـارْحمنَّا من بغي هـذي الـرمـالِ
أفسـحِ الصَّـدر للـرِّيـاح سـريعـاً ... حـامـلاً رفقـةً ضعـاف الحـالِ
يقصـد البحـرَ ذا العبـابُ طـروبـا ... حـامـلاً جـوهـراً كثيـراً عجيبـا
هَـدَرَ النَّهـر جـائـزاً كـلَّ سـدٍّ ... جـاز ضيـق السُّفـوح والـوديـانِ
فـاض سيـلاً علـى رُبـى ووهـادٍ ... جـاز كـلَّ المـروجِ والبلـدان
هـائجـاً زاخـراً سـريعـاً مشـوقـاً ... بجـديـدٍ يمـرُّ كـلَّ زمـان
يقصـد البحـر ذا العُبـاب طـروبـا ... وعـزوفـاً عـن كـلِّ شـيء غـريبـا

***

الجنَّة

وأيـن بجنَّـةٍ لعـب اللَّيـالـي ... وليـس هنـاك مـن فلـكٍ يـدورُ
ولا فيهـا ليـوسـف غـمُّ سجـنٍ ... ولا فيهـا زُليخـا تَسْتجيـرُ
وليْـسَ خَليلُهـا يصلَـى بنـارٍ ... ولا بكليمهـا شـررٌ يَثـور
وليـس لِصَـرصـر فيهـا هُبـوبٌ ... فَـزَوْرَقُهـا علـى أمـنٍ يَسيـرُ
ولا ليَقينهـا « هـل » أو « عسى أن » ... ولا لِـوِصَـالهـا هجـر مـريـرُ
وكيـفَ يلـذُّ عَقـلٌ ذُو ضـلالٍ ... إذا وَضحـت طـريـقٌ لا تَجـورُ
فـلا تَحفـل بكـونٍ فيـه نقـصٌ ... بـه المـولـى وليـس بـه الغَـرورُ

***

العِشْق

العقـلُ يُحـرقُ عـالمـاً ... فـي جَلـوة منـه تُغيـرْ

لكنَّـــه بـــالعِشْـــقِ يعـــرفُ كَيـــفَ فـــي الـــدنيـــا يُنيـــرْ
العِشْـــقُ فـــي الأرواح يخلـــق كـــلَّ لـــونٍ أو يثيـــرْ
إنِّـــي لأذكـــر راقصـــاً ذا الحـــرف أو هـــو بـــي يـــدور
بـــالعِشْـــقِ تـــرتـــاح القلـــوبُ وإنَّـــه فيهـــا سعيـــرْ
مـــا كـــل معنـــىً ينطـــوي فـــي اللَّفـــظ ، كـــم معنـــى يثـــور
أنصـــت لقلبـــك ســـاعـــةً فلعلَّمـــا يـــدنـــو العسيـــر

* * *

لغزُ السَّيف

مـــا جـــاهـــدٌ يُنبـــطُ مـــاء الحجـــر لا يَهتدي بالخضْر كالإسكندر ؟
كنظـــرِ العيـــنِ صفـــيٌّ مشـــرقُ لا بلـــل وهـــو غـــريـــقُ نهـــر
مصـــراعـــه مكمَّـــل منفـــردُ ليـــس عليـــه منَّـــةٌ لـــلأشطـــر

* * *

الجمهورية

تريد معنى العُلى منْ ساقطي همم وأيـن للنَّمـل إقـدام السُّليمـانـي[1]
فاتبع حكيماً ودعْ جمهورَهم ، أترى بـألـفِ رأسِ حمـارٍ عقـلَ إنسـان ؟

* * *

(١) نسبة إلى سليمان الحكيم ، وقصته مع النمل معروفة .

إلى داعية الإسلام
في بلاد الفرنج

الـــدَّهْـــرُ عـــادَ بنـــار نمـــرود ... جَـوْهـرُ الإسـلام رَهـنُ تجديـد
هَلـمَّ نُلـق الحجـابَ عـن حُـرَقٍ ... كالشَّمس تغشى الورى بتجريد[1]
أمللـتَ حُـور الفـرنـج مـنْ حكـمٍ ... ورُعـت أصنـامَهُـم بتـوحيـد
فقـل لأهـل الحجـاز عـن سلمـى ... وبـثَّ فـي التـرك شـوق معمـود
علـى خـراسـان والعـراقَ فعـج ... وردَّ للعُجْـمِ شـوق تغـريـد[2]
كـم انتظـرنـا لعـارفٍ ولكـم ... شجـا « جمـال »[3] بلحـنِ مفـؤود
جعلـتَ عشقـاً حـديـث ذي هَـوس ... نَثَـرْتَ درَّ الكـلام بـالبيـد

* * *

غنَّى الكشميريُّ[4]

غنّـى أخـو الشِّعـر ربُّ البيـان ... وبلبـلُ كشميـرَ ذاتِ الجنـان
يفتِّـح أبـوابـه إنْ نـدر ... ويغلقهـا جـاهـداً إنْ حضـر[5]
فقيـل لـه : يـا أنيـس القلـوب ... عجبنـا وفعلُـكَ أمـرٌ عجيـب
فمـاذا أجـاب الهمـامُ الفقيـر ؟ ... فقيـر بملـك المعـانـي أميـر :
أإخـوانـنـا مـا رأيتـم سـداد ... أفـي الـدار غيـري متـاعٌ يـراد ؟

---

(١) أي بظهورها دون حجاب وفي الأصل بالعري .
(٢) خراسان والعراق من ألحان الموسيقا أيضاً .
(٣) جمال الدين الأفغاني .
(٤) محمد طاهر الكشميري الشاعر المتوفى سنة ١٢٨٧هـ .
(٥) ندر : خرج وهي لغة الحجاز اليوم .

إذا كـان فـي الـدار ربُّ العـريـن غنَّـى ففيهـا متـاعٌ ثميـن
وإنْ غـاب عنهـا أنيـسُ الـورى فـلا دارَ أفـرغَ منهـا تُـرى

***

إلى مصطفى كمال باشا[1]
حزيران (١٩٢٢م)

أمَّـة كـانـت ومـن حكمتهـا نحـنُ آثـارٌ علـى مـرِّ العُصـور
قـد عـرفنـا سـرَّ تقـديـرٍ مضـى فمضينـا نقتفـي سـرَّ الـدهـور
شـرراً كنـا ، أجـدنـا نظـراً فـإذا شمـسٌ علـى الكـونِ تسيـر
شيخـاً أطفـأ فـي أحشـائـه نـارَ عِشْـقٍ فخنعنـا فـي فتـور
صـرصـر البيـداء فـي فطـرتنـا أذبلـتْ ريـحُ الصَّبـا فينـا الزُّهـور[2]
وعلـى الأفـلاك دوَّى صـوتنـا فـاسمعنْـه اليـوم فـي نَـوحِ الأسيـر
رُبَّ صيـدٍ قـد أخـذنـا وثبـةً دون أشـراكٍ كمـا انقضَّـت صقـور
وغـدونـا يـوقِـعُ الصيـدُ بنـا ولنـا قـوسٌ وسهـمٌ فـي الجفيـر
« كلَّمـا أمكـن طـرفٌ فـاركضَـنْ كم أمات العزمَ تدبيرُ الأمور[3] »

***

الطَّائرة

علـى غصـنِ وردٍ بـوقـت السَّحـر نغـا طـائـرٌ لطيـورٍ أخـر :

---

(١) كان الشاعر معجباً بمصطفى كمال إعجابه بالعزم والإقدام ، فلما رآه يقلِّد الفرنج عابه وقال : إنَّ جديده قديمُ أوربة .
(٢) يعني خلقنا للجهاد فأضعفنا الترف .
(٣) البيت الأخير للشاعر نظيري .

« لقد سُلب الأجنُح الآدميّ ومكّن في الأرض هذا الغبيّ »
فقلت له : « يا أميرَ الرِّياح أفي الحقِّ إن قلبته من جناح . . ؟
بطائرةٍ قد ركبنا الهواء شققنا بها في عَنان السَّماء
وأية طائرة في الفلك يفوت مداها جَناحَ الملَك
لها عزم صقرٍ وأيدُ عقاب بلاهور[1] ترنو إلى فارياب[2]
تُدوّي وتزفر حين السِّفار وفي العشِّ صمتٌ كحوت البحار
من الطِّين صار لنا جبرئيل من الأرض نحو السماء دليل »
وعى الطائر الألمعيُّ الكلام وأبصر ما قلتُه في الخصام
فأهوى إلى ريشه ينقر وقال مقالَك لا أنكر
فيا مَنْ يروقُك عقدٌ وحلُّ وفي قيد سحرك عُلْوٌ وسُفْلُ
أأصلحت في الأرض بعد عناء فجئت لتصلحَ جوَّ السَّماء[3]

* * *

العِشْقُ

هو الحرفُ ضاءتْ عليه القلوب وليس بسرٍّ وسرّاً يرى
هلم أُنبِّئكَ قولَ الخبير بمن قد رواه وعمَّن روى
وعاه النَّدى خلسةً في السَّماء وأسمعه الوردَ قطرُ النَّدى
وباح به الوردُ للعندليب عن العندليب روته الصَّبا[4]

* * *

---

(١) لاهور تقع في باكستان وهي إحدى كبريات مدنها ، وعاصمة ولاية بنجاب اليوم .
(٢) فارياب ، تقع في تركستان .
(٣) البيت الأخير للشيخ سعدي الشيرازي .
(٤) أبيات تمثِّل تطور العشق من قطرة إلى غِناء بلبل إلى خفق الرِّيح .

القسم الثالث

الخَمر البَاقِية

(غزليَّات)

حبـــا الـــربيـــعُ رُبـــانـــا ... محـــافـــلَ التَّغـــريـــد
فـــاستيقظـــت أكمـــام ... للبلبـــل الغـــرِّيـــد
لا تحسبـــنَّ أنْ خُلقنـــا ... فـــي صبـــح دهـــرٍ مـــديـــد
فمـــا تـــزال خيـــالًا ... حـــوى ضميـــر الـــوُجـــود
لا تغتـــرر بعلـــومٍ ... الكـــأس خيـــر شهيـــد
إنَّ الفقيـــه مُـــريـــبٌ ... فـــلا تكـــنْ بمُـــريـــد
ضـــمَّ الـــربيـــعُ شتيـ ... ـــتَ الأورادِ بـــالتنضيـــد
وبـــثَّ ريحـــاً ولـــونـــاً ... أنظـــارنـــا فـــي الـــورود
مـــن يُحكمـــن نظـــراتٍ ... لنفســـه فـــي شهـــود
لـــم يشـــدُ يـــومـــاً بغيـــب ... كـــلاًّ ولا مـــوجـــود
قـــد قـــال فـــي ألحـــان فـــاسـ ... ـمعْ مقـــال شيـــخٍ رشيـــد :
فـــي كـــلِّ دهـــرٍ خليـــلٌ ... والنَّـــار مـــن نمـــرود[1]
لا تلحيـــنَ أهـــل ديـــرٍ ... فـــالعِشْـــقُ جـــدُّ عنيـــد
أقـــام أوثـــان حـــبٍّ ... فـــي القلـــبِ مـــن محمـــود[2]
يضيـــع شـــدو حيـــاةٍ ... ينســـاب بيـــن الهنـــود
فـــالميـــت ليـــس بحـــيٍّ ... بـــالنفـــخ مـــن داود

* * *

عقلُنـــا ينحـــتُ ربـــاً كـــلَّ حيـــن ... فهـــو مـــن قيـــدٍ إلـــى قيـــدٍ رهيـــن
ارفـــعِ البـــرقـــع جهـــراً لا تُبـــلْ ... ليـــس فـــي حيِّـــك غيـــري ذو حنيـــن

---

(١) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل ونمرود الذي ألقاه في النار .

(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب بمحطم الأصنام .

أنـا مـن عينـيَّ غيـورٌ نـاسـج ... نظـراتـي لـك ستـراً فـي العيـون
بسمـةُ خَلـس ودمـعٌ ورنـاً ... ليس في الحُبِّ سواها من يمين
حبَّـذا العِشْـق ففـي يـوم النَّـوى ... زاد بـاللَّـوعـة عهـدٌ لا يميـن
أيهـا الطـائـر مـن صـدري اقبسـنْ ... لتـزيـدَ النّـار فـي هـذا الأنيـن
عُـود تيمـور مضـى لا لحنُـه ... هـو فـي لحـن سمـرقنـد يبيـن
سـادنُ الكعبـةِ لا تـأذَنْ لـه ... فـلإقبـال إلـهٌ كـلَّ حيـن

* * *

شكـوايَ أمـرٌ عجيـب ... مـن نـور عينـي شكـاتـي
فنظـرتـي لـي حجـاب ... وأنـت فـي الجلـوات
أبلـغ خـلائـق نـورٍ ... الحـق مـن كلمـاتـي[1]
حـذارِ كـفَّ تـراب ... للنَّفـس فـي نظـرات[2]
فـي محفـلٍ مـن ربيـع ... نـذوب مـن حـرقـات
بـالـرِّيـش منـا شـرار ... فـي الفجـر مـن آهـات
يـا واهـنَ النَّفـس تـدري ... مـن أيـن لـي نغمـاتـي ؟
حـواكَ كـونٌ بعيـدٌ ... مـن عـالمـي وجهـاتـي
مثـلَ الشَّقيـق تـرانـي ... بـالـرَّوض فـي حسـرات
والقلـب عُـرضـة رمـي ... مـن أسهـم اللَّحظـات
فـي عـرف أهـلِ قلـوبٍ ... الكَـدْحُ سـرُّ الحيـاة
لكعبتـي لـم أسـافِـر ... لـلأمـن فـي طـرقـاتـي
وكـم قبيـل أقـامـوا ... وأدبـروا فـي شتـات

---

(١) يعني بخلائق النور الملائكة .

(٢) كف التراب : الإنسان ، والنظر إلى النَّفس من فلسفة إقبال التي سماها « أسرار خودي » .

فـــي دارة ضـــاء فيهـــا ... الهـــلال فـــي مشكـــاة[1]
فـــاخلـــق بطينـــك خلقـــاً ... ذا يقظـــةٍ وحصـــاة
مثـــلُ اتســـامِ شـــرارٍ ... تلبَّـــث الفـــرصـــات[2]
إنْ لـــم تكـــنْ ذا فضـــولٍ ... فتلـــك إحـــدى نكـــاتـــي
العِشْـــقُ أبعـــدُ شـــأنـــاً ... مـــن ضـــائـــع الأنَّـــات
فـــي العجـــم أزكـــى نشيـــدي ... مـــا بـــاخ مـــن جمـــرات
والعُـــرب مـــن نـــارِ شـــوقـــي ... لـــم تـــأتهـــم نفثـــاتـــي

***

فـــي ذلـــك الحفـــل ســـؤلـــي ... عـــن مَحـــرمٍ بـــي حقيـــق
لـــذاك أزجـــى غنـــائـــي ... وفيـــه لحـــنُ الصَّـــديـــق[3]
فـــي خلـــوة كـــلِّ لفـــظٍ ... فيهـــا كستـــرٍ صفيـــق
يبـــثُّ قلبـــي حـــديثـــاً ... بمقلتـــي وبمـــوقـــي
مـــن أجـــل نظـــرة وجـــدٍ ... لـــوجهـــك المـــرمـــوق
مطهِّـــر نظـــراتـــي ... بـــدمـــع عيـــنٍ طليـــق
كـــالكِـــمِّ كـــلُّ أمـــوري ... لعقـــدة ولضيـــق[4]
لكـــن الجلـــوة شمـــسٌ ... أنمـــو بقلـــبٍ مَشـــوق
كـــالمـــوجِ ، ليـــس كيـــانـــي ... يهـــاب سيـــل العقيـــق[5]
ولســـت فـــي البحـــر أبغـــي ... إلـــى الشطـــوط طـــريقـــي

---

(١) يعني الدنيا جعلها داراً صغيرة فيها القمر كسراج في مشكاة .
(٢) فرصات : جمع فرصة .
(٣) اللحن : الرمز في الكلام .
(٤) يتخيَّل الشاعر أن كم الزَّهر لانطباقه معقود .
(٥) العقيق : هو كل سيل كبير يشقُّ الأرض وواد بالمدينة .

ما بين عينٍ ورأيٍ ... بيني وبين صديقي[1]

مهما تباعد عنّي ... فكلُّ حينٍ رفيقي

قد خطَّ في ستر عيني ... نقوشُ كونٍ أنيق[2]

بشعوذات أراني ... في قيد سحرٍ وثيق

في قبَّة قد أحاطت ... لا أرتضي بالضِّيق

شوكٌ بجنب سماء ... لا بدَّ لي من مُروق

لا أستريح بعُشٍّ ... من لذة التحليق

طوراً بشاطىء نهرٍ ... طوراً بروضٍ شقيق

***

المغنّي الصبيح في ألحانِ ... ورياضُ الرَّبيع ألواحُ ماني[3]

وتحيي دم الربيع شقيق ... أيُّ ظمأ به إلى الألوان ؟

نغمةٌ تفتح العيون لمعنى ... ضاق عنه طرائق التبيان

فتأمَّل بعين عشقٍ وأبصِرْ ... منه آياً تُضيءُ دون بيان

فعيونُ العقولِ تُظْهِرُ فيها ... هذه الكائناتُ سحرَ العيان

وعن عشقٍ خُذْ دروسَ جهادٍ ... وافعلن ما تشاء في كلِّ آن

إنما العشق جوهرٌ لشعورٍ ... وهو روحُ الإدراك والعرفان

ولنا غاية من الشَّمس أعلى ... إنها الشَّمس صُوَّة الرُّكبان[4]

إيه يا قطرةً عنِ النفسِ تاهتْ ... تطلبينَ المحالَ في الأكوان

---

(١) الرأي : رأي العين .

(٢) في هذا إشارة إلى الصور التي تسمّى خيال الظل ، فالستر يظهر عليه الخيال لا الحقيقة ، فهو يقول : إنَّ هذا العالم نقوش في ستر العين تخدع عن الحقائق .

(٣) ماني : صاحب مذهب المانوية كان ماهراً في التصوير ، وترك ألواحاً مصورةً في كتاب عرف باسم « أرزنك » ضرب به المثل .

(٤) الصوّة : أحجار تجعل علامة على الطريق .

إنَّ عـاراً معيشـة البحـر إن لـم تطلعـي منـه درَّةً ذات شـان
يـا جهـولاً بقـدر نفسـك لـولا أنـت كـان العتيـق كـالصَّـوان[1]

* * *

قد هدمتُ الأصنام لم أرضَ شكلاً أنـا سيـلٌ هـدمـتُ كـلَّ سـدودي
ومـن العِشْـقِ قـد رأيـتُ كيـانـي كـان عقلـي يُـريـنـي وجـودي
وبـديـرٍ ضـراعتـي وهـو أنـي وصـلاتـي بكعبـةِ التَّـوحيـد
ومـن الـذكـر سُبحتـي بيمينـي فـاعجبَـنْ مـن زنَّـاري المعقـود
منبـع الحـزن فيـك غيـر نضـوبٍ دمـعُ قلبـي حبستُـه عـن خـدودي
راق قـولـي ، وسيـرتـي لجنـونٍ : خمـرُ شـوقٍ لسكـرتـي وشهـودي

* * *

طـوبـى لمحـرق عقـلٍ بنـارِ راحٍ عتيـق
مَـنْ يعتنـي بمتـاعٍ مـنْ نـاره كـالشَّقيـق
أوحـى الـرَّبيـعُ إلـى الـزا هـديـن بيـع الـدلـوق[2]
فـاغـرس بـالكـأس الحميَّـا بستـان وجـهٍ أنيـق
قلبـي رثـى لفقيـهٍ مجـاورٍ بـالعتيـق
مـا اتبـاعـه شيـخ خـان فتـوى بكـأسٍ رحيـقِ
اللحـنُ لا تقـدرُونـه علـى غنـائـي الـرقيـق
فبـرقـةُ اللَّحـن تغشـى إسكنـدراً بحـريـق
لـروضِ « ويمـر » تهـدي الصَّبـا سـلام مشـوق[3]
فـذي الـدِّيـار أَضـاءتْ لعيـنِ ذي تحقيـق

* * *

---

(١) يعني أنَّ الإنسان جهل قدر نفسه وقدَّر أشياء ليس لها قيمة إلَّا بتقديره .
(٢) الدلوق : جمع دلق ، وهو لباس بالٍ مرقع يلبسه الزُّهَّاد والشحاذون .
(٣) ويمر : مدينة في ألمانيا ، أقام فيها الشاعر غوته كثيراً ومات ودفن فيها .

نَـــوح ليلِـــيَ القلـــق ... والهمـــوم فـــي الفلـــق
والأنيـــنُ مِـــنْ شَـــرَر ... والقـــريـــض مـــنْ حَـــرَق
أيـــن حـــرص مجتهـــد ... مِـــن تضـــرُّم العشـــق
ذاك فـــأس فـــرهـــاد ... ذاك خُســـر فـــي مـــذق[1]
قُـــل لســـاكنـــي حجـــب ... عـــنْ تـــرابـــي القلـــق :
ذا الغُبـــارُ ذو نظـــر ... ذا التـــرابُ ذو فلـــق
مطـــربتـــي تسكـــرنـــي ... وتـــزيـــد فـــي حُـــرقـــي
نغمـــاتُ مستحـــر ... بـــالقلـــوب ذي علـــق
مِـــنْ حـــذاره أرضُ سمـــر ... فنـــدبـــت فـــي فـــرق
مـــن هجـــوم جنگيـــز ... أو هـــلاكـــو فـــي الحلُـــق[2]
هـــات مطـــربـــي غـــزلًا ... نظـــم مـــرشـــدي اللبـــق
لأفـــوزَ مـــن لهـــب ... التبـــريـــزي بـــالحـــرق

* * *

مُنيتـــي أن يتجلَّـــى ... ذلـــك البـــدرُ التَّمـــامُ
فيـــدي تُمْســـكُ صـــدري ... وبعينـــيَّ اقتحـــامُ
ويقـــول الحســـن : صبحـــي ... ليـــس يغشـــاه ظـــلام
فيقـــولُ العشـــق : وجـــدي ... ليـــس يخبـــو والهيـــام
ليـــس مـــن يـــومـــي وأمســـي ... وغـــدي فـــيَّ زمـــام
ليـــس لـــي نَجْـــدٌ وغـــورٌ ... ليـــس يحـــوينـــي مقـــام

---

(١) فرهاد : المهندس ، وخسرو برويز : ملك الفرس ، وكان وعد فرهاد أن يهب له معشوقته « شيرين » إذا شق طريقاً في الجبل ، ففعل ولم يظفر بأمنيته ، فضرب فرهاد مثلاً في العشق الخائب .

(٢) أشار الشاعر أكثر من مرة إلى سمرقند وجنكيز كأنه يُشير إلى ما أصاب المسلمين من هذه النواحي .

خمـــرة الأســـرار أبغـــي ... وكـــؤوســـاً لا تـــرام
وبحـــانـــات مجـــوس ... دائـــر عنـــدي جـــام[1]
لا تقُـــلْ : مـــالـــي ولحنـــاً ... لا يـــرى فيـــه انسجـــام
فـــأنـــا طـــائـــر غيـــبٍ ... عـــن حبيبـــي لـــي كـــلام
أرفـــع الستـــر وأشـــدو ... لـــي فـــي اللَّحـــن مقـــام[2]
أنـــا صمصـــام دمـــاءٍ ... لـــي بـــالغمـــد كَعـــام[3]

***

غُصْـــنُ الحيـــاة نـــديٌّ ... مـــن ظمئنـــا فـــي الطِّـــلاب
عيـــن الحيـــاة أراهـــا ... تعلُّـــه الهيّـــاب[4]
فَمـــنْ أبـــثُّ حـــديثـــي ... وأيـــن أزجـــي ركـــابـــي ؟
ولا تـــؤثـــر آهـــي ... ونظـــرتـــي فـــي حجـــاب
فـــزَمـــزِمـــنْ فـــي غنـــاء ... واخفـــض نـــواح الـــرَّبـــاب[5]
فـــلا تـــزالُ طيـــورٌ ... تنـــوح تحـــت نقـــاب
أهـــل الحجـــاز تـــولـــوا ... قـــوافلـــي بســـلاب
حبيبنـــا عـــربـــيٌّ ... فـــلا تفـــه بعتـــاب
وزن عُجـــم وهنـــد ... لا تبـــغ وزن خطـــابـــي

---

(١) المجوس في الشعر الفارسي كالنصارى في الشعر العربي ، يذكر الشعراء خمرهم وحاناتهم .

(٢) من مقامات الموسيقا .

(٣) الكعام : هو الكمام للجمل ، الّذي يخشى صياله ـ وبالفتح جمع كعم ، وهو وعاء السِّلاح ـ .

(٤) عين الحياة في الأساطير : عين من شرب منها لا يموت ، وقد شرب منها الخضر ، والشاعر يقول : « إن الحياة هي عطشنا في الكفاح لا ورود عين الحياة » .

(٥) الزمزمة : كلام خفي .

فـــأصـــل هـــذي الـــلآلـــي بـــالليـــل دمـــع انتحـــابـــي
هلُـــمَّ فـــالـــرَّاحُ عنـــدي مـــن دنٍّ عـــالـــي الجنـــاب[1]
وخمـــــرة القـــــول أصبـــــى مـــــن خمـــــرة الأعنـــــاب

***

مـن كـرى المـوت لا تفيـقُ عيـونٌ دون نـور تفيضُـه مـنْ سنـاكـا
إنَّ مـن دونـك الـوجـودُ محـال ومحـالٌ فنـاؤنـا فـي جسمـاكـا
قـد حـوى الكـون قلبنـا وهـو فيـه عقـدةٌ لا تحـلُّ فـاكظـم فـاكـا
نغمـاتـي الضعـاف أحـرقـن صحبـي حـرقتـي نغمـةٌ أبـت أن تحـاكـا[2]
إنْ تضـنّ الصبـا بطـلٌ فـدعهـا نـار قلـب الشقيـق تـأبى فكـاكـا[3]
فـإلـى الحـق وجّـه القلـب واصبـر لا تـــؤمـــل بغيـــره إدراكـــا
سُـدَّة الـوُثْـنِ هـذه وعليهـا[4] جبهـات الأبـاة تـأبـى حِكـاكـا

***

كتب إلى أحد الصُّوفيَّة[5]

لهيـب الـوجـد مـن أسمـاء لا عنـدي ولا عنـدك
وحـرُّ القلـب فـي البيـداء ، لا عنـدي ولا عنـدك

---

(١) جلال الدين الرومي .
(٢) أبت أن تنسج ، يعني : لا يستطاع إظهارها .
(٣) يتخيَّل الشاعر أنَّ الطلَّ يخفف من حرقة الشقائق الملتهبة ، يقول لا نبالي إن لم يسقط الطل فهذه النار لا تفارقنا بأيّة حال .
(٤) الوثن : جمع وثن .
(٥) في هذه الأبيات مثالان من الشعر الفارسي ، الأول أن وزن الهزج فيه مفاعيلن ثماني مرات وهو في العربية لا يزيد على أربع ، والثاني القافية المردوفة والردف هنا « لا عندي ولا عندك » والروي الهمزة الممدودة قبلها .

وشيخ أنت في حان وإني ناشىء ساق
عطاش نطلب الصهباء لا عندي ولا عندك
رهناً قلبنا والدِّين حبُّ الغيد من عُجم
ونارُ الشوق من ظمياء ، لا عندي ولا عندك
حطام كان أصدافاً على شطٍّ لقطناها
فقدنا الدُّرَّة البيضاء ، لا عندي ولا عندك
وبلوى يوسف المفقود من يطيع ذكراها
وخفق القلب في زلخاء[1] ، لا عندي ولا عندك
كفانا النُّورُ في المصباح قد أخفتْه أستارُ
فطوق النُّور في سيناء ، لا عندي ولا عندك[2]

***

قلبُنا كونٌ ولكن ما به دور القمر
دورانٌ ليس فيه من عشيٍّ أو بُكر
ويل ركبٍ قد أسفّ العزمُ فيه وضمر
فهو يرتاد طريقاً ليس فيها منْ خطر
فدع العقل وموج العشق صارع لا تقر
فبذاك النهر ضيق ليس فيه من دُرر
كلُّ ما يجري خيالُك أو خيالي في الأثر
هو في العين ولكن مُستترٌ كالنَّظر

***

غير مجدٍ بكاؤنا ويلتا ! ضاعَ ذا النغم

---

(١) زلخاء : زليخاء عاشقة يوسف الصِّديق عليه الصلاة والسلام .
(٢) الطوق : الطاقة .

نَـــوح قلـــبٍ ممـــزقٍ حـــاصـــلُ الغـــمِّ والألـــم
خفـــق القلـــب ســـاعيـــاً يخلـــق الـــدَّيـــر والحـــرم
هـــو فينـــا محـــدِّقٌ نحـــن فيـــه علـــى قـــدم
نبـــذ الستـــر أهلـــه لُـــذت بـــالنفـــس فـــي حـــرم[1]
غيـــرة العشـــق فـــانظـــرن ! أيُنـــا شـــوقـــه احتـــدم ؟
مطـــربُ ألحـــان فـــي الـــدُّجـــى قـــد شـــدا معجـــب الحكـــم
ذوق راحٍ محـــــــــــرَّم شـــــربُ راحٍ لنـــــا أمـــــم
هـــي مسيـــر حيـــاتنـــا مـــا ســـوى السيـــر يُغتنـــم
ليـــس للمـــوج منـــزل أو طـــريـــقٌ إذا التطـــم
أشعـــلِ النَّـــار فـــي هشيمـــي مـــن قـــال فـــي القـــدم :
« منـــزل الكبـــريـــاء لـــي » مـــرشـــد الـــرُّوم[2] ذا العلـــم

* * *

أبـــدِ مـــن طينـــك نـــاراً تُضمـــر لا تحـــلَّ بعـــد هـــذا يُقـــدَر
مُلـك جـمٌ « لنظيـري »[3] مصـرع : « ليـس مـن قـومي مـن لا يُنحـر »
ســاحـــر العقـــل يعبِّـــي جنـــده لا تُـــرع للعشـــق جنـــد ينصـــر
بمقـــامٍ ولحـــونٍ لـــم تُحِـــط عُـــود سَلمـــى كـــلُّ حيـــنٍ يَقطـــر
نظـري فـي النَّفـس أحكمـتُ فلـم يتـــوجَّـــه لســـواهـــا النظـــرُ
فتَجلَّـى الحـبُّ فـي كـل الـدُّنـى وأنـــا فـــي شُغُـــلٍ لا أنظـــر

---

(١) أهل السر الّذين في عالم الغيب والشاعر على مذهبه في الذاتية ، يقول : إنَّه لم يُبال بالنظر إلى عالم الغيب بل نظر إلى نفسه ، وإنَّ عشقه الغيور لم يتجه إلى غيره بل غيره نظر إليه .

(٢) مرشد الرُّوم ، يراد به جلال الدين الرُّومي .

(٣) نظيري النيسابوري ، أحد الشعراء الفارسيين الكبار ، هو وجمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية .

ما جنونُ العِشْق في البيداء سدًى ... في قرى الحسن تعالوا نجأر[1]

وبصيد الوحش في البحر اهتفنْ ... لا تقلْ : زورقنا لا يُبحر

ملء عيني دليل ما مضى ... في طريقٍ ليس فيها خطر

اصبحنْ شُرباً خليعاً واحْذَرَنْ ... عهد شيخٍ ليس فيه ذأر[2]

غايةُ الإفصاحِ لمحٌ وكُنى ... فلُغى الخلوة رمز يُعبر[3]

***

تضيقُ بدار أصنام ... ولا ترضى بمحراب

ولكن نحو مشتاقٍ ... تسيرُ بشوقِ أصحاب

فاقدِم واتخذ مغنا ... كَ في أرواحِ أحباب

وكيف وأنت ربُّ الدَّا ... ر تدخل خطو مرتاب ؟

تُغير على ذوي التسبيح ... تحمل كلَّ أسلاب

وتطرق أهل زنَّار ... بليلٍ فعل نهاب

وذو جحفل لجب ... لسفك دماء أصحاب

وطوراً في جماعات ... بكاساتٍ وأكواب

وتأتي باللهيب إلى ... كليم غير هيَّاب[4]

وتأتي كالفراش إلى ... يتيمٍ شمعُه كابي[5]

فيا إقبال خذ كأساً ... بخمر « الذَّات » لهَّاب

---

(١) لعل الشاعر يُشير إلى مجنون ليلى وهيامه في البيد ، ويعني أن هذا الهيام في فضاء الطبيعة لا بد أن ينتهي إلى صلاح الجماعات في القرى .

(٢) الذأر : الشرة وحدة الخلق .

(٣) يعبر : كتعبير الرؤيا .

(٤) إشارة إلى النَّار التي لاحت لموسى عليه الصلاة والسلام .

(٥) إشارة إلى اصطفاء الرسول ﷺ .

سفـــاك الغـــربُ مـــن كـــامـــنٍ لنفســـــك منـــك ســـــلاَّب

* * *

لـــذعـــاتُ حـــان العُجـــم ليســـت كُـــفـءَ نـــاري الحـــاميـــه
ذا أحمـــــد العـــــربـــــيُّ نَظْـ ـــــرَتُـــهُ تحيـــط جهـــاتيـــه
مـــا حيلتـــي والعقـــلُ فـــي عُقـــدٍ لـــه متـــواليـــه
نظـــراتُ عينـــكَ ، فـــانظـــرنْ حلَّـــت طلســـم مجـــازيـــه
جِيَـــلُ العقـــول تفـــوقهـــا خفقـــات قلبـــي الـــداميـــه
فـــاهجـــر كنيـــس تفلســـفٍ لحـــريـــمِ نـــاري الحـــاميـــه

* * *

أنت كالمرآة تفنى في جمال الآخرين فاغسلَنْ قلباً وعيناً من خيال الآخرين
من نواح الطَّير في الأحرام فاقبسْ واحرقنَّ[1] ذلك العشَّ الذي شُدْتَ بمال الآخرين
وتعلَّم جـاهـداً خفـقَ جنـاحيـك وطـرْ أنـت لا تسطيـع طيـراً بجبـال الآخريـن
أنـا حـرٌّ وغيـورٌ مسـرفٌ فـي غيـرتـي ممكن قتلي بكأس من زلالِ الآخرين
إيـهِ يـا أقـربَ مـن روحـي ولا أبصـره عندنا هجرُك أحلى منْ وصالِ الآخرين[2]

* * *

عنـدليـبُ الـرَّبيـع جُـنَّ غنـاءَ وعـروسُ الشَّقيـق تُـزهـى بهـاءَ
لا مغـنَّ ولا مـــزاهـــرُ فيـــه ذاك لحـــنٌ مـــن المغيَّـــب جـــاء
محـرم السـرِّ مـن يسـدد ضـربـاً فـي وتـار الحيـاة أيـان شـاء[3]

---

(١) الأحرام : جمع حرم .
(٢) وهذه قطعة أُخرى بنيت على الرمل المثمن ـ والرمل في الشعر العربي لا يزيد على ست تفعيلات والقافية فيها مردوفة بكلمة الآخرين ، والروي اللام التي قبل الرديف ـ .
(٣) الوتار : جمع وتر .

مـــن وراء الستـــور أنبئـــت ســـراً ... لست أفشي ، فالدهر لعباً أساء[1]
لا تعنِّـــفْ وخـــذْ سبيـــل ودادٍ ... قـــدَّر اللهُ فـــي الحيـــاة التقـــاء
أيـــن فـــي دارة التـــراب مقـــامٌ ؟ ... كـل شـيءٍ كـالرَّمـل يمضـي هبـاء
زهـرةٌ مـن ريـاض كشميـر جسمـي ... وبـــأرض الحجـــاز قلبـــي أضـــاء
وأغـــانـــيَّ واللحـــونُ نمتْهـــا ... أرضُ شيـراز ، حـبَّ ذاك انتمـاء

* * *

نحـن تـربٌ ، وكـالنجـوم سفـارا ... مـن خضـمٍّ الـزرقـاء نبغـي قـرارا
نحـن مـن شعلـة الحيـاة جميعـاً ... لـذَّة « الـذَّات » فـرَّقتنـا شـرارا[2]
قـلْ لأهـلِ السَّمـاء : إن تـراباً ... نـال بـالعقـل فـي السمـاء مطـارا
نحـنُ فـي العشـق زهـرةٌ فـي نسيـمٍ ... وبكـــدِّ الحيـــاة نقـــدح نـــارا
نحـن فـي المـرج نـرجسٌ نـاظـرات ... كلُّنـــا أعيـــنٌ فـــألـــق الستـــارا

* * *

ليـــردَّ العُـــرب دمعـــي داميـــاً ... روضـــة تنبـــت ورداً وشقيقـــا
وليـــردَّ العُجـــم أنفـــاسـي وقـــد ... صـوَّحـت جنـاتهـم ، روضـاً أنيقـا
مـــن حيـــاةٍ وخلـــودٍ كـــدحُنـــا ... يـا تـرابـي ! فلتكـن قلبـاً خفـوقـا
صحـــب الله فـــؤادي هـــائمـــاً ... سـار لا يـرضـى مقـامـاً أو طـريقـا
صـــوَّر اليـــأس علـــى آفـــاقنـــا ... عقلُنـا اليـائـسُ فـاحـذره رفيقـا
وبعـــودٍ قطِّعـــت أوتـــارُه ... قـد حبـا قلبـاً إلـى اللَّحـن مشـوقـا
أنـــت نـــشء وكـــلامـــي شُعَـــل ... علَّ شـدوي مضـرمٌ فيـك حـريقـا
ليـــس فـــي قلبـــي إلا أن أرى ... قطـرةً فيـك غـدت بحـراً عميقـا

---

(١) إشارة إلى الألعاب من وراء الستار كالَّذي يسمَّى خيال الظلِّ .
(٢) يعني : لذة الاستقلال والوحدة كما يرى الشاعر في فلسفة « الذات » .

لا عـــرا الـــرُّوح هـــدوء ولتكـــن بحيـــاة الكـــدِّ والكَـــدْح خليقـــا

***

لا التَّـــاج يـــزهـــو عليـــه ولا سنـــا الـــزِّينـــات
فقيـــرٌ حيُّـــك ، لكـــن مـــن الملـــوك الأبـــاة
فـــي الشيـــب مـــاتـــت قلـــوبٌ وفتيـــةٌ فـــي سُبـــات
فمـــا لصـــدرٍ نصيـــبٌ فـــي الفجـــر مـــن آهـــات
لا تقعـــدنْ عـــن طِـــلابٍ فـــي واسِـــع الفلـــوات
فمـــا بعصـــرك هـــذا هـــادٍ إلـــى الطُّـــرقـــات
غَفِلْـــتَ عـــن سـرِّ وقـــتٍ أضعتـــه فـــي شتـــات
وقـــتٌ عـــداه حســـابٌ بـــالشَّهـــرِ والسَّنـــوات
هـــذا الـرِّبـــاط قـــديـــم مـــا فيـــه عيـــش مـــواتـــي
غَفِلْـــتَ عـــن ســـرِّ عيـــشٍ وعـــن جهـــادِ الحيـــاة
مـــاذا يخـــطُّ مـــن الـــذنـــب كـــاتبـــا الهفـــوات
دنيـــاكَ مـــا قـــد أصبنـــا فيهـــا ســـوى نظـــراتِ
إقبـــالاً الحـــرَّ أمســـك بـــذيلـــه فـــي ثبـــات
فمـــا يـــرى فـــي ربـــاط مـــن بـــائعـــي الخـــرقـــات

***

عشقـــي الجـــريء صـــدرُه سعيـــرُ وحكمتـــي عـــن شـــرر تخـــور
إنْ يكمـــل الهيـــامُ صـــار ذلًا قيـــسٌ بـ « ليلـى » عنـدنـا شهيـر
إليـك جئـت فـي سجـود وجـدٍ سيمـــاه فـــوق جبهتـــي تفـــور
هـب سيف « لا » لكـافري وأبصـر « إلا » ي كيف في الدنى تثور[1]

---

(١) يشير إلى النفي والإثبات في « لا إله إلا الله » يعني : هب لي أنا الكافر توحيداً وانظر فعلي .

لا بـــدَّ مـــن دورٍ يعيـــد أمســـي ... فـــي جلـــوات مـــن غـــدي يسيـــر
نـــورك فيـــه للـــدُّنـــى نصيـــبُ ... « سينـا » ي كيـف فـاتهـا تنـويـر
أحـــدِّث الـــرحمـــن فـــي حجـــابٍ ... وفـــي حمـــاك منطقـــي جهيـــر
أيـــا رســـول الله ! إنَّ ربـــي ... محجَّـــب وأنـــت لـــي ظهـــور

* * *

أسفـي عليـك نحـتَّ أصنـامـاً أخـر ... عوداً ولم تبحثْ بقلبك عن أثر[1]
أسفي عليك صُهرت في نار الفرنـ ... ـجِ ومن لحاظ العين روحك قد قطر[2]
أسفـي عليـك فمـا وُزنـت بنظـرة ... فـي حلَّـة فيهـا التـرابُ لـه قـدَر
أسفـي عليـك قـرأتَ أسفـار العقـو ... ل وما فهمتَ حديثَ وجدٍ يُستطر
أسفـي عليـك تطـوفُ مـن ديـرٍ إلـى ... حـرمٍ وفـي معنـاك لـم تُجِـد النَّظـر

* * *

---

(١) هذه الأبيات مردوفة في الأصل تكرر في أواخرها الكلمة التي ترجمتها « أسفي عليك » ، وقد كررتها في أول كل بيت .

(٢) ذاب في نار الفرنج وأفنى نفسه بالنظر إليهم وتقليدهم .

القسم الرابع

نقشُ الإفرنج

نقش الإفرنج

أَبْلغي يا ريحُ عنِّي ... عالمَ الإفرنج جهرا :
إنَّما العقل أسيرٌ ... زادَه التحليقُ أَسرا
يتحدَّى العِشقُ برقاً ... منه هذا العقل فرًّا
سُحِرَ العقلُ ، وكان العِشْقُ ... بالأكباد أدرى
تبصرُ الأعينُ لوناً ... حينما تبصرُ زهرا
ووراء اللَّونِ معنىً ... هو أجلى منه يُدرى
ما عجبنا أنَّ إعجا ... ز مسيحٍ نلت خُبرا[1]
قد عجبنا لمريضٍ ... داؤه عندك أشرى[2]
تجمعُ العلم وتلقي القَلـ ... ـبَ لا ترغبُ فيه
آهِ ذا نقدٌ ثمينٌ ... ضاعَ في كفٍّ سفيه
إنَّما الحكمةُ أمرٌ ... ليس فيه مِنْ نهايه
ليس في كتَّابها للحبِّ ... والعِشقِ بدايه[3]
قطعت سُبل قلوبٍ ... يقظاتٍ بالعمايه
ذاتُ طرفٍ ذي كلامٍ ... هو في الفتنة آيه
ودلالٍ لا ترى فيه ... إلى القلب سرايه

---

(١) الخطاب لعالم الإفرنج .

(٢) شرى الداء : إذا اشتد ، وأشرى للتفضيل ، يعني : أنه كالمسيح في المعجزات ، ولكنَّه لا يشفي .

(٣) أي : ليس في كتابها ألم العشق وحزُّه كما يبرى القلم .

ليس فيها لذةُ الوخـ ـزةِ مِنْ غَمْزِ الرِّعايه
طوت البيد ولم تظـ ـفر بظبيٍ في النهايه
طافت البستان لم تبـ ـلغ من الأزهار غايه
فَهَلُمُّوا نسأل العِشْق سداداً ورَشادا
واقصدوا العِشْقَ سُجودا وابلغوا مِنْهُ مُرادا

***

سلكَ العقلُ طريقاً ذا شعابٍ حين سارا
ملأ العالمَ هرجاً وأصارَ الماءَ نارا
في يديه كمياء ردَّت الرمل نضارا
لم يضَعْ إكسير حبٍّ في قلوبٍ أو أنارا
سحرهُ قد خال فينا فقبلناه جهارا
ذاك قطَّاع طريقٍ قطعَ السُّبل نهارا
فنَّه قد هدّم الأفـ ـرنج والنقعَ أثارا
ثمَّ في مُقلة عيني ذرَّ من ذاك غُبارا
كمْ زرعنا مِنْ شرارٍ وحَصَدْنا مِنْ لهيبِ
كمْ عقدْنا وحلَلْنا عُقداً فوق القلوبِ

***

أينَ مِنْ خفق الشَّواهيـ ـن جناحُ العندليب
أينَ من يلقطُ مِنْ حب على الأرضِ تريب
من فتى يلقط عنقو د الثُّريا لا يَخيْب
أينَ منْ يسري بروضٍ كنسيمٍ في هبوب
مَنْ بصير في ضمير الزهـ ـر للسرِّ يصيب
أين فوق الأرض ظنٌّ سارَ أو شكٌّ مريب
من طموحٍ جاوز الأفلا كَ لِلْمَسْرى الرَّحيب

حبَّذا عقلٌ فسيحٌ ... قد أحاطَ العالَمين
نورُ أملاكٍ ونا ... ر الأنسِ فيه دونَ مين
نحنُ مِنْ خلوةِ عِشقٍ ... قد برزنا بالسَّجايا
فجعلنا موطىء الأقـ ... ـدا م في الأرض مَرايا
فانظرنْ همَّتنا كيـ ... ـف لعبنا بالعطايا
قد أضعنا الكونَ جهراً ... حينَ حزناهُ خفايا[1]
قدْ نزلنا شطَّ نهرٍ ... نبصرُ الموج سَرايا
تبصرُ الأعينُ سطراً ... مِنْ غُدُوٍّ وعَشايا
قَلْبُنا بيتُ هذا الدَّير ... لا يبغي سبايا[2]
فرمى النَّارَ برطبٍ ... ويبيسٍ في البرايا
شعلةً كنَّا جميعاً ... وانتثرنا كالشَّرَرْ
أهلَ شوقٍ وحنينٍ ... ورجاءٍ ونَظَرْ
أصبح العِشْقُ غوياً ... قاطعاً كلَّ وكاء[3]
فتنةٌ للناس فيها ... خَفْقُ حوتٍ في العراء
آثَرَ الحَرْبَ على الخفـ ... ـضِ وعبَّى للقاء
لم يروِّ السَّيفَ إلا ... مِنْ صدورِ الأوفياء
قطع الطُّرق وسمَّى الـ ... ـقَطْعَ حِفْظَ الأمناء
أخذ الدُّفَّ وغنَّى ... راقصاً دونَ حياء
رافعاً في الكفِّ كأساً ... مِنْ دماء الأصفياء
حانَ أنْ نُحدِثَ نهجاً ... ونجدَّ النظرا

---

(١) يعني : استولينا عليه بقوة أرواحنا ، وبذلته أيدينا احتقاراً .

(٢) في الأصل : الدير القديم ، وهو كناية عن الدُّنيا .

(٣) أحسب الشاعر يقصد في هذه الأبيات إلى أنَّ العشقَ ، وهو الوجدان السليم قد صار هوىً وطمعاً ، ففعل ما فعل (المترجم) .

فاغسلنْ لوحَ فؤادٍ ... وأجِدَّ الأسطرا
لحنُ إسكندر ولّى ... وتقضّى لحنُ دارا
وأتى فرهادُ يبغي ... ملك برويزَ جهارا
يوسفُ فارق سجناً ... وعزيزَ الملك صارا
وخرافاتُ زليخا ... ورُقاها تتوارى
كلُّ سرٍّ كان يخفى ... غشيَ السُّوق نهارا
ومضى حفلُ النُّدامى ... وبريقُ القول بارا
فافتحِ العَيْن وأمعِنْ ... لترى ما لا ترى
إنما تبني الحياةُ اليوم ... كوناً آخرا
أنا في الأرض بصيرٌ ... عارفٌ سرَّ الحياةِ
أبصر الذَّرَّات طراً ... كنجومٍ ناظراتِ
وأرى الحبَّة تحت التُّرب ... من قبل نباتِ
ذاتُ أصلٍ وفروعٍ ... وثمارٍ يانعاتِ
وأرى الأطواد ريشاً ... في رياحٍ قَلِقاتِ
وأرى الرِّيش ثباتاً ... كجبالٍ راسخاتِ
وانقلابٌ ليس يحو ... يه ضميرُ الكائناتِ
قد أراه لستُ أدري ... كيف في العَينِ يواتي
حبَّذا المبصرُ جهراً ... فارساً في ذا القَتَر
ويرى جوهرَ لحنٍ ... في اهتزازٍ بالوتر
بالحياة النَّهْرُ جار ... وسيجري في مضاء
عاتق الرَّاح فتىً ... وسيبقى في فُتاء
كلُّ أهلٍ لوجودٍ ... سوف يحظى بالضِّياء
ووجودٌ غيرُ أهلٍ ... سوف يحويه الفناء
إنَّما العِشْقُ عيونٌ ... ترقبُ الحسن ظماء
ومُنى الحسنِ ظهورٌ ... وسيبدو في جلاء

إنَّ هـــذي الأرض فيهـــا لـــي دمـــوعٌ مِـــنْ دمـــاء
سيُـــرى الـــدَّمـــعُ عقيقـــاً فـــي حشـــاهـــا ذا بهـــاء
« فـي ظـلام الليـل جـاءتـ ـنـي مـن الصُّبـح بِشـاره
أطفـىء الشَّمـع ولاحَـتْ لي من الشَّمس أماره »[1]

* * *

جمعية الأمم

بـــؤســـاءُ الأرضِ رامـــوا سُنَنـــاً لتزولَ الحَرْبُ في هذي العُصور
وسمعنـــا أنَّ نبَّـــاشـــي قُبـــورِ شـــركـــةً شـــادوا لتقسيـمِ القبـور

* * *

شوبنهاوَر ونيتشا[2]

طـــارَ مِـــنْ عُشِّـــه يسيـــرُ بـــروضٍ فـــأصـــابتـــه شـــوكـــةٌ مِـــنْ زُهـــور
لعـــن الـــرَّوضَ والـــزَّمـــان ونـــادىٰ بثبـــورٍ لنفســـه والطُّيـــور
ورأى وسمـــة الشقـــائـــق جـــوراً وطلَسْـم البـرعـوم خَـدعُ خبيـر[3]
قـال ذي الـدَّار شيَّـدْتَ بـاعـوجـاج كـلُّ صبـحٍ بهـا إلـى ديجـور
نـــاحَ حتَّـــى تقـــاطـــرت نغمـــاتٌ مـــن دمـــاءٍ ، بـدمـع عيـنٍ غـزيـر
وشجـا الهـدهـدَ النُّـواحُ فـوافـى ينـزع الشَّـوك مـن جنـاحِ الكسيـر

---

(١) هذا البيت يضمن في شعر إقبال وهو لغالب (الشاعر الأردوي المشهور) .
(٢) فيلسوفان ألمانيان معروفان ، الأول متشائم ، والثاني يعجب بالقوة واحتمال الشدائد في هذه الحياة .
(٣) في الشقيقة سواد يجعلها الشُّعراء وسمة من الحرقة . وطلسم البرعوم يريد به انطباقه وانبهاعه كالطلسم .

قال : أخرج من كل خسرك ربحاً ... مـزَّق الـوردُ صَـدْرَه للعبيـر
واجعـل الجُـرْحَ بَلسمـاً فسترضـى ... واثْلَـفِ الشَّـوكَ تغـدُ كلُّـك روضـا

***

الفلسفة والسياسة

لا تقيسـوا فلسفيـاً بـارعـاً ... بسيـاسـيٍّ وبـالعـدل احكمـوا
ذاكَ عيـنٌ جهـرت فـي شمسهـا[1] ... وجمـودُ عيـنِ ذا لا تَـرْحـم
ذاكَ فـي الحـقِّ دليـلٌ واهـنٌ ... ذا لـدى البـاطـل قـولٌ مُحْكـمُ

***

نيتشا

ثـارَ مِـنْ ضعـفِ الأنـاسـيِّ قلبـه ... فبـرى الخلـق المكمـل لُبُّـه
فتنـة فـي الغـرب مـن ذي جنـون ... كـان فـي دار الـزُّجـاجـيِّ ضـربـه

***

بايرُن[2]

قطـراتٌ رشحـتْ مـن كـأسـه ... شعلـةٌ تنمـو كـوردٍ وشقيـق
ذو رسـالاتٍ بهـا حـرُّ الجـوى ... فـرسـولُ الحـبِّ منهـا فـي حـريـق
ضـاق بـالإفـرنـج بـرداً طبعـه ... فهـو فـي الأوطـان فـي غـمٍّ وضيـق

---

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس .
(٢) الشاعر الإنكليزي المعروف فارق وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثائرين بها ، ومات هناك .

وخيـالٍ كـم بنـى مِـنْ ملعـبٍ فيـه للحـورِ مـراحٌ وبـريـق
جَلـواتٌ للشَّبـاب ائتلقـتْ فهـو فـي الغَشْيَـةِ منهـا لا يفيـق
طـائـرٌ فـارق عشّـاً ورأى حِلَـق الشُّبَّـاك[1] أولـى بـالحلـوق

* * *

جلال وهيگل[2]

ليلـةً بـتُّ أعـانـي حلَّهـا مشكـلاتٍ لحكيـم الألمـانِ
ذاكَ مَـنْ أبـرز فـي إبـداعـه أبـديُّ الكـونِ مـن ستـر لآنـي[3]
يخجـلُ العـالـم مـن أفكـاره شـاكيـاً ضيـقَ زمـانٍ ومكـانِ
سـرتُ فـي بحـرٍ لـه فـالتطمَـتْ سفـنُ العقـل بمـوجِ الطُّـوفـانِ
نفـثَ النَّـومَ بعينـي سحـرُه فحمـانـي فكـرَ بـاقٍ أو فـانـي
وأحـدَّ الشَّـوْقَ طـرفـي فـإذا نـور وجـهٍ لحكيـم رحمـانـي
إنـه الشَّمسُ تجلَّـت فـي الضحـى كـلُّ أفـقٍ بسنـاهـا نـورانـي
نـورُه فـي مظلـمِ الأفـق سـرى كمنـارٍ فـي طـريـقِ الـرُّكبـان
تنبـتُ الأفكـار فـي ألفـاظـه مثـلَ مـا ينمـو شقيـقُ النُّعمـان
قـال : قـم يـا أيهـا النـائـمُ ! هـل تمخـرُ السُّفـن سـرابَ القيعـان
« في طريقِ العِشْقِ بالعقل يُسار ؟ بسـراجٍ تبتغـي شمـسَ النَّهـار »[4]

* * *

---

(١) الشباك : الشبكة .
(٢) جلال الدين الرومي ، وهيگل الفيلسوف الألماني .
(٣) يريد أنه أدرك من الشيء المؤقت حقائق أبدية ، والآني نسبة إلى الآن .
(٤) البيت الأخير للرومي .

بتوفى
(شاعرٌ مجري قُتِلَ شاباً في الدِّفاع عن وطنه ، ولم يعثر على بدنه لتبقى له ذكرى أرضية)

لعـروسِ الـرِّيـاض غَنَّيـتَ حينـاً ... زدتَ قلبـاً جـوىً وأسليـتَ قلبـا
وخضَّبْتَ الشقيق من دمك المسفوك ... وجْـداً وجـلّ ذلـك خضبـا
كم بآهِ الصَّباح في المرجِ يسري ، ... فـي صـدور الأكمـام فتَحْـتَ قلبـا
نغمـاتٌ مـن الجـوى ذبـت فيهـا ... في « مزار » القـريـض تُـدفـن حبـا
وإلـى التـرب لـم تعـد بممـاتٍ ... ذاك حـقٌّ فليـس أصلـك تـربـا

***

جلال وجوته[1]

شـاعـر الألمـان فـي رَوْضِ إرم[2] ... فـاز بـالصحبـة مـن شيـخ العجـم
شـاعـرٌ يشبـه ذا العـالـي الجنـاب ... مـا نبيـاً كـان لكـن ذو كتـاب[3]
قـصَّ للعـارفِ بـالسـرِّ القـديـم ... مـا وعـى إبليسُ والشيـخُ الحكيـم
فـأجـابَ الشَّيْـخ : يـا رب العـلاء ... أنـت صيـادٌ ولكـن فـي السمـاء
قـد خـلا فكـركَ فـي القلـب السليـم ... فـأجـدَّ الـرُّوح فـي الكـون القـديـم
فـرأيـتُ الـدرَّ فـي قـاع البحـار ... ودبيـبَ الـرُّوحِ مـنْ خلـف الستـار

---

(١) شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة فوست . وفي هذه القصة يبين الشاعر درجات تطور الإنسان في إطارٍ من روايةٍ قديمة عن العهد الذي كان بين الحكيم فوست والشيطان ، وقد بلغ فيها الفنُّ درجةً لا يدركها الخيال .

(٢) يقصد الشاعر بإرم الجنة .

(٣) شيخ العجم : جلال الدين الرومي ، والبيت الثاني من قول الجامي عن الرُّومي : ماذا أقول في هذا العالي الجناب ـ لم يكن « نبياً » ولكن له كتاب ـ .

ليس كلٌّ قد تجلَّى العِشْقُ له ... ليس كلٌّ أهل هذي المنزله
« قد تجلَّى لسعيدٍ المعيُّ ... مكرُ إبليس وعشقُ الآدمي »[1]

***

رسالة برگسون[2]

إذا ما شئت أن تحظى بسرٍّ ... تبوح له الحياة لمستجيب
فلا تبعدْ بنفسِكَ عن لظاها ... كما جَفِلَ الشَّرارُ عن اللهيب
ولا تصحَبْ سوى نظرٍ عريف ... ولا تمرر بأرْضِك كالغريب
وما صورتُه وهمٌ فأعدد ... لعقلٍ شبَّ في أدب القلوب

***

حانة الفرنج[3]

عهدُ حاناتِ فرنجٍ ... ذكِّرني يا خليلي !
رَبَّتِ الخمرةُ فيها ... عينَ خمَّارٍ جميلِ
نظرة الساقي رسالا ... تٌ لشرَّاب الشَّمول
عقلُها الخاتر غاز ... عشقَها كلَّ سبيل
جوُّها ما أشْعَلَتْه ... نارُ آهاتِ الحيارى
ليس فيها مِنْ خليعٍ ... فيه ترنيحُ السُّكارى

***

---

(١) البيت الأخير لجلال الدين الرومي .
(٢) فيلسوف فرنسي .
(٣) يقصد الشاعر في هذه الأبيات إلى ما يعوز الإفرنج من الإيمان وحرارة الوجدان .

حكماء[1]

لوك[2]

فارغُ الكأس أتى الروضَ شقيٌّ[3] يملأ الأكواب من شمس الضُّحى

كنت[4]

فطـرةٌ ضـاءت شـرابـاً ولهـا نجـم كـأسٍ مـن حـريـم الأزل

برگسون

مـا لـه مِـنْ أزلٍ خمـرٌ وكـاس نـاره مِـنْ حـرقـة القلـب الشَّقيـقْ

* * *

شعراء

برونگ[5]

ليـس فـي كـاس الحيـاة البـرد نـارٌ فبمـاء الخضـر كـأسـي أمـلأ[6]

بايرن

منـةٌ للخضـر لا تلهـبُ صـدري فبمـاء القلـب كـأسـي أمـلأ

---

(١) صوَّر الشاعر كلاًّ من هؤلاء الفلاسفة ببيت . وهذه الكنايات لا يدركها إدراكاً تاماً إلا من عرف هؤلاء الفلاسفة ، وعرف خصائص كلٍّ منهم .

(٢) فيلسوف إنكليزي .

(٣) شقائق النعمان .

(٤) فيلسوف ألماني .

(٥) شاعر إنكليزي .

(٦) ماء الخضر : عين الحياة التي شرب منها الخضر ، فخلد ، وحرمها إسكندر .

غالب[1]

لأزيـد الخمـرَ والصَّـدر لهيبـاً أصهَـر الـدَّنَّ وكـأسـي أمـلأ

جلال الدِّين الرومي

أيـن مـزجٌ مِـنْ سنـا جـوهـرِهـا مِـنْ عـروقِ الكَـرْمِ كـأسـي أمـلأ

حانات الفرنج

أمـسِ فـي حـانـة الفـرنجـة وهْنـاً راعنـي قـولُ مـاجـنٍ ذي خـلاعـه
قـال : ليسـت كنيسـةً تغشـاهـا فـي دُمـىً للغنـاءِ تبغـي سمـاعـه
إنَّهـا حـانـةُ الفـرنـج وفيهـا كـلُّ مـا ذمَّـه البـريـةُ طـاعـه
قـد وزنـا الأعمـالَ فيهـا بـوزنٍ غيـر مـا حسَّـن الأنـامُ اصطنـاعـه
لا تـزنْ وزنَ أمَّـةٍ ذات ديـنٍ رثَّ ميـزانهـم فحـاذرْ متـاعـه
كـلُّ قبـحٍ يـزيـدُ جاهـك ، حسـنٌ كـلُّ حسـنٍ يضـرُّه فهـو شنـاعـه
إنْ تفكَّـرت فـالحيـاةُ ريـاءٌ وبهـا الصِّـدقُ قـولـةٌ خـدَّاعـه
إنَّمـا الصِّـدق والـوفـاء حجـابٌ يُحـرم السَّـاعـي الغـريـرُ ارتفـاعـه
شيخنـا قـال : مـوِّهـنْ كـلَّ صُفـر بنضـارٍ وزيِّفَـنْ كـلَّ سـاعـه
ذاك سـرُّ الحيـاه لا تفشينـه تـربحـنْ فـي يـديـك كـلَّ بضـاعـه

* * *

(١) أسد الله غالب شاعر بالفارسية والأردية ، يُعتبر شعره حجة باللغة الأردوية ، توفي سنة ١٨٦٨م وهذا البيت لغالب نفسه .

القسم الخامس

رقَائِق

رقَائِق

ذرَّاتُنـــــا ثـــــورةٌ تهـــــدُر بـــأنفـــاسنـــا محشـــرٌ مضمـــرُ
لقـد أفْصَـحَ الخضـر فـي الظُّلمـاتِ علـى حيـنَ صـاحَبَـهُ إسكنـدرُ
عسيـرٌ علـى النَّـاس فَهْـمُ الممـاتِ وفهـــمُ الحيـــاةِ لهـــمْ أعْسَـــرُ

* * *

حبـةُ الـدُّرِّ تعـرفُ البحـرَ لكـنْ أيُّ علـمٍ لهـا بـدورِ الـرَّحـى ؟

* * *

يصـــرُّ اليـــراع لإعـــواز لـــبٍّ[1] فليـس لمـرودِ كحـلٍ صـريـر

* * *

طفـتُ بـالبيـتِ حـامـلاً أصنـامـي وأمامَ الأصنامِ « هو » قد جأرتُ[2]
وفـؤادي يسيـرُ خلْـفَ طِـلابٍ فـي طـريـقٍ كشعـرةٍ قـد مَـرَرْتُ
يقولُ ورد روضٍ : عيشُ الرَّبيعِ أحلى وصبحُ مرجٍ عندي منَ الجميعِ أحلى
مـن قبـل جـور كـفّ لـزينـة تقطفني موتٌ بحضنِ نضرٍ من الفروع أحلى[3]

* * *

يـــا صـــاحبـــي ذاك قـــولٌ علـــى الحيـــاة دليـــلُ

---

(١) يعني لأنه فارغ الجوف .
(٢) صاح بلفظ « هو » يريد الله تعالى .
(٣) وهذا مثال آخر من زيادة التفعيلات على المعهود في العربية وفي القافية المردوفة .

اللَّمعَات

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأتُ هذه المنظومة حينما قرأتُ منظومتَيْ إقبال : « أسرار خودي » ، و« رموز بي خودي » ونشرت الأبيات الأولى منها ، ثم شُغلتُ عن إتمامها ، فلبثتُ أعاودُ النَّظم فيها حيناً بعد حين .

فلما أشرفت ترجمة « پيام مشرق » على النِّهاية عزمتُ على إتمام المنظومة ، فتمَّتْ بحمد الله .

وهي مهداة إلى الشَّاعر العظيم إقبال اعترافاً بفضله .

(عبد الوهاب عزام)

أيُّهـا اللَّيـلُ ! إليـكَ المفـزعُ ... كـمْ حَنَـتْ منـكَ علينـا أضلـعُ ؟
كَـمْ خفينـا فـي غيـابـات الـدُّجى ... ومـلأنـا اللَّيـلَ همَّـاً وشجـا ؟
كـم أَلِفْـتُ الليـلَ أمّـاً حـانيـة ... وكـرهـتُ النَّجـم عينـاً رانيـة ؟
كـم أَلِفْـتُ الليـل وحشـاً راقبـا ... مـن شُعـاعِ الصُّبحِ سهمـاً صـائبـا
كـم بثثـتُ اللَّيـل سـرّاً كتمـا ... فـوعـاهُ الليـل عنِّـي ألمـا ؟
كـانـتِ الظَّلمـاءُ لَـوْحـاً لـلألـمْ ... خطَّـتِ الآهـاتُ فيـه كـالقلـم !
كـانَ لـي الليـلُ مـداداً فَنَفـد ... وطغـى قلبـي بمـدٍّ بَعْـدَ مـدّ
جاشـتِ الظَّلمـاء مـوجـاً بعـد مـوج ... وغزاني الوَجْدُ فوجاً بعد فَوْج !
فَنِيَـتْ هـذي ، وهـذا زاخـرُ ... وانْجَلَـتْ هـذي ، وهـذا غـامـرُ
خلتنـي فـي الليـل جمـراً سعـرا ... ونجـومُ اللَّيـل منـه شـررا
إرَّة قَـدْ وقـدتْ فـي أضلعـي[1] ... وسحـابٌ هـاطـلٌ مـن أدمعـي ؟

* * *

كنـتُ سطـراً لـم يُفسِّـرْهُ أحـدْ ... خطَّـهُ فـي غيبـهِ اللهُ الصَّمـد
فـي ضميـري كـلُّ معنـىً منبهـم ... حـرت فـي الإعـراب عنـه بـالكَلِـمْ
قـد ثـوى العـالـمُ فـي قلبـي ومـا ... خُطَّ شيءٌ فيه إلَّا الحرفُ « ما »[2]
جـلَّ قلبـي أن أراه جـام جـمّ[3] ... صُـوَرُ الأقطـارِ فيـه تنتظـم
إنَّمـا الأقطـار فـي قلبـي العميـد ... أحـرفٌ أوحـت إلـى معنـىً بعيـد

---

(١) الإرة : جبل النار .

(٢) يعني : لم يكن العالم في قلبه إلا نفياً .

(٣) جام جم أو كأس جمشيد ، في خرافات الفرس : كأس كانت تُرى فيها الأقاليم السَّبعة .

ربَّ معنىً في ضميرٍ يكتم ... ليس في الناس عليه مَحْرَم[1]
وقلوبٍ رمْسُها هذي الصُّدور ... أتراني مسمعاً من في القبور[2]
أنا في النَّاس فصيحٌ أعجم ... ناطقٌ فيهم كأنِّي أبكم !
صمَّتِ الآذانُ عن هذا البيان ... ضاعَ في ضوضائهم هذا الأذان !
كيف يُجدي القومَ هذا النَّغم ... وعلى الآذان رانَ الصَّمم ؟
كيف يُجدي القَدْحُ في هذا الحجر ؟ ... قلبُه رخوٌ خَلِيٌّ مِنْ شرر
إنَّ خَفْقَ القلب قدحٌ مُجْهِدُ ... بعضُه يوري ، وبعضٌ يَصْلُد
كيف يُجدي النفخُ في هذا الرَّمادْ ... طفىء الجمرُ ولم تورِ الزِّناد !

* * *

يَخْرِقُ اللَّيلَ شعاعٌ يَخْفِقُ ... ثمّ يلتفُّ عليه الغَسَقُ
كمنارِ البحرِ يخفىٰ ويَلُوح ... فيه بين الغيبِ والوَمْضِ وُضوح
أو يراعِ اللَّيل يخفىٰ ويُنير ... فهو سطرٌ منْ غيابٍ وحضور[3]
تارةً يبدو طريقاً لَحِبا ... قامت الأنجمُ فيه نُصبا
أو بياناً من بياضٍ وسوادْ ... كبياضِ الطِّرْسِ يعلوه المِداد
كلُّ لونٍ فيه حرفٌ مُفْصِحُ ... أُلِّفت منه سُطورٌ وضَّح
ورآه تارةً خطاً أجمَ ... وكأنَّ الضَّوءَ تفصيلُ الظَّلَم
فهو سَطْرٌ من ظلامٍ أرقطُ ... أعجمت معناه تلك النُّقطُ
كلُّ لونٍ فيه حرفٌ أعجمُ ... وحوى الأحرفَ سَطْرٌ مظلمُ[4]

---

(١) المَحْرم هنا : الأمين على السر ، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

(٣) هذا من قول إقبال : أي كرمك شبتاب سرايا تو نوراست برواز توبك سلسله غيب وحضور ست (يا يراعة الليل كلك نور ، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور) .

(٤) حاصل المعنى في هذه الأبيات : أن النفس تارةً تدرك إدراكاً واضحاً ، وتارةً تُغمُّ عليها الحقائق .

يـا لُبنـى أوقـدي ، طـالَ المـدى ... أوقـدي عـلَّ علـى النَّـار هـدى[1]
أوقـدي يـا لبُـن قـد حـارَ الـدَّليـل ... أوقـدي النَّـارَ لأبنـاءِ السبيـل
ارفعـي النَّـار وأذكـي جمـرهـا ... عـلَّ هـذا الـركـبَ يعشـو شطـرهـا
شـرِّدي هـذا الظـلامَ الجـاثمـا ... أرشـدي هـذا الفـراشَ الهـائمـا
حبَّـذا النـارُ بليـلٍ تـوقـدُ ... حبَّـذا المؤنـسُ هـذا المـوقـدُ ؟
حبَّـذا عنـدك هـذا النـزلُ ... لـو حـوانـا فـي سفـارٍ منـزل
مـا لـذا المنـزلِ قـد سـار الفـريـق ... إنَّمـا النِّيـران أعـلامُ الطَّـريـق
قـد تـرحَّلنـا مـن الفـجِّ العميـق ... لا نبـالـي بقـريـبٍ أوْ سحيـق
رنَّ فـي آفـاقنـا هـذا النِّـداء ... فـأممنـا البيـت يحـدونـا الرَّجـاء[2]
قـد غنينـا عـن مبيـتٍ ومقيـلْ ... وعـن الأمـواه والظـلِّ الظَّليـل
وعـن الـرَّغبـة والخـوفِ سُـوى ... خُلـع النعـلان فـي وادي طـوى[3]
نحـن لا نـرضـى بنـار الغَسَـق ... نحـن لا نـرضـى بنـور الشَّفَـق
نحـن لا نـرضـى بنجـم الصُّبْـح لاح ... لا ولا نـرضـى تبـاشيـرَ الصَّبـاحْ
نحـن لا نـرضـى نجـومـاً لامعـه ... إنمـا نبغـى شمـوسـاً طـالعـه
قـد رحلنـا بـالجـوى والحُـرقِ ... وغنينـا عـن رسيـم الأينـق
أيـن منـا طـائـراتٌ سبَّـق ... جَمَـعَ الغَـرْبُ لهـا والمشـرقُ
نحـن ركـبٌ فـي جـواه مُـوضـع ... لـم يَسَعْـهُ فـي جـواه مـوضـعُ
كـلُّ حُـرٍّ ضـاق عنـه المـوطـنُ ... وانطـوى دون منـاه الـزَّمـنُ

---

(١) إشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

(٣) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] .

كـلُّ طيَّـارٍ علـى متـن الفكـر ... وعلـى متـنِ هيـامٍ لا يقـر
طـائـرٌ منـه يغـارُ الملَـك ... طـائـرٌ مـن تحتـه ذا الفلـكُ
بـارقٌ فـي اللَّـوْحِ لا ينطفـئُ ... كـلُّ غـايـاتٍ لـديـه مبـدأُ
زوِّدينـا بهيـامٍ ووجيـب ... زوِّدي يـا لُبـنَ مِـنْ هـذا اللهيـب

***

جـالَ فـي الظلمـاءِ نـورٌ مـن نغَـم ... مُـزِّقـتْ منـه ديـاجيـرُ الظُّلـم
أشعـاعٌ فيـه صـوتُ صـائـحٍ ... أمْ كـلامٌ منـه نـورٌ لائـح ؟
أذنَ الـرَّكـب لهـذا المنشـدِ ... أطـربَ النـاشـدَ صـوتُ المنشـد[1]
سـال فـي القلـب مسيـلَ المطـر ... ينبـتُ الـرُّوح بسهـبٍ مقفـرِ
أو خـريـرِ المـاء مـن نبـعٍ زُلال ... بشَّـر الغـارقَ فـي بحـر الـرِّمـال
رَنَّ فـي نفسـي رنيـنُ الجـرس ... صـاح فـي أذنـي فقيـدٌ مبلـس
طـوتِ البيـداءُ عنـه السَّـابلـهْ ... وهـداهُ الصَّـوْتُ شَطْـرَ القـافلـه
سبـقَ القلـبُ إليـه الأذنـا ... كبـلالٍ لصـلاةٍ أذَّنـا
دارَ قلبـي شطـرَ هـذا المطـربِ ... دورةَ الإبـرة شطـر القُطْـبِ
« غننـي يـا منيتـي ! لحـنَ النُّشـور ... ابـركـي يـا نـاقتـي ! تـمَّ السُّـرور
عُـدْتَ يـا عيـدي إلينـا مـرحبـا ... نِعْمَ ما روَّحتَ يا ريحَ الصَّبا[2] »

***

حبـذا الصَّـوْتُ فَمَـنْ هـذا البشيـر ؟ ... ومـنِ الهـاتـفُ بـالقَلْـبِ الكسيـر ؟
وَمَـنِ المُسْعـدُ فـي هـذي الهمـوم ؟ ... ومَـنِ البـارقُ فـي هـذي الغيـوم ؟
ومـنِ الهـابـط فـي نـورِ السَّمـا ... هـاديـاً فـي الأرض جيـلاً مظلمـا ؟

---

(١) المنشد في الشطر الأول ، منشد الشعر ، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضَّالة ، والناشد : منْ ينشدها .

(٢) جاء هذان البيتان بألفاظهما العربية في مثنوي جلال الدين الرُّومي .

ومـنِ الهـادي إلـى أرض الحبيـب ... يعـرف النهـج وقـد حـارَ اللَّبيب ؟
ومـنِ السَّـائـقُ شَطْـرَ الحَـرَمِ ... وإلـى الأصنـام سَيْـرَ الأمـمِ ؟
وَمَـنِ القـارىءُ فـي بيـت الصَّنـم ... سـورةَ الإخـلاصِ فـي هـذا النَّغـم ؟
ومَـنِ الحـرُّ الـذي قـد حطمـا ... مـن قيـود الأسـرِ هـذا الأدهمـا ؟
وَمَـنِ الآبـي علـى كـلِّ القيـود ... وَمَـنِ القـاطِـعُ أغـلالَ العبيـد ؟
ومَـنِ البـاعـثُ فـي ميـت الأمـم ... ثـورةَ العـزَّةِ مـن هـذي الهِمـم ؟
لاحَ كـالغُـرَّة فـي هـذا السَّـواد ... بـصَّ كـالجمـرة فـي هـذا الرَّمـاد
جـرف النَّـاس أتـيٌّ مـزيـد ... ضـلَّ فيـهِ المقتـدي والمـرْشِـدُ
وطغـى اللُّـجَّ عليـه والتطـم ... فـرساً كـالصَّخـر فـي هـذا الخِضَـم
عـارضَ المـوجَ علـى أغمـاره ... وطـوى اللُّـجَّ علـى تيَّـاره
سبـح اللُّـجُّ وبـالشـطِّ استقـر ... داعيـاً والنـاسُ غـرقـى فـي النَّهـر
يجـرفُ التيَّـار جسمـاً جـامـدا ... تَقْـذِفُ اللُّجَّـةُ قلبـاً خـامـدا
إنَّ عـزم الحـرِّ بحـرٌ مُـزْبـدُ ... جـائـشٌ فـي الـدَّهـر لا يَتَّئِـدُ
هـذه الأقـدارُ فـي تسيـارهـا ... هِـممُ الأحـرارِ فـي أسفـارهـا[1]
ومـنِ الشَّـاعـر يُـذكـي القـافيـه ... فهـي نـورٌ وهـي نـارٌ حـاميـه ؟
تَقْشعـرُّ الأرضُ مـن أوزانـه ... ويهيـمُ النَّجْـمُ مـن ألحـانـه
وكـأنَّ الـدَّهـرَ صـوتٌ كُتِبـا ... قـد حكـاه الشِّعـر لحنـاً مطربـا[2]
هـو بـالأشعـار بحـرٌ فـائـض ... وهـو لـلأزمـان قلـبٌ نـابـض
حـدَّثتـه الأرض عـن أخبـارهـا ... وحَبَتْـهُ الـزُّهـر مـن أسـرارهـا
هـو بـالأمـسِ خبيـرٌ بِغَـدِ ... وهـو اليـومَ نجـيُّ الأبـد
كَشَـفَ اللهُ عـن الغيـبِ لـه ... فلسـانُ الغيـب يُمْلـي قـولـه
عَـرَفَ الشَّـرقَ وراد المغـربـا ... فـانجلـى السِّـرُّ لـه مـا كُـذبـا

---

(١) هذه : مبتدأ ، وهمم : خبر .
(٢) يعني : أنَّ الدَّهر أمام الشَّاعر كعلامات الموسيقا ، والشعر قراءة هذه العلامات .

فـــرأى العلـــمَ سبيـــلاً للـــرَّدى ... إذ رأى القلـــب خليًّـــاً مِـــنْ هـــدى
صـوتُ « إقبـال » علـى شـطِّ المـزار ... أسمـعَ اليقظـان فـي هـذي الـدِّيـار

***

أيُّهـا الـدَّاعـي إلـى سـرِّ « خـودي » ... ليـــت أنَّـــا بهـــداهـــا نهتـــدي
فطـــرةُ الله التـــي أوْدَعهـــا ... كـــلُّ نفـــسٍ خـــابَ مـــنْ ضَيَّعهـــا
إنهـــا ســـرُّ الحيـــاة الخـــالـــدة ... دونهـــا كـــلُّ حيـــاةٍ هـــامـــدة
إنَّهـــا التيَّـــارُ مثـــلَ الكَهْـــربـــاء ... إن يُعطَّـــلْ لمحـــةً كـــان الفنـــاء
إنَّمـــا العيـــشُ جهـــادٌ لا يَقـــرّ ... وركـــودُ الحـــيِّ مـــوت مستمـــرّ
مـن يضـيء ذا السـرَّ فـي أعمـاقـه ... ضـاقـتِ الأفـلاكُ عـن آفـاقـه
وتعـالـى عـن حـدودِ الأزمنـة ... وتجـافـى عـن قيـود الأمكنـة
شُعـــلٌ فـــي قـــولـــه تضطـــرم ... وطمـا فـي القلـب بحـرٌ خضـرم
مُطلـعٌ فـي اليـأسِ صُبْـحَ الأمـلِ ... نـافـخٌ فـي المـوت روح العمـل
أرأيـت الغيـث فـي أرضٍ مـوات ... منبتـاً فيهـا أفـانيـن النَّبـات
هِمـمُ الأحـرارِ تحيـي الـرِّمَمَـا ... نفخـةُ الأبـرار تحيـي الأممـا
لا يُصـدُّ الحـرُّ عمَّـا يـامـل ... أو يحـدُّ البـرُّ فيمـا يفعـل
هـــو بـــاللهِ العلـــيِّ اتصـــلا ... جـلَّ ربـي عـن حـدودٍ وعـلا
مـنْ يُضـيء فـي قلبـه إيمـانُـه ... وينـرْ فـي سبلـه وجـدانُـه
فهـــو بـــالله علـــيٌّ وقـــويّ ... وهـــو بـــالله غنـــيٌّ وولـــيّ
جـــاهـــد واللهُ فـــي تيسيـــره ... تحسـبُ الأقـدارَ فـي تقـديـره
قـائـمٌ بـالحـقِّ بيـن البشـر ... مـا لـه فـي بـاطـلٍ مـنْ وَطَـر
يُمْسِـك الـدُّنيـا ولا تُمْسِكُـه ... يملـــك الأرضَ ولا تملكـــه
وتـرى الـدُّنيـا انطـوت فـي كسبـه ... ليـس منهـا ذرةٌ فـي قلبـه
إنَّـه القـانـون بـالله سـرى ... عـادلاً فـي حكمـه بيـن الـورى
يسـعُ النَّـاسَ جميعـاً همُّـه ... فـي سبيـل اللهِ مـاضٍ عـزمُـه

جـاهـدٌ فـي الخيـرِ لا يتَّئـد ... عـزمُـه فـي صَـدْرِه يتَّقـدُ
وفقيـرٌ وغنـاه لا يُحَـدّ ... فقـره استغنـاؤه عـنْ كـلِّ يـد
هـو بـاللهِ وفـي اللهِ غنـيّ ... ضـاقَ عـن هـذا الغنـى كـلُّ ثـري

***

صغار الهمم

إنَّ فـي النـاس قلـوباً جـامـده ... جـذوةُ الإقـدامِ فيهـا خـامـده
همُّهـا مـا يبتغيـه الجسـدُ ... كـلُّ مـا تهـوى طعـامٌ وددُ
حـدَّدَتْ آرابُهـا آفـاقَهـا ... فحكـتْ فـي ضِيقهـا أخـلاقَهـا
لا تبـالـي حيـن تبغـي أربـا ... عُمِـرَ الكـونُ بـهِ أم خَـرِبـا
إنَّمـا قـانـونهـا أهـواؤهـا ... سُخِّـرتْ فـي نفعهـا آراؤهـا
وتـرى أهـواءهـا تغلبُهـا ... كـلَّ حيـنٍ فـي هـوىً يجـذبُهـا
وإلـى الأرض تـراهـا مُخْلِـدَه ... لا تُـرى نحـو المعـالـي مُصْعـده
إنَّمـا آفـاقُهـا هـذا البـدن ... إنَّمـا مَبْـرَكهـا هـذا العَطَـن
إنَّمـا أحيـاؤهـا كـالـرِّمـم ... خـامـداتِ العَـزْم مـوتـى الهِمَـم

***

العالمُ مَعْبد

إنَّمـا العـالَـمُ طُـرّاً مَعْبـدُ ... كـلُّ مَـنْ أحسـنَ ، فيـه يَعْبُـد
كـلُّ مَـنْ أدلـى بقـولٍ طيِّـبِ ... ينبـتُ الخيـرَ كغيـثٍ صيِّـبِ
كـلُّ مـنْ أحسـن يـومـاً عمـلا ... كـلُّ مـن أحيـا مـواتـاً همـلا
كـلُّ مـنْ فـي أرضـه قـد زرعـا ... ليقيـتَ النَّـاس والعُجْـم معـا
كـلُّ مـنْ يغـرسُ مخضـرَّ الشَّجـر ... فيـه لـلإنسـان ظـلٌّ وثمـر

كـل مـنْ يَنْبِـطُ بئـراً فـي السبيـل ... تنفـعُ الظمـآن مـنْ حـرِّ الغليـل
كـلّ مـنْ يبنـي بنـاءً حسنـا ... كـلُّ مـنْ فـي صنعـه قـد أتقنـا
كـلُّ مَـنْ أحـدثَ علمـاً للبشـر ... ينفـعُ النـاسَ ولـم يقصـدْ لشـرّ
كـلُّ مـنْ أحـدث فكـراً مُحكمـا ... يبتغـي للنـاس خيـراً عممـا
كـلُّ مَـنْ جـدَّ وإنْ لـم يجـد ... لـم يضـع وقتـاً بلهـوٍ وددِ
كـلُّ مـنْ أثَّـر فيهـا أثـرا ... خـالـداً للخَيْـرِ مـا بيـنَ الـورى
كـلُّ مـنْ فـي دهـره قـد أجملا ... فكـرةً أو قـولـةً أو عمـلا
كلّهُـم للهِ نِعْـمَ العـابـدُ ... كلُّهـم للخيـرِ نعْـمَ القـاصـدُ
فـاصطنـع للخيـرِ فكـراً ويـدا ... ولسـانـاً وابـغِ فـي الخيـر يـدا

* * *

لا رهبانية في الإسلام

ليـس منـا مـن ثـوى فـي صـومعـه ... يحبـسُ الأعمـال والفكـر معـه
ضـاق نفسـاً عـن مجـالٍ وسعـا ... فثـوى فـي ضيقـهِ قـد خَنَعـا
ليـس شيئـاً أنْ تُـرَى معتـزلا ... عـابـداً تخشـى البـرايـا وجِـلا
إنَّمـا العـابـد مـنْ خـاضَ الحيـاة ... مـوضحـاً فيـه سبيـلاً للنَّجـاة
آخـذاً بـالعَـدْلِ مـا عنـه جِـول ... ذاكـراً مـولاه فـي كـلِّ عمـل
إنَّـه بـالحـق مـوصـولٌ ومَـنْ ... يتَّصـلْ بـالحـقِّ لا يخـشَ الفتـن
ثـورةٌ مضمـرةٌ فـي حلمـه ... إنْ يفكِّـرْ ظـالـمٌ فـي ظلمـه
أرأيـت الصَّقْـرَ فـي متـنِ الـرِّيـاح ... يطلـبُ الـرزق بعـزمٍ وجنـاح
طـائـراً فـي الجـو يسمـو عـازمـا ... لا يُـرى حـول الـدَّنـايـا حـائمـا
يـأكـلُ الجـوع ولا يـرضـى الجيـف ... لـو يـراه الجـوعُ يـومـاً مـا أسـفّ
فـإذا الجـدُّ رمـاه فـي الشَّـرك ... لـم يطـقْ صبـراً عليـه فهلـك
ليـس يحـوي الحـرَّ يـومـاً شبـكُ ... فـأسـار الحـرِّ فيـه مهلـكُ

يـا فتـى هـذا الجهـادُ الأكبـر ... عـزمـاتُ الحـرِّ فيـه تُخبـر
قـلَّ فـي النّـاس عليـه صـابـرُ ... ليـس إلا الحـرُّ فيـه ظـافـر
يـا أسيـر الـوَهْـمِ أقـدم لا تُبَـلْ ... وامـضِ فيمـن صحَّ عـزمـاً واتَّكـل

* * *

معنى التَّوَكُّل

مَـنْ يَنَـمْ عـن سعيـه لا يتَّكـل ... إنَّمـا التكـلانُ سعـيٌ متَّصـل
مُقْـدمٌ فـي أمـره المتَّكِـلُ ... واثـقٌ بـالله فيمـا يـأمُـلُ
عـازمٌ مـاضٍ علـى خيـرِ سنـن ... لا يبـالـي بِعِقـابٍ أو مِحَـن[1]
أرأيـتَ الطَّيـر فـي نـورِ الصَّبـاح ... تطلـب الـرزق بعـزمٍ وجنـاح
إنَّهـا تخـرجُ فـي كـفِّ القـدر ... مقـدمـاتٍ لا تبـالـي بـالخطـر
طـالبـاتِ الـرزق فـي كـلِّ رجـا ... تمـلأ الجـوَّ وثـوقـاً ورَجـا
يـا لهـا مـنْ أمـلٍ قـد صـوَّرا ... طـائـراً يطلـب رزقـاً قُـدِّرا
أرأيـت العَـزْمَ فـي شكـل جنـاح ... خـافقـاً لا ينثنـي دونَ النَّجـاح
لا يصـد الطيـرَ خـوفُ التَّهلُكـه ... أو تبـالـي بطـريـقٍ مهلكـه
ضـرب المختـار هـذا مثـلا ... للـذي يسعـى عظيمـاً أمـلا[2]
أرأيـتَ الطَّيـر فـي أوكـارهـا ... راجيـاتٍ رزقهـا فـي دارهـا ؟
ثـاويـاتٍ تبتغـي أرزاقهـا ... ليـس تَـذري مـنْ إليهـا سـاقهـا
مـن ونـى فـي سعيـه لـم يتَّكِـلْ ... إنَّـه للـوهـمِ والعَجْـزِ وكـل
إنَّمـا التُّكـلان عـزمٌ وعمـل ... إنَّـه الإقـدامُ فـي ضـوء الأمـل

---

(١) العقاب : جمع عقبة .
(٢) جاء في الأثر : لو توكلتم على الله حقَّ التوكل ؛ لرُزقتم كما ترزق الطير ؛ تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً .

إنَّـــه الإعـــداد والعـــزم معـــا ... إنَّـــه الحـــرُّ إلـــى القصـــد سعـــى
إنَّـــه التقـــديـــرُ فـــي سعـــي البشـــر ... هـــو عنـــدَ الله مـــنْ بعـــضِ القـــدر
هِمَـــمُ الأحـــرار فـــي إيمـــانهـــا ... سُنَـــنُ الخـــلاَّق فـــي أكـــوانهـــا
سنـــــةُ الله التـــــي لا تبـــــدَّلُ ... مـــا لهـــا كـــرُّ اللّيـــالـــي حـــوَّلُ

***

غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل

آهِ مـــنْ لـــي بقلـــوبٍ واعيـــه ... مُقْـدِمـاتٍ فـي المعـالـي سـاعيـه
آهِ مَـــنْ يفقـــه هـــذا الكَلِمـــا ؟ ... آهِ مـــنْ يـــدركُ هـــذا النَّغمـــا ؟
أيُّهـــا المسلـــمُ مـــاذا قَـــدْ عـــدا ؟ ... كنـــتَ فـــي الأرض جهـــاداً وَهُـــدى
آهِ للنُّـــور الـــذي قـــد طفئـــا ... آهِ للْقَلْـــبِ الـــذي قَـــدْ صَـــدِئـــا
آهِ للنَّـــار الـــذي تشتعـــل ... فيضـــيء الأرضَ منهـــا شُعَـــلُ
خَمَـــدتْ فـــالقلـــب بـــردٌ وهمـــود ... خَمَـــدَتْ فـــالنَّفس عَجْـــزٌ وركـــود
إنَّ هـــذا القـــول زِنْـــدٌ وحجـــر ... ليـت شعـري هـل لـديـه مـنْ شـرر
إننـــي أُضْـــرِمُ هـــذا الألمـــا ... علَّـه فـي القلـب يـذكـي ضَـرَمـا
إننـــي أنفـــخُ فـــي هـــذا السَّـــواد ... علَّ جمـراً محـرقـاً تحـت الـرَّمـاد
علَّنـــي أُذْهـــبُ هـــذا الخبثـــا ... علَّنـــي أمْحَـــقُ هـــذا العبثـــا
إنَّنـــي أبعـــثُ فيهـــم نغمـــي ... علَّنـــي أبعـــثُ مَيْـــتَ الهمـــم
إنَّنـــي أُمْطـــرُ فـــي أرضٍ مـــوات ... علَّهـــا تُنْبـــتُ ألـــوان النَّبـــات

***

الأمل

لا تـــرانـــا فـــي جهـــادٍ نيـــأسُ ... لَيْـــسَ مِـــنْ أمَّتنـــا مَـــنْ يئســـوا

أشعل الإيمان في كلِّ دُجى ... واقدحِ العزم إذا الهَوْلُ دجا
وَارْفَعَنْ في كلِّ ليلٍ شُعَلا ... وابعثنْ مِنْ كلِّ يأسٍ أملا
وصلِ القَلْبَ بخلاَّق الرجاء ... واخلقَنْ في كلِّ حينٍ ما تشاء
إنما الإنسانُ فكرٌ وعَمَل ... يَصْدعُ الظلماءَ في نور الأمل
أمل الإنسان في القلب ضياء ... وهو في الكفِّ جهادٌ ومَضاء
إنَّه النَّار التي تَشْتَعِلُ ... إنَّه النَّجمُ الذي لا يأفُلُ
إنْ دَجَا باليأس ليلٌ غَيْهَب ... يَصْدَعُ الظُّلمةَ هذا الكوكبُ
هو وَحْيُ اللهِ يهدي عبده ... ويُرِيه في الدَّياجي قَصْدَه
هو نورُ اللهِ في أفق النجاه ... هو هدي اللهِ في هذي الحياه
إنَّه القُطب إليه يَنْزِعُ ... كلُّ قلبٍ وإليه يَفْزعُ
إبرةٌ تهدي إلى قَصْدِ السبيل ... تَقْصدُ القُطْبَ وعنه لا تميل
يا دليلاً هادياً في كلِّ واد ... أنت سرُّ اللهِ في كلِّ فؤاد
يَقْدحُ القلبُ إذا ما خفقا ... شرراً منه منيراً مُحْرِقا
فهو نورٌ وهو نارٌ يَلْذَعُ ... يوضح النَّهج وفيه يَدْفعُ
فاؤْمُلْ لخيرٍ وصابرْ لا تملّ ... إنَّما الدُّنيا رجاءٌ وَعَمَل
وقضاءُ اللهِ عونُ الآملين ... وهو في عَوْنِ الأباةِ العاملين
لا يردُّ الله قلباً آملا ... لا يردُّ الله عبداً عاملا
ربَّ عبدٍ مخلصٍ قدْ أقسما ... فأبرَّ اللهُ مِنْهُ القسما[1]
وجهادُ العبد أولى أن يُبر ... إنَّه الفعلُ على القولِ أبرّ
إنَّ عزمَ الحرِّ فيه قَسَمُ ... مُضْمَرٌ يَعْلَمُه مَنْ يَعْلَمُ
قد تولَّى اللهَ هذا المقْسِمُ ... فدعاه في يقينٍ يقسم

* * *

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر : « ربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » .

الوجدان السليم

ذلك الوِجْدانُ إنْ لم يصدأ ... مِنْ غَشاواتِ الهوى أو يُطفأ
أو تحجبه رياحٌ عاتيه ... صَرْصَرُ الأهواءِ فيها سافيه
أو يجلِّلُهُ ظلامُ الغفلة ... أو يَحْجُبُه حِجابُ الشَّهوة
أيقظِ الوِجْدان يا مَنْ غفلا ... فمضى يحيا حياةً همِلا
أيقظِ الوِجْدان واسمعْ وَحْيَهُ ... أيقظِ الوِجْدان واتْبَع هديه
إنَّه المرآة ، إمَّا صُقِلا ... تبصرِ العالمَ فيه مثلا
اجْلُه بالفكر والعلم معا ... واجْلُهُ بالذِّكْرِ حتَّى يسطعا
لا تُضِعْ في السُّوق هذا الجوهرا ... لا تُطِعْ من باع فيه واشترى
لا تُضِعْ في لغوهم هذي الحِكَمْ ... لا تَغُلْ ضوضاؤهم هذا النَّغم
نحن في الدُّنيا حوانا مَهْمَهُ ... مَجْهلٌ أعلامه تشتبه
تقْصِد المنزلَ هذي القافله ... في فيافٍ خافَ فيها السَّابله
فاتْبَعَنْ خِرِّيتها لا تُبلِسِ ... وأصِخْ فيها لِصَوْتِ الجَرَسِ[1]
إنَّه الوِجْدَان في هذي الفلاه ... إنَّه داعٍ يُنادي للنَّجاه
أرأيتَ الفُلْكَ تسري ماخره ... في ليالٍ وبحارٍ زاخره
تهتدي فيها بِنُورٍ بارقِ ... من منارٍ في الدَّياجي خافقِ
تهتدي النَّهْجَ على لمحاته ... وتوقَّى الصَّخْر مِنْ ومضاته
وَهَدتْها إبرٌ لا تَغْفُلُ ... قاصداتٌ قطبَها لا تعدلُ
إنما الوِجدانُ في بحر الحياه ... إبرةُ القطبِ وَمِصْباحُ النَّجاه

* * *

(١) جرس القافلة ، وفيه إشارةٌ إلى قول سعدي الشيرازي ـ ما زمنز مقصود من خبريم ـ أبن قدرهست كه بانگ جرس ميآيد .

طغيانُ العقلِ على القَلْبِ

محنـــةٌ للنـــاس هـــذا الـــزمـــنُ ... كـــلُّ إنســـانٍ بـــه مُمْتَحـــنُ
كـــلَّ مـــا نبصـــرُ فيـــه فتـــنُ ... فتـــنٌ فيهـــا تحـــارُ الفِطـــنُ
أُطْلِـــقَ الإنســـانُ مِـــنْ أغـــلالـــه ... سُيِّـــبَ الشَّيطـــانُ مِـــنْ أحبـــالـــه
جُـــرِّدَ العـــالـــمُ مـــن أستـــاره ... وانبـــرى يكشـــفُ عـــن أســـراره
وأجـــال الفكـــرَ فـــي طيَّـــاتـــه ... ومضـــى يبحـــث فـــي ذرَّاتـــه
وأحـــاط الأرض مـــن أقطـــارهـــا ... ومضـــى يبحـــث فـــي أغـــوارهـــا
فـــارعـــاً فـــي ظهـــرهـــا أجبـــالهـــا ... مخـــرجـــاً مـــن بطنهـــا أثقـــالهـــا
طائراً في اللوح من فوق السَّحاب ... حيـــثُ لا يطمـــع صَقْـــرٌ أو عُقـــاب
طـــاويـــاً أقطـــارَهـــا لا يغتـــرب ... كـــل مـــا يسمـــو إليـــه يقتـــرب
يَسْمَـــعُ الهمـــسَ بـــأقصـــى المغـــربِ ... منْ بأقصى الشَّرق فاسمعْ واعجبِ
ضـــاقـــت الأرض عليـــه فـــانتحـــى ... فـــي ذُرى الأفـــلاك يبغـــي مســـرحـــا

* * *

آه لـــو أُعطـــي قلبـــاً خـــافقـــا ... مثـــل مـــا أعطـــي عقـــلاً بـــارقـــا
آهِ لـــو يعمـــر قلبـــاً راحمـــا ... مثـــل مـــا يَعْمـــرُ عقـــلاً راجحـــا
آهِ لـــو أعْمَـــرَ عينـــاً ســـاجمـــه ... مثـــلَ مـــا أعمـــل كفَّـــاً حـــاطمـــه
آهِ لَـــوْ هَـــذَّبـــهُ إيمـــانُـــه ... مثـــلَ مـــا مكَّنَـــهُ عِـــرْفـــانُـــه
آهِ لـــو سَيْطَـــر فـــي أهـــوائـــه ... مثـــلَ مـــا سيطـــر فـــي أجـــوائـــه
آهِ لـــو لـــم يُعْمِـــه طغيـــانُـــه ... فيهـــدِّم فـــوقَـــه بنيـــانـــه
ليتَـــهُ لـــم تُطْغِـــه أعمـــالُـــه ... ليتـــه لـــم تُعْمـــه أمـــوالُـــه
ليتـــه لـــم تعْشـــه أضـــواؤه ... وتـــوقِـــرْ سمعَـــهُ ضـــوضـــاؤه
آهِ لـــو أنَّ شعـــاع الكهـــربـــاء ... فـــي ظـــلام الصَّـــدر منـــه قـــد أضـــاء

ويلـــه مـــن مـــاردٍ قـــد دمَّـــرا ... مـــا بنـــاه مخـــربـــاً مـــا عمـــرا
ليتـــه حـــاط الـــذي قـــد شيـــدا ... بـــوئـــامٍ وســـلامٍ وهـــدى
ليتـــه حـــاطَ البـــلاد الـــزاهـــرة ... ليتـــه صـــان الجِنـــان النَّـــاضـــرة

***

إنَّ هـــذا العصـــرَ روضٌ مُـــزْهـــرُ ... كـــلُّ غُصْـــنٍ فيـــه نـــامٍ مثمـــرُ
نَضـــرتْ فيـــه فنـــون الـــزَّهـــر ... أيْنَعَـــتْ فيـــه ضُـــروبُ الثَّمـــر
آهِ لكـــنْ فـــي مهـــبِّ العـــاصفـــة ... كـــلَّ حيـــنٍ تعتـــريـــه جـــائفـــة
صَـــرْصـــرٌ تـــأتـــي عليـــه لا تَـــذَرْ ... تَحْطـــم الأغصـــانَ فيـــه والشَّجـــر
يَخْـــرُبُ البستـــان مـــنْ قـــد غـــرســـا ... يَهْـــدِم البُنيـــانَ مـــنْ قـــد أسَّســـا
كـــلُّ طـــاغٍ يـــدَّعـــي البستـــانَ لـــه ... يبتغـــي الأشجـــار والبنيـــانَ لـــه
لـــو تـــآخـــوا ورَضُـــوا بـــالمعـــدلـــه ... وجنـــوا فـــي غيـــر بغـــيٍ أكُلَـــه
لـــو تـــآخَـــوْا واهتـــدَوْا واستثمـــروا ... ثـــمَّ أسمـــىٰ عـــدلُهـــم مـــا دمَّـــروا
لأوَوْا مِنْـــه إلـــى ظـــلٍّ ظليـــل ... ورأوا فـــي زهـــره كـــلَّ جميـــل
وجنـــوا أثمـــاره وانتفعـــوا ... ونمـــا بستـــانهـــم فـــاستمتعـــوا
فتعـــالـــوا ننظـــرِ الـــدَّاء العصـــيّ ... ونـــرى الأسبـــاب فـــي الـــداء الـــدَّويّ
إنَّ هـــذا الشَّعـــر لا يحصـــي العِلَـــل ... إنَّـــه يعيـــا بـــذا الأمـــرِ الجَلَـــل
إنَّـــه لمحـــةُ عيـــنٍ عـــابـــره ... ليتـــه كـــفُّ طبيـــبٍ مـــاهـــره
إنَّـــه نفثـــةُ نفـــسٍ شـــاعـــره ... ليتهـــا كـــفُّ حكيـــمٍ قـــادره

***

البيت

معبـــــدٌ لله مـــــا أطهـــــره ... فيـــه ســـرُّ الله مـــا أظهـــره
روضـــةٌ يَنْبُـــتُ فيهـــا الخَلِـــقُ ... وتـــرى الحـــقُّ عليهـــا يُشْـــرِقُ

تنشأ الخيراتُ فيه وتربّ ... من رأى الخير له أمٌّ وأبّ !
أنفسٌ فيه كنفسٍ واحده ... ألفتها في حماها الوالده
بل شكولٌ مُثِّلت للوالد ... كالمرايا حولَ وجهٍ واحد
كلُّها حبٌّ وإيثارٌ فلا ... حسدٌ فيها ولا حقدٌ ولا
فأخٌ يفدي أخاه جاهدا ... وكلا الصنوين يفدي الوالدا
وترى الأمَّ عليهم حانيه ... تَسْهَرُ اللَّيل إليهم رانيه
وأبوهم في غدوٍّ ورواح ... يبسط الحبَّ عليهم والجناح
روضةٌ للحبِّ فيها مثُلا ... كلُّ غصنٍ بأخيه اتصلا
كلُّ خيرٍ هاهنا منبعه ... كلُّ برٍّ هاهنا مطلعه
مَسْجِدٌ يَسْعَدُ فيه الوالدان ... وهما الخلَّاقَ فيه يَعْبُدان
يَعْبُدُ الرَّحمنَ من قد عبدا ... والديه وإلى البرِّ اهتدى
فإلى توحيده مِنْ غيرِ بَيْن ... قَرَنَ الرَّحمن برَّ الوالدين
إن تشاؤوا مثلاً لا يُدفَعُ ... بيِّناً كالشمس نوراً يطلع[1]
فاقرؤوا يا قومنا كي تشهدوا ... ﴿ وقضى ربُّك ألا تعبدوا ﴾
﴿ واعبدوا الله ﴾ فهيا فاقرؤوا ... ﴿ قل تعالوا أتلُ ﴾ فيها النبأ[2]
أحكموا الأسرةَ مِنْ قرآنها ... وارفعوا بالدِّين مِنْ بنيانها
واعمروا البيت ببرٍّ ووفاء ... وسلامٍ ووئامٍ وإخاء
إنَّ هذا البيت في نظم الأمم ... مثل بيت الشعر في نظم النَّغم
كلُّ بيتٍ أُلِّفَتْ آحادُه ... آزرت أسبابُه أوتادَه

---

(١) الآية : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .
(٢) الآيتان : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء : ٣٦]
﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾
[الأنعام : ١٥١] .

ونِظـام البيـتِ مِـنْ نظـم الكَلِـم ... كـلُّ لفـظٍ بـأخيـه يَنْتَظـم
كـلُّ لفـظٍ مـن حـروفٍ أُلِّفـا ... كـلُّ حـرفٍ بـأخيـه ائتلفـا
ونظـامـاً واحـداً يُبنـى القصيـد ... ليـس فيـه مـن قصـورٍ أو مـزيـد
فـي قـوافٍ أُلِّفَـتْ أبيـاتهـا ... ورويٌّ نـاظـمٍ أشتـاتهـا
ومعـانٍ بعـد هـذا غـاليـه ... تـرتقـي الأنفُـس فيهـا عـاليـه
هـل رأيتـم قـطُّ مِـنْ شعـرٍ رفيـع ... كـلُّ بيـتٍ فيـه ذو معنـىً وضيـع
كيـف تُبنـى للمعـالـي أُمَـمُ ... مـن بيـوتٍ جمعهـا لا يُنظـمُ
مـن بيـوتٍ فـي خـلافٍ وشقـاق ... يـؤذنُ البيـتُ أخـاهُ بـالفـراق
كـل بيـتٍ فيـه لفـظٌ ثـائـر ... كـلُّ لفـظٍ فيـه حـرفٌ نـافـر
لا تقـلْ فيهـا زحـافٌ وعلـل ... بـل شـذوذٌ وسنـادٌ وخَلَـل

***

ليـت شعـري مـا أصـاب المسجـدا ... مـا أصـاب الخيـرَ فيـه والهـدى
لا أرى جمعـاً لـديـه نُظِمـا ... لا ولا صفَّـاً لـديـه قـوِّمـا
مـا أحـسُّ اليـومَ تـرتيـلَ القُـرَان ... لا ولا أسمـعُ تـرجيـعَ الأذان
خَـرِسَ المنبـرُ عـنْ أصـواتـه ... عطـلَ المحـرابُ مـن آيـاتـه
ذهـبَ العبَّـادُ عنـه قـددا ... ومضـوا فـي كـلِّ أفـقٍ بَـدَدا
غَلَـبَ الملهـى عليـه والطَّـريـق ... ومضـى فـي غَيِّـه كـلُّ فـريـق

***

روضـةُ البيـتِ أراهـا ذاويـه ... كـانـت الأمـسَ زهـوراً زاهيـه
صـوَّحَـتْ أعشـابُهـا والشَّجـر ... وذَوَتْ أوراقُهـا والـزَّهـر
صَـدَفَـتْ عنهـا عيـونٌ واقيـه ... وحمتهـا المـاءَ أيـدٍ سـاقيـه
غـاب بستـانيُّهـا دون إيـاب ... فطغـى الشَّـوكُ عليهـا والتُّـراب
إنَّهـا يـا قـومنـا إحـدى الكبـرُ ... أنْعِمـوا التفكيـر فيهـا والنَّظـر

هـي أصـل الـدَّاء أو أصـل الـدَّواء نعمـةُ الأقـوام فيهـا والشَّقـاء

* * *

اعمـروا بـالخيـرِ هـذا المسجـدا وابتغـوا الخيـراتِ فيـه أبـدا[1]
اعمـروا البيـتَ وردّوا والـديـه واجعلـوه حـرمـاً يـؤوى إليـه
نضّـروا الـرَّوضـةَ مـن إروائهـا وابتغـوا النِّعمـة فـي أفيـائهـا
أرجعـوا الطيـرَ إلـى أوكـانهـا ليشـبَّ الـولْـدُ فـي أحضـانهـا
ألِّفـوا الأحـرف فـي كِلْمـاتهـا وانظمـوا الأمَّـة مـن أبيـاتهـا

* * *

تنافر الجماعة

إنَّنـا نُبصـر فـي كـلِّ مكـان حسـرةَ الأنفس فـي هـذا الـزَّمـان
مـن وجـوهٍ مـات فيهـا الخَفـرُ وعيـونٍ حـارَ فيهـا النَّظـر
يلعـن الـوجـه أخـاه نـافـرا يبغُـض الطَّـرفَ أخـاه نـاظـرا
قطَّعـوا مِـنْ بينهـم كـلَّ سبـب هجـر النَّـاسُ حيـاءً وأدب
ثـورةً تبصـرهـا كـلَّ طـريـق يتجلَّـى الهجـر فيهـا والعقـوق
ليسـت الأمُّ بهـا أمـا تـرى لا ولا الـوالـدُ فيهـا عـزّرا
لا ولا الأختُ لهـا حـرمتُهـا مـن أخيهـا وُقِـدَتْ حسـرتُهـا
لا صغيـرٌ قـد رعـى حـقَّ الكبيـر أو كبيـرٌ راحـمٌ ضعـف الصَّغيـر
فنـرى فـي قبحهـا أفعـالَهـا تسمـعُ الألفـاظ أصـداءً لهـا
تلـكَ فيـضٌ مـن قلـوبٍ فـي نفـور تقـدحُ النيـران منهـا فـي الصُّـدور
إنَّمـا النـاس صـلاحٌ وفسـاد بـالتئـامٍ أو شِقـاقٍ وعنـاد
إننـا نبصـرُ آحـاداً ولا نبصـرُ الحُـبَّ بهـا متصـلا

---

(١) المسجد : هو الأسرة .

إنهـا الأعـداد فـي غيـر حسـاب ... لـم يـؤلفهـا على النَّهـجِ احتسـاب
ومـن الأعـداد بُغْـضٌ واختـلاف ... ومـن الأعـداد حـبٌّ وائتـلاف
ومـن الأعـداد حِقْـدٌ وشِقـاق ... ومـن الأعـدادِ رُحـمٌ ووفـاق
فـإذا سـارتْ علـى غيـر سَنَـن ... فهـي بغـضٌ وشقـاقٌ وفتـن
وإذا ألَّفتهـا فـي قـاعـدة ... فـاستقـامـتْ فـي طـريـقٍ واحـده
فهـي نظـمٌ وائتـلافٌ واطِّـراد ... وحسـابٌ بـالـغٌ كـلَّ مـراد
فـانظـروا مـا النَّظـم فـي أعـدادنـا ... وانظـروا مـا الجمـع فـي آحـادنـا
انظمـوا هـذي القلـوبَ النـافـره ... واجمعـوا هـذي الـوجـوهَ الثـائـره
املـؤوا الأنفـسَ خيـراً وهـدى ... واجمعـوا بـالحُـبِّ هـذا البـددا
اغسلـوا بـالحُـبِّ هـذا الـدَّرنـا ... أطفئـوا بـالـودِّ هـذا الضَّغنـا

* * *

مـا ينـالُ الحُـبُّ يـومـاً بـالهـوى ... إنَّمـا الأهـواء أسبـابُ النَّـوى
يجمـعُ الحـقُّ نفـوسـاً شـارده ... إنَّ للحـقِّ طـريقـاً واحـده
ليـس إلا الحـقُّ فـي جمـع القلـوب ... مـا سـوى الحـقِّ إليـه نستجيـب
أرضعـوهـا الحـقَّ فـي ألبـانهـا ... أشعـروهـا الحـقَّ فـي أحضـانهـا
واجعلـوهُ قبلـةً فـي كـلِّ حيـن ... لا تـزيغـوا عـنْ شمـالٍ أو يميـن
ومـن الحـقِّ إلـى الخيـرِ طـريـق ... ليـس إلا الحـقُّ للخيـر رفيـق
ومـن الخيـر إلـى الحـبِّ المسيـر ... ومـن الحـبِّ إلـى الجمـع المصيـر

* * *

لا يُـرى للحـقِّ إلا مَشْـرِق ... كـلُّ حـقٍّ مـن سنـاه يُشْـرقُ
ليـس للخيـرات إلا منبـعُ ... كـلُّ خيـرٍ مـن جـداه ينبـعُ
إنَّمـا للحـبِّ نهـرٌ واحـد ... كـلُّ ينبـوعٍ إليـه عـائـد
مَنْبـعُ الحـقِّ هـو الحـقُّ المبيـن ... بـاريٌ بـالحـقِّ كـلَّ العـالميـن
منبـعُ الخيـرِ هـو البـرُّ الـرَّحيـم ... بـرُّه فـي خلقـه فيـضٌ عميـم

منبعُ الحبِّ هو الله العلي ... هو مولى للبرايا وَوَلي
فأضيئوا النفس من إيمانها ... وانظروا الآياتِ من إحسانها
املؤوا الأنفس من نور اليقين ... وانظروا إبداعها في كلِّ حين
إنَّما الإنسان من لحمٍ ودم ... فيه قلبٌ كسراجٍ في ظلم
ذلك اللحم إلى ماءٍ وطين ... ذلك النُّور لربِّ العالمين
فإذا أطفىء فيه ذا الضِّياء ... فهو وحشٌ همُّه سفكُ الدِّماء
إنَّ هذا الجسمَ ذو وزنٍ وحد ... وبهذا القلب كونٌ لا يُحَدّ
هالكٌ مَنْ عاشَ في ضيقِ الجسدْ ... منْ يعشْ في وسعة القلب خَلَدْ
أنت في جسمك مِنْ طينٍ وماء ... أو قوامٍ فيه لحمٌ ودماء
أنت في الروح حياةٌ وطماح ... ورجاءٌ وجهادٌ وكفاح
أنت في قلبك سرُّ العالمين ... فيه أمرُ اللهِ للخلقِ مبين
لا يحدُّ القلبَ في الآفاق حدّ ... إنَّه يكبرُ عن وزنٍ وعد
أيُّها الغافلُ عن سرِّ الإله ... انظرنْ في القلبِ يوماً لتراه
ضاق عنْ أمرِ الإله العالمُ ... وحواه القلب ، هذا الخاتمُ
كلُّ ما أدركتَ منْ معنىً جميل ... كلُّ ما أبصرتَ مِنْ أمرٍ جليل
كلُّ ما أوعاهُ تاريخُ البشر ... من جلالٍ وجمالٍ وعبر
كلُّ ما سُجِّلَ عن أخياره ... كلُّ ما حُدِّث عن أبراره
هو نورُ الله في القلب الصغير ... أو تجلِّي اللهِ في الكونِ الكبير[1]
هو نبضُ القلبِ في الدُّنيا انتشر ... هو خفقُ القلب يرمي بالشرر
إنَّما الإيمان بالدُّنيا يدور ... فهو نار في دجاها وهو ثور
فاجعلوا مِنْهُ تباشيرَ المنى ... واملؤوا الآفاقَ منه بالسَّنا
ارفعوا الأنفسَ فيه صاعده ... ارفعوها عن معانٍ خامده
عن متاعٍ وطعامٍ وشراب ... ومعانٍ كلُّها نبتُ التُّراب

---

(١) الكون الكبير : القلب .

قيمة الإنسان قلبٌ لِلْعُلى ... لا رياشٌ ومتاعٌ للبلى
كلُّ ساعٍ قَدْرُه بغيتُه ... وزنُه بين الورى مَنْبتُهُ
أيُّها القانع دوداً في تراب ... حلِّقَنْ في جوِّها مثل العُقاب
أيُّها السادرُ في لهوٍ وَدَدْ ... منْ لهذا الكونِ في يومٍ وغَد
أنقذوا الإنسان من هذا الرَّدى ... أبصر الإنسان يا قومي هوى

* * *

أيُّها المسلمُ يا منْ خُلقا ... ليكونَ الحقُّ فيه خُلُقا
انهضنْ يا صاح بالعبءِ الثَّقيل ... أنت في الأرضِ عن الله وكيل
قد قضى الخلَّاق بالأمر إليك ... قسم الأرزاق يوماً بيديك
سطِّرنْ بالحقِّ في هذي البلاد ... واحكمنْ بالعدلِ ما بينَ العباد
أنقذِ الإنسان من هذا الشَّقاء ... وأزل من أرضنا هذا العناء
املأ الأرض بحبٍّ وصفاء ... وسلامٍ ووداٍد وإخاء
واحكمنْ بالحقِّ في أرجائها ... وانْعَمَنْ بالأمن في أفيائها
واملأ الآفاقَ حقّاً وسَنَا ... واملأنْ بالخيرِ آفاقَ الدُّنا
علِّمِ الإيمان والحقَّ العلي ... علِّمِ الإيثارَ والزهدَ الغني
زهدَ مَنْ يملك آلاف الألوف ... وهي في عينيه لغوٌ وزيوف
قولةٌ في الحقِّ أعلى عنده ... فعلةٌ في الخير أغلى عنده
كلُّ ما يمسكُ منها درهمُ ... كلُّ ما ينفق منها مغنمُ
هذهِ الأموالُ جمعاً يا بني ... لا تساوي ذلةَ الحرِّ الأبي
إنَّها اللعبةُ في عينِ الحكيم ... إنَّها الدِّرْهمُ في كفِّ الكريم
جوهراً يحسبُ من لا يعرفُ ... وهي عند العارفين الصَّدَفُ
إنَّما الجوهر قلبٌ قد أضاء ... وَسِعَ الأرضَ جميعاً والسَّماء
لا يعافُ الحرُّ أكلَ الطَّيبات ... آخذاً في الأرض كلَّ الثَّمرات
ربَّما استولى على أعدادها ... ربَّما أوفى على آمادها

آخـــذاً أو معطيـــاً لا يَشْـــرَهُ ... رابحـــاً أو خـــاســـراً لا يـــأبـــه
عبَّـــد الـــدُّنيـــا ولا تستعبـــده ... فـــاكهـــاً فـــي نعمـــةٍ لا تفســـده
حـــائمـــاً للـــرِّزقِ صقـــراً طـــائـــرا ... لا يُـــريـــغُ الـــرزَّاق فيهـــا صـــاغـــرا
فـــإذا شِيْـــمَ هـــوانـــاً فـــزعـــا ... مثـــل مـــا يَفْـــزعُ مـــن قـــد لُسعـــا
واستمـــدَّ العـــزَّ مـــنْ همَّتـــه ... واستثـــار النـــار مِـــنْ عَـــزْمَتِـــه
فـــإذا المـــاءُ لهيـــبٌ ودُخـــان ... وإذا الحلـــمُ ضـــرابٌ وطِعـــان
وإذا سُـــدَّ عليـــه كـــلُّ بـــاب ... فـــارقَ الـــدُّنيـــا إلـــى غيـــر إيـــاب
إنَّ مـــوتَ الحـــرِّ فـــي ذلتـــه ... وحيـــاةَ الحـــرِّ فـــي عـــزَّتـــه

***

قـــالَ لـــي شيـــخٌ وقـــورٌ ألمعـــي ... مـــن بنـــي ينبـــع شهـــمٌ عـــربـــي
كنـــتُ يـــومـــاً فـــي عيـــونٍ ونخيـــل ... في القرى من ينبع النخلِ الجميل
ومعـــي مـــنْ أهـــل نجـــدٍ نَفَـــرُ ... اصطيـــادُ الطَّيْـــر فيهـــمْ وطـــر
وإذا صقـــرٌ علينـــا حلَّقـــا ... ســـابحـــاً فـــي جـــوِّه قـــد خفقـــا
أســـرعَ الـــرفقـــةُ فـــي نَصْـــبِ الشَّـــركْ ... وســـمـــانـــى وضعـــوهـــا فـــي الشَّـــبـــكْ
وهـــوىٰ فـــانقـــضَّ هـــذا الأجـــدلُ ... بـــل هـــوىٰ هـــذا القضـــاءُ المنـــزلُ
فطـــوى سقطيـــه هـــذا المهلـــك ... وثـــوى فـــي حَبْلـــه يـــرتبـــكُ
وأتـــى الصَّيَّـــادُ للطيـــرِ الأسيـــر ... عينـــه فـــي اللَّـــوح لكـــنْ لا يطيـــر
ســـابـــحُ الجـــو بخيـــطٍ علقـــا ... ذلـــك الخفَّـــاق فيـــه أخفقـــا
ذلـــكَ الصَّيـــاد فـــي جـــوِّ السمـــاء ... صـــاده بـــالختـــل صيـــادُ القضـــاء
قـــاهـــرُ الجـــو بعـــزمٍ وجنـــاح ... بـــدَّلَ الشُّبَّـــاك مـــنْ مَتْـــن الـــرِّيـــاح
ضـــاقـــت الأجـــواء عنـــه مســـرحـــا ... كيفَ يرضى في إسارٍ مطرحا ؟
ثـــمَّ قـــالَ الشيـــخ جئنـــا ننظـــر ... لنـــرى الأجـــدلَ أنَّـــى يـــؤســـر
فـــإذا دمعـــةُ عيـــنٍ هـــاملـــه ... وإذا المهجـــةُ فيهـــا ســـائلـــه

ذا يسمَّى «الحرُّ» من بين الصُّقور ... لا يطيقُ الأسر من بين الطيور[1]
فكنِ الصَّقر الأبيَّ العاليا ... وكنِ الحرَّ الكريم الآبيا
واحذرنْ يا حرُّ هذي التَّهلكه ... احذرنْ من خوضِ هذي المعركه
إنَّها معركةٌ للأبطن ... ضلَّ في غوغائها ذو الفِطَن
في وغاها كلَّ حزمٍ ضيَّعا ... غابَ عنها العقلُ والقلبُ معا
لا تغرَّنْكَ مرايا بارقه ... وفنونٌ وعلومٌ خارقه
إنَّها رأسٌ بلا قلبٍ يسير ... إنَّها هزجٌ ومزجٌ وسعير
قد أضلَّ الغيُّ هذي الأمما ... فثوى إبليس فيها حكما
فدعاها في ظلامٍ تصطدم ... ورماها في ضلالٍ تحتدم

***

الشيوعية

أحدثُ الدَّعوات في هذي الأمم ... تسلُك الإنسان في سِلْكِ الغنم
تَعِدُ الإنسان بالمرعى الخصيب ... فيه عُشْبٌ ورُغاءٌ ونَبيب
تَعِدُ الإنسان أعشابَ الرَّبيع ... ثمَّ عيشٌ مثل ما عاش القطيع
يوعدُ المرعى ولا شيء له ... وعصا الرَّاعي تربه أكْلَه
ليس يرغو سربُهم : أينَ المسير ... لا ، ولا يثغو إلى أينَ المصير
ويتمُّ الشَّبه فيه بالغنم ... قطعةُ عن منبعِ الخير العَمِم
كفرُه بالله والخير وما ... فيه إنسانٌ عن العُجم سما
وضياعُ البيتِ منه والرَّحِم ... وحنانِ القلب من أختٍ وأم
كافرٌ بالله لا بالوثن ... كافرٌ بالسِّلمِ لا بالفتن
يبصر الظُّلمةَ عند الصَّنم ... عن ضياء الله والحقِّ عمي

---

(١) الحرُّ : نوع من الصقور قلَّ أن يعيش بعد إمساكه .

كلُّ ما في البيت من ودٍّ وحبّ ... لا يساوي عنده مكيالَ حَبّ
كلُّ ما يدعو أناسٌ بالشعور ... لا يساوي عنده كفَّ شعير
ذاكمُ السَّيرُ وهذا المنتهى ... أنعموا التفكيرَ يا أهلَ النُّهى

* * *

إقبال

بيَّنَ الإقبالُ منْ سرِّ الحياه ... وأزالَ السِّتر عن نورِ النجاه
بيَّن الإقبالُ منْ سير الزَّمان ... وأفاضَ النُّور من هدي القُران
بثَّ في النفس كلاماً منْ شَرر ... منه عشقُ الحقِّ في القلبِ استعر
فتقتْ نظراتُه كلَّ حجاب ... فرأى الدَّوحة من تحت التُّراب
ضاقتِ الآفاقُ عن نظراته ... ضجَّت الأفلاك من أنَّاته
وَصَلَتْهُ نفحةٌ منْ ربِّه ... فتجلَّى نورُه في قلبه
قد ثوى في قلبه كلُّ الجهات ... واستوى في فكره ماضٍ وآت
سال في ألحانه دمعٌ ودمُ ... والتقى الماءُ عليها والضَّرم

* * *

يا بَرودَ القلبِ خذْ مِنْ نارِه ... فالحياةُ الحقُّ في أشعاره
يا موات القلب خذْ من رجعه[1] ... يا جمودَ العين خذْ من دَمْعه
يا صغيرَ الهمِّ خُذْ من همَّته ... يا كليلَ العَزْم خُذْ من عزمته
يا أسيرَ اليأسِ خذْ آماله ... في دجى اليأس أثِرْ أقواله
أيُّها المسلم صعد في السماء ... وابلغنْ في جوِّها أعلى العلاء
وخذِ الإقدامَ منه والطِّماح ... وجناحاً قاهراً هُوجَ الرِّياح

---

(١) الرَّجع : المطر ، كماء ، جاء في القرآن .

ذا جلالُ الدِّين منْ خَلْفِ العُصور ... قـد أتـى فـي شِعْـرِهِ نـارٌ ونـور[1]
إنَّـــه الإســـلام فـــي عـــزَّتـــه ... إنَّـــه الإيمـــانُ فـــي قـــوَّتـــه
إنَّـــه القـــرآن فـــي أنـــواره ... إنَّـــه الفـــرقـــانُ فـــي أســـراره

* * *

بلِّغـي يـا ريـحُ فـي شـطِّ النَّـوى ... أدمعـــي قبـــراً بـــلاهـــور ثـــوى
وامـضِ يـا بـرق بـوجـدي وهيـامـي ... أبلغـنْ قبـراً بـلاهـور سـلامـي
إنَّ : إقبـــالاً بـــلاهـــور أقـــام ... رحمـــةُ اللهِ عليـــه والسَّـــلام

* * *

دعاء

فـالـقَ الإصبـاحِ ربَّ المشـرقيـن ... بـاسـطَ الليـل وربَّ المغـربيـن !
أنـت فـي الصُّبـح ضيـاءٌ فـي جمـال ... أنـت فـي الليـل ضيـاءٌ فـي جـلال
نـاشـرَ الشَّمـس خِضَمَّـاً مـن ضيـاء ... طـاوي الـذَّرةِ شمسـاً فـي خفـاء
أنـت نـورٌ فـي ظهـورٍ وجـلاء ... أنـت نـورٌ فـي حجـابٍ وخفـاء
يـا جليسـاً فـي دُجـى أستـاره ... يـا خفيـاً فـي ضُحـى أنـواره
يـا أنيسـاً فـي قلـوبِ العـارفيـن ... وحيـاةً لقلـوب الغـافليـن
يـا ضيـاءَ العيـن فـي النـور العمـم ... وضيـاءَ القلـب فـي داجـي الظُّلـم
قـربُـك المـؤنـس فـي هـذي القفـار ... هـديـك المنقـذ فـي هـذي البحـار
نـاظـمَ الكـونِ البليـغِ المبـدعـا ... محسنـاً مطلعَـه والمقطعـا
خلقُـك الألفـاظُ فيـه وافيـه ... أمـرُك الـوزنُ لـه والقـافيـه[2]
كـلُّ لفـظٍ فيـه نُظَّـارٌ إليـك ... كـلُّ معنـى فيـه بـرهـانٌ عليـك

---

(١) مَولانا جلال الدين الرومي ، والشاعر يعترف باقتدائه به .
(٢) في القرآن الكريم : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

منكَ هذا العقلُ ، هذا الثَّائرُ ... طالبٌ إيَّاكَ ساعٍ حائرُ
جاوز الأفلاك يسعى نحوكا ... يَكْشفُ الأستار يبغي وجهكا
منكَ هذا القلبُ ، هذا الخافقُ ... في الدياجي منك نورٌ بارق
ذاكرٌ إيَّاك راجٍ كلَّ حين ... خفقُه ذكرٌ وشوقٌ وحنين

* * *

اجعلن عقلي ضياءً ثاقبا ... يَصْدَعُ الباطل حقّاً صائبا
واشددَنْ فكري بصدقٍ وسداد ... واحبُني التوفيقَ في كلِّ مراد
واملأنْ قلبي بحبٍّ وصفاء ... واحْفَظَنْهُ منْ شقاقٍ ومِراء
وارْفَعَنْ في الحق صوتي عاليا ... وجناني فيه عضباً ماضيا
واجْعَلَنْ وجهك قصدي لا سواه ... هوِّنَنْ في عين قلبي ما عداه
وامنح المسلم قلباً خافقا ... واحبُه بالعلم عقلاً بارقا
امْنَحَنْهُ العقلَ والقلبَ السَّليم ... واهده ربِّ الصراطَ المستقيم
واجْعَلَنْهُ في البرايا حكما ... قاضياً بالعدلِ إمَّا حكما
اجْعَلَنْهُ قائداً بين البشر ... هادياً للخير لا يسعى لِشَر

* * *

أنقذِ الإنسان من هذي الغُمَم ... أنْجِيَنْ مِنْ بغيها هذي الأمم
هدم الإنسان ما قد عمرا ... حينما أمَّر عقلاً كفرا
فاهدِ بالإيمان عقلاً حائرا ... واجعلِ القلب عليه آمرا
أدْرِكِ النَّاس بحبٍّ ووئام ... إنَّك الدَّاعي إلى دار السلام[1][2]

* * *

---

(١) في القرآن الكريم : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس : ٢٥] .

(٢) تمت الترجمة عشية يوم الجمعة السابع من رجب سنة ١٣٧٠ من الهجرة ، في مدينة كراچي . ولله الحمد أولاً وآخراً ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] . المترجم الدكتور عبد الوهاب عزام .

الديوان الرابع

زبور العجم

نقله إلى العربية شعرا
الدكتور حسين مجيب المصري

هذا الدِّيوان ـ في الأصل ـ جزءٌ هو أشبه بالفصل ، ترتيبه قبل الأخير في الدِّيوان ، عنوانه : « زبور العجم » .

وليس من التزيد وتجاوز الحد قولنا : إنه على لطافة حجمه يستغرق جمهرة أفكار محمد إقبال في عموم وشمول ، ويكشف النقاب عن وجه الحقائق التي أومأ إليها الشاعر ، ويوضح على نحوٍ دقيق عميق قيماً ومثلاً كان حائاً عليها موجباً للأخذ بها ، كما يجري عليه صفاته ويميزه بسماته مفكراً ، يغوص على الجوهر منصرفاً عن المظهر ، في دعوةٍ بلغتْ من الجرأة مداها ، يتمسَّك صاحبُها فيها التمسُّك الشَّديد العنيد بمذهبه الجديد ، ضارباً صفحاً عن معروف القوم ومألوفهم في العصور الخوالي ، وإن كان في نظرهم مقدساً من تراثهم .

محتوى الديوان

يحتوي أصل الديوان على أربعة أقسام :

القسم الأول : فيه دعاء ، وست وستون قطعةً أكثرُها بدون عنوان .

القسم الثاني : فيه خمسٌ وسبعون قطعةً تقلُّ فيها العناوين أيضاً .

القسم الثالث : (الّذي هو بين أيديكم) هو بعنوان « حديقة السرِّ الجديد » (گلشن رازجديد) وهو على طريقة «گلشن راز » .

أخرجه الشاعر عام ١٩٢٩م ساجلاً به كتاباً لصوفي من أهل القرن السابع وأوائل الثامن هو الشيخ محمود الشبستري ، عنوانه روضة السرِّ (گلشن راز) ، ألَّفه الشيخ الشبستري إجابة لأسئلة في التصوُّف أرسلها إليه بعض الصُّوفية ، ولهذا سماه الشاعر ـ محمد إقبال ـ « روضة السر الجديد » (گلشن راز جديد) وفيه يُجيب عن تسعة أسئلة فيها رقائق فلسفيَّة وصوفيَّة .

القسم الرابع : كتاب العبودية ، ويبيِّن فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة والفنون الجميلة على مذهبه المعروف .

وإليكم الآن القسم الثالث من هذا الديوان الّذي نقله مِن الفارسية إلى العربية شعراً الأستاذُ حسين مجيب المصري :

لـك عيـنٌ ، نظـراً فيهـا خلقـت ... لـك نفـسٌ ، ولهـا دُنيـا خلقـت
نـامَ هـذا الشَّـرقُ لا يـرعـاه نَجْـم ... بنشيـد العَيْـش فجـراً قـد خلقـت[1]

***

تمهيد

خبـا فـي الشَّـرق ذيَّـاك اللهيـبْ ... فـأيـن الـرُّوحُ بـل أيـن الـوجيـب[2]
وأضحـى صـورةً تـرنـو إليهـا ... ومـا للعيـش مـن ذوقٍ لـديهـا[3]
يجـافـي قلبُـه طيـفَ الأمـانـي ... ويُسكـت نـايَـه رجـعُ الأغـانـي[4]
عـن المقصـود مـن قـولـي أبنتُ ... علـى سفـرٍ لمحمـودٍ أجبـتُ
تـوالـت بَعْـدَ ذا الشيـخِ العهـود ... ومـا لِلنَّـار فـي روحٍ وقـود[5]
لنـا كَفَـنٌ ونَـرْقـدُ فـي ثـرانـا ... قيـامُ البعـثِ يـومـاً مـا عنـانـا[6]
وفـي تبـريـزَ عيـنٌ للحكيـم ... رأتْ آثـارَ جنكيـزَ الظَّلـوم[7]

---

(١) رعى النجم : راقبه ، وانتظره . وفي الأصل أنَّ الشرق نام مستتراً عن النجم .
(٢) خبت النار : انطفأت . الوجيب : خفقان القلب .
(٣) يرنو : ينظر في سكون ودوام . الذوق : نورٌ يلقيه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل .
(٤) يجافي : ضد يواصل ويؤانس . الرجع : الصَّدى .
(٥) أبان : أفصح وبين . والسفر : الكتاب . والإشارة إلى كتاب گلشن راز لمحمود الشبستري الذي نظم الشاعر منظومته تلك في الرد عليه . وقدت النار وقوداً : اشتعلت .
(٦) الإشارة في قيام البعث إلى تحرك الهمم إلى العمل على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة . عنانا : أهمَّنا .
(٧) تبريز : مدينة في شمال إيران ينسب إليها الشبستري . وإقبال يذكر ما ماج به عهد المغول من جسام الخطوب ، وقد عاصر الشبستري هولاكو ، فذكر چنكيز على سبيل المجاز .

ولكنْ ثورةٌ أخرى وَجَدْتُ ... وشمسٌ غير هذي ما شهِدتُ
رفعتُ أنا عن المعنى النِّقابا ... جعلتُ الشَّمسَ ما كان الترابا
ألستَ ترى بلا كأسٍ خُماري ... وليس لشاعرٍ غيري شعاري[1]
وكلُّ الخيرِ فيمن قال تَعْدَم ... بأنِّي شاعرٌ يا صاح فافهم[2]
فما أشتاقُ داراً للحبيب ... وما في القلب منْ وَجْدٍ مذيب
ترابي ليس من هذا الممر ... وفيه القلبُ لا يشقىٰ بأسر
لقد صافيتُ جبريلَ الأمينا ... عَدُوّاً لا أشاهدُ لي مبينا[3]
بفقري كان لي مالُ الكليم ... وجاهُ الملكِ في سَمَل العديم[4]
وما الصَّحراء تحويني تُرابا ... ولا الدأماء تطويني عُبابا[5]
زُجاجي منه ترتعد الصُّخورُ ... وأفكاري بلا شطٍّ بُحور
هي الأقدارُ تكمنُ خلف ستري ... قياماتٍ أقمتُ بمحضِ أمري
بذاتي برهةٌ ها قد خلوتُ ... بدنيا الخُلدِ أخلقها بدوت
وليس العارُ من شعري عليا ... فللعطَّار لن تجدِ السَّميَّا[6]

---

(١) الخمار : صداع السكر . يقول : إنَّ مذهبه مخالف لمذهب غيره من الشعراء .

(٢) عدم الشيء : لم يجده . يا صاح : يا صاحبي ، حذف آخره للترخيم . وكأنما إقبال يكره أن يعدَّ شاعراً .

(٣) العدو المبين : الشديد العداوة .

(٤) الكليم : موسى عليه السلام . وظاهر أنَّ الإشارة إلى قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وقد أراد موسى أنه فقير الدنيا لأجل ما أنزل الله إليه من خير الدين وهو النجاة لأنه كان عند فرعون في ملك وثروةٍ ، وقال ذلك وهو راضٍ بهذا البدل ، وفرحاً به وشاكراً له ، والفقر عند الصوفية من مقاماتهم . وهو ليس فقدان الغنى ، بل فقدان الرغبة فيه والميل إليه ويؤثر عنهم قولهم (الفقر فخري) . السَّمل : الثوب البالي . العديم : الفقير .

(٥) الدأماء : البحر . والعباب : الموج .

(٦) العطار : هو الشاعر الفارسي الصُّوفي « فريد الدين العطار » من أهل القرن السادس الهجري . وله منظومة بعنوان منطق الطير ، يصور فيها فناء الصُّوفي في الذات =

بـــروحـــي للحيـــاة مـــع الفنـــاء صـــراعٌ ، لا أرى غَيْـــرَ البقـــاء
رأيـــتُ ثـــراك عـــن روحٍ غـــريبـــا ففيـــه نفخـــتُ مـــن روحـــي دبيبـــا[1]
ولـــي فـــي القلـــب وهـــاجُ السَّعيـــر دجـــاكَ أنِـــر بمصبـــاحـــي المنيـــر[2]
وذاك القلـــبُ حـــبٌّ فـــي ثـــراه كلـــوحٍ خطَّـــه مـــا فـــي ســـواه[3]
وذوق الـــذَّات شهـــدٌ فـــي لهـــاتـــي وهـــذا كلُّـــه مـــن وارداتـــي[4]
لقد جربت ذلكَ في البدايه منحت الشرقَ منه في النهايه
وجبـــريـــلُ كتـــابـــي إنْ رآه أنـــارَ لنـــا بلمـــحٍ مـــن سنـــاه[5]
لـــربِّـــي ظـــل يشكـــو مـــن مقـــامـــه وحـــالُ القلـــب بيّـــن فـــي كـــلامـــه
جـــــلاء للتَّجلِّـــــي لا أريـــــد ولكـــنْ مـــا حـــوى القلـــبُ العميـــد[6]
كففـــتُ عـــن الـــوصـــالِ السَّـــرمـــديّ لـــذذتُ شكـــاةَ قلـــبٍ لـــي شجـــي[7]
غرورَ المرءِ هبني والخضُوعا إذا ما ذابَ أوْ أمسى دُموعا !

السؤال الأول

وقفتُ حيال فكري في التحيُّر فما مفهوم ما يُدعى التفكُّر

= الإلهية . وكأنما يريد إقبال ليقول : إنَّ شعره في تصوير مذهبه مغاير لشعر العطار . السَّميُّ : النظير هنا .

(١) الدبيب : دبُّ الشراب والسُّقم في الجسم دبيباً : سرى ، وكأنه مشى .

(٢) السعير الوهاج : النار المتأججة المضيئة .

(٣) يشبه قلبه باللوح الذي كتب فيه . غير أنَّ ما يحويه مخالفٌ لما يحوي غيره .

(٤) اللهاة : لحمة في الحلق . الواردات : ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمُّدٍ من الإنسان .

(٥) السنا : الضوء . وقد صرفنا المعنى عن أصله بعض الشيء في ترجمة هذا البيت خشية فهم المبالغة فيه على ظاهرها .

(٦) العميد : من هدَّه العشق .

(٧) السَّرمديُّ : الخالد . والشَّجيُّ : الحزين .

طريقٌ شرْطُها من أيِّ فكر ؟ نطيعُ اللهَ ثـمَّ نكـادُ نكفـر !

الجواب

بِصَـــدْرِ المـــرءِ منَّـــا أيُّ نـــور عجيـــبٌ ، غيبُـــه عَيْـــنَ الحضـــور
بـــدا لـــي الثَّـــابـــتُ السَّيـــارُ جهـــرهْ أراه النَّـــار أو نـــوراً بنظـــره[1]
وفيـــه النَّـــار حينـــاً مـــنْ دليـــل ويَسْطَـــعُ نـــورُه مِـــنْ جبـــرئيـــل
بهـــذا النُّـــور للـــرُّوح الشُّـــروق شعـــاعٌ منـــه شمســـاً قـــد يفـــوق
بمـــسِّ التُّـــرب ينـــأى عـــن مكـــانٍ بقيـــدِ اليـــومِ يخـــرجُ مِـــنْ زمـــان[2]
ومـــا بتـــردُّدِ الأنفـــاس يبقـــى دؤوبـــاً مثلـــه فـــي البحـــث تلقـــى ؟
ويهنـــأ فـــي الشـــواطـــىءِ بـــالمقـــام يعـــبُّ البحـــرَ أحيـــانـــاً بجـــام[3]
عصـــا مـــوســـى وهـــذا كـــان بحـــرَه وَقَـــدْ ضُـــرِبَـــتْ فشقَّـــت منـــه صَـــدْرَه
غـــزالٌ ، وهـــو يـــرعـــى فـــي السمـــاء ويُـــرْوىٰ مِـــنْ مجـــرتهـــا بمـــاء[4]
لـــه فـــي الأرضِ والـــزَّرقـــا مقـــر وحيـــداً بيـــن قـــافلـــةٍ يمـــر[5]
ومـــن أحـــوالـــه ظلـــمٌ ونـــور وجنـــاتٌ ومـــوتٌ ثـــمَّ صُـــور
لإبليـــسَ وآدمَ منـــهُ مظهـــر ويَكْمُـــن تحتـــه لا شَـــكَّ مخبـــر[6]

---

(١) جهرة : عياناً . أو : بمعنى الواو .
(٢) الترب : التُّراب . اليوم : المراد به هنا مرور الليل والنهار .
(٣) عبَّ الماء : شربه بلا تنفس ، والجام : الكأس .
(٤) المجرة : نجوم تسمى حاملة التبن أو ناثرته في الفارسية ، والطريق اللبنية في الإنجليزية ؛ لأنها تشبه طريقاً يتناثر فيه التبن ، كما شبهت في الشعر الفارسي والعربي بالنَّهر .
(٥) الزرقاء : السماء .
(٦) يشير إلى أن إبليس مخلوق من نار وهو يجسد الفكر ، أمَّا آدم وهو يجسد الروح فإنه بالإلهام انعكاس للنور الإلهي .

إليه العينُ في شوقٍ شديد ... تجلُّ منه إعجابُ الحميد[1]

بعينٍ خلوةٍ ها قد رآها ... تجلُّ عينه الأخرى ملاها[2]

حرامٌ عَضْبُ عينٍ بامتهان ... فشرطٌ للطَّريق ، له اثنتان

وذاكَ البحرُ يخلقه بنهره ... ويُصبح جوهراً في مستقره

فيبدو صورةً ليست لجنسه ... وغوَّاصاً يصير للقط نفسه !

هياجٌ فيه منعدمٌ صداه ... له لونٌ ، وما أحدٌ رآه

وهذي كأسُه تحوي الزَّمانا ... وبالتَّدريج نُدْرِكُه عيانا

حياةٌ منه بالأوهاق تُرمىٰ ... ومنْ يعلو ولا يعلو لتُصمى[3]

ولكنْ نَفْسَها أسرتْ بذلك ... وغيرَ اللهِ أوْرَدَتِ المهالك[4]

وأنتَ العالمينَ إذا غزوتا ... فَوَحْدَكَ من هلاكٍ قد نجوتا[5]

وهذا البحثُ في القفر احذرنَّه ... عليكَ بعالمٍ فيك ادخلنَّه

ضعيفٌ ؟ خذْ من الذَّات قوى ... تريدُ الله ؟ قرِّبها ، لذاكا

بغزو الذَّات إنْ يوماً ظفرتا ... لكَ الآفاقُ في ملكٍ وجدتا

لكَ الدُّنيا ، ليسعد يومُ نصرك ... سماءً قد شَقَقْتَ فَتِهْ بِقَدْرك

جعلت البدر يسجدُ في هوانٍ ... عليه رميت أوهاق الدُّخان[6]

---

(١) تصرفنا بعض الشيء في ترجمة هذا البيت كراهية فهم المبالغة فيه على ظاهرها ، والحميد : هو الله تبارك وتعالى .

(٢) ملاها : ملأها .

(٣) الأوهاق : جمع وهق وهو حبل ذو أنشوطة يطرح في عنق الحيوان أو الإنسان ليؤخذ به . ويصمى : يقتل .

(٤) غير الله : ترجمة ماسوا في الفارسية أي ما سوى الله . وفي هذا إشارة إلى طلب الوحدانية والانصراف عن التعدُّد إلى الواحد .

(٥) يريد بالعالمين عالم الطبيعة وعالم الذَّات .

(٦) الأوهاق : تقدَّم شرحها .

بهـذا الـدَّيـر حـرَّاً قـد أقمتـا وأصنـامـاً كمـا تهـوى نحتَّـا[1]
مـن الـدُّنيـا بملـك كـلّ حـذفـوز مقـامَ الصَّـوتِ والألـوانِ والنُّـوز[2]
وتنقصـه وأنـتَ تـزيـدُ فيـه تغيُّـرُه علـى مـا تشتهيـه[3]
بِقَطْعـك عنـه قَلْيـك كـلّ قطـع وإبطـال الطِّلسـم لسحـرٍ تسـع[4]
إذا مـا شئـتَ غـوصـاً فـي ضميـره فَقَمْحَـكَ فضِّلَـنْ علـى شعيـره
وهذا الملكُ ، والملكُ العظيم وتوءمه هو الدِّين القويم[5]

السُّؤال الثَّاني

وعلمٍ كان ساحلَ أيِّ بحر ؟ بعيـدِ القـاع يُخـرجُ أيَّ درِّ

الجواب

حيـاةٌ ، يـا لهـا بحـراً يمـور وسـاحلـه الفَطـانـة والشُّعـور[6]
عميـقٌ مـوجُـه أبـداً يميـد وفـي الشُّطـآن أطـوادٌ وبيـد[7]
عُبـابٌ فيـه قـد عَـدِمَ القـرارا فـلا تسـأل ، علـى شـطٍّ أغـارا[8]

---

(١) الدَّير القديم : من أسماء الدُّنيا في الشِّعر الفارسي .
(٢) الحذفور : الجانب . وجمعه حذافير . يقال : ذكره بحذافيره ؛ أي بجميع جوانبه ، وتفاصيله .
(٣) يريد العالم .
(٤) الطلسم : كتابة للسَّحرة . والتسع هي السموات السبع .
(٥) في رأي إقبال أنَّ الملك ينبغي أن يقوم على أساسٍ من الدين أي : الدِّين الحنيف .
(٦) الفَطانة : الإدراك ، والفهم .
(٧) يميد : يضطرب . الشطآن : جمع شاطىء . الأطواد : جمع طود وهو الجبل . والبيد : جمع بيداء وهي الصحراء .
(٨) العباب : الموج .

روى الصَّحـراءَ منقطعـاً عـن اليـمِّ ... أفاد العين معنى الكَيْف والكمِّ[1]
ومـا تلقـاه جـاء إلـى حضـوره ... ينيرُ بفضـل فيـضٍ مـن شعـوره[2]
بخلـوتـه انتشـى كـرةَ الـرَّفيقـا ... بقلـبِ الكـائنـاتِ بـدا شـروقـا[3]
ويظهـر أولًا للمستنيـر ... بمـرآةٍ ليـؤخـذ كـالأسيـر
وقـرَّبـه مـن الـدُّنيـا الشعـورُ ... فـأدرك سـرَّهـا وهـو الخبيـر
بـدا بـالعقـل مـرفـوعَ النِّقـاب ... ولكـن قـد تعـرَّى بـالخطـاب
وفـي دنيـاه ليـس لـه مُقـام ... من الدُّنيا له هذا المقام[4]
تـرى الـدُّنيـا ولكـنْ ليـسَ فيكـا ... بمـا تحـويـه فَلْتَـدَع الشُّكـوكـا
مـن الأزهـار دنيـا اللـون طـاقـه ... نُقيِّـدهـا ، لهـا منَّـا انطـلاقـه[5]
طـريـق القلـبِ سـرى إليهـا ... ويثنـي كـلُّ مخلـوق عليهـا
إذا أغْمضْـتَ عنهـا العينَ هـانـت ... وإلا البحـرَ والأطـوادَ كـانـت[6]
بـرؤيتنـا لـدنيـانـا النَّمـاء ... بنـا لِغُصـونهـا هـذا العَـلاء
ومنظـورٌ ونـاظـرُ غـورِ سـرٍّ ... تَضَـرُّعُ قلـبٍ ذرات لأمـر
أنـا المشهـودُ يـا مَـنْ أنـت تَشْهـدْ ... لتجعلنـي ، فبـالنظـراتِ أوجـد[7]

---

(١) اليمُّ : البحر .

(٢) الحضور في الاصطلاح : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .

(٣) انتشى : سكر . والمراد أنه طاب نفساً بعزلته .

(٤) المقام : بضم الميم الإقامة . وبفتحها الرياضة الروحية عند الصوفية التي توجه سلوكهم ، وهي من الأمور المكتسبة الاجتهادية وتخضع للإرادة . وقالوا : إنَّ المقام هو القيام أو موضع قيام العبد في طريق الحق . ومن مقامات الصوفية التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرِّضا .

(٥) طاقة الزهر : ما يجمع منه في حزمة . يقول : إنَّ العالم الخارجي خليطٌ من ألوان وأشكال وروائح . ونحن نقيد هذا العالم ونخضعه لنظام معين .

(٦) الأطواد : تقدم شرحها .

(٧) الإشارة هنا إلى الخلاف بين الواقعية والمثالية .

وذاتُ الشيء تَكْمُلُ بالوجود ... وبالتمكين من هذا الشُّهود
فليس زوالُها بالبعد عنَّا ... ونورُ شعورِنا فَقَدَتْهُ منَّا
تجلَّينا به الدُّنيا تكون ... بنا نورٌ تجلَّى أو رنين[1]
ومنها العونُ في اللأواءِ جَرِّبْ ... بأحوالٍ لها نظراً فأدِّبْ[2]
وأيْقِنْ أنَّ آساد الفلاة ... أرادتْ عونَ نملٍ للنَّجاة[3]
تعينك ، أنتَ تلكَ الذَّاتُ فاعرف ... كجبريل الأمين إذاً فرفرفْ
وعالمُ كثرةٍ بالعقل شاهدْ ... لتدركَ مظهراً يبديه واحد[4]
ومن ريحِ القميصِ فنلْ نصيبا ... تنسَّم منْ ضفاف النِّيل طيبا[5]
وذاتك نيِّرين بها تصيدُ ... ومن تدبيرها لهما القيودُ[6]

---

(١) إقبال لا ينكر الوجود ، بل ما يبدو من مظاهر الموجودات ، وهو يؤكد أثر العقل على ما يقع تحت الحسِّ ، ويشير إلى أنَّ العالم يحمل طابع الإنسان عليه .

(٢) اللأواء : الشدة .

(٣) هذا مذكور بقوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٧ ـ ١٩] فلما رأت النملة جنود سليمان فرت منهم فتبعها غيرها وصاحت محذرةً منبهةً . وهذا منها شبيه بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم وكأنها بذلك أنجت النّمال كما أنجت جنود سليمان من ظلمٍ كادوا يرتكبونه وهم لا يشعرون وهو سحق تلك النمال ، فعجب سليمان لها على ضعفها كيف كانت سبباً في نجاة جنوده من ظلمهم النمال من هلاكها . آساد الفلاة : أسود الصحراء . وهم هنا جنود سليمان .

(٤) إنَّ النظر في هذا الكون بكلِّ ما وسعَ أولُ دليلٍ على قدرة الواحد تبارك وتعالى .

(٥) قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان ، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف ، فارتدَّ إليه بصره . الريح : الرائحة . تنسم : شمَّ .

(٦) المراد بالنيرين الشمس والقمر .

وتلـك الـذَّات فـي دنيـاك أضْـرِم بغـزوكَ مـا تـرى أو غـابَ حطِّـم[1]

***

السؤال الثالث

يقال لممكنٍ صلةٌ بواجب وما بعدٌ وقربٌ يا مخاطب ؟[2]

***

الجواب

وهـذا العـالـمَ الفـانـي فجـدِّدْ وعقـلَ كيفـه والكـمَّ قيِّـدْ
لإقليـد وطـوسـيٍّ أراه وعقـل قـاس أرضـاً قـد كفـاه[3]
وليـس حقيقـةً فيـه الـزَّمـانُ ولا أرضٌ ولا حتَّـى المكـانُ
أقـم هـدفـاً لتـرشـقَ بـالسِّهـام وما المعراجُ فافهم من كلامي[4]
أتحـوي مطلقـاً دنيـا الجـزاء وليـس سـوى ضيـاءٍ للسَّمـاء[5]

---

(١) في الأصل المكان واللامكان أي هذا العالم والعالم الآخر . يرى إقبال أنّنا لا نتجاوز عالمنا بالعقل ، ولكننا نبلغ العالم الثاني بالرُّوح الملهمة . وتسمى هذي القوَّة الروحية سلطاناً .

(٢) في الأصل : القرب والبعد والكثيرُ والقليلُ .

(٣) هو إقليدس الذي علم الهندسة في الإسكندرية على عهد بطليموس ووضع مبادىء علم الهندسة السَّطحية . والطوسي : هو نصير الدين الطوسي فلكي رياضي ، كان معقود الصلة ببلاط هولاكو . وقد شرح كتاب الأصول لإقليدس .

(٤) رشقه بالسهم : رماه به .

(٥) في الأصل دير المكافأة . والدَّير في الشعر الفارسي يطلق على الدُّنيا . يشير إلى قوله تعالى في سورة النور ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النُّور : ٣٥] وعند إقبال أنَّ النور أقرب شيء إلى المطلق .

وما لحقيقةٍ زمنٌ وَحَدّ ... فكيف تريدُ دنيا لا تحدّ !

لها حدٌّ ولكنْ ليس يظهرُ ... ولا يخفى بها ما كان أكثر[1]

وليس ببـاطنٍ أيُّ ارتفاع ... ويقبلُ ظاهرٌ كلَّ اتِّساع[2]

إلى أبدٍ لعقلٍ ما السبيل ؟ ... فواحده كثيرٌ ، والقليل

وأعرجُ كان ، بغيته السُّكون ... على القِشْر اللبابُ له يكون[3]

ومزَّقنا الحقيقةَ في يَدَيْنا ... مظاهرَ للفوارقِ ما رأينا

وفي غير المكانِ رأى مكانا ... وكالزُّنَّار يتَّخذُ الزمانا[4]

زمانٌ ما بدا لي في الضمير ... خلقت الوقت يمضي بالشهور[5]

يمرُّ العام ، ما ساوى الشَّعيرا ... بآية ﴿ كم لبثتم ﴾ كن بصيرا[6]

لذاتِك عُدْ ، تَخَلَّص من هديرٍ ... ونَفْسَك ألقِ في قاع الضَّمير[7]

وفصلُ الجسْمِ عَنْ روحٍ كلام ... فتفرقةٌ وتمييزٌ حرام

وتخفي الرُّوحُ سرَّ الكائنات ... وهذا الجسمُ حالٌ للحياة

---

(١) في الأصل أنَّ حدها في داخلها لا في خارجها وليس في داخلها منخفضٌ ولا مرتفع ولا قليلٌ ولا كثيرٌ .

(٢) يذهب إقبال إلى أنَّ الزمان والمكان مما يقيس به العقل عالم الطبيعة إلا أن العقل يعجز عن إدراك المطلق ؛ لأنَّه يربط الواحد بغيره والقليل بالكثير .

(٣) كان هنا تامة .

(٤) راجع ما قلناه في المكان واللامكان في ديوان « هدية الحجاز » . والزنَّار : ما يشد به النصارى وسطهم .

(٥) الحقيقة في نظر إقبال لا تقبل التجزئة وهي في تغيُّر ، وليس في الإمكان قياس الزمان بالأعداد .

(٦) حبة الشعير مضرب المثل في حقارتها في الفارسية ، أمَّا آية ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فمن قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : ١٩] ولقد لبثوا في الكهف طويلاً طويلاً . وإقبال بذلك يقدِّم الحجَّة على عجز الحساب عن قياس الزَّمن .

(٧) الهدير : صوت الرَّعد والبحر .

لهـا الحنَّـاء مِـنْ صَـوْرِ عـروس ... هي المعنى ، ففي حُلَلٍ تميس[1]

تستَّـرت الحقيقـةُ بـالنِّقـاب ... ويسعدُها الظهورُ بلا حجاب

وبيـنَ الـرُّوح والجَسَـدِ الفـراق ... بغربٍ ، أين في الحكم الوفاق[2]

رجـالُ الـديـنِ سُبْحَتُهـم تـدور ... بـأمـرِ الحكـمِ ليـسَ لهـمْ شُعـور

ففـي التمـويـه منقطـعُ الشبيـه ... هـو الجسـدُ الـذي لا روح فيـه[3]

وقلبُـك ثـمَّ عقلُـك فـاصْحَبَـنْ ... إلـى الأتـراكِ فـارْحَـلْ ، وانظُـرن

بتقليـدٍ لهـم ذاتـاً أضـاعـوا ... بدينٍ ربطُ حكمٍ لم يراعوا

وكـم جـزءٍ لـواحـدٍ قـد رأينـا ... بـأعـدادٍ لنُحصيـه أتينـا

تـرى دنيـاكَ مـا يبـدو كتـرب ... أراهـا بـرهـةً مـنْ صُنْـعِ ربـي[4]

وصـورةَ ميـتٍ رسـمَ الحكيـم ... بـلا عيسـى ولا ضـربِ الكليـم[5]

ومـا مـنْ حكمـةٍ قلبـي رآهـا ... بشـوق حكمـةٍ أخـرى ابتغـاهـا

أرى الـدُّنيـا بثـورتهـا تميـد ... خفـوقٌ هـزَّ بـاطنهـا شـديـد[6]

دعِ الأعـدادَ واطـرحهـا ، لتهمـل ... وبعـض الـوقـت فـي ذاتٍ تـأمَّـل

فمـنْ كـلِّ جـزيء كـانَ أكثـر ... جنـون قـولـة الطـوسـي وآخـر[7]

---

(١) تميس : تتبختر .

(٢) يقول : إنَّ أهل الغرب يفصلون بين الروح والجسد ، وبالتالي فصلوا بين الدين والدولة ، وعكف رجال دينهم على العبادة دون أن يلتفتوا إلى شأن من شؤون الحكم في دولتهم .

(٣) يريد نظام الحكم الذي ينفصل عن تعاليم الدين . والتمويه : الخداع بالظاهر .

(٤) يريد ليقول : إنَّ العالم كتلةٌ من المواد ، ولكنَّها أحداثٌ متلاحقة . وسلوكٌ منظم ، والطبيعة للذات الإلهية ، كالطبع للذات الإنسانية ، وهي في تصوير القرآن عادةٌ إلهية ، كما يقول إقبال .

(٥) هو عيسى عليه السلام الذي أحيا الموتى ، والكليم موسى عليه السلام الذي ضرب البحر بعصاه .

(٦) تميد : تضطرب .

(٧) في الأصل : نصير الدين الطُّوسي ، وفخر الدين الرازي من أهل القرن السادس الهجري .

أرسطـــو مـــرَّةً إيَّـــاه فـــاعـــرِفْ وبيكـــون لحنَـــه يـــومـــاً لتعـــزفْ[1]
لهـــذيـــن المقـــامُ فغـــادرنَّـــهْ تضيـــعُ بمنـــزلٍ ، فحـــذارِ منْـــه
بعقلـــكَ وهـــو يـــدركُ كـــلَّ كـــمّ وبـــاطـــنَ مَعْـــدنٍ أو قـــاعِ يـــمّ[2]
علـــى دنيـــاكَ سَيْطـــرِ ثُـــمَّ هَيْمـــنْ وفـــي أفـــلاكهـــا الأجـــرامَ مكِّـــن[3]
ولكـــن حكمـــةً أخـــرى تعلـــم وذاتَـــك نـــحِّ عـــن يـــومٍ لتسلـــم[4]
ودعْ دنيا الدَّياجي والنَّهار يميناً فاطلبن بلا يسار[5]

***

السُّؤال الرَّابع

أهـــذا محـــدثٌ هجـــرَ القـــديمـــا فكانا الكونَ والباري العظيما
أمعـــروفٌ وعـــارفُـــه ، إلهـــي لم الأشواقُ أرْمَضَتِ الظَّليما[6]

الجواب

حيـــاةُ الـــذَّات إيجـــادٌ لغيـــرِ وللمعـــروفِ بعـــدٌ كـــلُّ خيـــر[7]

---

(١) أرسطو صاحب المنطق يمثل الاستنتاج ، وفرانسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي يمثل الاستدلال بالتجربة .

(٢) المعدن : المنجم . واليمُّ : البحر .

(٣) هيمن على الشيء : راقبه وحفظه .

(٤) في الأصل : عني خداع الليل والنهار .

(٥) الدَّياجي : الظلمات ، والمراد بها هنا : الليل .

(٦) يقول : إنَّ المحدث انفصل عن القديم ، فأصبح الأول العالم ، أما الثاني فالله تبارك وتعالى . . وإذا ما كان المعروف والعارف هما ذات الله ، فما الحنين الذي أضنى الإنسان . والظليم : التراب ، والمراد به الإنسان .

(٧) يقول : إن الفراق بين العارف والمعروف خيرٌ عظيم .

قـديمـاً أو مغـايـره حسبنـا ... طلسمـاً كـان حُسْبـانٌ ، فخبنـا[1]
ذكـرنـا الأمـسَ والغـد فـي دوامٍ ... (فكان) و(سوف) أسٌّ للكلام[2]
وفطـرتُنـا انقطـاعٌ عنـه كـانـا ... سبيـلاً قـد ضللنـا فـي سُـرانـا[3]
وليـس لنـا بفـرقتـه عيـارٌ ... وواصلنـا ، فـدامَ لـه القـرار[4]
بنـا وبـه ! عجيـبٌ ، أيُّ حـالٍ ... ففـرقتُنـا فـراقٌ فـي وصـال[5]
فـراق يمنـح النَّظـر التـرابـا ... وقشَّـاً مـا بـه بلـغ السَّحـابـا[6]
وهـذا العشـق يـزكـو بـالفـراق ... مـع العشَّـاق كـانَ علـى وفـاق[7]
تبـاريـح الفـراق لنـا الحيـاةُ ... تخلُّـدنـا ، فيبقينـا الممـاتُ[8]
مَـنِ المـولـى ؟ ومَـنْ إيـاه يُعبـد ... همـا سـرٌّ يـؤيِّـدُ أنْ سنخلـد[9]
يـدومُ لـه التجلِّـي نـورُ ذاتٍ ... وبيـن الجمـع معنـى للحيـاة[10]
وتلـكَ محبـةٌ فـي الجمـعِ تُبصـر ... بغيـرِ الجمـع ذا مـا ليـس تُبصـر

---

(١) مغاير القديم هو المحدث . وحسبه حسباناً : عدَّه وأحصاه . وكان هنا تامة .
(٢) في تفيد معنى المصاحبة . والأس : الأساس .
(٣) السرى : السير ليلاً .
(٤) العيار : ما يكون في الدراهم والدَّنانير من الذهب والفضة يكسبها قيمتها . والمراد به هنا القيمة . واصله : ضد قاطعه وهاجره .
(٥) في الأصل : ليس بدوننا ولسنا بدونه .
(٦) المراد بالتراب هنا الإنسان . وفي الأصل : يجعل القش جبلاً . وفي الفارسية كاه بمعنى : القش ، وكوه بمعنى : جبل .
(٧) زكا : نما وصلح . وفي الأصل : أنَّ الفراق حامل المرأة للعشق . وحامل المرأة يعين على التزين ، وإصلاح المظهر .
(٨) تباريح الشوق : شدَّته وآلامه .
(٩) في الأصل : ما أنا وما هو . وإقبال بذلك ينكر مبدأ فناء النفس الإنسانية في الذات الإلهية ؛ لأنه يتحدَّث عن الفراق والتلاقي ، ويرى الخير كلَّ الخير في اجتماع المحب بالمحبوب .
(١٠) الجمع : الجماعة من الناس .

تجليـــاتُ محفَلِنـــا تـــأمَّـــلْ ... تجلِّـي الله لا الـدُّنيـا تـأمـل[1]

فـــلا الأبـــوابَ أمسكنـــا علينـــا ... ونحـــنُ بـــه بمفـــردِنـا اختلينـا[2]

ويجعـــلُ نَفْسَـــهُ عنَّـــا غـــريبـــا ... يُـداعينـا كمعـزفـهِ طـروبـا[3]

وننحـتُ مثـلَ صـورتـه الحجـاره ... ونسجـدُ ، مـا رأتـه العيـنُ ، تـاره

هتكنـــا ستـــرَ فِطـــرتنـــا علينـــا ... جمـالَ حبيبنـا هـا قـد رأينـا[4]

وهـذا التُّـرب مـاجَ بـه الخيـال ... فبـاطنُـه أضـاءَ ولا يـزال[5]

ولكـــن مـــن فـــراقٍ وهـــو يشكـــو ... بفضـلِ فـراقِـهِ تلقـاه يـزكـو[6]

بـه كـانـت لـه هـذي البصيـره ... فهـذا ليلـه أضحـى الظهيـره

وأنفـد حـزنـه جـزعُ الصَّبـور ... ومـن حـزنٍ تبـدَّل بـالسُّـرور[7]

وأصبـــح دمعـــه دُرّاً ثمينـــا ... الحـــزن أوَّدتِ الغصـــونـــا[8]

وذاتُـك : إن تعـانقهـا طـويـلا ... تجد في الخلد من موتٍ بديلا !

مقـامـاتٌ لهـا بـالحـبِّ عقـدُ ... ومـا مـن منتهـى يحـدُوه حَـدُّ[9]

تسيـر لـه الأمـورُ بـلا ختـامِ ... بـه الفجـرُ الضَّحـوكُ بـلا ظـلامِ

---

(١) الحفل : مكان اجتماع المجتمعين .

(٢) أمسك عليه الباب : أوصده . وفي الأصل : أنَّ هذا المحفل يخلو من باب وجدار وقصر .

(٣) في الأصل : أنه يجعل نفسه غريباً عنا تارةً ، ويعزف علينا كآلة الطرب تارةً أخرى .

(٤) هتك الستر : مزَّقه أو جذبه من موضعه .

(٥) الترب : التراب . والمراد به الإنسان الذي خلق من تراب .

(٦) يزكو : ينمو ويصلح .

(٧) أنفد : أفنى . والجزع عدم احتمال الصبر ، يقول : إنه حزن حزناً لا يطيقه حتى الصَّبور .

(٨) أوَّدَه : ثناه وعطفه . يقول : إنَّ للحزن ثماراً طيبة أثقلت الغصون . وهو مأخوذ من نخلة المأتم في الفارسية ، بمعنى النعش .

(٩) في الأصل : أنَّه ربطها في عقدة فهو مقيد ، كما أنه يمضي لا يقف عند نهاية فهو مطلق . يحدو : يسوق . والوخد : سرعة السير .

يغـايـر عقلَنـا وعـرُ الطـريـق ودنيـا كـان فـي وهـج الشـروق[1]
بـآلاف العـوالـمِ قَـدْ مـررنـا على بعضِ التوقف هل قَدَرنا ؟
خلـوداً فـي حيـاتـك يـا مسـافـر وفي موتٍ ، إلى الدَّاني فبادر[2]
وليـس البحـر يغـرقُنـا انتهـاء تعلَّـق فيـه ، مـا هـذا فنـاء[3]
وجودُ الذات في ذاتٍ محال لتصبحْ نفسها ، هذا كمال[4]

السؤال الخامس

أجبني مـن أنـا ؟ وَضِّـح (أنـا) لـي وما في الذات من (شدِّ الرِّحال)[5]

الجواب

بـذاتٍ عُـوذةٌ للكـائنـات وأوَّلُ نـورهـا أصـلُ الحيـاة[6]
وتصحـو مِـنْ رُؤاهـا فـي كـراهـا بكثـرٍ بَعْـدَ واحـدِهـا تـراهـا[7]

---

(١) الوهج : اتقاد الشمس وحرها . وفي الأصل : أنَّه عالم في نور برهة .

(٢) المسافر في اصطلاح الصوفية : هو من سار قلبه متوجهاً إلى الحق . الداني : القريب . بادر : سارع . أي سارع إلى أول وأقرب طريقٍ إليك ، واسلكه .

(٣) لا يريد إقبال للنفس الإنسانية فناءً في الذات الإلهية كفناء القطرة في البحر على أن ذلك قصارى ما ينشد الصُّوفي . ويقول : إنَّ الإنسان إذا تعلق بالذات الإلهية فليس هذا فناء فيها .

(٤) يعني : أن كمال الذات الإنسانية في قدرتها على ضغط كيانها ، حتى إذا اتصلت بالذات الكلية .

(٥) الرِّحال : جمع رحل ، وهو ما يشد على ظهر البعير لركوبه . وشدُّ الرحال كناية عن السفر ، وفي الأصل : (أي معنىً في قولنا سافر في الذات) .

(٦) العوذة : ما يعلق على الإنسان لحفظه من الشرِّ والحَسَد .

(٧) الرؤى : جمع رؤيا وهي الحلم . والكرى : النوم . الكثر : الكثرة . وعند إقبال أنَّ الحياة في تعدد الأناسي على اختلافهم والوحدانية لله .

ونمضي في اتساع ، ماربونا ... ولولا ذاكَ منها ما زكونا[1]
يضمُّ صميمُها في العمق بحرا ... وقلبُ القطرِ موجٌ ما استقرا
تخالفُ منْ بشيمته تَصَبَّر ... وفي ملأٍ لنا تبدو بمظهر[2]
كنارٍ ، والذاتُ لها شَرارُ ... نجومٌ ، سائر وله القرارُ[3]
وراءَ حدودِها والغيرُ تشهد ... وفي الجمع الكبير كَمَنْ توحَّد[4]
تأمَّل في انطواءٍ كيف تبدو ... ترابٌ ديسَ ، منه كيف تنمو
تثور وراءَ سترٍ للخفاء ... وتبحثُ في دوامٍ عن رواء
بنارٍ في الضَّميم ثوتْ وقامتْ ... تحاربُ نفسها ، والحربُ دامت
فَمِنْ هذا لعالمنا النظام ... وكالمرآة قد أضحى الرَّغام[5]
ذواتٌ أطلعتها من شعاعِ ... جواهرُ أُخرِجَتْ كانت بقاع
ترابُ الجسم لِلذَّات الحجاب ... وتبدو الشمسُ أطلعها السَّحاب
وتلكَ الذَّات تشرقُ منْ صُدورِ ... بجوهرها التُّراب لنا كنورِ
ومعنى للأنا كمْ قلت بيِّن ... (بذاتك فلتسافرْ) فلتُعيِّن
على صلةٍ بأرواحِ جُسومُ ... فسافرْ كي تحقِّقَ ما تروم[6]
بذلك مولدٌ من غير أمٍّ ... ومن سطحٍ كإمساك بنجم
على خلد حصولك بالتياعِ ... كأنك قد رأيتَ بلا شُعاعِ

---

(١) ربا : زاد ونما ، وما في الشطر الأول شرطية زمانية ، أي تتسع مدة نمونا . وزكا : كربا .

(٢) الشيمة : الفطرة ؛ أي : تخالف من يصبر بطبعه ، فهي لا تستطيع صبراً . الملأ : الجماعة .

(٣) يشبهها كذلك بالنجوم الثوابت والسيارة .

(٤) توحد : انفرد واعتزل .

(٥) الرَّغام : التراب .

(٦) الجُسوم : جمع جسم . تروم : تريد .

وعـــن أمـــلٍ وعـــن وجـــلٍ تنـــاءٍ ... كشـــقٍّ أنـــت محـــدثُـــه بمـــاءِ[1]

طلســمَ البـرِّ والـدأمـاء فـاصـدع ... وبـدرَ التـمَّ فلتصـدعْ بـإصْبَـع[2]

بـأوبـةِ مَـنْ يطـوف بـلا مكـان ... لـه الـدُّنيـا لتحملْ فـي الجنـان[3]

لهـــذا الســـرِّ تفسيـــرٌ محـــال ... وتنفـــع فيـــه عيـــنٌ لا مقـــال[4]

فمـا قـولـي (أنـا) وهـي الضيـاء ... وفـي ﴿ إنـا عـرضنـا ﴾ مـا نشـاء[5]

ويـرجـفُ مـن سنـاهـا الأزهـران ... زمـــانٌ تحتضنـــه والمكـــان[6]

مقـــرٌّ ضمَّهـــا كـــانَ القلـــوبـــا ... لهـذا التُّـربِ أصبحـتِ النَّصيبـا[7]

عـــن الغيـــرِ افتـــراقٌ ، وارتبـــاط ... بنفـس ضيعـةٍ ، وبـه اختـلاط[8]

خيـالٌ فـي التـراب لـه الكيـان ! ... أيحـويـه الـزَّمـان أم المكـان ؟[9]

سجينٌ ، في قيودٍ ، كيف أفلت ! ... فمـا الـرَّامـي وأوهـاقٌ تـدلَّـت ؟[10]

بصـــدرك مثـــل مصبـــاحٍ منيـــرِ ... لـــك المـــرآةُ ، فيهـــا أيُّ نـــور

---

(١) التنائي : البعد . الوجل : الخوف .

(٢) الدأماء : البحر .

(٣) الأوبة : العودة . الجنان : القلب .

(٤) المقال : القول . أي : أنَّ الرؤية بالعين تنفع في معرفة السرِّ لا الكلام .

(٥) قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . والأمانة الطاعة ، وقد عظم شأنها . وحملها الإنسان على ضعفة ولم يفِ ، ولم يراع حقَّها ، فكان ظلوماً ، وبكنه عاقبتها جهولاً . وقيل : إن هذي الطاعة تتمُّ باختيار الإنسان وإرادته .

(٦) الأزهران : الشمس والقمر ، السَّنا : النور ، والسناء : الرفعة . وفي الأصل : أن الفلك يرتعد من سناها ، أو سنائها .

(٧) التُّرب : التراب . وإقبال يسمي الإنسان على الدوام حفنة التراب .

(٨) الضيعة : الضياع ، وبه : أي بالغير .

(٩) الخيال في الفارسية بمعنى النية .

(١٠) الأوهاق : الحبال التي يصاد بها .

عليها أنتَ قد كنتَ الأمينا بإدراكٍ لذاتِكَ كنْ قمينا[1]

السؤال السادس

أهذا الجزءُ عن كلٍّ يَزيد ! وكيفَ البحثُ عنه لمن يُريد ؟

الجواب

وما لِلذَّات مقياسٌ لدينا وأعظمُ ما يلوحُ لناظرَيْنا[2]
من الأفلاك تهبطُ ثُمَّ تَعلو ببحرِ الكون تسقط ثُمَّ تَسمو[3]
فَمَنْ بالنَّفس يملكه الشعور سواها ، أو بلا ريشٍ يطير
حوتها ظلمةٌ والصَّدر نورُ تناءت جنةٌ ، في الحضن حورُ[4]
لها حكمٌ بها الألبابُ تسحر ومِنْ قاعِ الحياةِ أَتَتْ بجوهر
خلوداً في الصميم العيش كانا ولكنْ للعيون بدا زمانا
مقامُ الكونِ منها قد تقدَّر وتحفظه بما للعين يَظْهَر
أتسألُ عن طبيعتها وتسأل وعنها ما بقدرٍ ليس يفصل
وماذا عَنْ طبيعتها لقائل فجير ظاهر والضدُّ ماثل[5]
فما قولي ؟ وفي قول النَّبي بذا الإيمانِ في قولٍ جلي[6]

---

(١) القمين : الجدير .

(٢) الناظران : العينان . يقول : إنَّ الذَّات أعظم ما نرى ، وإن كانت الرؤية ليستْ بالبصر .

(٣) تسمو : تعلو .

(٤) تناءت الجنة : بعدت .

(٥) المراد بالضد هو الاختيار . ماثل : قائم . وفي الأصل أنَّ الاختيار داخلها .

(٦) قيل : إن جبريل مضى إلى النبي عليه الصلاة والسلام في هيئة رجل وسأله عن الإيمان فقال له : هو أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وبالقدر خيره وشره .

وما للخلقِ عندك غير جَبْرِ ... وَمِنْ بعدٍ ومنْ قربٍ بأسر
وتلك الروحُ منْ نفسِ الإله ... بخلوتها تلوح بلا اشتباه[1]
وهذا الجبرُ وهمٌ أو ظنون ... بغير إرادةٍ روحٌ تكون ؟![2]
تصول بعالمٍ لِلْكَيْفِ والكَمْ ... وعن جبرٍ إلى المختار تُقْدِمْ[3]
وذاكَ الجبرُ منه إنْ أفاقتْ ... لها الدُّنيا كتلكَ النوقُ ساقتْ[4]
برغبتها خفوقُ النَّجمِ واجبْ ... برحمتها تلألأتِ الكواكبْ[5]
تميط السِّتْر عما أضمرته ... وجوهرها بِعَيْنيها رأته[6]
وأهل النُّور قد وقفوا طويلا ... أرادوا أن يروا وجهاً جميلا[7]
ومِنْ كرْمٍ لها خمر الملائك ... وكان عيارها تراباً كذلك[8]
تقولُ : وهل إليها من سبيل ... إذاً أوردْ مقاماً لِلْعَويل
لكَ الأيامُ فاجعلها خلودا ... ونُح في الفجر ، عقلُك لن يفيدا
لهذا العقلِ منْ حسٍّ صدور ... ومِنْ عشقٍ نحيبُ الفجرِ نور
لعقلٍ جزؤه ، للنَّوح كل ... ونوحٌ دام ، ما إنْ دام عقل
وذاك العقل ما وسع الخلودا ... من الأنفاس ما يحصى عديدا[9]

---

(١) أي أنَّ الروح في خلوتها مع الله تبدو في كل مظاهرها بجلاء .
(٢) كان هنا تامة .
(٣) صال : غلب وقهر ، في الأصل أنها تغير على عالم الكيف والكم . وتمضي من الجبر إلى الاختيار .
(٤) في الأصل : أنَّها إذا نفضت عنها غبار الجبر ساقت عالمها كما تسوق الناقة . والنوق جمع ناقة .
(٥) خفوق النجم : اضطرابه . وفي الأصل أنَّ السماء تدور بإذنها .
(٦) تميط : تزيح وترفع .
(٧) أطلقنا أهل النور على النورانية ، وهم طائفة من الملائكة .
(٨) الكرم : شجر العنب . والملائك : الملائكة . والعيار ما يضاف إلى الدنانير والدراهم من ذهب وفضة . والمراد قيمتها . والترب : التراب ، فهي تستمدُّ قيمتها من ترابها .
(٩) في الأصل : إنَّ أنفاسنا تحصي الساعات كعقرب الساعة . والعديد : العدد .

بخلـــقِ الليـــلِ يُشْغَـــل والنَّهـــار ... ومـــنْ نـــارٍ لـــه بعـــضُ الشَّـــرار[1]

قصـارانـا نـواحُ العِشْـقِ كـانـا ... وتحـوي بـرهـةً منـه زمـانـا

وذاتٌ إن بـــدا المعـــروف عنهـــا ... لحلَّـت عقـدةً فـي العمـق منهـا[2]

لعينـــك مثلهـــا هـــذا الضيـــاء ؟ ... وتحســـبُ أنْ سيـــدرِكُهـــا الفنـــاء

فكيـفَ تخـافُ مـنْ ريـبِ الفنـاء ... إذا نَضِجتْ ، فعنهـا المـوتُ نـائي

ومـــوتـــاً غيـــر هـــذا خـــاف قلبـــي ... وروحـــي بـــل ومـــاءٌ لـــي وتـــربـــي

سكـــون الخَفْـــقِ فـــي شـــوقٍ أليـــم ... وإبعـــادُ الشَّـــرارِ عـــن الهشيـــم[3]

وأنفسَنـــا بـــأيـــديـنـــا نُكَفِّـــن ... ومـــوتٌ جـــاءنـــا نلقـــى بـــأعيـــن

فـوتُـك كـامـنٌ لـك فـي الكميـن ... تـذكَّـر ، واخـشَ عـاديـة المنـون[4]

بجسمـك كـان حفـرٌ للحفيـر ... ومنكـرٌ فيـه جـاوره نكيـر[5]

السؤال السابع

ومنْ عبر السبيلَ ومَنْ مسافرْ ... ووصفُ كمالِ منْ في ذكرِ ذاكر ؟

* * *

الجواب

أطـــلْ نظـــراً علـــى قلـــب تـــردد ... بصـدركَ منـزلٌ ، إيَّـاهُ فـاشهـد[6]

---

(١) يقول : إنه لا يأخذ الشعلة بل شرارها .

(٢) المراد بالمعروف عنها العظيم من قدرتها .

(٣) يقول : إنَّ الموت الحق الذي يرهبه هو عدم العشق ، والهشيم : ما يبس وتكسر من النبات .

(٤) المنون : الموت .

(٥) منكر ونكير : اسم ملكين يحاسبان الناس في القبر ، والحفير : القبر .

(٦) المنزل : مكان النزول ومرحلة من المراحل التي ينتهي إليها سالك طريق التصوُّف .

وفي حَضرٍ بذلك تلكَ سفرهْ ... ومن ذاتٍ إلى ذاتٍ ، بخطرهْ[1]

فأين مقرُّنا يا ليتَ شعري ... وما لحنا لشمسٍ أو لبدرِ

ومالك غايةٌ ، لا تبغ غايهْ ... فروحُك تنتهي عند النهايهْ

بنا نضجاً ظننتُ وما نضجنا ... نقصنا في المنازل أو كملنا

وفي عدم الوصول لنا الحياةُ ... بسفرتنا تحشَّانا الممات[2]

تجوُّلنا برحبِ الأفقِ كانا ... وطئنا ذا المكانَ وذا الزَّمانا[3]

لغبنا ، حولَ أنفسنا ندورْ ... بقاعِ الكون موجتُنا تثور[4]

ودوماً كنْ لذاتكِ في الكمين ... ومن شكٍّ ففرَّ إلى اليقين

وما لأجيجِ عِشْقٍ من فناء ... ونظرةُ ذي اليقين بلا انتهاء[5]

كمالاً نظرة كانت بذات ... وذلك بالخروج عن الجهات[6]

بذات الحقِّ تخلو آنذاكا ... ترى مولاكَ والمولى يراكا[7]

---

(١) الحضر : ضد السفر . الخطرة : ما يلوح في الفكر . ومن معاني السفر : السير إلى الله من منازل النفس حتى يصل العبد إلى مقام القلب .

(٢) السفرة : المرة من السفر . والباء هنا للسببية . تحشاه : استثناه . يقول في الأصل : إن هذا السفر لنا حياةٌ خالدة .

(٣) الرحب : السعة . والمراد بالمكان والزمان هذا العالم بأسره . وفي الأصل مجالنا من السمكة إلى القمر . وهما في الفارسية ما هي وماء . كما قال إن الزمان والمكان تراب طريقنا .

(٤) لغبنا : تعبنا .

(٥) أجيج النار : شدة اشتعالها .

(٦) المراد بالجهات : العالم أجمع .

(٧) عند إقبال أنَّ هذا ما تبلغه الذَّات في أوج كمالها حتى في اتصالها المباشر بالذات المحيطة بالكل . جاء في سورة النجم عما شاهده ﷺ ليلة المعراج : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] أي : إنَّ بصره أثبته ما رأى إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، فما عدا عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها .

ومن المفسرين من قال باستحالة تلك الرؤية كما أنَّ منهم من أجازها لأن موسى =

بنـور فلتنـر مِـنْ ﴿ لـن تـرانـي ﴾ ... وإن أغْمَضْـتَ عينـكَ أنـت فـانِ[1]

بـذاتِـك كـنْ قـويـاً فـي حضـوره ... حـذارِ مـن الضَّيـاعِ ببحـر نـوره[2]

وممَّـا مـاج فيـك لتعـط ذرَّه ... بجـانـبِ شمسنـا لتنيـر مـرَّه

تحـرَّق حيـث يبـدو فـي جـلاء ... وأظهـرْ منـك ذاتَـك فـي ضيـاء[3]

بـرؤيتـه ، لعـالمنـا إمـام ... لـه لا للـورى كـان التَّمـام[4]

وإيَّـاهُ اطلبـنْ إذا افتقـدْتـه ... بفضـلِ ثيـابـه خـذْ إنْ وجـدْتـه[5]

ولا تمـدُدْ إلا المـلأ يمينـا ... ولا تُغْمِضْ عن الشَّصِّ العُيونا[6]

لأمـرِ الـدِّيـن والـدُّنيـا إمـامُ ... هـو الـرائـي ، وقـد عمـي الأنـام[7]

كمثـلِ الشَّمـسِ تُشْـرِقُ فـي الصبـاحِ ... لـديـه شمـوسُ أفكـارٍ صِحَـاحِ

وغـربـيٍّ لـه حكمـاً أقـامـا ... عـن الشَّيطـان قـد خَلَـعَ الـزِّمـامـا

بغيـر العـزفِ ليـس لـه غِنَـاءُ ... حـوتـه بمـا يطيـر بـه السَّمـاء[8]

ومـن بستـانـه الصحـراءُ أجمـل ... مـدينتَـه فـدغ ، فـالفقـرُ أفضـل

= طلبها .

(١) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

(٢) هذا صريحٌ في دَلالته على أنَّ إقبالاً لا يأخذُ بمذهب الفناء في الذَّات الإلهية .

(٣) يقول : أنر ذاتك عياناً وذاته في الخفاء .

(٤) الورى : الناس . والمراد هنا بالتَّمام : الكمال .

(٥) أخذ بفضل ثيابه : تمسك بما يمسكن التمسُّك به منها .

(٦) "الملأ : هو الشيخ الذي لا يفقه الدين على ما ينبغي . الشَّص : الحديدة التي تؤخذ بها السمكة . يقول : إنَّ مثل هذا الشيخ يخدعك ، كما تُخْدعُ السَّمكة بالشصِّ لتصاد .

(٧) الأنام : النَّاس .

(٨) يقول : لا غناء ولا صدى عند الغرب إلا بالمعازف ، ولا يطير في السماء إلا بطائرة صنعها . وهذا من الدليل على إغراقه في المادِّية .

مـــن الســـرَّاق شـــرذمـــةٌ تغيـــر ... وراء الخبـــز طـــالَ بهـــا المسيـــر[1]
صحـــا جســـمٌ وللـــرُّوحِ السُّبـــاتُ ... مـــع الـــدِّيـــن الفنـــونُ محقـــراتُ[2]
لـــدى الكفَّـــار زاد الكفـــر عقـــلُ ... ولـــلإنســـان عنـــد الغـــرب قتـــلُ
وهـــذا راصـــدٌ ولـــذا الكميـــنُ ... إلهـــي ! كـــنْ لهـــم نِعْـــمَ المعيـــنُ !
إذا مـــا شئـــتَ بلِّغهـــم كـــلامـــي ... نظـامُ الحكـمِ كـالسَّيـفِ الحُسَـامِ[3]
علـى هـذا الحسـام الـروحُ تجـري ... يصولُ على الرقاب وليس يدري[4]
ليدخل ذلك الصَّمْصامُ غِمْدَه ... وإلا أهلـكَ الإنسـان بَعْـده[5]

السؤال الثامن

أتعرف ما تضمَّنه (أنا الحقُّ) ... أتحسبه هراء حين ينطق[6] ؟

الجواب

أعـــاود عنـــه قـــولًا لـــي يطـــولْ ... وعنـــد القـــوم ســـرٌّ مـــا أقـــول[7]
بحلقتـــه مجـــوســـيٌّ أشـــاعـــا ... (حيـاة بـالأنـا خـدعـت خـداعـا)

---

(١) السُّرَّاق : جمع سارق . والشرذمة : الجماعة من الناس .
(٢) السبات : النوم . في الأصل : الدين والفن والعلم . وأطلقنا الفنون على العلوم والفن .
(٣) السيف الحسام : القاطع . يقول : إنَّ هذا نظام الحكم في بلاد الغرب .
(٤) يصول : يثب . وفي الأصل : إنَّ هذا السيف لا يميز في الضرب بين مسلم وكافر .
(٥) الصمصام : السيف . يريد له أن يستقرَّ في غمده ؛ لأنَّه يقتل نفسه بقتله الناس .
(٦) أنا الحق : قول منسوبٌ إلى الحلاَّج ، ذلك الصوفي الذي كان يتجوَّل في الأسواق ، وقد غلب عليه الوجد والطرب ، وحرص على الدَّعوة إلى آرائه وتعاليمه التي خرجت على مألوف القوم في زمانه ، فبلغت من أهل الدين ميلغاً شديداً ، واتهموه بالحلول والكفر ، وأفتوا بقتله ، فصلب في بغداد سنة ٣٠٩هـ . وإقبال يرى في الحلاَّج رأياً آخر يناقض رأي قومه ، ويعانده . ولذلك انبرى للدِّفاع عنه في عديدٍ من تآليفه .
(٧) عاود الشيء : عاد إليه . والمراد بالقوم هنا أهل إيران والهند .

سبـات الـربِّ فيـه الحلـمُ كنَّـا ... وهـذا الحلـمُ مِنْـهُ قـد خُلِقْنـا ![1]

ولـولاهُ لمـا وُجِـد المكـان ... بمـا يحـوي ولا وُجِـدَ الـزَّمـان

هـو العقـلُ المميـزُ بـلْ هـو القلـبُ ... هو التَّفكيرُ والتَّصديقُ والرَّيب[2]

وفـي الأحـلام تُغْـرِقُ نـاظـريكـا ... وأقـوالًا وأعمـالًا لـديكـا[3]

وبـاستيقـاظـه يفنـى الجميـع ... فَمَنْ شوقاً سيشري أو يبيع[4]

لـدينـا العلـمُ نـورٌ بـالقيـاس ... وتعـويـلُ القياسِ على الحـواس[5]

تغيُّـر حسَّنـا سبـبُ التغيُّـر ... لعـالمنـا ، فيشملنـا التطـوُّر

فمـا مِـنْ حـولنـا ريـحٌ ولـون ... ولا يبـدي لنـا الآثـارَ كـون[6]

وهـذا كلُّـه وهـمٌ عجـاب ... علـى وجـهٍ لخـالقنـا حجـاب

وخـدعـةُ حسَّنـا لا ريـبَ فيهـا ... دخلنـا مـنْ خِـدَاعِ الحسِّ فيهـا[7]

فمـا ذاتٌ لنـا فـي الكـائنـات ... بـذاتِ حسَّنـا قطـعُ الصِّـلات

حـريـمُ الـذَّات مـا بَلَغَتْـهُ نظـره ... تشـاهـدهـا بـلا نظـر ، بخطـره[8]

لهـا يـومٌ بـلا فلـكٍ يـدور ... تـأمَّلهـا فمـا شـكٌّ يثـور[9]

إذا سمَّيـتَ تلـكَ الـذَّاتِ وهمـا ... كمظهـرِ أيِّ شـيءٍ قلـت حتمـا

معـي قـل : مـن تخـامـره الظنـون ... تـأمَّلْهـا ، لتعـرفَ مَـنْ يكـون

---

(١) السبات : النوم . يقول : إن هذا الكون وما فيه حلم رآه الله في سباته . وهو ينسب هذا إلى المجوسي ؛ لأن الله جل جلاله لا تأخذه سنةٌ ولا نوم .

(٢) يقول : إن العقل والقلب هما هذا الحلم .

(٣) الناظران : العينان .

(٤) يشري : يشتري .

(٥) التعويل على الشيء : الاعتماد عليه .

(٦) الريح : الرائحة . وطالما سمَّى إقبال العالم عالم الرائحة واللون .

(٧) التيه : الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر .

(٨) الحريم : ما يحيط بالبناء كالحرم . الخطرة : الفكرة .

(٩) يقول : إنَّ أيامها ليست زماناً يحسب بدوران الفلك .

أعـــالمنـــا تـــرى ؟ أورد دليـــلا ... بفكـــرك كـــانَ ذلـــكَ مستحيـــلا[1]
لقـد خفيـت ، دليـلاً فـاطـرحـن ... تفكَّـــرْ ، ذلـــكَ الســـرَّ اكْشِفَـــنْ
أراهـا الحـق مـا فـي ذاكَ بـاطـلْ ... لهـا أكـلٌ ، فـأيقـنْ لا تجـادلْ[2]
إذا نَضِجَـتْ ، لهـا امتنـع الـزوال ... فـراقُ العـاشقيـن هـو الـوِصـال
جنـاحٌ لـو حبـوت بـه الشَّـرارا ... لخلَّـد فـي الخفـوقِ بـه وطـارا[3]
بمـا أبـلاه ربـي مـا الخلـود ... ببحـثٍ ليـسَ هـذا مـا يُـريـد[4]
لـروح طـابَ خلـد ، تستعـارُ ... ويَثْمَلُهـا مـن العِشْـق العُقَـار[5]
ومـا للطَّـودِ والـوادي البقـاء ! ... ستبقـى الـذَّات ، للـدُّنيـا الفنـاء[6]
عـن المنصـورِ مـا جـدوى الكـلام ؟ ... بـذاتِـكَ فـاطلبـنْ ربَّ الأنـام[7]
بذاتِك ضعْ ، ودعْ عنك الجِدالا ... وحقِّقهـا بمـا الحـلاجُ قـالا[8]

السؤال التاسع

وسـرَّ الـوَحْـدَة الخـافـي أتـدري ... أيعلمُ عارفٌ يا ليت شعري ؟![9]

---

(١) يقصد أنَّ العالم ظاهر لنا ، إلا أنه مع ذلك في حاجة إلى دليل ، وهو ما يعجز حتى فكر جبريل .

(٢) الأكل : الثمر والرزق الواسع .

(٣) حباه : أعطاه .

(٤) أبلى في ذلك بلاء حسناً : أظهر قدرته فيه . والمقصود هنا عمل . وفي الأصل أن خلود الله ليس جزاء على عمله ، لأن هذا الخلود ليس له بالبحث والطلب .

(٥) يثمل : يسكر . العقار : الخمر .

(٦) الطود : الجبل . يقول أي قيمة لبقاء الجبال والوديان ، فالبقاء للذات وللدنيا الفناء .

(٧) المنصور : هو الحلاَّج . وقد ذكر إقبال معه من يسمى « شنكر چربا » وهو مفسر هندي لكتاب من كتب الهند المقدسة . الأنام : الناس .

(٨) دع عنك : اترك وأهمل .

(٩) العارف : العالم ، والحكيم ، والصُّوفي في ذروة المعرفة .

الجواب

مقـــامٌ تحـــت قُبَّتهـــا يطيـــب ... وفيهـــا النَّيـــرانِ إلـــى مغيـــب ![1]

ونعـــشُ الشَّمـــسِ يحملـــه المســـاء ... كـــواكبُـــه لهـــا الكفـــنُ الضيـــاء

كمنهـــالِ الـــرِّمـــال هَـــوَتْ جبـــالُ ... لهـــذا البحـــر بعـــد الحـــالِ حـــالُ

علـــى الأزهـــار عـــاصفـــةٌ تثـــور ... ورعـــبٌ للقـــوافـــلِ مـــن مغيـــر

وإنْ بـــالـــدُّرِّ زان الطَّـــلُّ زهـــرا ... فبـــاقٍ تـــارةً ليـــزولَ أخـــرى[2]

بغيـــر سمـــاعهـــا الألحـــانُ تفنـــى ... وتلقـى النَّـار فـي الأحجـار دفنـا[3]

حمـــامٌ عنـــه تَسْـــآلٌ أيجـــدي ... مـــن الأنفـاسِ قُيِّـدنـا بقيـد[4]

***

غزل

لنـــا الكـــاســـاتُ دارتْ بـــالفنـــاء ... وقـــد ذُقنـــاه مـــن دانٍ ونـــائـــي[5]

---

(١) المراد بهذي القبة قبة السماء. وبالنيرين: الشمس والقمر، ولهما المغيب بعد ظهورهما.

(٢) الطلُّ : النَّدى . وهذا النَّدى يبقى تارةً ثم يزول تارةً أخرى .

(٣) يقول: إنَّ الألحان التي لا تسمع تموت في قيثارتها، كما تموت النَّار الكامنة في الحجر.

(٤) الحمام : الموت ، والتَّسآل : السؤال .

(٥) الغزل عند الفرس منظومةٌ ذات رويٍّ واحدٍ لا تقلُّ أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة عشر ، وموضوعها الغزل وغالباً ما تتضمن المعاني الصُّوفية . والشاعر يلتزم في البيت الأخير منه ذكر لقبه الشعري . وإقبال لا يلتزم شروط الغزل في هذي المنظومة .
دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . يقول الشاعر : إننا جميعاً نلقى الفناء .

تسمَّى ساحةٌ قد جال فيها ... بدنيا ، مِنْ نجومٍ في ضياء
بها إنْ ذرةٌ أبدتْ نِفَارا ... فرُقْيَة نظرةٌ كلَّ الغَناء[1]
أتطلبُ أن يقرَّ لنا قرارٌ ... بنا الأيامُ تجري جريَ ماء
شغاف القلب فاحفظ فيه ذاتاً ... وكوكبها سراجٌ للمساء[2]
هي الدُّنيا مقامُ الآفلينا ... وذا العرفانُ عند العارفينا[3]
بقلبٍ باطلاً ما إنْ أردنا ... وهذا الحزنُ منه قَدْ أفدنا[4]
هنا الرغباتُ ما هم يَرْمقونَهْ ... وبهجةُ شوقِهم ما يَطْلبونَهْ[5]
وفي الإمكان تخليدٌ لِذات ... وجعلُ الوصلِ منْ هذ الشتات[6]
ومصباحٌ بِزَفْرَتنا تألَّقْ ... بإبرتنا سماءٌ سوف تُرْتَقْ[7]
لدى القيُّوم ذوقٌ للكلام ... تجلَّى في جموعٍ للأنام[8]
فَمِنْ برقِ التجلِّي كان فيه ... وذاكَ الجامُ مَنْذَا يحتسيه[9]

---

(١) الرقية : ما يقرأ على المسحور ليزول عنه أثر السحر . والغناء : الكفاية . وتكفي نظرة تبطل هذا النفار ، كما تبطل الرُّقية السحر .

(٢) شغاف القلب : غلافه ، والسراج : المصباح .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] وأفل النجم : غاب . وهذا في شأن إبراهيم عليه السلام الذي لم يحبَّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حالٍ ؛ لأنَّ مثل هذا التغيُّر من صفات الأجسام .

(٤) أفاد : استفاد .

(٥) يرمق : ينظر ويطلب .

(٦) الشتات : التفرق .

(٧) رتق الفتق : سدَّه .

(٨) القيوم : من أسماء الله الحسنى ، وهو بمعنى الباقي . وفي الأصل : الله الحي . الجمع : الجماعة . والأنام : الناس .

(٩) الجام : كأس الشراب . احتسى : شرب . وفي الأصل : من قدحَ برق التجلِّي في قلبه ، وشربَ تلك الخمر ، ثم ضرب رأسه بالكأس .

لِمَنْ قلبُ عيارِ الحسنِ منه ... وطافَ ببيتِ من ؟ ما زال عنه[1]

(ألستُ) لخلوةٍ قد صعَّدَتْها ... (بلى) أيُّ المعازفِ ردَّدَتها[2]

لعشقٍ أيُّ نارٍ في التراب ... وحرَّق لحننا كَمْ منْ نِقَاب[3]

تدورُ الكأسُ ، لكنْ ما بقينا ... بمحفلهِ الحياةُ غَدَتْ رنينا[4]

لعزلته فؤادي قد تحرَّق ... أهيىء محفلاً ما إنْ تفرَّق

وأنثرُ حبةً في الأرضِ ذاتي ... له قد صُنْتُ لا لِسَواهُ ذاتي !

* * *

---

(١) العيار : ما يضاف من ذهبٍ أو فضةٍ إلى الدينار والدِّرهم . زال عن المكان : غادره . وفي الأصل : بمنزل من يطوف قمره .

(٢) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] والشاعر يسأل عن الخلوة التي ذكرت فيها ألست ، والمعزف الذي ردَّد لحنها .

(٣) التراب هنا هو الإنسان .

(٤) ما بقينا : ما دمنا باقين . بمحفله : أي بمحفله الله .

الخاتمة

لِيُشْهَرْ منك ذيَّاك الحُسام ... بغمدكَ لا يطيبُ لك المقام[1]

وتملكُ قدرةً فارفعْ نقابا ... تنلْ شمساً وبدراً والسحابا

دُجَاك أنرْ بأنوارِ اليقين ... يداً بيضاءَ أظْهِرْ لِلْعُيون[2]

وعينَك فافتحنَّ على فؤادِك ... من الشَّرر الثُّريَّا في حصادِك[3]

ومن قلبي لتقتبسِ الشرارا ... أنا الرومِيُّ إمَّا شئت نارا[4]

وإلَّا ، نارَ غربٍ خذْ وحاذِرْ ... ومُتْ في القلبِ كي تحيا بظاهرْ

* * *

---

(١) شهر السيف : أخرجه من غمده . الحسام : السيف .

(٢) الدُّجى : الليل . واليد البيضاء : المشعة . قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه : ٢٢ ـ ٢٤] .

(٣) الشرر : جمع شررة وهو ما يتطاير من النار كالشرار . والحصاد : الزرع . في الأصل . من فتح العين على قلبه ، نثر الشررة ، وحصد الثريا . والثريا مجموع كواكب تشبه بالعنقود والسنبلة في الشعر الفارسي .

(٤) الرومي : هو جلال الدين الرومي من أهل القرن السابع الهجري أكبر وأشهر شعراء التصوُّف عند الفرس ، وصاحب كتاب المثنوي الذي يعد أعظم الكتب أهمية في التصوُّف الإسلامي . وإقبال يردد ذكر الرومي في كتبه ، وينظر إليه نظرة المريد إلى الشيخ .

الديوان الخامس

جناح جبريل

بال جبريل

نقله من الأردوية إلى الفرنسية نثرا
السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي
و السيدة سوزان بوساك

ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثرا
الأستاذ عبد المعين الملوحي

ثم صاغه بالعربية شعرا
الأستاذ زهير ظاظا

طُبع هذا الديوان عام ١٩٣٥م ، وهو يحتوي على قصائد باللغة الأردوية حول زيارات محمد إقبال لفلسطين ، ومصر ، وأفغانستان ، وإنكلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وإسبانيا .

لا يُوجد في الأدب الأردوي ما يمكن مقارنته بهذا الديوان من حيث العُمق وسعة المطلب والبيان ، وما يلفت انتباهنا هنا هو أنَّ محمَّد إقبال يحكي خواطره الخاصَّة عن أسفاره إلى إسبانيا وفلسطين وبكائه على أطلال قرطاجنة وغيرها من الآثار الإسلاميَّة التاريخية ، وما يلفت النظر هو الجزء الخاص عن المحاورة بين محمد إقبال وجلال الدين الرُّومي ، فالمريد الهندي (محمد إقبال) يسأل بالأردوية والروميُّ يُجيب عن كل سؤال من المثنوي ، وهذا الحوار يوضح لنا أهم عقائد وأفكار محمد إقبال .

ربَّما لا يجد القارىء العربي في هذا الديوان محمد إقبال البليغ الجذّاب في شعره الأخَّاذ الذي تفرَّد به بين كبار شعراء الأردوية القُدماء والمُعاصرين ، وهو بسبب كثرة نقل هذا الديوان من شعر إلى نثرٍ ، ثم من نثرٍ إلى صياغةٍ شعريةٍ بالعربية ، فهكذا زال جمال الشعر وروعته وخفَّت بلاغةُ الشاعر وإبداعيتُه ، لذا ضَمَمْتُ إلى بعض عيون قصائد هذا الديوان تراجمها النثرية للعلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني النَّدوي ملتقطاً من كتابه « روائع إقبال » الّذي قرأ هذا الديوان ـ مع جميع دواوينه ـ بكل عمقٍ ودقَّةٍ بلغته الأصلية فبَلَغَ مُحْسِناً ومُجِيداً بترجمته النثرية مبلغاً لم يبلغه أحد قبله ولا بعده .

* * *

محتوى الديوان

يحتوي هذا الديوان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : إحدى وستون قطعة تتناول أفكار الشاعر الشائعة في شعره في صور شتَّى ، ورباعيات قليلة .

القسم الثاني : قصائد نظمها في الأندلس حين زارها .

القسم الثالث : قصائد ، ومن عيونها « لينين أمام الله » وهي صورةٌ تمثيليةٌ رائعة ، ويوجد في هذا القسم غير هذه القصيدة ، بعض القصائد منها عن فلسطين ، ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال .

وقطعٌ كثيرةٌ متفاوتة العناوين ومختلفة المواضيع .

وقد نقله أولًا من الأردوية إلى الفرنسية نثراً ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المُعين الملُّوحي ، ثم صاغه في العربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا ، وهو الآن بين أيديكم .

القسم الأول

(١)

دَوَّتْ بِصَـــرْخَـــةِ رغبتـــي أركـــانَ حضـــرتـــه الشَّـــريفـــهْ
فـــاستـــرحمتْـــهُ العـــاكفـــون لفـــرط جـــرأتهـــا المخيفَـــهْ
هـــي ذيْ مـــلائكـــةُ السَّمـــاءِ وحـــورُهـــا أســـرى خيـــالـــي
بصـــري يكـــدِّر مـــا يفيْـــضُ بـــه التجلِّـــي مـــن جمـــالِ
إنْ كـــانـــتِ اقْتصـــرتْ علـــى نقـــشِ المســـاجـــدِ همَّتـــي
لـــي ســـاعـــةٌ تجتـــاحُ فيهـــا الكـــونَ حِـــدَّةُ نظـــرتـــي
مـــاذا فعلـــتَ ، أبحـــتَ ســـرِّي هـــاهنـــا ، لكـــن لمـــاذا ؟!
وأنـــا هـــو الســـرُّ الـــوحيـــد لهـــمْ بِصَـــدْرِ الكـــون هـــذا
أنـــا مـــا سكـــرتُ بمـــا سُقيْـــتُ فهـــل بكـــأســـك مـــن ثُمَـــالـــهْ
مـــا مـــدحـــةً للبحـــرِ أنْ يهـــب النَّـــدى ظمِئـــاً حيـــالـــهْ

(٢)

لِـــمَ أهتـــمُّ بـــأخطـــاءِ النجـــومْ ؟ وأذيـــبُ القلـــبَ فـــي هـــذا العنـــا
إنْ أصـــابـــتْ شـــاوَهـــا أو أخطـــأتْ فهـــوَ شـــيءٌ ليـــس يعنينـــي أنـــا
ثـــمَّ هـــل يمكننـــي أرثـــي لهـــا وأنـــا أطلـــبُ مـــن يـــرثـــي لحـــالـــي
لســـتُ فـــي كـــونـــك إلا حفنـــةً فلمـــاذا يُشْغِـــلُ العـــالـــمُ بـــالـــي
هـــوَ لـــي أمْ لـــكَ أنـــتَ عـــالمـــي أم عـــالمُـــكْ ؟
كـــلُّ غيـــبٍ وشهـــادهْ ليـــسَ لـــي منـــه نصيـــبْ
جـــاهـــدَ العقـــلُ جهـــادهْ هـــو أم أنـــتَ المصيـــبْ
أنـــا مـــا قصَّـــر فـــي بحـــريـــك هـــذيـــن مضـــائـــي
رُغْـــمَ أنِّـــي ليـــس لـــي علـــمٌ بمـــا خلـــفَ الفَضـــاء
كيـــفَ إبليـــسُ الـــرَّجيـــم قـــال : لا ، للكـــون هـــذا

ولمـــــاذا (أنـــــا حتـــــى الآن لا أدري لمـــــاذا) !!
ليـــت شعـــري أنـــت حقّـــاً أمْ أنـــا مـــوضـــعُ ســـرِّهْ
أنـــا بـــالنسبـــة لـــي طـــوَّحْـــتُ فـــي خيـــري وشـــرِّه
يـــا أبـــا القـــاســـم يـــا جبـــريـــلُ يـــاقـــرآنُ إنّـــي[1]
حلـــفُ سيـــرٍ فـــإليكـــم أيُّهـــا السَّـــادة عنِّـــي
أيُّنـــا يشـــرحُ مـــا فـــي القـــول هـــذا مـــن حـــلاوهْ
أنـــا أم أنـــت الـــذي يَمْنَحُـــه هـــذي الطَّـــلاوهْ
عطـــرُك اللهـــمَّ فـــي الإنســـان مـــا زالَ ولـــونُـــكْ
وبـــإشـــراقـــة هـــذا النَّجـــمِ قـــد أشـــرقَ كـــونُـــكْ
أنـــا مِـــنْ آدم فـــرعٌ وهـــو مـــنْ صُنْـــعِ يَـــدَيْـــك
هـــل أســـاءت هـــذه الـــرِّحلـــة فـــي شـــيءٍ إليـــك

* * *

قـــد تـــألَّفـــتَ فـــزدْهُ ألَقـــاً هـــذا العِـــذارْ
وأدمْ لـــي حكمتـــي فـــي أســـره ليـــلَ نهـــارْ
خـــذ إلـــى أســـركَ قلبـــي فَلَقَـــدْ طـــابَ التهـــالُـــكْ
أنـــا لا أرغـــبُ أن يُكْشـــفَ حبِّـــي وجمـــالُـــك
أنـــت كـــاللُّجـــة لا ســـاحـــلَ لـــك وأنـــا الجـــدولُ لا لُجَّـــة لـــي[2]
قـــلْ لهـــا تـــأخـــذنـــي فـــي حضنهـــا وأغثنـــي مـــرةً مـــنْ ســـاحلـــي

---

(١) يريد الشاعر أن يقول : إنَّ القلب السليم هو الّذي لا يحول بينه وبين الله رسولٌ ولا ملك ، إنَّه حتى القرآن الكريم ممكن أن لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

(٢) المقصود ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] أنت أقرب إلي من حبل الوريد وأنا لا أرى شيئاً ، يا للفضيحة أنا كالجدول ، أيّاً كان ذلك الذي سيمر على ضفافه فإنه من غير أن يبذل كبير جهدٍ سيميّز بين الحصى الخضراء والزرقاء .
أما أنت فكاللجّة ، حتى السماء إذا نظرت إليها فلن تجد أكثر من مرآةٍ تعكس زرقتها .

إنْ أكُـنْ قـوقعـةً فـارغـةً ... فمن المسؤول عن هذا السُّلوك ؟
أنـت مـنْ يجعـل مـنْ هـذا الحصى ... جـوهـراً يُلْهـبُ تيجـان الملـوك
ربِّ مـا قَـدَّرت لـي رَجْـعَ الـربيـعْ ... فـاحفـظ اللهـمَّ هـذا النَّفَسـا
فعسـى تـروي بـه قُبَّـرةٌ ... ذلـك الغصـنَ الـذي قـد يَبِسـا
مـع مـا أرهقنـي عـبءُ الحيـاه ... مـع مـا أخـرجتنـي مـن جنَّتـكْ
سترى كـم تـوبـةٍ فـي صفحتـي ... وأرى كـم رحمـةٍ فـي صفحتـك
أنـا قـد يَحْمـرُّ وجهـي خجـلاً ... حيـن تبـدو صُحُفـي بيـنَ يـديـك
فـرجـائـي عنـدمـا تقـرؤهـا ... أنَّنـي أنظـرُ يـا ربـي إليـك
أعـرفُ الحـبَّ الـذي خَبَّـأتَـه ... عـن قلـوبٍ سُمْتَهـا مـن ضَـرَمِـك
أنـت لـو تجعلـه قطبـاً لهـا ... لـم تطُـفْ إلا بـه فـي حَـرَمِـكَ
ارحـم الكَـلَّ الضعيـفْ ... ضـاعَ فـي حقـلٍ وبيـدرْ
بـدلاً مـن ذا الـرَّغيـفْ ... أعطـهِ قـوَّة حيـدرْ

(٤)

سـواء أهـزَّتْـكَ أم لـم تهـزَّك ... شكـوايَ أطلـبُ تُصْغـي إلَـيْ
أنـا وقـحٌ لسـت أسـأل عـدلاً ... فيـا طـالمـا العـدلُ يبغـي عليْ
سمـاءٌ وأرضٌ وريـحٌ غضـابْ ... وكـلٌّ علـى قبضـةٍ مـن تـرابْ
فهـل لـك فـي الخلـقِ مـنْ فـرحـةٍ ... وهـل هـذه رحمـةٌ أم عـذابْ
أنـا العطـرُ خيمتُـه وردةٌ ... تقـاومُ ريحـاً ببستـانـكَ
وبـالـرغـم مـن ضعْـف أسبابهـا ... إلـى الآن تـزهـو بـألـوانـكَ
وبـالـرَّغـم مـن أنَّنـي فـي السَّمـاء ... وضيـعٌ وأكثـرُ مـن مـزدرىٰ
رضيـتُ ببـؤسـي الـذي اختـرتـه ... وأنشـأتُ مملكـةً فـي العَـرا
خـلا الـروض مـا فيـه مـن أجْمَـةٍ ... فتـاهـتْ عليـه المهـا والظِّبـاءْ
إذا كـان صيـادُنـا مـاهـراً ... فليـس يصيـدُ بهـذا العـراءْ
إلـى عـالـمِ الحُـبِّ لا تستطيـعُ وصـولاً مـلائكـةٌ فـي السَّمـاءْ

ورايتُـــه ليـــس تُعطـــى ســـوى ... لمـــن لا يهـابـون سَفْـكَ الـدِّمـاءْ
ومـن أيـنَ تعـرفُ معنـى الـوِصـال ... إذا لـم تنـلْ مـن ضِـرامِ الهجـرْ
ســألتــكَ تمــلأُ روحَ الشَّبــاب ... بــأنّــاتِ إقبــال هــذا الفجــرْ
وتـؤتـي الشَّـواهيـن عـون الجنـاح ... لتنـــزلَ منـــزلهـــا فـــي القِمَـــمْ
وأمنيّـــة العُمْـــر هـــذي الجـــراح ... تقسمُهـــا بيـــنَ كـــلِّ الأمـــمْ

(٥)

نمـــطُ العَيْـــشِ هـــاهنـــا ... أفقـــدَ الحـــبَّ بهجتَـــهْ
أدركِ الحـــبَّ أخمـــدتْ ... نفحـــةُ المـــوتِ جـــذوتَـــهْ
فـــي لهيـــب انتظـــاره ... بـــدَّدَ العمـــرُ حُـــرْقتـــهْ
ضـــاع عمـــري بلحظـــةٍ ... أخَـــذَتْ منـــه زَهْـــرَتَـــهْ
تـــربـــتْ مـــن شـــرارةٍ ... قـــاومـــتْ منـــه شُعْلَتَـــهْ
هـــبْ لـــه خُلْـــدَ روحـــه ... وأدِمْ فيـــه سَخْطَتَـــه
وانظـــرِ الأرضَ عنـــدمـــا ... يهـــبُ الأرضَ نظـــرتَـــهْ

***

(٦)

أنـــا أرجـــو ألا يقـــوم رمـــادي ... أبـــداً هـــاهنـــا بتقـــويـــم قلبـــي
ورجـــائـــي ألَّا يكـــون عـــذابـــي ... مثـل يـومـي غـداً أمـامَـك ربـي
ثـــمَّ أرجـــو ألَّا أخـــورَ وأبكـــي ... وتـرى الحـورُ لـوعتـي ونحيبـي
وعســـى هـــذه المحـــافـــلُ ألَّا ... يـأخـذوا أيَّ فكـرةٍ عـن لهيبـي
ربَّمـا يـذكـرُ المسـافـر يـومـاً ... كـلَّ وخـزٍ رآه عَبْـرَ الطَّـريـقِ
فـرجـائـي ألَّا يصيـر حنينـاً ... ذلـكَ الـوخـزُ فـي فـؤادي الرَّقيـقِ
جعـلَ الحـبُّ مـن فـؤاديَ بحـراً ... لـم أجـدْ سـاحـلاً لـه فـي حيـاتـي
أنـا أرجـو ألَّا أفـاجـأ يـومـاً ... وأرى سـاحلـي شعـوري بـذاتـي
ورجـــائـــي ألا أكـــون ببحثـــي ... وهـــو بحـــثٌ بغيـــر لـــونٍ ومنهـــجْ

كـالـذي ضـاعَ عمـرهُ خلـف ليلـى يقتفـي إثـرَ هـودجٍ بَعْـدَ هـودج[1]

آدمُ الأرض فـي صعـودٍ غـريـب ولهـذا النُّجـوم طـرّاً تمـورُ

ربمـا صـار للسمـوات بـدراً ربمـا عـاد نجمُـه المكسـورُ

مـولاي سـرُّك مـاضٍ فـي عـوالمـه من عالمِ الطَّير حتَّى عالم السَّمَك

ولسـت غيـرَ صـراخِ الفَجْـر أملكـهُ أنا بكونك كالعُصْفورِ في الشَّرَك

---

(١) في الأصل ص٢٦٧ حرفياً (ملاحقة الهودج) .

إشارة إلى أسطورة : كان امرؤ القيس وهو شاعر عربي في القرن الأول قبل الهجرة . ذو شهرة واسعة وقع في حبِّ ليلى؟ عندما رآها فكان يلحق بكل بعير يحمل هودجاً على أمل أن تكون فيه ، والعبارة تعني (كل ملاحقة نصر على تحقيق الغاية التي وضعها الإنسان لنفسه) .

وفي تأويلات أخرى أنَّ المجنون أرسل رسالة إلى حبيبته ليلى ثم نفذ صبره فلحق بحامل الرسالة .

قال الأستاذ الملّوحي : ونلاحظ في هذا التعليق جملة من الهفوات فحبيبة امرؤ القيس التي ذكر امرؤ القيس هودجها ليست ليلى في قوله :

ولما دخلت الخدر خدر عنيزة . . . إلخ

قلت في ديوان الأسرار ص٧٠ يعلق عزّام على البيت :

صـدر عصـري مـا يقلـب يـؤهـل نـوح قيـس حيـن يخلـو المحمـل

قال : يبكي لخلوِّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلوّ المحمل من ليلى وقد يكون من ذلك قول المجنون :

أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم وأرى نسـاء الحـيّ غيـر نسـائهـا

وفي البداية والنهاية حوادث سنة ٦٣١هـ : كان السَّهروردي صاحب العوارف مرةً في مجلسه فكان يكرر هذا البيت :

ما في الصحاب أخو وجد تطارحه إلا محب لـه فـي الـركـب محبـوب

فقام شاب وكان في المجلس فأنشده :

كـأنمـا يـوسـف فـي كـل راحلـة لـه وفـي كـل بيـت منـه يعقـوب

فصاح الشيخ ونزل عن المنبر وقصد الشاب فلم يجده ووجد مكانه حفرةً فيها دم كثير من كثرة ما كان يفحص برجليه عند إنشاد الشيخ البيت .

(٧)

أيُّها السَّاقي لقد قامَ الغفاة ... ثورةٌ في كلِّ شيءٍ في الحياة
ذرَّةٌ لم تَخْلُ من عاصفةٍ ... أيُّها السَّاقي خذ الكأس وهات
نُهِبَتْ خيراتُنا أجمعها ... لم نَعُدْ ننفعُ شيئاً لِلْعباد
أيُّ عينٍ قد أصابت ركبنا ... جَعَلَتْهُ هائماً في كلِّ واد
فتنةٌ في القَلْبِ قد أودتْ بنا ... نحن أبناءُ أطبَّاءِ القلوب
أين في وديانا الماءُ الذي ... قبلُ أحْيَيْنَا به روحَ الشُّعوب
لِمَ لا يَنْطَلِقُ التَّوقُ الذي ... يُوقدُ الجذوةَ في صَدْرِ الحرمْ
حُجُبٌ غطَّتْ عيونَ المؤمنين ... أن ترى زمزمَ قُرْبَ الملتزمْ
رغمَ أنَّ النَّهر والبستانَ في تبريزَ بستانٌ ونهرْ
لم يزالا لم تَقُمْ جوقةُ رومي منذ دهرْ
قل لها إن شئتَ هذا النهرَ والبستان قومي
لو ترى إذْ رَقَصَتْ تبريز في حضرةِ رومي
أنا لا أيأس من حقلٍ ذوىٰ ... أيُّها السَّاقي إذا الماءُ هطلْ
فأعدْ رونقه إنْ لم يكن ... وابلاً يا أيُّها السَّاقي فَطَلْ
أيُّها السَّاقي هُمُ قد منحوا ... لذوي الكدية أسرارَ الملوكْ
أنا لو أُعطيتُ دنيا أبرويز ... لم أكنْ أرغبُ عن هذا السلوكْ
أنا لا أخلو بما أنعمته من موهبه ... ليس من طغرل أو سنجار في بيتي هبه
أنا بالفطرةِ أصبحتُ رقيباً للوجودْ ... رغمَ هذا ما لجمشيدٍ على قلبي قيودْ

***

(٨)

ألا يا أيُّها السَّاقي ... من الكاساتِ هاتيك
لعلي أنْ أرى يوماً ... مكاني منْ معانيك
لماذا أغْلَقَتْ أبوابَها ... الحاناتُ في الهند

مضت هدراً ثلاثُ قرونٍ بَعْدَ سقوطِ سرهندِ[1]

مضت هدراً ثلاثُ قرون ... في حانِ هَدَمناها
ولم تتحمَّل النُّدمان ... بُعدَك أيها السَّاقي
ذوت غزليتي لا شيء ... واللاَّشيء حرَّمه
علينا بائع اللاَّهوت ... بَعْدَك أيُّها السَّاقي
قلوبُ أسودنا في الغاب قد هَجَرَتْ تحقُّقَها
مع الصُّوفيِّ والملاَّ عبيدٌ أيُّها السَّاقي
منِ انتزعَ الحقيقةَ من مهنَّد حبِّنا هذا
وما أبقى لها إلا ... قراباً أيُّها السَّاقي
كلامُ القَلْبِ حينَ يكونُ حيَّاً خمرُنا الباقي
وإلا كان للأرواح موتاً أيُّها السَّاقي
أنا ليلٌ بلا قمرٍ ... وما لي هاهنا قَدْرُ
ألا يا أيُّها السَّاقي ... بكأسك ذلك البدرُ
بكأسك سرُّ ذيَّاك السُّكون وهذه الحركة
فأينَ الماءُ ، ماذا كان ... ردُّ الخضرِ للسَّمكةْ

(٩)

ساقيَّ ما حصل الذي أبغيه ... الذَّات عالمها متى نلغيه
القلبُ منشغلٌ بما عاطيته ... عمَّن يغنيه ومنْ يَسْقيه
ذهبتْ بجوقته كؤوسُك كلُّها ... لم تبقِ إلا الصَّمْتَ في واديه

---

(١) إشارة إلى المصلح الكبير الإمام الرّباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي المتوفى سنة ١٠٣٤هـ ، ويذكره الشاعر في مناسبات عديدة في دواوينه المختلفة ، انظر للاطلاع على حياته وجهوده الإصلاحية الجزء الثالث من سلسلة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي لكتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار ابن كثير بدمشق .

ما مثله متسوِّلٌ في حانةٍ بالـلامبالاة التي ترويه[1]
لو جاء ماءُ الخضرِ كسر كأسَهُ ورثى لذي كلفٍ به يأتيه

* * *

ساقيَّ والكأس الصغيرة لم تعد تكفي هلمَّ له بما يكفيه
فرغتْ دِنانُ القَوْم في أديارهم وأتيتُ أسألك الذي تخفيه
بصري على طمحٍ وقلبي جامحٌ فاسترْ إذا أحببتَ ما أنويه
غادرتُ لؤلؤتي الَّتي أغرقتَها في البحر تنعمُ منْ ضيائك فيه

* * *

نظراتُ هذا الشِّعر تَسْحَرُ لبَّنا والحسنُ لا يحتاجُ للتنويه
تضفي على لونِ الشقائق رونقاً وتزيدُها ألقاً بما تضفيه

* * *

مرةً تبصرُ المحبَّ شريداً مرةً تبصرُ الملوكَ لديه
مرةً يقحمُ النِّزال عريّاً مرةً يحشدُ الدروع عليه

(١٠)

أحرقتْ رغبتي بلاهةَ سُوقٍ فأتَتْني ملوكُه تشتريها
لستُ أبتاعُ سكرةَ الملك غُبْناً بعبوديتي الَّتي أنا فيها
لا يليقُ الوجود هذا بحرٍّ سرُّه يشتكي وجودك ذاكا
لم يجدْ هاهنا منَ الموتِ بدّاً أو مفرّاً من الحياة هناك
لذَّةُ العِشْق من فراقٍ وهجرٍ فاتَّق اللهَ أنْ تقولَ لماذا
ما تردَّدتُ أو تشردتُ يوماً أو تسكَّعتُ في طريقٍ كهذا
لا يمَلُّ الشَّاهين ما يرتجيه بين غابٍ يرودُها وجبالِ

---

(١) انظر : « حانة القلندرية في (منطق الطير) للعطار ص٣٧١ ، طبع دار الأندلس » .

ويـرى فـي اتخـاذه العُـشَّ عـاراً ... نـاعـمٌ بـالُـه شـديـدُ المحـالِ
مـن تُـرى يسَّـر الـذَّبيـح لبـرٍّ ... بعـدمـا كـان تلَّـه للجبيـنِ
كثـرةُ الـدَّرسِ أمْ نبـاهـةُ نفـسٍ ... إنَّ فـي ذاك آيـةً للضَّنيـنِ
سلـوة الشـرق حيـن يجـرح شعـري ... وضـريحـي لكـلِّ طلعـةِ حـرِّ
جئتُ (آلوند)[1] مرةً بعد أخرى ... فغبـارُ الطـريـق يعـرفُ سـرِّي
ليـس يحتـاجُ زخـرفَ القـول معنىً ... كيفمـا قلتَـه سبيـتَ الغـوانـي
مـا استعـارتْ يـدُ الحـديقـةِ لـونـاً ... حيـنَ صـاغَـتْ شقـائـقَ النُّعمـان

***

هـو ذا الحـبُّ مـرةً إلْـفَ وادٍ ... مـرةً وحـدَه يغنِّـي الجبـالا
مـرةً بـالغيـاب يَشْقَـى وأُخـرى ... يمـلأ القلـبَ غبطـةً ووصـالا
طـالمـا ألهـبَ المحـاريـبَ وَجْـداً ... طـالمـا أصْلَـح المنـابـرَ بـالا
مثلـه مثـلُ الإمـامِ علـيّ ... أخـذ العلـم كلَّـه والقِتـالا

(١١)

ألا يتـذكَّـرُ يـومَ اللقـاءْ ... وتـاريـخَ لحظتِـه الحـاسمـهْ
ومـا قـدَّس الحـبُّ مـن بقعـةٍ ... وأسيـافَ نظـرتـه القـاسمـهْ
ذوى الحـبُّ فـي أنفـس العـاشقيـن ... ولـم يبـقَ منـه سـوى وسـوسـهْ
وصـرنـا إلـى زمـنٍ مـالـه ... إلـهٌ سـوى صنـمِ المـدرسـهْ
يقـولـون أستـاذنـا آزرٌ ... ولـلآن مـا عـرفـوا رسمَـهُ
هُـمْ وثنيُّـون لا يعـرفـونَ مـن فـنِّ آزرَ إلّا اسمَـهُ
نَعَـمْ هـمْ إلـى الآنَ لـم يعـرفـوا ... رشـاقـةَ فطـرتـه البـادئـهْ

---

(١) آلوند : جبل في إيران جنوبي غرب طهران وهو بمثابة (رضوى) عند شعراء العرب ومن هنا اختار عزّام أن يستبدل آلوند برضوى في ترجماته ومن الجدير بالذكر أنَّ إقبال نظم جناح جبريل على غرار رباعيات (بابا طاهر الهمداني) الذي يكثر في شعره ذكر جبل آلوند وميمند .

تطـوَّح معبـدُهـم فـي الـرِّيـاح ... ولـم تبـق زاويـةٌ هـادئـهْ
تعجَّبـت مـن عـالـمٍ هكـذا ... فـلا هُـوَ عُـشٌّ ولا هُـوْ قَفَـصْ
هـب الكـرْمَ رونقَـه يـا كـريـم ... فلـم يبـقَ فـي الـدَّنِّ إلا غصـصْ
وحـانـاتُ إيـران قـد أجـدبـتْ ... وهـذي التـي فجَّـرت عينَنَـا
يظنُّـون شعـري لأجـلِ الـرَّبيـع ... ومـا علمـوا مـا الـذي بيننـا
دمـي وغبـاري همـا الجـوهـرانِ اللَّـذانِ يجيشـان فيمـا تشيـدْ
وأنـت سفكـتَ عليهـا دَمـي ... وخلـدُ التـألُّـق أجـرُ الشهيـد
بفضلـك لا أشتكـي الأصـدقـاء ... ولا أشتكـي جَـوْرَ هـذا الـزمـانْ
وثـوبُ الحيـاة التـي خضتُهـا ... بفضلِـكَ أخلعُـه فـي أمـانْ
فهبنـي بسـرِّك ذوقَ الفَنـاء ... كمـا فنـيَ السَّـابقـون الأوَلْ
فـلا الحـزنُ ثبَّـط مـنْ عـزمهـم ... ولا الخـوفُ أقْعَـدَهُـم فـي الـدُّولْ
نعـمْ ، عقـدَ الفكـرِ أطلقْتهـا ... وخلَّصتنـي مـن شيـاطينـهِ
متـى الحـبُّ تمنحنـي سـرَّه ... وتجعلنـي مـن مجـانينـهِ

(١٢)

يَهَـبُ الشَّقيـق بـلا حسـابٍ خمـره ... فترى الكؤوس على مدى البُستان
عجبـاً مـن الصُّـوفـيِّ يتـرك زُهْـدَه ... لأقـلِّ بـارقـةٍ بهـذا الحـانِ
الحـبُّ يجعـلُ حيـثُ مـدَّ بِسَـاطَـهُ ... مـن طعمـةِ المتسـوِّليـن ملـوكـا
يـرثـون شـرفـة أبـرويـز بمكـرِهـم ... فتظـنُّ كـان كمثلهـم صُعلـوكـا
هـذي النُّجـومُ عتيقـةٌ كسمـائهـا ... هـل مـن نجـومٍ غيـرِهـا وسمـاءِ
يـا ليـتَ شعـري والقيـامـةُ أزلقـتْ ... مـا حظُّهـا مـن هـذه الضـوضـاءِ
مـولاي عينـك لـو أدرتَ لحـاظَهـا ... عنِّي لحلَّ الـويـل بـي فـي لحظتـي
أنـا غبطتـي عنـد الصبـاح تَنَهُّـدي ... حـاشـاكَ تحـرمنـي وداعـةَ غبطتـي
لـم لسـتَ مُهْتمَّـاً بهـذا كلِّـه ؟ ... ولـو اهتممـتَ جعلـت منـه يقينـا
عينـاكَ لامعتـان إلا أنَّهـا ... دلَّـتْ علـى عـدم اكتـراثـك فينـا

أنـا لا يـلائمنـي ربيـعٌ طـافـحٌ ... بـالـزَّهـر لـم يُـدْرِكْ مـدى أحـزانـي
ويظـنُّ مـن خُيَـلائـه عـن فـرحـةٍ ... غنَّـى لـه العصفـور فـي البُستـانِ
قـالـت لـي الحمقـى تبـدَّد شملُنـا ... فكنِ ابنَ عصرك أيها المجنونُ[1]
فـأجبتُهـم إنْ كـان غيـرَ منـاسـبٍ ... فمـن المنـاسـب حـربُنـا المكنـونُ
حقّاً أبو الحسن المحقِّقُ قال لي : ... الـرُّوح لا تفنـى إذا فنـي الجسـد
أتظـن تبقـى الشَّمـس مشـرقـةً إذا ... هي أنْكَرَتْ هذا الشُّعاعَ إلى الأبد[2]

(١٣)

عـدمُ اكتـراثِـك لـم يـزلْ وشقـائـي ... لـم أستفـدْ شيئـاً بكـلِّ غِنـائـي
ربَّـاه أيـنَ أنـا وأنـتَ وإنْ يكـنْ ... هـذا فضـاؤُك أنـتَ أيـنَ فضـائـي ؟
ولـكَ الـوجـودُ جميعُـه أمْ لـي أنـا ... والكـونُ سِحْـرُكَ أمْ تمـوُّجُ ذاتـي
مـا خضـتُ إلا وقعـةً نشبـتْ بـه ... فـي سـاحهـا أنْفَقْـتُ كـلَّ حيـاتـي
مـا خضـتُ طـوال العمـر إلا وقعـةً ... نَشَبَـتْ علـى لغـزٍ مـن الألغـازِ
بحـرارةِ الـرُّومـيِّ كنـتُ أخـوضهـا ... حينـاً وحينـاً بـاكتئـابِ الـرَّازي
ما أفلحَتْ تلكَ العُقابُ وقد نَمَتْ ... وترعـرعـتْ بيـن النُّسـور الكـاسـرهْ
فَلِصَقْـرِنـا الملكـيِّ سـرٌّ واحـدٌ ... لـم تـدره تلـك العُقَـابُ الحـائـرهْ
لِلْحُـبِّ أغنيـةٌ ومـا لِغِنـائهـا ... لغـةٌ ، ولا تحتـاجُ لـلألفـاظِ
هـي إن تكـنْ أو لـمْ تكـنْ عـربيـةً ... فـالسـرُّ كـلُّ السـرِّ فـي الألحـاظِ

---

(١) شاهد من سعدي شيرازي وهو حرفاً : انسجم مع الزمن .

(٢) في الأصل (أيمكن أن تظل الشمس مشرقةً لو أنكرت أشعتها) وفي الهامش أنَّ الشمس هي الذات الكونية ، وأشعتها هي الذوات الفردية .

قلت : وقريب من هذا .

ربـاه ذاتـك فـي سمـاء حيـاتنـا ... شمـس أشعتهـا ذوات النـاس

وقريب من هذا قول شوقي في معارضته لعينيَّة ابن سينا :

يـا نفـس مثـل الشمـس أنـت أشعّـة ... فـي عـامـرٍ وأشعـة فـي بلقـع
فـإذا طـوى الله النهـار تـراجعـتْ ... شتى الأشعة والتقت في المرجعِ

مـــا بيـــن دروشـــةٍ ولا ملكيـــةٍ ... فـــرقٌ إذا صلحـــتْ أمـــورُ الـــذَّاتِ
كلتـــاهُمـــا تغـــزو الـــوجـــودَ فهـــذه ... بيـــدِ الجنـــودِ وتلـــكَ بـــالنَّظـــراتِ
البعـضُ قـد تـرك الـرَّكـابَ لغيـرهـا ... والبعـضُ يكتُـمُ جـرحَـهُ ويعـانـي
لـــو أتقـــنَ الحـــادي مقـــامـــاً واحـــداً ... لـــم يـــرغبـــوا عنْـــهُ لحـــادٍ ثـــانِ
الفكـــرُ حتَّـــى بـــالفضيلـــةِ لـــم يَعُـــدْ ... يرضى بقولِ القلبِ في تفسيرها
والقلـــبُ حتَّـــى بـــالتَّجـــارب كـــافـــرٌ ... ويـــردُّ قـــولَ الفِكْـــرِ فـــي تقـــريـــرهـــا
فـــإلـــى متـــى هـــذا النفـــورُ يقـــودنـــا ... وإلـــى متـــى تجتـــاحُنـــي أنفـــاســـي
اللهُ يعلـــم مـــا رأت نفســـي الَّتـــي ... أقســـو عليهـــا رحمـــةً بـــالنَّـــاسِ

(١٤)

أنـــا لا يبـــدو مجـــالـــي هـــاهنـــا ... يتعـــدَّى أبـــداً ظِـــلَّ القمَـــرْ
وأرى اللُّعبـــة مـــن مـــاءٍ وطيـــن ... ليس في كوني سوى هذا السَّمَرْ
أيُّ عيـــنٍ هـــاهنـــا مـــا افتتنـــتْ ... عنـــدمـــا مـــزَّقـــتُ أطـــرافَ الـــرداءْ
تـــربـــتْ مـــن أعيـــنٍ كـــانـــتْ تـــرى ... بقعـــةً زرقـــاءَ فـــي هـــذي السَّمـــاء
كـــمْ لنـــا قـــافلـــةٌ مـــرهقـــةٌ ... طـــوَّحَـــتْ خَلْـــفَ تـــلافيـــفِ الأثيـــر
إنَّ هـــذا المشتـــري والنَّيِّـــريـــنْ ... بعضُ من صاحبتُ في هذا المسير
هـــذه الأرضُ وهـــاتيـــكَ السَّمـــاء ... فـــي رحـــابِ الســـرِّ لا تنتهيـــانْ
قفـــزةٌ واحـــدةٌ مـــنْ عـــاشِـــقٍ ... تجعـــلُ الأســـرارَ فـــي جُبَّـــة كـــانْ
أنـــتَ إنْ حـــاولـــتَ كتمـــانَ الهـــوى ... فَضَحَتْـــهُ صـــرختـــي عِنْـــدَ الصَّبـــاح
صـــرخـــةُ الحـــبِّ التـــي تملكنـــي ... لـــم تـــدعْ للحـــبِّ ســـراً لا يُبـــاح
رغـــمَ مـــا تطلقُـــه مـــنْ حيـــرةٍ ... صـــرخـــةُ التـــائـــه مـــنْ غيـــر دليـــلْ
هـــي عنـــدي وكمـــا أعـــرِفُهـــا ... دعـــوةٌ تُعْـــرِبُ عـــن قُـــرْبِ الـــرَّحيـــلْ

* * *

إنْ تكـــنْ ربَّـــاً فيعنـــي عنـــدنـــا ... صـــرتَ تهتـــمُّ بـــأرضٍ وسمـــاء
وجَـــعٌ فـــي الـــرأس لا يتـــركُـــه ... لهنـــاءٍ فـــي صبـــاحٍ ومســـاء

أستميحُ العُذْرَ إمَّا إنْ تكنْ ... مَحْضَ إنسانٍ على هذي الوِهادْ
فهو لا يعني (تماماً) عندَنا ... وَجَعاً في الرَّأسِ ، لكنْ في الفؤادْ

(١٥)

واضحٌ قولي ، وفِكْري نيِّرٌ ... رغمَ أنِّي حافلٌ بالحِيَرِ
طينتي هذي الَّتي أملِكُها ... كلُّ ما أعرفه عن قدري
ليسَ عندي غيرَ شيءٍ واحدٍ ... أنا أم أنت الذي يَمْلكُه ؟
أنت لو مَكَّنْتَني منْ صونه ... عن زماني لمْ أكنْ أهْتِكُه
كيف لا تُعرِبُ عنِّي صرختي ... كيف لا تملأ أرجاءَ السَّماءْ
أنا غَنَّيْتُ كما علمتني ... أنا أم أنت الذي صاغَ الغِناء ؟!
خطأٌ إن كان في تصميمنا ... ما الذي يدعو إلى تكراره
ذلك الإنسانُ ما قيمتُه ... ومتى يخرج من فخَّاره
رغم أنَّ الغَرْبَ ما علَّمني ... من جميع العلم غير التُّرَّهاتْ
فأنا يوسفني (الملاَّ) الذي ... صار للإسلامِ عاراً في الحياة

* * *

أيها المسلم[1] يا نورَ السَّماء ... كيف لا تشرقُ في أرضِ البشرْ
أنت سلطانُ الليالي لا كما ... قالتِ الحمقى أسيرٌ للقَدَرْ
إنَّ أصنامي التي في مَعْبَدِي ... مثلُها تلكَ التي في معبدِكْ
لم تحطمْها يدٌ غيرُ يدي ... فترفَّعْ عن يدٍ غير يدك
ذلك الأعمى الذي تَقْصِدُه ... ما له علمٌ بما في قلبك
هو لا يبصرُ حتَّى نَفْسَه ... وتراه تحفةً من ربِّك

---

(١) في ترجمة النثر للأستاذ الملُّوحي « يا أنت ! وقد اختلف النقاد في تحديد المنادى » ص٩٨ .

ربَّاه هذا السُّوق ينبضُ روعةً ... ويروجُ حتى في ابتياع الدَّاء
بالرَّغم من هذا فأرخصُ سلعةٍ ... عند الشراء مواهبُ العلماء
ملكَ المرابون البلادَ جميعها ... وتقامروا حتَّى على الأديانِ
والناسُ يعتقدون رغم شقائهم ... للإنكليز بمطلق السُّلطانِ
لم تمنحِ العلماءَ حتى قشّةً ... وجَعَلْتَهُم أخلى العبادِ وفاضا
والإنكليز وهم عبادٌ مثلُنا ... يُعْطون أبناء الحمير رياضا
ملئت كنائِسُهم بكلِّ ملذَّةٍ ... فهنا اللحومُ وهاهنا الكاساتُ
هل في مساجدنا بكلِّ بلادِنا ... إلا المواعظُ تلك والصلواتُ[1]
قرآنُك الحقُّ المبين وإنْ يكن ... قاسى كلامَ مفسِّريه وعانى
لو يرغبون برأيهم أن يجعلوا القرآن (بازند المجوس)[2] لكانَ
فردوسك اللهمَّ لم يره هنا ... أحدٌ وأنتَ هو السَّميعُ المُبْصرُ
الإنكليز بلادُهم فردوسُهم ... والمسلمون إلى سمائِك تنظرُ
ما زال فكري في سمائِكَ حائماً ... فاسجنْه في فلكٍ من الأفلاكِ
تأبى عليَّ ملائكيَّةُ فطرتي ... أنْ أستمرَّ بهذه الأشْراكِ
لك ذلكَ الدَّرويش جرَّح نفسه ... حاشا تكون لقلبه جهتانِ
لا في سمرقندٍ ولا دلهي ولا ... في أصبهانَ له مقامٌ ثانِ
أنا لستُ مِسْكيناً ولستُ مراوغاً ... والحقُّ : أرفضُ غيرَ نفسي شاهدا
غضبت عليَّ الأصدقاء جميعُهم ... والحقُّ لا يبقي صديقاً واحدا
لم أستطع أبداً أسمِّي سُمَّهم ... حلوى وأعرفُ أنَّه قتَّالُ

---

(١) المقصود اللادنيوية التي مُني بها المسلمون واللَّادينية التي انتهى إليها الغرب ، فليس في كنائسه إلا دنيا ، وليس في دنيا المسلمين إلا مساجد .

(٢) البازند : شرح ترجمة معدلة لكتاب زرادشت (رأفيستا) ويُشير الشاعر إلى عناصر في هذا الدين مثل الثنوية وارتكاب المحارم (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(دومنـد) عنـدي لا يسمَّى صخـرةً ... وعليـه مـن قُلـلِ الجِبـال جِبـالُ
لمـا قُـذِفْـتُ لنـارِ نمـرودٍ أتـى ... جبـريـلُ يسـألنـي فَلَـمْ أتكلـمِ
وصمتُّ لمَّا قال : هل لك حاجةٌ ... أنـا مسلـمٌ أنـا لستُ حبـة شَيلـمِ
ربَّـاه ! إنـي أتْعَبَتْنـي حيـرتـي ... مـا عـاد يمكـن أن أغـضَّ عيـونـي
الحسـنُ مـن حـولـي يشيـع وصـالُـه ... والحُبُّ فـي صـدري يـذيـعُ فتـونـي
سكـرانُ مغتبـطُ السَّجيّـة منتـشٍ ... بـالفقـر فـرحـانُ الفـؤاد بهيجُـهُ
يـا ليـت شعـري كيـفَ يُحْـرَمُ برعـمٌ ... مـن رغبـةٍ فـي الابتسـام تهيجُـهُ
لـم يستطـعْ إقبـالُ يكتـمُ جـرحـه ... حتَّـى أمـام الله قـام وقـالا
من سوف يُسْكِتُ ذلك الوَقِحَ الذي ... لـم يبـقِ للمتجمِّليـن جمـالا

***

القسم الثاني

علق إقبال على هذه القصيدة بقوله :

تفضَّل جلالة السلطان نادر شاه ـ الذي استشهد بعد ذلك ـ بدعوتي فاغتنمتُ زيارة ضريح الفيلسوف السنائي الغزنوي في شهر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣م وقد نظمتُ هذه التأمُّلات على نمط قصيدةٍ مشهورةٍ لهذا الفيلسوف[١] ذكرى لهذا اليوم السعيد :

« إنَّنا نسير على خُطى السنائي والعطَّار »[٢] .

***

(١) القصيدة نمط من الشعر العربي اقتبسه الفرس ، ويتَّجه إلى مدح شخصية ما ، أو إلى تجسيد عقيدة عند أهل التصوُّف كالسنائي (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(٢) الشطر الثاني من بيت لمولانا جلال الدين الرومي .

لـم تَقْـوَ صحـراءُ الطبيعـة هـذه ... لمـا جننتُ على احتواء جنـوني
لـولا الجنـونُ أسـاء فـي تقـديرهـا ... لـم آتهـا بمخـاوفـي وظُنـونـي
بـالـذَّات يمكـنُ أن نكسِّـر سِحْـرَ مـا ... بعثتـهُ مـن عطـرٍ ومـن تَلْـويـن
لا أنـتَ تملـكُ فـي الحيـاةِ ولا أنـا ... أسـرارَ وحـدانيـة التَّكـويـن !
صُوَرُ الوجودِ تموجُ نُصْبَ عيوننا ... فـاملأ عيونَـك مـا مـلأتُ عيـونـي
لـو يستطيـعُ البحـر يتـركُ مـوجـه ... ألقـى بمـوجِ الظـنِّ بحـرُ يقينـي
بيـن المحقِّـق والفقيـه خصـومـةٌ ... عَصَفَـتْ بمِنْبَـرِ ذلـكَ المسكيـنِ
لمَّـا رُئـيَ الحـلاَّج فـوق صليبـه ... كسَـر الصَّليـبَ تعصُّبـاً للـدِّيـنِ
مـا بَيـنَ مِنْبَـرِ ذا وبيـن صليـبِ ذا ... لـم ألـق غيـر خصـومـةٍ مـنْ طِيْـنِ

* * *

رجـلُ البصيـرةِ لا يـذوقُ هـوانـا ... سِيَّـان عبـداً كـانَ أو سلطـانـا
يختـالُ والـدِّرع الـوحيـدةُ زهـدُه ... لا يشتكـي زمنـاً ولا شيطـانـا
جبريلُ دعني في الحياة وسكرتي ... لا أنـتَ أستـاذي ولا أنـا عَبْـدُكَـا
أنا إن تَبِعْتُ خُطاك خنتُ خلافتي ... شتَّانَ وَجْدي في السَّماء ووَجْدُكَا
سَفْـكُ الـدِّمـاء رسـالـةٌ مـذمـومـةٌ ... لكنَّهـا فـي الأرض أقـدسُ فـرضِ
أهـلُ السَّمـاء صـلاحُهـم فـي أنَّهـم ... يستغفـرون بهـا لمـن فـي الأرضِ
كـم ذا ذهبـتُ مُشَـرِّقـاً ومُغَـرِّبـاً ... أتفحَّـصُ الحـانـاتِ فـي الآفـاقِ
فهنـا كـؤوسٌ لا مـذاقَ لخمـرهـا ... وهنـاك خمـرٌ مـا لهـا مـنْ سـاقِ
طـورانُ مـن إيـرانَ تـأخـذُ ثـأرهـا ... وبـلاطُ قيصـر مـن دمـائهمـا نـدي
ذهـب الـدراويـش الـذيـن عهـدتَهـم ... لا يـأبهـون لصـارمٍ ومهنَّـد
وبقيـتُ فـي حـرمٍ يتـاجـر شيخـه ... بـوشـاحِ فـاطمـةٍ ومصحـفِ أحمـدِ
لمـا اشتكـى لله إسـرافيـلُ مـن ... شكـواي قـال ـ بحـرقـةٍ وتنهُّـدِ ـ :
هـذا الفتـى قبـل الأوان يـريـد أن ... ينهـي الـوجـود بشِعْـره المتمـرِّدِ
فـأجابـه صـوتٌ : أليـس أشـدَّ مـن ... هـذي النِّهـايـة مـا تـرى يـا سيـدي

إحرامُ أهلِ الصِّين داخلَ سدِّها ورقودُ مكَّةَ في جوارِ محمَّد

* * *

مِنْ (لا إله) لنا كأسٌ يمنِّينا
وكؤوس (إلا الله) كُسرَتْ بأيدينا
الكأسُ طافحةٌ بالنَّفي في الأرواح
والكأسُ في الإثبات تبكي ذهاب الرَّاح
العازفُ الموهوبُ بالعَزْفِ أخرسنا
نبكي بلا صوتٍ ونخونُ أنفسنا
عجباً لأوربَّة بالنَّهر تُغرينا
وبذاتِ لجَّته ضاعتْ معانينا
تُخفي بهدأتها تيَّارَها الماحي
عصفتْ فما تركتْ وَكْراً لتِمْساحِ
رأيُ العبيد بها لا نطمئنُّ له
وتقرِّرُ الأحرارُ الرأي مجمله
لا شيءَ يُقْنِعُنا إلا اجتهادٌ وفي
يأتي بلؤلؤةٍ من ذلك الصَّدَفِ
ذاكَ الزُّجاج إذا عَجَنْتَه في الكِير
فأنا أسوِّيه صخراً بإكسيري
لي في الجهاد يدٌ فرعونُ يخشاها
بيضاءُ ما مُدَّت إلَّا لمولاها
أتظنُّ أوربَّة أنْ ينتهي نَفَسي
أو تنطفي ناري في قشِّها اليَبِسِ
ناري وقد أذكتْ ما اخْضَرَّ من قصبي
لا شيءَ يمنعُها من ذلك الحَطَبِ

متفـــاهـــمٌ قلبـــي ... لا يعـــرفُ اليـــأســـا
الحـــبُّ علَّمـــه ... أنْ يُـــرْغِـــم النَّفســـا
مـــن عُسْـــرِ عـــالمـــه ... يستخـــرجُ اليُسْـــرا
لا قَصْـــرَ قيصـــرِه ... يـــرجـــو ولا كِسْـــرى
متعلِّـــقٌ أبـــداً ... بـــركـــابِ سيِّـــدِهِ
لا غَـــزْوَ لـــلأقمـــارْ ... يَسْقُطْـــنَ فـــي يـــده
هـــو سيِّـــد الأشيـــاء ... هـــو خـــاتـــمُ الـــرُّسُـــلِ
هـــو شُعْلـــةُ السَّـــاري ... فـــي هـــذه السُّبـــلِ
هـــو مـــركـــبٌ مـــنْ نـــور ... يمشـــي أمـــام الـــرَّكْـــبْ
أعطـــى جنـــون الطُّـــور ... لغبـــار هـــذا الـــدَّرْبِ
هـــو أولُ المَيْـــدانِ ... هـــو آخـــر الـــدَّرْبِ
فـــي أعيـــنِ السَّكـــرانِ ... مـــنْ نَشْـــوَةِ الحـــبِّ
هـــو رحمـــةُ القُـــرآن ... للنَّـــاس أعطـــاهـــا
هـــو سيِّـــدي يـــاسيـــن ... هـــو مـــالكـــي طـــه
أقلعـــتُ عـــن غَـــوْصـــي ... وتـــركـــتُ أحمـــالا
لـــولا (سنـــائـــي) مـــا ... أقْلَعْـــتُ إجـــلالا
لـــولاه عـــنْ بحـــري ... لـــولاه مـــا حِلْـــتُ
فـــلآلـــيءٌ فيـــه ... أضعـــافُ مـــا قلـــتُ

(٢)

الشـاعـرُ الفـرحُ الحـزيـنُ معـاً أنـا ... حـذر الحكيـمُ أشُـوبـه بجنـونـهِ
أوتيـتُ ملكَهمـا بـوجـهِ معـذِّبـي ... ورميـتُ بـالاثنيـن حـول عيـونـه
والزُّهد منْ شِيَم الملوك فإن تجِدْ ... ذا الفقـر فيـه فَمِـنْ عظيـم فتـونِـهِ

زهـدُ الملـوكِ كـأبـرويـز محبـةً ... ألقـى ممـالكـه إلـى شيـرينـهِ[1]
وكهـداةِ الأسـدِ المقيـم كمـا يُـرى ... مـا بيـن مِخْلَبِـه وبيـن عـرينـهِ
لا قعـدةُ الصُّـوفـيِّ مُنْهـدِمَ القُـوى ... مـنْ فقـد دُنيـاه وضيعـةِ دينِـهِ
مـا قـول سـادتِنـا الـدَّراويـش الَّتـي ... سمعـت لآهـات ابنهـا وأنينِـهِ
هـو مـنْ رجـالِ اللهِ إلا أنَّـه ... سيثيـرُ عـاصفـةَ النُّشـور بطِينـهِ
رجـلٌ تنيـرُ طـريقـهُ شطحـاتُـهُ ... حـيٌّ كمثـلِ البَـرْقِ بيـن شـؤونـه
ملـكٌ أمـاراتُ الجنـونِ بـوجهـه ... والعَبْـدُ يفضحُـه غبـاءُ سكـونـه
تيمـورُ أو جنكيـزُ كـانَ كِـلاهمـا ... ملكـاً وخـدش الله فـوق جبينـه
شعـري بفـارسَ والعـراقِ محيِّـرٌ ... طـرِبـوا لـه وتحيَّـروا لشجـونـه
الكـافـرُ الهنـديُّ[2] يـذبـحُ دونمـا ... سيـفٍ ولا رمـحٍ فَمَـنْ لجنـونـه

(٣)

روعـةُ السـرِّ التـي أعطيتُهـا ... والَّتـي مكَّننـي منهـا الجنـونُ
إنَّ أنفـاسـي الَّتـي أحـدو بهـا ... أُخِـذَتْ مـنْ صَـدْرِ جبريـلَ الأميـنِ
لسـتُ آتـي النَّجـم كـي أسـألَـه ... عـن مصيـري هـاهنـا كيـف يكـونُ
هـو لا يعـرف مـنْ أيـنَ أتـى ... فـي رحـابِ الكـونِ منبـوذٌ مَهِيْـنُ
مـا حيـاةُ النـاس إلا سكـرةٌ ... وهـي فـي اليقظـة أو فـي الحُلْـمِ
لا تُضِـعْ عمـرك فـي تفسيـرهـا ... كثـرةُ الحيـرة مـوتُ الهِمَـمِ

***

فـرحـي تفجَّـر مـنْ ... قـدمـي إلـى رأسـي

---

(١) يمكن أن يكون في هذا إشارة إلى قصر « دربند عجم » الّذي بناه أبرويز لمعشوقته شيرين رمزاً لحبّه كالملك المغولي شاهجهان الذي بنى « تاج محل » في القرن الخامس عشر الميلادي رمزاً لحبّه لزوجته « ممتاز محل » .

(٢) انظر من تلقَّب من الشعراء بالكفري (مكتوبات الإمام الربّاني الجزء الأول ، ص٣٢) .

والقـــــومُ تطلـــــب أنْ أنْسَـــلَّ مِـــنْ نفســـي
مـــا ســـرُّ قلبـــي ؟ آهْ لضميـــره العـــذبِ
وسمـــوِّ نظـــرتـــه فـــي سكـــرة الحـــبِّ
لا أرتضـــي بـــدلًا عـــن قلبـــي المجنـــونْ
بكنـــوزِ قـــارونٍ وعلـــومِ أفـــلاطـــونْ
معـــراجُ سيِّـــدنـــا علـــمٌ عظيـــمُ الشـــانْ
بـــدتِ السَّمـــاء بـــه فـــي عـــالـــمِ الإنســـان
لابـــدَّ يُـــذهِشُنـــا مـــا كـــان يُحْتَمَـــلُ
فـــوجـــودنـــا هـــذا مـــا زالَ يَكْتَمـــلُ
فـــي كـــلِّ آونـــةٍ نُصْغـــي إلـــى إعـــلان
يلغـــي خـــرافـــاتٍ مـــن ســـالـــف الأزمـــان
ألهتـــك أوربَّـــة بـــالسِّحـــر عـــن ذاتـــك
إيَّـــاك أن تـــرضـــى عـــن كَسْـــرِ مـــرآتـــك
لا تتـــرك الـــرُّومـــي[1] ولهيـــبَ حـــرقتـــه
فـــدواؤك الشَّـــافـــي فـــي نـــارِ نَظْـــرَتِـــهِ

---

(١) يرى إقبال أنَّ المراحل المختلفة للخبرات الداخلية ترتبط بأحوال مختلفة من الوعي الذاتي ، وبالتالي فالخبرات الداخلية التي نجدها في الأدب الديني العالمي مهما كانت مغلفة في مفاهيم سيكيولوجية متقادمة فإنها لا ترتكز على وهم ، وإنما تحمل قيمةً معرفيةً كاملة .

والظاهر : أنَّ العلم الحديث ما زال لا يملك الأدوات التي يستطيع بمقتضاها أن يحلِّل بدرجةٍ مناسبة مضمون هذه الخبرات الصوفية .

ويريد إقبال بتمجيده للرومي أن يعرب عن سخطه على الفلسفة المجردة داعياً إلى الفلسفة التجريبة التي تجلت عند الرُّومي في مبدأ العشق العيني المشار إليه في قول الرومي : ليس الحرام تنظر إلى وجه الحبيب ، وإنما الحرام أن لا يكون لك حبيب تنظر إليه « انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ فصل إقبال والرومي » .

أو مـــا اسْتَعَـــذْتَ بـــه ... مـــا ضـــاعَ مِـــنْ نَفَسِـــك
إيـــاك كنـــت تـــرى ... جيحـــون فـــي كـــأسـك

(٤)

ألا يـــا عـــالمـــاً فـــي المـــاء ... بيـــن التُّـــرب والأهـــواء
ظـــاهـــر ذلـــك الســـرِّ ... أنـــا أبـــديـــهِ أم أنـــت
وهـــذا الليـــلُ فـــي حـــزنٍ ... وحـــرقتُـــه وحيـــرتُـــه
ولحـــنُ مـــؤذِّن الفَجْـــرِ ... أنـــا أعطيـــه أم أنـــت
نشـاط الـدَّهـر يطلـبُ مَـنْ ... أنـــا أم أنـــت يثقِلُـــه
ويَحْمـــلُ عبئـــه يجـــري ... أنـــا أغـــريـــه أم أنـــت
غبـــارٌ نحـــن يـــا أعمـــىٰ ... ولكنِّـــي أعيـــي ذاتـــي
فحقـــلُ الكـــون لا أدري ... أنـــا أسْقِيـــه أم أنـــت

***

(٥)

كمـا أنـتَ لا تكتـرثْ للسِّنيـن ... وَسِـرْ فـي طـريقـكَ نحـو الأمـام
كمـا أنـت لا تُصْـغِ للقـائليـن ... فلسـتَ لنجـدٍ ومصـرٍ وشـام
تعـالـى جهـادُ النَّـزيـه الغَيـور ... تعـالـى يكـونُ لنيـل الحُطـام
وجـائـزةُ الحـرِّ غيـرُ الخمـور ... وغيـرُ الغـوانـي وغيـرُ الخِيـام
علـى الطُعْـمِ يسقـطُ مـن لا يطيـر ... ومـن لا يحلِّـق فـوقَ الغَمـام
إذا سلـب الغـربُ قلـب الغَـريـر ... فسـرُّك يغـزو مصيـرَ الأنـام
عصـاك تُصَـدِّع صُـمَّ الجبـال ... وتعـرف سيناءُ صِـدقَ الكـلام
فـدعْ تـرفَ الغمْـدِ مـا للهـلالِ ... علـى فخـره غيـرُ شكـلِ الحسـام
إمـامُـك يفقـدُ معنـى الخشـوع ... ويَنْقُـضُ نجـواك عـزُّ القيـام
أمثلـك يـرضـى بهـذا الخنـوع ... وتلـك الصَّـلاة وذاكَ الإمـام

***

نسيبُ جبريلَ معصومٌ من الرِّيبِ وحكمةُ الذَّوق تعلو حكمةَ الكُتُبِ
كم كانَ مِنْ سفنٍ للقومِ أغرقها سلَّمُ التَّصوفِ واللاّهوتِ والأدبِ
كنْ ثاقبَ العين في قلب الأسود لها جرحٌ فما لثُغَاء الشاة من عَتَبِ
جسَّ الطبيبُ بقلبي ما أكابِدُه فقال : ويحك ما تخفيه منْ طلب
تطلعاتُك لا طاقاتُ تحملها لكن (لكَ الحقُّ) لا تيأس من السَّببِ
وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوح أعرفه وليس هٰذ الذي في قلبك اللَّجِبِ
هذا الدمُ القِرْمزيُّ اللونِ (نَضْرَتُه) تدلُّ أنَّك لم تشربْ شرابَ غبي

(٧)

لشقائق النعمان قنديلٌ على الآكام يشرقُ من جديد[1]
ويحثُّني العصفورُ في البستان ، يرغب أن أجدِّد في النَّشيد
الحورُ صفٌّ بعد صفٌّ والزهورُ مبعثرة
ضجَّ الجميعُ ولا أظنُّ جميعَ هذا ثرثرة

---

(١) يبدو أنَّ القصيدة ستكون غامضةً إذا تُركت بغير تعليق للرُّموز التي طفحت بها والتي تعطيك فكرةً بشرحها عن طبيعة شعر إقبال وما فيه من رمزية مغرقة ، وتستطيع أن تأخذ فكرةً واضحةً عن ذلك إذا تأملت ما هُمش به جناح جبريل ـ الأصل ـ من اختلاف النقاد في فهم كثير من شعر إقبال .
يشير إقبال في هذه القصيدة إلى أنَّ الحضارة قد دخلت في طورٍ جديد ، وهي بحاجة إلى ديانة تناسبها ، وهذه الناس الذاهبة هنا وهناك تبحث عن شيء ، وهاهي الذوات بدأت تستقل ، كلٌّ واحد معتصمٌ بذاته وهذا سيجعل تلك الديانة أكثر جمالاً ؛ لأنَّ الديانة الحقة إذا نزلت على الفطرة الحرة كانت كمثل لؤلؤة النَّدى على الزهرة الحمراء . سيتألق البستان ، وغاية الفطرة هذه هي الجمال كله ، ولا يمكن لهؤلاء الذين أصبحت نفوسهم كالمدن في تعقيدها إزاء صفاء الفطرة لا يمكن لهم أن يفهموا كلَّ هذا ؛ لأن هذه الزحمة في نفوسهم ستحول بينهم وبين تجلّي القصة في ثوبها الجديد ، ويختم إقبال رموزه بإشارات لا تحتاج إلى تعليق .

الثَّـــوب أصْفـــرُ أصفـــرُ والثَّـــــــوب أزرقُ أزرقُ
والقِـرْمـــزيَّـــةُ قِـــرْمِـــزيَّـــةٌ والتفـــــرُّدُ مُطْلـــــقُ
ألقـــى نسيـــمُ الصُّبـــح لـــؤلـــؤةً علـــى تـــاج الـــزُّهـــور
والشَّمْـــسُ نـــوَّرت النَّـــدى لتـــزيـــد مـــن ألـــقِ العُطـــور
مـــن هـــذه الغـــابـــاتِ قـــامَ الحســـنُ يبـــدأ رقصتَـــه
فـــي هـــذه الغـــابـــاتِ لا فـــي المُـــدْنِ نفهـــم قصَّتَـــهْ
اغْـــرَقْ بـــذاتـــك مـــا استطعَـــتَ فشـــطُّ بحـــرك فـــي حيـــاتـــك
إنْ كـــان يـــزعجُـــك انتســـابـــي فـــانتســـبْ لجمـــال ذاتِـــك
مـــا عـــالـــمُ القَلْـــبِ ؟ المحبـــةُ والمـــروءةُ والحمـــاســـهْ
مـــاعـــالـــم الجســـدِ ؟ التِّجـــارة والتملُّـــق والسيـــاســـهْ
يـــا أنـــتَ أنـــتَ إذا وَجَـــدْتَ غنـــى الفـــؤاد فَلَـــنْ تُـــرَاع
أمـــا غنـــى الأجســـاد فهـــو وكـــلُّ مـــا فيـــه ضَيـــاع
وإذا وَجَـــدْتَ القلـــبَ ثـــم أضعتـــه فـــالحـــقُّ أنَّـــك مـــا وَجـــدتَـــهْ
والحـــقُّ : أنَّـــك ضـــائـــعُ الخُطـــواتِ مـــن وهـــم تُصَـــدِّق مـــا ظننتَـــه
لـــلإنكليـــز سيـــادةٌ فـــي غيـــر قلـــبِ المسلـــمِ
مـــا فيـــه تـــأويـــلاتُ شيـــخٍ أو مســـائـــلُ بـــرهمـــي
لـــو كنـــتَ تَسْمَـــعُ للقلنـــدر حيـــنَ قـــال وحيـــنَ جلَّلنـــي حيـــاء
لمـــا انحنيـــتَ أمـــام غيـــرك صـــرتَ مـــنْ جســـدٍ ومـــن قَلْـــبٍ هبـــاء

(٨)

دَمُ المسلـــمِ النُّـــورُ فـــي دَرْبِـــه ومـــوهبـــةُ السِّحـــر فـــي قلبـــه
ويعتـــرفُ العصـــرُ أنَّ الجمـــالَ صَبَـــا وتَـــرَعْـــرَعَ فـــي شعبـــه
ولـــولا مـــدارسُ هـــذي الشُّيـــوخ وأحبـــارُ ســـوءٍ ورهبـــانُهـــا
لـــروَّى المـــدينـــةَ ممـــا ارتـــواه وأورقَ بـــالحـــبِّ بستـــانُهـــا
صغـــارُ الشَّـــواهيـــن مـــا ذنبهـــا هُـــمُ علَّمـــوهـــا عنـــاقَ الغبـــارْ

هُـمُ قتلـوا القَلْـبَ فـي صَـدْرِهـا هُـمُ أبـدلـوهـا بهـذا الشَّنـارْ
تـرى النشـأ يمـلأ وجـه الطـريـق بـروحـاتِ نِسـرٍ وغـدواتِ بـازْ
ومفتـي المـدينـةِ وادٍ سحيـق يضُـجُّ بمصطلحـاتِ الحجـازْ
أنـا لسـتُ أفهـمُ هـذي الكـؤوس ويـؤسفنـي مثـلُ هـذا اللَّجـاج
ومـن كـان يحسـنُ نَحْـتَ الصُّخـور تـرفَّـع عـن أن يَصُـوغ الزُّجـاج
يقـولـون إقبـالُ مـاذا يـريـدُ ومـن أيـن جـاء بهـذا السُّلـوكْ
سـألـتُ الـدَّراويـشَ عـن سِرِّهـا وألقيتُـه فـي وجـوهِ الملـوك

(٩)

هـو الحـبُّ يمضـي حِيـالَ الحيـاة يغنِّـي نشيـدة ألحـانِـهِ
ويـرسِلُهـا فـي وجـوه التُّـراب ويمنحُهـا بعـض ألـوانِـهِ
يُغَلْغِـل فـي الأرض أوتـارَه ويمـلأ هيكـلَ إنسـانـهِ
كمـا يَتَغَلْغَـلُ ليـن النَّسيـم بسيقـانِ زهـر وقفطـانِـهِ
إذا المـرءُ لـمْ يَـدْرِ مـا ربُّـهُ تحـوَّل عبـداً لسلطـانِـهِ
ومـنْ طلَـبَ اللهَ لا مِـنْ سـواه وأدركَ قيمـةَ عِـرْفـانـه
تحـوَّل (دارا) لـه طـالبـاً و(جمشيـدُ) من بعضِ نُـدْمَانِه
يجـاهـدُ للقلـب حـرُّ الجهـاد وللبطـن صعلـوكُ أوطـانـه
وذاك يحصِّـل سـرَّ الخلـود وهـذا يمـوتُ بميـدانـه
تمعَّـن بقلبـك واستنْتِـهِ ولا تسـألِ الشَّيـخ عـن شانـه
خـلا حَـرَمُ الله مـن أهلـه فكـنْ أنـت جَـذْوةَ أركـانـه

***

(١٠)

القَلْـبُ يَنْقُصُـه الهـوى والعَيْـنُ يَنْقُصهـا الصَّفـاء
مـنْ لـمْ يُغـامِـرْ مثلمـا غـامـرتُ تـدهشـه السَّمـاء
مـا سـرُّ طينتِـك الَّتـي ذوقُ التَّجلِّـي نقشُهـا

أتَضِيعُ فـي وهـم الحيـاة وأنـت قلبـك عـرشَهـا
حـاشـا لأوروبـة الَّتـي جفَّـت دمـوعُ عيـونهـا
حـاشـا تنيـرُ بقطـرةٍ مُلِئَـتْ بليـلِ ظنـونهـا
هـل يعـرفُ الصـوفـيُّ والمـلاَّ حقيقـةَ جـذبتـي
ضنُّـوا بكـلِّ ثيـابهـم وأنـا أمـزِّق جبَّتـي
مـا مـزَّقـا يـومـاً ولا حشـواً ولا طـرفَ الـرِّداء
فـاعجـبْ لصُـوفـيٍّ ومـلاَّ يلجئـونـك للـرِّيـاء
حتَّـى متـى يـا طينتـي تتـوسليـنَ إلـى النُّجـوم[1]
كـانـتْ نجـومـاً ثـمَّ ضـاعـتْ خلـفَ أوهـامِ العلـوم
إمَّـا أكـفُّ أنـا وإمَّـا أن تكـفَّ عـن الـوجـودِ
هـذا الصِّـراعُ البـاردُ الـواهـي طـريـقٌ للجحـودِ
مـا دُمْـتُ صـاعقـةً ففـي الصَّحـراء أعمـلُ والجبـال
عُشْـبٌ وقـشٌّ يـابـسٌ لا يستحقَّـان انفعـالـي
الكـونُ ميـزانٌ يكـونُ لـذي الشَّجـاعـة والجـلادِ
للمـؤمـنِ الحـقِّ المخـاطـر بـالحيـاة لمـا ينـادي
حـاشـا لمـن (لـولاك)[2] فـي يـده يـرى شيئـاً منيعـا
مـا مـؤمنـاً مـنْ لـمْ يكـنْ للكـونِ علتـه جميعـا

* * *

(١١)

ألـفُ خـوفٍ ولا قيـامُ لسـانـي بحـديـثٍ ممـا يُكَـذِّب قلبـي
عنـدمـا قلـت للقلنـدر[3] هـذا قـال : أحسَنْـتَ إنَّ ذلـك دأبـي

---

(١) ربما كان المقصود هنا : « بأيهم اقتديتم . . . » (الحديث) .
(٢) لولاك لما خلقت الأفلاك .
(٣) القلندرية : طريقة صوفية يمكن أن تكون امتداداً للملامتية ، ويشير السهروردي في

= عوارفه (٢٣٢) إلى عدة فروق بينهما ، وعنه ينقل المقريزي ذلك بتصرف في الخطط (٢/ ٤٣٢) .

وترتبط نشأتها في التراث الإسلامي بمجيء جمال الدين الساوي إلى دمشق بعد سقوط ساوة في أيدي التتار حوالي عام ٦١٧هـ .

انظر الوافي للصفدي (٤/ ٢٩٢) . النعيمي (٢/ ٢٠٩) معجم البلدان (ساوة) ، تلبيس إبليس (٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) . (الكواكب السائرة ٣/ ١٩١ ترجمة علي بن صدقة) . (وفيه ١/ ٤٨ ترجمة محمد الجارحي) . (وخلاصة الأثر ٣/ ٣٨٩ محمد بن أحمد العبادي) وانظر التذكرة التيمورية وعلى هامش لطف السمر (١/ ٣٥٣). والعبر (٥/ ١٤١) والبداية والنهاية حوادث سنة ٧٦١هـ ورحلة ابن بطوطة (٣٣) ونلفت النظر إلى وجود جملة من المعتقدات الزرادشتية ترتبط ببحيرة ساوة ، وفي الحديث (خمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة) وهذا ما يفسر وجود بقايا زرادشتية في الأدب القلندري .

وينبغي أن يمحَّص رأي دائرة المعارف الإسلامية « النسخة الفرنسية » من أنَّ قلندر يوسف الإسباني هو مؤسس القلندرية وعنها نقل فروخ في (التصوف في الإسلام) ص٢٦ وكذا حسين مجيب المصري في ترجمته غير المشهورة لأرمغان حجاز (١٥٦) ومحقق لطف السمر (٣٥٣) أو عن قاموس المنجد .

وربما كانت أخبار قلندر يوسف هذا شفوية غير مكتوبة ، أو أنها بمعنى آخر تقليدية .

كما أننا غير مطمئنين إلى صحة كون (قلندر نامه) من تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي كما تقطع بذلك دائرة المعارف الإسلامية . « النسخة الإنكليزية » والمرجح أن يكون من تأليف هاتفي (عبد الله بن محمد الهروي) صاحب تيمورنامه و« شاه نامه » الذي ألفه للملوك الصفوية ، وهو ابن أخت جامي صاحب النفحات وقد توفي سنة ٩٢٧هـ .

والمشهور أنه عن طريق رباعيات بابا طاهر الهمداني / التي يرى فيها النقاد مباينةً قوية لرباعيات الخيام / انتشرت نظرات القلندرية للحياة .

والتداخلات التي تحيط بحياة بابا طاهر لها أهميتها في تفسير كثير مما نسب للقلندرية . فثمن ذلك اتهامهم بالإيمان بالتناسخ وكون بابا طاهر أحد أولياء (أهل الحق) التناسخية كما في دائرة المعارف مادة أهل الحق ، ومن ذلك أنَّ الدركزيني الهمداني شيخ الساوي كان من بلدة بابا طاهر كما في الوافي للصفدي . =

الـــذي يَحْشُـــد الجمـــوعَ بحـــانٍ ظُـرْف ســاقٍ مُنَشَّـأٌ فـي الخـلاعـهْ
خَـورُ القلـــبِ لا يـــداويـــهِ رازي رغـمَ مـا فـي كـلامـه مـنْ بـراعـهْ
المـــريـــدُ البسيـــطُ وهـــو نقـــيٌّ يُـرفِـقُ التَّـوبـةَ النَّصـوح بكـاء
اســـأل الله نعمـــةً مثـــل هـــذي للشُّيـــوخ الَّتـــي تمـــوت ريـــاء
ربّ مـــا زال نجـــلُ آدم هـــذا إسـرَ وهـمٍ وشعـوذاتٍ قـديمـهْ
صنـمُ النَّفس تحت إبطيـه يُضْفـي حُلَّـة النَّصـر فـوق شـرٍّ هـزيمـهْ
لسـتُ فـي صـرختـي أبـرِّىء نفسـي فـاحتـراف الإيمـان روحُ الشَّجـاعـه
وأنـــا ، كـــلُّ تهنـــآتـــي (لمـــلاّ) يـدَّعـي حملَ مثـلِ هـذه القنـاعـهْ
مـــؤمـــنٌ لا يكـــون للحـــبِّ أهـــلاً مـؤمـنٌ فـي الجحـود جـدُّ عـريـقِ
وإذا الكُفـرُ صـادفَ الحـبَّ يـومـاً قـاده الحـبُّ مـرغمـاً لطـريقـي

(١٢)

أو لا تـــزال مســـافـــراً تســـري وتَغُـــرُّك الـــدُّنيـــا بمـــا فيهـــا
والعصـــرِ إنَّ القـــوم فـــي خُسْـــرِ وســـلِ الطبيعـــةَ عـــن فيـــافيهـــا

= ومن ذلك أن الخاكسارية وهم من مقدسي بابا طاهر يطلقون اسم القلندر على من هو في المرتبة الخامسة من مراتبهم السبعة كما في كتاب (الشبك ص٥٣) ويلاحظ أن ما فيه من وصف للقلندر (ص٥٤) ترجمة حرفية لما في البرهان القاطع (ج٢ ص٣٠٤) .
ولا يكاد يختلف حديث إقبال عن القلندر وحديث بابا طاهر عن نفسه ، قارن قصيدة الشاهين (ص٣٥٧) بهذه القصيدة التي يصف بها بابا طاهر نفسه كما في دائرة المعارف ، يقول : إنه قلندر ينتقل من مكان إلى آخر ، لا يغطي رأسه سقف .
ويتوسَّد في نومه وسادة من الحجر ، ويزعجه القلق الروحاني باستمرار ، تمزّق قلبه الكآبة والهم ولا يزهر في قلبه إلا زهرة الأسى وحدها ، حتى الربيع بما فيه من حسن وسحر يخلفه شقياً بائساً .
يقول : عيناي وقلبي لا ينصرفان بسهولة عن التعلُّق بأسباب هذه الحياة الدنيا وقلبي الثائر يشتعل بين ضلوعي ولا يريحني لحظة واحدة ، أأنت أسد أيها القلب أم نمر من نمور ، أنت الذي لا تكف عن حربي وكفاحي ، سأسفك دمك أيها القلب إذا وقعت في يدي ، لأرى من أي لون أنت .

يمشي المنافقُ في نقائصه ... لا زاهداً حقّاً ولا ملكا
وترى الموفَّقَ رغم محنته ... مَلِكاً يُبَجَّل أينما سلكا
كفُّ المنافق لا تساعده ... في حمل سيفٍ يَبْعَثُ الفرقا
والمؤمن الصدِّيق محنتُه ... قدرٌ يشوبُ سيوفَه ألَقا
ما للمنافقِ مِنْ إرادته ... حرٌّ ولا مِنْ صَوْلةِ القَدَرِ
يستقبلُ الأقدارَ مرتبكاً ... مُتَعلِّلاً بالعِلْمِ والنَّظَرِ
المسلم المغوار حجَّتُنا ... نرمي بها الجهلاء بالدِّين
في نفسه أقدارُ أمَّتِه ... متستِّرٌ في زيِّ مسكين
حتى تحسَّ بما أكابده ... مزَّقْتُ أسراري إلى الأبدِ
وجذورُ غفلتك التي سَكِرَتْ ... لا أستطيع بلوغَها بيدي

(١٣)

الحورُ في الغرب سكرُ القلبِ والبَصَرِ ... فاهدأ قليلاً وكنْ منها على حَذَرِ
بحرُ الوجود تعالى أن نحيط به ... وبعضُ ما فيه موجُ الشَّمْسِ والقمر
حاشا لقيثارةٍ مهما بَذَلْتَ لها ... أن تستطيع احتواءَ اللَّحنِ والوتر
صوفيُّنا خلفَ لاهوتيِّ أديرةٍ ... يريد يستبدلُ البخُّور بالحَجَرِ
والمنبرُ اليوم والمحرابُ قد فرغا ... من صيحةِ الحقِّ أو من صرخةِ السَّحر
أين الأذانُ الذيْ كانت تميد له ... روحُ الجبال وأينَ الصَّعْق في الصُّور
طوَّفتُ في أمَّةِ الصحراء أسألها ... فإذ بها أمةُ الصَّحراء في خَوَرِ
رأيتُهم في سجودٍ لا اتجاه له ... ومآله في وجوهِ القومِ من أثر
مهلاً فقرطبة الحمراء ما بَرِحَتْ ... تلوحُ بين دخانِ الغَرْبِ بالشَّرَر
حماسةُ الشِّعر هذا من شبيبتها ... تفوحُ رَغْمَ حروبِ الكُفْرِ والأشَرِ

***

(١٤)

يَقِظٌ كما الفاروقُ يقظةُ قلبِه ... يقظٌ كمِثْل المرتضى في حربِهِ

حجرُ الفلاسفة المجرَّب مثله ... يستخرجُ الذَّهبَ الدَّفين بتربِهِ
أيقظْ فؤادَك إنَّ عُمْرَكَ ضائعٌ ... ما دام قلبُك غارقاً في حجبِهِ
أنا ، لا عصاي ولا عصاك تُفيده ... إنْ لم يذقْ ذوقَ الكليم بضربِهِ
ستكون في الصَّحراء أحمقَ باحثٍ ... إنْ كانَ لم يَصْحَبْك مُرْهَفُ شَمَّكَا
وغزالُنا التَّتريُّ لستَ تصيدُه ... مهما نصبتَ له حِبَالةَ وهمكا[1]
ربَّاهُ أينَ يلوذُ مركبُك الَّذي ... عصفتْ بطيبةِ نفسه الرُّهبانُ
أيروحُ في طلبِ الشواطىءِ مخطئاً ... والبحرُ بحرُك أنت يا رحمنُ
لولا الرِّياء بذلتُ خالصَ زفرتي ... للمُسْلِم المطروحِ حول منارِهِ
كُتِمَتْ مخافةَ برهميٍّ لم يزلْ ... يخفي شرارته بمعبد نارِهِ
فإلى متى صمتي وحولي أمَّةٌ ... يلهو بها السُّلطان والدَّرويش
هذا بِسُبْحَتِهِ وذاك بِسَيْفِه ... وكلاهما مما تكدّ يعيش
سمحتْ حضارتُنا الحديثةُ هذه ... للنَّاس يتَّجهون كيف أرادوا
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهرُ أمرها ... حرّيةٌ والواقعُ استعبادُ
مولاي خُذْ بيدي ليثربَ إنَّه ... بترابِ يثربك المطهَّرِ مرهمي
ضيَّعْتُ معرفتي وإيماني على ... شكِّ الفِرَنج ووسوساتِ البرهمي

***

(١٥)

عيونُ الذَّات دافقةٌ ... خلال الدرِّ والصَّدف
بغيرِ تصنُّعٍ منها ... ولا دَجَلٍ ولا صَلَفِ
إذا كانتْ لها أسلوبها ... في الهَجْر والشَّوقِ
فذلكَ منْ تواضعها ... وذلك منتهى الذَّوقِ

---

(١) إشارة إلى قول مولانا جلال الدين الرومي : سير مرحلة على هدي رائحة المسك خيرٌ من سير مرحلة في اقتفاء الأثر والدوران حوله .

أتطلـــبُ جيفـــةَ الغـــربـــانِ هـــاتيـــكَ الشَّـــواهيـــنُ
إذا أخْفَـــتْ مخـــالبهـــا فـــأعينُهـــا سكـــاكيـــنُ
متـــى الأوتـــار تلهبُهـــا بلـــوعـــةِ ذلـــكَ الحـــبِّ
فَنَغْمـــةُ صـــورِ إســـرافيـــلَ لا تفتـــنُ فـــي القلـــبِ
أتيـــتُ الغـــربَ لـــم أغْبَـــأْ بسكـــرةِ دلِّ ســـاقيهـــا
كـــرامُ النَّـــاس لا تشجـــو علـــى مـــرأى أعـــاديهـــا
غـــزاةُ العصـــر ليـــس لهـــا علـــى عشَّـــاقنـــا عـــونُ
ومـــا مـــن عـــاشـــقٍ إلا لـــه مـــن حبِّـــه كـــونُ
غيـــابٌ كـــالحضـــورِ بـــه مـــن الهيجـــان أدومُـــهُ
لعـــلَّ الهجـــر للجُـــرحِ الـــذي فـــي الـــوَصْـــل مـــرهمُـــه
ولـــولا ذاك عـــانيـــتُ مـــا عـــانيـــتُ مـــن غُصَصـــي
ولـــو أنِّـــي ظَفِـــرْتُ بـــه رجعـــتُ ولـــم تَطُـــلْ قِصَصـــي !
إذا أحببـــــتُ تلمُّســـــه فـــذلـــكَ فيـــضُ أشجـــانـــي
أقـــمْ فـــي عـــزلـــةٍ واقـــرأ (مـــزاميـــري بـــإيـــرانِ)[1]
ولا يحـــزنْـــكَ مـــا تقـــرأ مـــن شطحـــي ومـــن مَيْلـــي
يقـــال : يَـــرُنُّ صـــوتُ السِّـــرِّ فـــي منتصـــفِ الليـــلِ !

(١٦)

شبـــابٌ قعـــودٌ رقـــودٌ نيـــامْ لعجـــزِ الأميـــرِ وفـــوضـــى الجنـــود
فـــواأسفـــاً كيـــفَ هـــذي السِّهـــام تطيـــشُ بـــلا هَـــدَفٍ فـــي الـــوجـــود
يقـــولـــون بحـــرٌ عميـــقٌ عميـــقُ ومـــا أضيـــعَ البحـــرَ مـــا أضيعَـــهْ
بحثـــتُ بـــه مـــوجـــةً مـــوجـــةً وقلَّبـــتُ قـــوقعـــةً قـــوقعـــهْ
أمـــا آنَ تهجـــرُ أصنـــامَهـــم أمـــا آن تخـــرجُ مـــن قُمْقُمِـــكْ

---

(١) أحد دواوين الشاعر يحتوي على غزليات فارسية تُثير الدهشة بشطحاتها .

وغـايـةُ أصنـامهـم أنَّهـا ... تـزخـرفُ هيكلَهـا مـن دَمِـكْ
أنـا كيـفَ أجهـرُ هـذا المسـاء ... بسـرٍّ كهـذا الـذي أهتِكُـهْ
وشغـلُ الحكيـم بهـذا العـراء ... كشغـلِ المحـبِّ بمـا يُهلكـه
هـو الحـبُّ ينسيـك وقـعَ الجِـراح ... وتَفْضَـحُ سـرَّك آثـارُه
ومـا الحـبُّ إنْ لـم تمـت عـزّةً ... ومـا العيـش جَلَّلَـهُ عـارُهُ
أنـا لـم أرَ السِّـرَّ لـوْ لَـمْ أنـلْ ... طـريقـةَ رومـيٍّ وأحـوالَـهُ
ومـنْ بَـدْءِ تلمـذتـي قـال لـي ... ومـا زلـتُ أحفـظ مـا قـالَـهُ
رأيـتُ فـلاسفـةً بـالألـوف ... رؤوسهُـمُ تحـتَ أطمـارهـا
وذو الـوحـي يَـرْفَـع مـنْ رأسـه ... ويكشِـفُ أوهـام أفكـارِهـا
إذا خُضْـتَ معـركـةً فلْتكـنْ ... كمـوسـى بخطـوتـه الضَّـاربـهْ
فَمِـنْ ﴿ لا تخف ﴾ شعلـةٌ لـم تـزل ... تصـاعـدُ فـي الأجمـة الـلاَّهبـهْ
بـريـقُ الحضـارة أوجُ التَّـرف ... لـدى الغـربِ لـم يستطـعْ فتنتـي
أنـا ابـنُ المـدينـة وابـنُ النَّجـفْ ... غبـارُهمـا كـانَ فـي مُقلتـي
غبـارُهمـا قطـرةٌ للعُيـون ... وأنفـعُ طـبٍّ لـذي علَّـةِ
مقيـمٌ بـرغـمِ ريـاحِ القُـرون ... ومـا كـان مـن مستبـدٌّ عتـي

(١٧)

كـانَ الشِّتـاء كمثـلِ السَّيْـفِ حـدَّثُـهُ ... وكان طَرفُ الهوىٰ في مَيْعَةِ الولعِ
أيـامَ لنـدنَ مـاخـورٌ لطـالبهـا ... بمـا تضـمُّ مـن الحـانـات والبِيَـعِ
أيـامَ كنـتُ صـلاةَ الفجـر أبعثُهـا ... على الصَّقيع بمرأى الفاجرِ الهلِع
ما لي هنا ولهيبي حيثُ رحتُ ذكي ... يثيـر فـي حتمـه آلام مجتمعـي
وكيفَ كانتْ هناكَ النَّاسُ تُنكِرُني ... وتـدَّعـي أنَّ هـمَّ الشرقِ جـاء معـي
أيـام آلـت مقـاليـدُ الأمـور إلـى ... مـا تـدَّعيـه يـد العُمَّـال مـن شُـرع[1]

(١) لعلها إشارة الشاعر إلى تولي حزب العمال الحكومة في إنكلترا أول مرة عام ١٩٢٤م ، =

فكان في دربِ قُطَّاعِ الحجارة ما ... لأبرويز من التَّدليس والطَّمع[1]
يا لعبةً من دمقراطيةٍ طَلَبَتْ ... عرشَ الملوك بما أبدته من وَرَعِ
كانتْ حكايةُ فصلِ الدينِ آخرَها ... إنَّ السياسةَ جنكيزية الجَشَعِ
ذكرتُ دلهي بروما حين طفتُ بها[2] ... فكنت بينهما في ملتقى وجعي
كلا الدروس لها سحرٌ وأبَّهةٌ ... ربَّاه عفوكَ قد أبْعَدْتَ مُنتجعي

(١٨)

استفتِ قلبكَ كيفَ المسجدُ افترقا ... وكيف نخرج من محرابه فِرَقا
وأين ذو جَلَدٍ منهم يمرُّ به ... تقوى طويّتُه إنْ تكتمِ الحُرقَا
الحبُّ ، يَعْرِفُ من زلَّت له قدمٌ ... بأنَّه أقصرُ الأشياء أزمانا
وأنَّه جرحُ سهم إنْ صبرت له ... أوتيتَ منْ جُعْبَةِ الصَّياد سُلوانا
ضاعتْ عقيدةُ قومٍ في مصادمةٍ ... باثني وسبعين وادٍ من معانيها
هيهاتَ يُدْرِكُها منْ لَيْسَ في دمه ... وجدٌ يؤلِّف قاصيها ودانيها[3]
درسُ الشَّريعةِ غيرُ الوَجد وهو كما ... رأيتُ مُنْتشرٌ في جُمْلَة الفِرَقِ

= (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(١) يمثل أبرويز حزب المحافظين وهو عند إقبال حزب استعماري صريح (الأصل) .
قلت : لا يخفى أن المقصود بقوله قطاع الحجارة هنا فرهاد وبذلك : أعطى إقبال أبعاداً جديدة لقصة فرهاد وشيرين ومرةً أخرى يقول في قصيدة (اجتماع لينين بفيلهلم إمبراطور ألمانيا) إذا الشعب لبس تاج السلطان ستستمر أيضاً فوضى المجتمع .
ذلك التاج هو شيرين ؛ إذا لم يُتَيَّمْ بها أبرويز فسوف يتيّم بها فرهاد قاطع الحجارة .
انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٩ .

(٢) عند عودة إقبال من لندن بعد اشتراكه في مؤتمرالمائدة المستديرة ، الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند زار روما في نهاية عام ١٩٣١م وقابل موسوليني (الأصل) .

(٣) يذكرنا هذا المعنى ببيتٍ ربما كان من شعر بابا طاهر ، أي : كن قلندري الصفة صوفي المظهر والمشرب معروفاً لدى اثنين وسبعين فرقة (الشبك ٥٤) .

وأنَّـــه وكمـــا نَمَّـــتْ تجـــاربُنـــا ... إسلامنا الغير مكتوب على الورقِ
غصنُ اليقين الرَّطيب الوَجْدُ ينبتهُ ... ولا يفـوحُ بغيـر الـوَجْـدِ معنـاه
فقـل لـذي هِمَّـةٍ بـالـدرسِ مجتهـدٍ ... هيهـات تبلـغُ بـالأوهـام مغنـاه
الحـبُّ فـي قحـة يحلـو وفـي سفـهٍ ... فكـنْ بحبِّـك فـي هـذيـن سكِّيـرا
ولا تكـونـنَّ ذا حُـبٍّ بـلا سفـهٍ ... فـإنَّ ذلـك لا يجـديـكَ قِطْميـرا
لن تهدأَ الرِّعْدَةُ الملقاةُ في خَلَدي ... ولـن تـراقـبَ يـوم الحشـر ذا جـاهِ
إنْ لـم تَشُـقَّ بسيفِ السُّكر جـذبتهـا ... شقَّـت أمـام البـرايـا معطـفَ الله[1]

(١٩)

الـزُّهـد إخضـاعُ هـذا الطِّيـن والشَّـرر ... وليس في بُعْدنا عن عالمِ البشر
فقـل لصـوفيَّـةٍ بـالفقـر راضيـةٍ ... هذا العذابُ عقابُ الجُبْنِ والخور
ومـا عليـك إذا أنكـرت مَـذْهَبَهـم ... وقلتَ : أطلب منكم زُهْدَ مُقْتَدِرِ
فالزُّهد والملكُ لا يُسْتحسنان لمن ... أضـاع أمجـاد تيمـورلنـك فـي سمـر

* * *

يا حبَّذا يغفلُ السَّاقي الجميلُ فلا ... يليـقُ بـالقـول هـذا جسمُـه القمـري
إنَّ الـرِّفـاق إذا جـاشـت قـرائحُهـم ... وأيقـظَ الطَّيْـشُ منهـم رَقْـدَةَ الفِكَـرِ
خاضوا بكلمة (عفواً) ما يروقُ لهم ... ومـزَّقـوا سـرَّهـم فـي ثـوب معتـذر
أفيلســوفٌ وصـــوفـــيٌّ ومجتهـــدٌ ... في سكرةٍ من كؤوس السَّمعِ والبصر
ما في الثلاثة من أبدى فوا أسفاً ... من روح ذي طمحٍ في عين مُنْبَهِر
كـانـت بـزاويـةِ الأقفـاصِ بغيتُهـم ... لـو أمعنـوا قبـل هـذا التيـهِ بـالنَّظـر

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
لن تسكني رعدتي حتى في يوم الحساب ، إما أن تشق ثوبها أو أن تشق معطف الله !
يريد الشاعر أن يقول : لن أضحي بهذه الرعدة التي تمتلكني ولا بدّ لي من أن أجد من يُصغي إليها ولو لم يبقَ إلا الله فإنني سأتمسك بمعطف كبريائه ولن أبرح حتى أشقه بجذبتي أو يمحوها بخمره . (انظر ص١١٩ ، من الترجمة النثرية) .

سجنُ التَّفلُّتِ لا قضبان تُمْسِكُه ... ورُبَّ غلٍّ خفيٍّ بالغ الأثر
تغنيكَ إنْ حرتَ فيما قلتُ تجربةٌ ... فما التَّجارِب إلا مرهمُ الحِيَرِ
انظرْ خرابَ فؤادِ الغَرْبِ يأكلُه ... وعقلُه في كمالٍ وافرٍ بَطِرِ
يقوده العقلُ في نهرٍ يفجِّره ... وخَلْفَه قلبُه يمشي على كَدَرِ

***

(٢٠)

رُغْمَ أنّ العقل لا يمنعُه ... قربٌ وبُعْدُ
إنَّه والحق : ما أُهِّلَ للحَضْرةِ بَعْدُ
اسألِ الله تعالى ... والتَمِسْ عيناً لقلبكْ
إنَّها أثمنُ ما تكسِبُه ... من فَضْلِ ربِّكْ
أنا لا أنكرُ أنَّ العلمَ للنَّفس حُبُور
هو فردوسٌ ولكنْ ... فارغٌ ما فيه حورُ
ما أحقَّ النَّاس بالرأفة من عصرٍ سفيه
ليسَ في العالم قلبٌ ... يجدُ الغِبْطةَ فيه
إنَّه صحوٌ بآنٍ واحدٍ هذا الجنون
ذلكَ النَّوعُ جنونٌ ... ما له صحوٌ يكون
قلقُ القلب غذاءٌ ... وعطاءٌ حيويُّ
إنَّ قلباً ليس فيه ... قلقٌ ، قلبٌ شقيُّ
أنت للحَضْرة سرٌّ ... ما لها سرٌّ سواك
إنَّها إنْ كُنْتَ حيّاً ... حيثما كنتَ هناك
كَسَّرَ اللؤلؤُ كَسْراً ... كلَّ أصدافِ البُحورْ
فلماذا أنتَ يا لؤ ... لؤتي تأبى الظُّهور
مسلمٌ أنتَ وقد ألهبتُ سينائي عليكَ ؟!

أولا يـــزعـــج قـــولـــي : ﴿ أرنـــي أنظـــرْ إليـــكَ ﴾[1]

(٢١)

إنَّهـــا الـــذَّاتُ إن تمعَّنْـــتَ بحـــرٌ ... مـــالـــه ســـاحـــلٌ لِخَـــوْضِ جبـــانِ
ومحـــالٌ تكـــونُ جـــدولَ أنـــسٍ ... ومحـــلاً لجمـــع أهـــل الهـــوانِ
رُبَّمـــا تكســـر السَّمـــاء بفـــأس ... فبنـــاءُ السَّمـــاء سبـــكُ زجـــاج
والـــذي يجعـــلُ البحـــارَ بحـــاراً ... تُتَّقـــى أنَّهـــا محـــلُّ الهِيـــاجِ
لا يطيـــق الجبـــان لجَّـــة ذاتٍ ... ويغـــوصُ الشُّجـــاعُ فيهـــا ويطفـــو
وقـــوام الشُّجـــاع ليـــس علـــوماً ... تَـــرِبَ العلـــمُ فـــالشجـــاعـــةُ لطـــفُ
كيـــف يستـــوعـــبُ المنجِّـــمُ هـــذا ... بطـــريـــقٍ مكبَّـــلٍ بـــالنُّجـــوم
أنـــت مـــن طينـــةٍ يحـــكُّ عليهـــا ... ســـرُّك الحـــيُّ زيـــفَ كـــلِّ العلـــوم
إنَّ فـــردوســـنـــا علـــى الأرض هـــذي ... فيـــه جبـــريـــلُ لا يغيـــبُ وحـــورُ
حبَّـــذا أنْ تكـــونَ ثـــاقـــبَ عيـــنٍ ... حجـــرُ العيـــن فيـــه مـــاءٌ ونـــورُ
بجنـــونـــي فهمـــتُ عصـــري تمـــامـــاً ... وتحمَّلْـــتُ وقعـــةً بعـــد وقعـــه
ألْبَـــسُ الـــدِّرْعَ مـــن نسيـــجِ جنـــونـــي ... ليـــس ثـــوبـــاً مـــرقَّعـــاً ألـــفَ رُقْعـــهْ
إنَّ شـــحَّ الطبيعـــة اليـــومَ هـــذا ... وهـــيَ مـــن طبعهـــا السَّخـــاءُ لَعَـــارُ
لليـــواقيـــتِ كـــاللَّهيـــب احمـــرارٌ ... شكـــلُ نـــارٍ وليـــس فيهـــا شـــرارُ

(٢٢)

جـــاءَ مـــنْ نَسْمَـــةِ الصَّبـــاح كتـــابٌ ... وأنـــا جـــالـــسٌ علـــى عـــرشِ ذاتـــي
فـــإذا فيـــه : مبصـــرَ الـــذَّات أقبـــلْ ... صـــرتَ فـــي رتبـــة الملـــوكِ الكُمـــاةِ
شـــرفُ الـــرأي ذاكَ جـــاءكَ منهـــا ... والحيـــاةُ الكـــريمـــةُ المستقيمـــه
وحيـــاةٌ تكـــونُ مـــن غيـــر ذاتٍ ... أيُّ معنـــىً لهـــا وأيَّـــةُ قيمـــهْ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى حكايةً عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أيُّهـا الفيلسـوفُ دعـكَ وشـأنـي ... فـأنـا مـدركٌ إلـى أيـنَ أمضـي
لسـتَ مثلـي مسـافـراً كيـف أشكـو ... لـكَ دربـي وأنـتَ فـي غَيْـرِ أرضـي
ليـس سهـلاً إذا الـدَّراويـش حجَّـتْ ... مـن بعيـدٍ إلـى مـدارسِ شعـري
القضـايـا دقيقـةٌ فـاستلمْهـا ... واقـضِ فـي أمـرهـا إذا كُنْـتَ تـدري
لسـتُ أخفيـك أنَّنـي لـم يَـرُقْ لـي ... ذلكَ العيشُ في طُقوسِ الصَّوامع
لا يصيـد[1] العنقـاءَ صيَّـاد سـوءٍ ... مُلِئَـتْ نفسُـه بـذلِّ المطـامـع
طِـرْتَ أم غُصْـتَ فـي سمـاءٍ وبحـرٍ ... أم تـراجعـتَ عنهمـا وجَبُنْـتَ
ليـس يـدعـو إلـى الـرِّثـاء وجـودٌ ... كـالـوجـودِ الـذي تعـانيـه أنـتَ
وسـواءٌ ، فـلا تقـل عـربـيٌّ ... كنـتَ أو لـم تكـنْ فليـس يُفيـدُ
ستـرى الـذكـرَ أجنبيّـاً إذا لـمْ ... يَـكُ للـذِّكْـرِ فـي الفـؤاد شهيـدُ

* * *

(٢٣)

النخلـة الشمَّـاءُ أختُـك كُـوِّنـتْ ... ممـا تبقَّـى مـن بقـايـا طينتِـكْ[2]
أتطوفُ في الحاناتِ تسقي كأسَها ... وتطـوفُ مخنـوقـاً بعلمـانيتـكْ
مـا فـي مـدارسِـك الَّتـي تـرتـادُهـا ... إلا بحـوثُ مغفَّـلٍ وبليـد
سـرُّ الـدِّراسـةِ فـي فـؤادك كـامـنٌ ... لـو كنـتَ تُتْقِـنُ صَـرْخَـةَ التَّـوحيـد

---

(١) يرى الدكتور كفافي أن اصطياد العنقاء رمز للظفر بأعمق حقائق العِرفان التي تستعصي على الآخرين (المثنوي ، ص١٠٥) .

(٢) في حاشية ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : يرى التراث الإسلامي أنَّ النخلة خلقت من بقايا الطين الّذي خلق منه آدم (عليه الصلاة والسلام) وتسمى (خيمة الإنسان) ويرمز بها إلى آدم أحياناً .
يقول الأستاذ زهير ظاظا (مترجم هذا الديوان شعراً من نثر الأستاذ الملُّوحي) يريد الشاعر أن يقول : أيها الإنسان إذا كانت النخلة شقيقتك فمن الّذي سرق نبيذك أيها المسكين . . . إنها العلمانية .

لـم تبـق يـا مسكيـنُ إلا فـرصـةٌ ... لـك فـي استعـادة سِـرَّكَ المفقـودِ
اطلـبْ علـومَ القلـب مـن أستـاذهـا ... واجهـدْ لنيـل مقـامِـكَ المحمـودِ

* * *

إن كـــان زيُّـــك زيَّ سلطـــانٍ ... أو كـــان زيُّـــك زيَّ مسكيـــنِ
فغِطـــاؤنـــا لا رأسَ يَحْمِلُـــه ... فيليـــق إلا رأسُ شـــاهيـــنِ
ليـس النُّجـوم بـرغـم لعبتهـا ... مسـؤولـةٌ عـن هـدم أمجـادكْ
بـل مـوتُ ذاتِـكَ بعـدمـا شَقِيَـتْ ... مـا بيـن قُمْقُمِهـا وأصفـادِكْ
أنـا آسـفٌ جـدّاً ويُحـزِنُنـي ... غضبـي على ديـري ومـدرستـي
ضـاعـتْ هنـاك بصيـرتـي وذوى ... حبِّـي وأظلـم دربُ معـرفتـي

* * *

(٢٤)

دواءُ البصيـرة ـ هـذا الـدواء ـ ... رجـاؤك فـي كشـفِ داءِ البصـرْ
ومـا العقـلُ إلا جـدالُ العلـوم ... وحـربُ الظُّنـونِ ورجـمُ النَّظـر
مصيـرُكَ أرفـعُ مـنْ وقفـةٍ ... وأوّلُ معنـاه ذوقُ السَّفـر
وسـرُّ الـلآلـىء خُلْـدُ البـريـق ... وإلا فمعـدنُهـا مـن حَجَـرْ
ومـا هـي جـدوى دمٍ فـي العـروق ... إذا كـانَ يطفـىءُ نـارَ الفِكَـرْ
فقـلْ للشَّقـائـق فـي خِـدْرِهـا ... تجلَّـيْ فـإنِّـي نسيـمُ السَّحَـرْ[1]
ومـا عـدَّه الغـرب سقـطَ المتـاع ... بمـذهبنـا رأسُ مـال الظَّفَـرْ
يقـولـون إقبـال فـي فقـره ... غنـيٌّ علـى أيِّ كَنْـزٍ عثـرْ
وعـالمُـهُ لَهَـبٌ كلُّـهُ ... ولا يمنـحُ النَّـاس إلَّا الشَّـررْ[2]

---

(١) المقصود قل لهذه المتعلمنة : لا تخافي يا أنتِ تعالي إليّ فلن أعصف بك أنا لست إلا جمالاً وعطاءً أنا نسيم السحر ولست ريح الظهيرة .

(٢) البيت من روائع إقبال ومعناه : لا جدوى لك من لهب إقبال إذا كنت غير قابل =

(٢٥)

أعينُ الدَّرويش لم تعبأ بما ... أظهرتْ أبَّهةُ الإسكندرِ
هذه التِّيجان ما قيمتُها ... وهي تستجدي نساءَ البيدرِ
كيف لا تيأسُ ترجو صنماً ... ومنَ الله تعالى تيأَسُ
أنتَ هل تعرف كفراً آخراً ... غير هذا أيها المنتكسُ
أنا لا أفهم ما قصدُ السَّماء ... وهي بالسُّلطة لو شاءتْ تطيح
تهبُ السُّلْطةَ من لا يملكون ... أيَّ مفهومٍ عن الشَّعْبِ الجريح
وحدَها النظرةُ ما أطلبُه ... وشؤونَ القَلْب عنها تَصْدُرُ
نظرةٌ خاليةٌ من جذبةٍ ... نظرةٌ فارغةٌ لا تَسْحرُ
وأنا منْ أجلِ هذا كلِّه ... باعتزالِ القَصْر محكومٌ عليّ
أنا لا أجهل ما تَقْصِدُه ... ومصيرُ الكلِّ معلومٌ لديَّ
مع هذا لا أرى منْ زاهدٍ ... مالهُ مِنْ طَمَعٍ في السُّلطةِ
أنا لا أقتلُ ذاتي هكذا ... أنا حرٌّ سُلْطتي في خِلْطتي
وحياتي عندما شرَّدتُها ... أرْضَتِ النَّاسَ جميعاً كَلِمي
قيمةُ الأشعارِ هذي أنَّها ... خطراتٌ في قلوبِ الأُممِ

* * *

= للاشتعال .
إقبال لا يرضى أن يكون شعلة في يد الآخرين .
« إقبال يشعل ولا يضيء »

وسيأتي قوله :

حطب الموقد الغليظ مملٌّ ... وأنا رغبتي بحرق الدقاقِ
أنا لا أمنح الحصاد لحقلٍ ... عملي الفرد والوحيد احتراقي

(٢٦)

لستَ لهذي الأرضِ والسَّماءِ ... وإنَّما السَّماءُ والأرضُ لكَ
ولستُ موضوعَهُما وإنَّما ... هذان جانبانِ منْ موضوعِكَ
تطلُّعُ العقلِ ووجدُ القَلْبِ ... شرارتان من لهيب الحبِّ
والعُشْبُ موجودٌ ليحرقاهُ ... في ذلك السَّهلِ الخصيبِ الرَّحْبِ
والرَّوض هذا بقعةٌ تصطفقُ ... بصرخةٍ وزفرةٍ تنطلقُ
أعشابهُ ليستْ لصنعِ عشٍّ ... كلُّ الجمال عندما تحترقُ
حتَّى متى مركبُ هذي الذَّاتِ ... يمخُرُ في النِّيل وفي الفُراتِ
قُدِّرَ أن يركبَ بحراً ماله ... من ساحلٍ في هذه الحياةِ
فكيفَ عند هؤلاءِ رغبةٌ ... بأنْ يدلَّها المدارُ الحائرُ
ركَّابُهم بالرَّغم من نشاطها ... يَنْقُصها اليومَ دليلٌ ماهرُ
ألحاظُ موهوبٍ وعينٍ ثاقبه ... وسحرُ ألفاظٍ وروحٌ لاهبه
كلُّ الَّذي يملكهُ منْ عُدَّةٍ ... قائدُ هذي القافلاتِ الذَّاهبه
فيا لحسنِ فارسٍ ووحيهِ ... ويالكأسِه ويالغصَّتي
بحثتُ طولَ العُمْرِ في بستانه ... فما وَجَدْتُ زينةً لِقِصَّتي
تَرْقُد في حَنْجَرتي أغنيةٌ ... لو قلتُها لحيَّرت جبريلا
أحرصُ أن تبقى هنا مطويةً ... هناكَ سوفَ أنْقَعُ الغليلا

***

(٢٧)

لستَ يا أنتَ في الفضاء سجيناً ... لستَ دمعاً على منازلِ رسمِه
يَشْهدُ الحرُّ أنَّ سرَّ التَّجلِّي ... بين صَلْصَاله وهيكلِ جِسْمِه
لا يخاف البستانُ شَهْرَ خريفٍ ... فلماذا مَلأْتَ بالخوف عشَّكْ
يرقص العشُّ في السَّماء لهيباً ... عندما تحرِقُ الصواعقُ قشَّكْ
الحياةُ الحياةُ لفظةُ سرٍّ ... ملأتْ عالَم القَلَنْدرِ طيبا

إنَّها السَّهمُ منذ كانت رَمَتْهُ ... ومن القوس لا يزالُ قريبا
لا تعيقُ النُّجومُ سرَّك هذا ... فسماءُ النُّجوم غيرُ سمائك
أخطُ في الموقع الذي أنت فيه ... لترى زرقةَ السَّماءِ بمائك
لا تقلْ للدَّليل دعني لوحدي ... إنَّ أمراً كمثلِ هذا بديهي
لا يطيقُ الكريمُ ذلَّ سؤالٍ ... فاجتهدْ وَحْدَكَ اجتهادَ فقيهِ

***

(٢٨)

تأمَّلُ فيلسوفٍ كلُّ ما أعطانيَ الفِكرُ
ولولا الحبُّ ما أدركتُ ما يضَّمَّنُ السَّكرُ
ونظرتُهُ هي الشَّررُ المُشِعُّ بمحفلِ القلب
بلا دنٍّ ولا خمر ... تدور كؤوسُها جنبي
تظنُّ تنافُر الكلماتِ مِنْ شعري ومنْ أدبي
فحانتا على علمٍ ... بما مزَّقت منْ حُجُبي
إليكَ البرعمَ الظَّامي ... لِمَقْدَم نسمةِ الصُّبْحِ
تأمَّلْه تجدْ فيه ... حكايةَ ذلكَ الجُرْحِ
غيابٌ أم حضورٌ لستُ أدري ما أكابدُه
فهلْ من بينهم أحدٌ ... يشاهدُ ما أُشَاهِده
هنا يا أنتَ كلُّ الناس يعرِفُ بعضُهم بعضا
هنا إلا أنا فيهم ... غريبٌ يُنكِرُ الأرضَا
وكنتُ بقصرِ أوريَّة ... من المُمْكِنِ أن أبقى
شريطةَ تحمُّل الصَّحراء حين أُجنُّ ما تلقى
مضى إقبالُ هونا في دروبِ الفِكْرِ واجتازا
ولما جاءَ دربَ الحبِّ مالَ القلبُ وانحازا

(٢٩)

وأخيـــراً انتبهـــتُ ولبَّـــتْ صَـــرختـــي هـــذي السَّمـــاءْ
وسمعـــتُ مـــا قـــالـــوا : أخيـــراً ســـوف يَنكشـــفُ الغِطـــاء
للعـــاشقيـــن حكـــايـــةٌ وتكـــاد تتَّفِـــقُ الحكـــايـــه
نـــارٌ وحـــزنٌ وانفجـــارٌ فـــي البـــدايـــةِ والنِّهـــايـــهْ
فـــانظـــرْ إلـــى قَـــدَرِ الشُّعـــوب وكيـــف يبـــدأُ بـــالسُّيـــوف
فـــإذا انتهـــى فـــإلـــى المـــزاميـــر الشَّجيَّـــة والـــدُّفـــوف
حـــانـــاتُ أوربَّـــة كـــذلـــك والغـــريـــبُ طقـــوسُهـــا
السُّكْـــــرُ يبـــــدأ أولًا وتـــدورُ بعـــدُ كـــؤوسهـــا
سِيَّـــانِ تيمـــورلنـــك فـــي سُلْطـــانـــه سلطـــانِ نـــادرْ
الكـــلُّ تسقطُـــه أخيـــراً سَكْـــرةُ الـــزَّمـــنِ المُبَـــادرْ
ولَّـــىٰ زمـــانُ الـــوَحْـــدة المطـــروح فـــي دَرْبِ الفنـــاءْ
خـــرجـــتْ أخيـــراً مـــن صـــدور الغَيْـــم عـــاصفـــةُ البقـــاءْ
لـــم يتحمـــل مـــوجـــةَ الشَّطحـــاتِ هـــذي أيُّ ســـاحـــل
هتكْـــتَ يـــا مجنـــونُ أســـرارَ الكتـــابِ بغيـــرِ طـــائـــل

(٣٠)

يـرحـلُ كـلُّ كـائـنٍ ويـذهـبُ حـوتٌ وطيـرٌ ، لجـةٌ وكـوكـبُ
وأنـــتَ أنـــتَ فـــارسُ الميـــدان وقـــائـــدُ الجيـــوشِ فـــي الـــزَّمـــان
يـــا سيِّـــد الجبـــالِ والصَّحـــراء جنـــدُك فـــي الأرضِ وفـــي السَّمـــاء
أهكـــذا قيمتُـــك الـــذَّاتيـــة هـــدرتُهـــا وروحُـــك الفتيَّـــه
فيـــا لهـــا بصيـــرةٌ فـــي كـــدرِ ويـــالـــه مـــن قِصَـــرٍ فـــي البصـــرِ
لا تعبـــدِ الأرضَ فـــإنَّهـــا لَكـــا كـــنْ راهبـــاً إنْ شئـــتَ أو كُـــنْ مَلكـــا
لا شـــكَّ فيمـــا قُلْتُـــهُ ولا جَـــرَمْ فقـــد رأيـــتُ اليـــوم سيِّـــدَ الحَـــرَم
قـــولٌ بـــلا فِكْـــرٍ ولا إشـــاره وعمـــلٌ تَنْقُصُـــه الحـــراره

كـلُّ شـيءٍ إلـى التَّجَسُّـدِ يسعـى ... رغبـةً فـي النُّمُـوِّ يهلـكُ نفسَـهُ
وحيـــاةٌ بغيـــر ذوقِ ظهـــورِ ... يحتويها ، يسومها الموتُ بؤسَهُ
قُـوَّةُ الـذَّات قـوةُ الـذَّات سـرٌّ ... يَهَبُ النَّصرَ فـي الحيـاة لأعـزَلْ
خَـوَرُ الـذَّات يجعـل السَّيـف عبئـاً ... ويـرى فـي الجبـالِ حبَّـة خـردلْ
شـرَّدتْ نفسَهـا النُّجـومُ ولكـنْ ... ليـسَ يعنـي ضـلالـةً واختـلاطـا
لفـراقٍ يـؤولُ كـلُّ وجـودٍ ... ليس عـن صُـدْفةٍ وليس اعتباطا
يظهـر البَـدْرُ آخـر الليـل فـردا ... أصفـرَ الـوجـه فـي السَّمـاء وحيـدا
كـلُّ نـورٍ أخَـذْتَـه مـنْ غـريـبٍ ... سـوف تخبـو بـه رويـداً رويـدا
قلبُـك الشَّمسُ فـاقْبِسِ النُّـورَ منـه ... كـلُّ مـا تـرتجيـهِ نفسُـك عنـدكْ
كـلُّ شـيءٍ سـواك ـ أنـت ـ سـرابٌ ... شَهِـدَ اللهُ أنَّـك الحـقُّ وَحْـدَك
شـوكُ صحـرائنـا يحـلُّ بلطـفٍ ... عِقْـدَ السَّـالكيـن مـن حيـثُ يُـدمي
فـامضِ فـي الشَّـوك حـافيـاً وتقـرَّح ... لسـتَ تنجـو بـلا جنـونٍ وحـزمِ
لغـزُ هـذي التَّـداخـلاتِ وإنْ لـم ... يستطـعْ أن يفكَّـه العِلْـمُ كلُّـهُ
شـوكُ صحـرائِنـا يغـورُ بـرفـقٍ ... وبـأسلـوبِـه اللَّطيـفِ يحلُّـهُ

(٣٢)

مـا لِمُلْـكِ الغـرب خُلْـدٌ ... بَلَـغَ العَصْـرُ أشُـدَّهْ
كلَّمـا شيَّـد صـرحـاً ... ضَحِـكَ الشـرق وهـدَّه
عنـدمـا أنهيـتُ عشـيٌّ ... قيـل هـبْ للعُـشِّ ذاتـا
صـرخـاتُ العُـشِّ بـرقٌ ... تمـلأ العُـشَّ حيـاةَ
أنـتَ عبـدُ الله فـالـزمْ ... ليـس للحـرِّ تحـوُّلْ
مـا عـدا عـزَّ العبـوديـة لله تسـوُّلْ
سيِّـدُ الأحـرارِ عبـدٌ ... حـرم الله بـذاتِـهْ
فـاحفـظِ الـذَّات وصُنْهـا ... إنَّهـا مـنْ عَتَبـاتِـهْ
كيـفَ (إلا الله) لـم تَـذْمَـغْ أساطيـرَ مسطَّـرْ

أيـــــنَ ذاك الكَلِـــــمُ الطيِّـــــبُ والطَّبـــــعُ المُسَيْطـــــرْ
كـــمْ قلـــوبٍ فـــي صـــدورٍ ذُعِـــرَتْ مـــنْ نَظْـــرَتِـــك
درس العلـــم اللَّـــدُنِّـــي وذوى فـــي فطـــرتـــك
ربمـــا أشـــرفَ إقبـــال علـــى السِـــرِّ القـــديـــم
حـــدَّث السِّـــرُّ حـــديثـــاً كحميـــــمٍ لحميـــــمْ

(٣٣)

لِمَ تسألون القومَ ما هو مصدري ؟ وأنـا بنفسـي لـم أُحِـطْ بمصيـري
ما زلتُ منذ وُجِدْتُ أشرقُ سائلاً وأغيـبُ فـي وَجْـدي وفـي تفكيـري
الحـرُّ يَسْمـو فـي الحيـاةِ بـذاتـه ويصـوغُ مـا يختـارُه مِـنْ أمـره
يـا أنـتَ حتـى اللهُ جـلَّ جـلالـه أفتـى بـرأي كليمِـه فـي عمـره
أسـرارُ روحِـك جَـدُّ سيمـائيـة فَلِمَ النِّزاع على هياكلَ مِنْ حَجَر
بلهيـبِ أنفـاسـي الَّتـي أطلقْتُهـا شـاهـدتُ مـا تخفيـه أعمـاقُ القَـدَر
سِـرِّي تتـرجمـه سـلاطـةُ أعينـي لا تسـألـونـي مـن تكـونُ ومـا هـي
لـو أن (نيتشـه) جـاءنـي بحمـاسـهِ لأريتُـــه (زردشتَـــه) وإلهـــي
صرخاتُ وَجْدي في الصَّباح تلَطَّخَتْ بـدمـي ولـم أسْمَـعْ لهـنَّ جـوابـا
ربَّـاه ! أيُّ جـريمـةٍ قـارفتُهـا لأكـونَ مـن قتلىٰ الصَّبـاحِ عقـابـا

(٣٤)

تَـدَخُّـلُ الحـبِّ بـأطـوار السُّلـوكْ يكشـفُ للعبيـدِ أسـرارَ المُلـوكْ
مـا كـان للـرازيْ وَلِلْغـزالـي والـرُّومـيْ والعَطّـارِ مِـنْ نـوالِ
لـو لـم يعـانـوا رغبـةَ الصِّيـاح وصـرخـةَ الحيـرةِ فـي الصَّبـاح
فيـا رئيـسَ الـرَّتْـل كـنْ حليمـا لا يقتـلُ اليـأس فتـىً حكيمـا
تنقُصنـا شجـاعـةُ الـرَّسـولِ لا تَنْقُـصُ الـرَّغبـةُ فـي الـوصـولِ
إيـاكِ يـا قُبَّـرتـي مـن التَّلـفْ فالموتُ خيرٌ لكِ من هذا العَلَفْ
يُعَـزْقِـلُ الجنـاحَ أن يطيـرَ وربَّمـا يتـركُـه كَسِيـرا

أعـــزُّ مـــن أبَّهـــة الإسكنـــدر ... وملـــك (دارا) نظـــرة القَلَنْـــدَرِ
دَرْوشـــةٌ تَنِـــمُّ عـــن قلـــبٍ ملـــيْ ... فيـــه عبيـــرُ أَسَـــدٍ علـــيّ
شـــريعـــةُ الشجعـــان هـــؤلاء ... الجهـــرُ بـــالحـــقِّ بـــلا رِيـــاء
ومـــا لهـــؤلاءِ قـــطُّ غـــالـــبُ ... هـــذي أســـودُ اللهِ لا ثَعـــالِـــبُ

***

(٣٥)

جـاءَ مـنْ عِنْـدِهـم كتـابٌ جـديـدٌ ... صـــرخـــة الليـــل أوصَلَتْـــه إليَّـــا
فـإذا فيـه : يـا مسـافـرُ أمْسِـكْ ... وتفكَّـــرْ بمـــا قَطَعْـــتَ مليَّـــا
ربمـا كُنْـتَ ذاهبـاً مـن جـديـدٍ ... فـي طـريـقٍ كمثـلِ تلـكَ عَسِيْـره
غُـصْ طـويـلاً فـأنـتَ أيضـاً عميـقٌ ... وافهـم القَصْـدَ فـالحيـاةُ قصيـرة
أنا (سيفاً خرجت) من غير غِمْدٍ ... ضـاعَ فـي غَمْـرَة المعـاركِ غِمْـدي
يجـرحُ النَّـاسَ منظـري مـن بعيـدٍ ... ويخـوضُـون فـي مـرامـي وقَصْـدِي
أيُّ مُسْتَهْتِـــرٍ بكـــلِّ مـــلامٍ ... خطَّ فوق المِحْرَابِ تلكَ الحروفا
(هـــذه الأغبيـــاء تسجـــدُ لمَّـــا ... يقتضـي الأمـرُ أنْ يكـونـوا وقـوفـا)
امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاءِ بصمـتٍ ... إنْ تكنْ موضوعي لمزَّقْتَ نفسك
بعـدمـا الحفلـةُ انتهـت وتـوَلَّـوا ... جاء دوري وقيل : كأسَك كأسَك
وهـــبَ المسلميـــن إقبـــالُ نـــاراً ... فـــإذا النَّـــار ذاتُهـــا فـــي ذُبـــولِ !!
مـا علـى الكـأسِ فـي الحقيقـةِ لـومٌ ... خـامـلٌ طـافَ بيـن أهـل الخمـول
ذاك إقبـــالُ كنـــتُ أبحـــثُ عنـــه ... وهـــو مُسْتَعْصِـــمٌ بحصـــنٍ ورُخِّ
وأخيـــراً وبعـــد لأي طـــويـــلٍ ... وقـع البـازُ فـي حبـائـلِ فخِّـي

(٣٦)

أنـــا لـــولا مـــوجـــةُ الـــرَّغْبَـــة لـــم تـــوجـــدْ حيـــاتـــي
فحيـــاتـــي مـــوجـــةُ الـــرَّغبَـــة فـــي أعمـــاقِ ذاتـــي

كـــلُّ حيـــنٍ عـــالمـــي يَضْطـــرُّنـــي أطلـــقُ وَجْـــدي
عـــلَّ إنســـانـــاً جـــديـــداً يحمـــلُ اللَّـــوعـــة بعـــدي
ممكـــــنٌ للنَّـــــار أنْ تحـــرِقَـــهُ عشَّـــك هـــذا
تســـألُ السَّـــاقـــي إذا لـــم تـــكُ ظمـــآنـــاً لمـــاذا
لا تقـــلْ فـــي الغَـــرْبِ رأيـــاً ببـــريـــقٍ يتعلَّـــق
مـــاسُـــه مـــنْ كهـــربـــاء جعَلَتْـــهُ يتـــألَّـــق
لا تتـــوقُ النَّفـــسُ أنْ تَحْكُـــمَ آفـــاقَ الفَضـــاء
حيـــنَ لا تتَّصـــف الأبصـــار حقَّـــاً بـــالمَضـــاء
أنـــا لـــو لـــم تسقـــطِ الأوراقُ عـــن عشِّـــي اللَّطيـــف
عَجِـــزَ الصَّيـــادُ عـــن صيـــدي ولـــو وقـــتَ الخـــريـــف
عـــن قـــريـــبٍ تَقْلِـــبُ النيَّـــاتُ أقـــدارَ الخـــلائـــق
ليـــس أوهـــامُ غبـــيٍّ إنَّهـــا جـــدُّ حقـــائـــق

* * *

(٣٧)

العقـــلُ هـــذا ليـــس يَقْهَـــرُ وسعُـــه وســـعَ الطبيعْـــه
وجهـــاً لـــوجـــهٍ ضَعْهُمـــا وانظـــرْ لقـــوَّتهـــا المطيعـــهْ
الحـــقُّ : أنَّـــك قـــد أضعْـــتَ الـــذَّاتَ فـــاطلـــبْ مـــا أَضَعْتـــا
وعلـــى العطـــورِ وعـــالـــمِ الألـــوان سيْطـــرْ مـــا اسْتَطَعْتـــا
وانظـــر مقـــام القبّـــة الـــزرقـــاء ليـــس لـــه حـــدود
واختـــرْ مَقـــامـــاً مثلـــه يَسْمـــو بـــذاتِـــك فـــي الـــوُجـــود
أشجـــارُ حَـــوْرِكَ عـــاريـــاتٌ حـــول قـــارعـــةِ الطَّـــريـــق
أوقـــفْ تمـــزُّق وردك الظَّـــامـــي وتحطيـــمَ الشَّقيـــق
لـــم يستطـــعْ ذوقُ الطبيعـــة أن يـــؤكِّـــد وسْعَـــهُ
اصْنَـــعْ بِـــذَوقـــكَ أنـــت مـــا لـــم تستطـــع هـــي صُنْعَـــه

(٣٨)

شيـوخُ القـومِ أجـدرُ بـالـرِّثـاءِ ... وأربـابُ الكنيسـةِ فـي سـواءِ
حصـادُ جهـودِهـم ظلمـاتُ شـكٍّ ... جَـرَتْ فـي قلبهـم مجرى الدِّمـاء
بنفسـك ثِـقْ تجـدْ (نغفـور) عبـداً ... ويسألُ عن رضاك (ابنُ السماء)[1]
أنـا حـزنـي علـى هجـري تبـدَّى ... بـآلافٍ مـن الطُّـرُقِ الـدَّقيقـهْ
بسكـرةِ قـربـه ، بصُـراخِ وَجْـدٍ ... رَجَعْـتُ بـه ، بـدهشتـه السَّحيقـهْ
ومـنْ يـكُ شـأنُـه حبّـاً وسكـراً ... تجـاوزَ حـدَّ إدراكِ الحقيقـه
جـرى قـدرُ الجمـالِ بكـلِّ قلـبٍ ... إذا كـان الهـوى كـانَ الجنـونُ
وذنـبُ الـرَّاجعيـن بـلا نصيـبٍ ... مـن الحسنـاء تفضَحُـه العيـونُ
أمـا كـانـت بنـو تيمـور تـركـا ... بنـو عثمـان أتـراكٌ كـذاكـا
أولئـك فـي تـرابِ السند ضـاعـوا ... وصخـرُ أولاء مـرتفـعٌ هنـاكَ
بـمَ النُّسَّـاكُ فـي الحَـرَم اسْتبـدَّت ... بـإقبـال الـذي هَجَـرَ القُصـورا
ولـم تَقْـوَ الملـوكُ عليـه يـومـاً ... وقـدْ مـلأتْ عـوالمَهَـا نُسـورا
فمـا هـو سـرُّهُ ؟ الشَّـاهيـن هـذا ... ملـوكـيٌّ لجينـيٌّ خفيـفُ
يطيـرُ علـى القُصـور فيـزدريهـا ... ويـدمـي قلبَـه الحَـرَمُ الشـريـف

(٣٩)

العلـمُ أطْلَـقَ الحيـاةَ الـراقـدهْ ... فـي شعـوذاتٍ مـن عصـورٍ بـائـدهْ
مـنْ كـلِّ سحـرٍ عصـرنـا مُحـاشُ ... بـلا عصـا الكَليـمِ لا يُعـاشُ
ذو العقـلِ مثـلُ نصـلِ سيـفٍ عقلُـهُ ... بـألـفِ أسلـوبٍ يتـمُّ صقلُـهُ
والحـبُّ مسكيـنٌ شـريـدٌ زاهـدُ ... ومـالَـهُ إلا طـريـقٌ واحـدُ
حُجَّـاجُـه تَظَـلُّ فـي تلهُّـفِ ... لا يعـرفـونَ تَـرَفَ التـوقُّـفِ

---

(١) ابن السَّماء : إمبراطور من أباطرة الصين ، وكذا نغفور ، وللأخير تنتسبُ الكؤوس النغفورية التي يُضرب بها المثل بالجودة والندرة .

مسافرون دائماً وإنْ هُمُ ... بدوا مقيمين لم يراهُمُ
ليس يسيراً هاهنا انتقالُكَ ... بالزاد والمطيَّة انشغالُكَ
وأنت لو ألقيتَ ذلك الثِّقَلْ ... لكنت كالنَّسيم تعبُرُ الجَبَلْ
يا أنتَ ! ثروةُ الحكيم طرًّا ... في أنْ يعيشَ ويموتَ حُرّا
والآخرون جَهْدُهم مُنْتَهبُ ... نفوسُهم كما يريدُ الذَّهبُ
أرواحُهم ترزحُ في المصائبِ ... ورأسُمالهم من الضَّرائبِ

(٤٠)

حياةٌ تُمزِّق صَدْرَ الفضاءْ ... يصاحبُها ركبُها المستمرّ
مغامرةٌ خلفَ أخرى تخوض ... وقافلةٌ خَلْفَ أخرى تمرُّ
كذلك حبُّكَ لا ينتهي ... ولا تَسْتَقِرُّ معاناتُه
هناكَ تجارِب أخرى له ... إذا هي زالتْ سمواتُه
إذا ضاع عُشٌّ فلا تكتئبْ ... ففي روضنا ألفُ عشٍّ لكَ
ولولا بساتينُ أخرى هناكَ ... لكنتُ بكيتُ له مثلكَ
فَطِرْ ليس لِلْبَاز أن يستريحْ ... ولا تبكِ عشّاً رماهُ القَضاءْ
ففي دَرْبنا ألفُ قلبٍ جريحْ ... وألفُ مناسبةٍ للبكاءْ
سمواتُنا تلكَ لا تنتهي ... وأنت قُصاراك في أن تَطِيرْ
فإيَّاك أغلالَهم إنَّها ... تضيِّعُ نَكْهةَ هذا المسير
أنا قد تخلَّيتُ عن حُمْقِهم ... وألقَيْتُ في وجْهِهم وَخْدَتي
وأصبحتُ لي أصدقاءُ هناك ... بأخبارِهم ترتوي جَلْوَتي

***

(٤١)

(نظمت في فرنسا)

يرى الغرب أنَّ بقاءَ الرَّفاه أن يستمرَّ بهذا النَّهجْ

فكم يفعلُ الطَّيشُ في عقله ... ويُنْقِصُ رغبته مِنْ نُضجْ
لقد بلغتْ صرختي أوجَها ... كذلكَ أعْلَنَ شيخُ الحَرَمْ
وحذَّرني اليومَ مِنْ كَتْمِها ... لِتَسْمَعَ ذلكَ كلُّ الأممْ
أنا لم أقل ﴿ أرني ﴾ مرةً ... كموسى لأعرفَ أسراره
فموسى جديرٌ بإلحاحِه ... ومثلي جديرٌ بما اختاره
وبالرُّغْمِ من أنَّ أهل القلوبْ ... تُهتِّك أسرارَها في البلادْ
فإنَّ الطرائق هذي الجريئة ... يَصْعُبُ إطلاقُها للعبادْ
تضرُّعُ حاشية السالكين ... عيونٌ ضعافٌ وقلبٌ هلوعْ
فأين الحماسةُ أين النَّضارةُ ... أين السَّكينةُ أين الدُّموعْ
أنا لم أزل عَطِشاً ما ارتويتْ ... كمِثْلِكَ عطشان لم ترتوِ
هو الحبُّ أسمى صعودٍ لنا ... ولكنَّنا فيه لم نَنْضَوِ
نهضنا بأسلوبِ درويشنا ... فكانَتْ لنا أرضروم وشَامْ
ولما زَهِدْنا بأسلوبه ... ذهبنا دواليكَ خلفَ الأنام

(٤٢)

ذاتَك فالذَّاتُ الَّتي تَدْعَمُها ... معرفةٌ يغبطُها جبريلُ
وإنْ أضافَ الحبُّ عوناً أطْلَقَتْ ... في النَّاس ما يُطْلِقُ إسرافيلُ
أنا خليلُ هذه الأصنام ... وعُدَّتي معرفةُ الأيام
في النَّارِ ألقَوْني كإبراهيمَ ... فكنتُ في النِّيران في نعيم

* * *

قافلةُ القَوْم بوضعٍ يؤسفُ ... حائرةٌ يَسْحَرُها التوقُّف
ورُغمَ هذا غِبْطةُ السِّياحه ... تجاوزتْ غِبْطةَ تِلك الرَّاحه
أنا على شِعْري شديدُ الغيرهْ ... فقمْ إذا كنتَ بلا بصيره
أنا مجالي الذَّاتُ في مشاعري ... نبيلةٌ كحدِّ سيفٍ بَاتر

* * *

تـذكـرتْ روحـي دروسَ الغَـرْبِ أيـامَ حـوره سَكِـرْن جنبـي
فـآهٍ يـا لفـرحـةِ الحضـورِ وآهٍ مـن منطقـه المَغْـرُور

* * *

هـذا الـزَّمـانُ ليلُـه شـديـدُ وأنـتَ عـن قـافلتـي بعيـدُ
لهيـبُ زَفْـرتـي هـو المصبـاح لـكْ يُبَـدِّدُ الليـلَ وَيَقْشـع الحَلَـكْ

* * *

حكـايـةٌ ليـس لهـا نظيـرُ بسيطـةٌ لكنَّهـا تُثِيْـرُ
ثبـاتُ إسمـاعيـلَ مُبْتَـداهـا ومَقْتَـلُ الحسيـنِ منتهـاهـا

* * *

(٤٣)

غصـنُ العَقيـدة فـي المـدارس عـارِ ومـذاقُ أديـرةٍ بـلا أسـرار
بالرُّغم من طُول الطَّريق وعُسْره عينـاكَ ظـاعنـةٌ وقلبُـك سـارِ
أسفـاً لـديـنٍ ليـسَ يَكْسِبُ دولـةً ولـدولـةٍ وقفـتْ كخيبَـر وجهـه
مـن أيـنَ لـلاثنيـن كـرَّةُ حَيْـدَر يلقـي سخـافتهـا ويُصْلِـحُ فقهَـهُ
لا تبلـغُ العلمـاءُ بـاطـنَ مـؤمـنٍ ومـذاقَ رغبتـه ولطـفَ تـأمُّلِـهْ
أسـرارهُ فيمـا وراءَ حُـدودهـم وجمـالُـه فيمـا وراء تجمُّلـه
وعجـوزُ حـانتنـا يقـولُ مـؤكِّـداً عـن صـرحِ أوربَّـة المضيءِ المعتمِ
هـذي المـرايـا مـن جليـدٍ مـا لهـا وُسْـعٌ لِتَعْكِـسَ نـورَ قلـبِ المسلـمِ

(٤٤)

الحـادثُ المحجـوبُ قَبْـلَ ظهـوره للنَّـاس تُعْلِنُـه نقـاوةُ مُهْجَتـي
لا حـظَّ لـلأفـلاك مـن دورانهـا فـالسرُّ مظهـرُه جسـارةُ صَـرْختـي
أتَـرى بـلا روحٍ شـرارةَ أنّتـي أم أنَّ عُشْبَـك مـا يـزالُ نـديَّـا

صرخاتُ هذا القلب في صَلْصَاله ... تُـذْكـي لهيبَـك بكـرةً وعَشِيَّـا
لـن يَخْمُـد اللَّهـبُ الـذي في طينتي ... حتَّـى يُحـرِّر كـلَّ شـيءٍ فيهـا
بـالـرُّغـم مـن قَـدَرٍ قـد ارْتَبَكَتْ بـه ... فُضِحَتْ شيوخُ السُّكر في ناديها

(٤٥)

مـا وَجَـدْنـا وقـد بَحَثْنـا كثيـرا ... فـي حـواشـي الصُّـوفـيِّ إلا غُبـارا
يـدَّعـي أنَّـه يخـوضُ حـروبـاً ... كبَّـدَتْـه هـزيمـةً وشَنَـارا
كيـفَ زالـتْ حـرارةُ الحـبِّ عنـه ... وارتضـى هـذه الحيـاةَ السَّقيمـهْ
حـربُـه لـم تكـنْ لِيَغْنَـم شيئـاً ... وقُصَـاراه أن يكـونَ غنيمـه
كُتُـبُ القَـوْمِ عنـده فـوقَ بعـضٍ ... يصـلُ الليـلَ حـولهـا بـالنَّهـار
مـا تبقَّـى لـديـه إلا حكـايـا ... أوليـاءَ يقـولُهـا للصِّغـارِ
مـا تعجَّبـتُ أنْ يشيـعَ خـرابٌ ... فـي الـزَّوايـا وفـي تَكـايـا السُّلـوك
عجبـي مـن نهـايـةٍ مثـلَ هـذي ... كيـفَ دبَّـت إلـى قُصُـورِ الملـوك
امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاء بصمـتٍ ... أيُّ يـومٍ مضـى عليـكَ كيـومـي
مثـلَ سَجَّـادةِ الصَّـلاة نفـاقـاً ... يَطْفَـحُ التَّـاجَ فـي منـازِلِ قـومـي
الكتـابُ الَّـذي يمـوجُ بيـاضـاً ... والَّـذي عنـد كـلِّ مُـلاَّ وصـوفـي
يمـلأُ الحشـرَ حيـرةً وارتبـاكـاً ... ووقـوفـاً يكـونُ مثـلَ وقـوفـي
وسـواءٌ كـان ابـنُ آدم هـذا ... عـربيّـاً أم لا ، معـانيـه بيـضُ
وعـنِ العَـالَـمِ الَّـذي هـو فيـه ... وعـنِ العـالـمِ الأخيـرِ يفيـضُ
ذهبـتْ سكـرةُ المسـاء ولكـنْ ... نظـرةُ السَّـاقـي فـي الفـؤاد كنصْـلِ
ولهـا فيـه طعنـةٌ بعـد أخـرى ... فَسَلُـوهُ فـديتُـه لِـمَ قَتَلـي ؟
لا يـذمُّ البستـانُ مُـرَّ غنـائـي ... يَصْبُـغ الـرُّوحَ مِنْـه لـونـاً فلـونـا
رُبَّ سُـمٍّ يكـونُ تـريـاقَ داءٍ ... ودواءٍ يكـونُ للـدَّاء عَـوْنـا

* * *

(٤٦)

أقصى مواهبِ أوربَّة النشيطةِ أن ... تَقْلِبَ العَصْرَ في ليلٍ من التِّيهِ
كم وردةٍ قصفتْ في روضنا يدُها ... ما مزَّقت طوقَ زرٍّ واحدٍ فيه
حرارةُ الحبِّ من خمر اليقين وما ... لمنكرِ الحبِّ إلا الوهمُ يُفْنِيه
هَبِ المدارس يا رباه حُرْقَتَها ... فحسنُها باردٌ لا رُوْحَ تُذْكيه
متى سمواتُنا تنشقُّ وَرْدَتُها ... متى ابنُ آدمِنا هذا ترقِّيه
هذي السَّماءُ التي أغرتْ كواكبَنا ... اللَّازَوَرْديَّةُ المجنونةُ الفَرِحَهْ
سماءُ شيطانٍ ما فيها ملائكةٌ ... رأسٌ منيرٌ واكنْ نظرةٌ وقحهْ
العقلُ حجَّتنا طُرّاً فما أحدٌ ... إلا وَلِلْعَقْلِ مصباحٌ بمذهبه
هذا الجنون - ومن يدري حقيقتَه - ... لعلَّه هو أيضاً أن يُصاب به
العقلُ عند جميع النَّاس منهجُه ... ولم يكن من خصوصيات إنسان
والمؤمنُ الحقُّ هذا الكونُ أجمعُه ... ميراثُه ، وأنا - لولاك - برهاني

(٤٧)

ليسَ سهلاً فَقَبْلَ بدئِك فارجعْ ... يرفضُ البَحْرُ أن يقول لماذا
موضعُ الدُّرَّةِ الفريدةِ صعبٌ ... وخلالَ الطَّريق تعرفُ هذا
ما لسنجارَ أو لـ (طغرل) حظٌّ ... من عيونِ القَلَنْدَر[1] الملكية
حيرةُ الفِكْرِ أم حماسةُ رومي ؟ ... وجْدُ موسى أم فكرةٌ فلسفيه ؟
هي أسلوبُ ثعلبٍ في ظَلامٍ ... أم (يَدُ الله) في طريقة حُبِّه ؟
حيلةُ الإنكليز تظهرُها أمْ ... هجماتُ التُّركيِّ داخلَ حربه
أهي في هذه الشَّريعة قامتْ ... تحْرُسُ المعْبَدَ الذي شيَّدَتْهُ ؟
أمْ هي الوَجْدُ في فؤادِ مُلَبٍّ ... يُمْسِكُ الكعبةَ التي ألهبتْهُ

---

(١) من شيوخ المتصوفة في الهند ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

كـنْ غنيـاً وكـنْ إذا شئـت عبـداً ... أو أميراً ما بين (سمعاً وطاعه)
كـلُّ هـذي الألقـابِ ألقـابُ وَهْـمٍ ... لا يكـونُ الـوصـولُ دونَ شَجَـاعَـهْ

(٤٨)

ليـس لِلْجُنْـدِ غيـرُ شكـلِ سيـوفٍ ... ليـس للتَّـاج غيـرُ لمعـةِ جـوهـرْ
فـي عـروشٍ وفـي جيـوشٍ بحثنـا ... مـا عثـرنـا علـى فـؤاد القَلَنْـدَرْ
لـمْ تحصِّـلْ مـن (لا إلـه) ضيـاءً ... هـذه الـذَّاتُ للطَّـريـقِ الطَّـويـلِ
أصبحـتْ معبـداً لأصنـامِ وهـمٍ ... عنـدمـا ضيعـتْ حـوارَ الخليـلِ
يصنـع الحـرُّ كـونَـه بجهـادٍ ... ويـرى فـي تَـدَخُّـلِ النَّـاس عـارا
لَسْـتَ آجـرّةً لقصـرِ غـريـبٍ ... لَسْـتَ فـي وقعـةِ الحيـاة غُبـارا
كـلُّ مـا فـي سمـائنـا مـن مَـدَارٍ ... لا يسـاوي مـدارَ هـذي القلـوبِ
ومَصِيْـرُ القلـوبُ أبعـدُ شـأواً ... مـن غبـارٍ مشـرَّدٍ فـي الـدُّروبِ
قـال أهـلُ البِحـار أهـلُ البـراري : ... ليـس لِلْغَـرْب غيـرُ راحـةِ يـأسـهِ
واقـفٌ فـي طـريـق سيـلٍ عنيـدٍ ... ليـس يقـوى علـى حمايـة نفسِـهِ
قِـفْ قليـلاً فـأنـت أيضـاً قـديـرٌ ... ولـكَ الحـقُّ فـي اختيـارِ الحيـاة
كـلُّ فجـرٍ يطـلُّ تبـدعُ كـونـاً ... صـرخـةُ الـوَجْـد في عـوالـم ذاتي
أنـا فـي حـانتـي قنعـتُ بـدَنِّـي ... لست ممَّنْ يطوف حول الكنائسْ
أبـداً لا تقـدِّمِ الخمـرُ هـذي ... نَفْسَهـا فـي رحـاب تِلْـكَ المـدارس

(٤٩)

لـم تَهَـبْ لـي الطبيعـةُ اليـوم فِكْـراً ... ثـاقبـاً ، غيـر أنَّنـي لا أُبـالـي
عُـدَّتـي طينتـي التـي وهبتنـي ... طيـرانـي المُخِـفُّ عَبْـرَ الليـالـي
طينـةٌ بـالجنـون تَصْقُـل حِسِّـي ... طينـةٌ تَجْعَـلُ الغبـيَّ نبيهـا
ربمـا مَـزَّقـتُ لجبـريـل سـرّاً ... ورأى قـولـه : ﴿ أتجعـل فيهـا ﴾
طينتـي لا يهمُّهـا صُنْـعَ عـشٌّ ... مـنْ دقـاقِ الأغصـانِ فـي البُستـان

وجبينُ النُّجوم يَرْشَحُ عاراً لبريقِ الدُّموعِ في أجفاني

(٥٠)

يَقْصِدُ المُبْدعُ الغَيُورُ بلاداً لمعانيه غيرَ كلِّ البلاد
لا إلى الكوفة التي ما استطاعتْ كَسْرَ سيفٍ ولا إلى بغداد[1]
نظراتي التي تموجُ فتوناً والَّتي تملأ الفؤاد حُبُورا
مَنَحَتْني في حانةِ الغرب صحواً ونشاطاً وغبطةً وسُرورا
لستُ أحتاج فيلسوفاً ومُلاّ موتُ قلبٍ هما وفِسْقُ بصيره
كيف لِلاهوتيٍّ أُبدي ازدرائي حين ألقاه وهو رأسُ العشيره !!
الدَّراويشُ يطربون لهذا والدَّراويش دأبُهم غيرُ دأبي
لستُ أُغْنىٰ بمثلِ هذا فدعني أبحثُ اليوم عن تفتُّحِ قلبي
ممكنٌ يُشْترى غنى (أبرويزٍ) ومحالٌ جراح (فرهاد) تُشْرىٰ[2]

---

(١) بغداد : عاصمة العباسيين إذاً فهي السلطة المادية ، والكوفة عاصمة علي رضي الله عنه إذاً فهي السلطة الروحية .

(٢) فرهاد : شخصية إيرانيّة أسطورية وقصة حبه لشيرين مشهورة في الأدب الفارسي ، كان فرهاد قاطع أحجار فشغف بالملكة شيرين شغفاً جنونياً وهي زوجة أبرويز وقبل من أجلها معاناة كل المصاعب أمره وزير أبرويز بحفر قناة في الجبل لجرّ بحر اللبن لعلاج الملكة التي زعم أنها مريضة فحفر فرهاد القناة ، وقيل له عندئذ : إن الملكة ماتت فانتحر عند سماع النبأ .
وعندما علمت الملكة بانتحاره وكانت صحيحةً سليمةً مضت إلى قبر العاشق وعندئذ انفتح القبر ومضت شيرين للحاق بالحبيب فرهاد . وتناول الشعراء هذه الأسطورة بطرائق مختلفة ، فرأى فيها بعضهم أنَّ الحبَّ لا بدَّ أن يفتك بالمحبِّ والمحبوب معاً .
وكان آخر تأويل إنكار استغلال الفقير ورأى في ذلك صراعاً بين رأس المال وبين العمل . الأصل .
قلت : وقد نقل الملحمة إلى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وانظر كذلك (مختارات من الشعر الفارسي) د . محمد غنيمي هلال ، الدار القومية للطباعة والنشر=

والـــذي يجعـــل القَلَنْـــدَرَ حـــرًّا ... أنَّـــه لا يخـــاف للســـرِّ نشـــرا
لســـتُ عـــن متعـــةٍ أمـــزِّق ثـــوبـــي ... تلـــك أســـرارُنـــا وليـــس وســـاوسْ
طمعـــي الفـــردُ والمطـــامـــع كُثْـــرٌ ... هَبَّـــةُ الفِكْـــر مـــن رُقـــاد المـــدارسْ
رأيُ غـــانـــدي إنْ كنـــتَ غيـــرَ قـــويٍّ ... غيـــرُ مجـــدٍ فـــي ملَّتـــي واعتقـــادي
ليـــس إلا عصـــا الكليـــمِ لسحـــرٍ ... بـــرهمـــيٌّ مشعـــوذٍ فـــي البـــلادِ

(٥١)

إقبـــالُ تُحـــزِنُـــه المـــلائكـــةُ الَّتـــي ... عـــابـــت أمـــام الله جـــرأة صَـــرْخَتِـــه
وقـــحٌ يُهَنِّـــك للطبيعـــة ســـرَّهْ ... ويجمِّـــل الـــدنيـــا بلـــؤلـــؤِ نَظْـــرَتِـــهْ
لا ينتمـــي لـــلأرض وهـــو سليلُهـــا ... لا الشَّـــامُ مـــوطنُـــه ولا قـــاشـــانُ
مُتَعـــدِّدُ الأوصـــاف فـــي قـــدراتـــه ... ملـــكٌ وفـــي رغبـــاتـــه إنســـانُ
قَلِـــقٌ ريـــاحُ الخـــدِّ تمـــلأ صـــدره ... ويعيقـــه بستـــانُـــه المتنـــاهـــي
فـي ظـلِّ مـذهبـه المـلائكـةُ اهتـدتْ ... لطـــريـــقِ آدم فـــي رحـــابِ الله

(٥٢)

لُعْبـــةُ النَّـــرْدِ لـــم تكـــنْ دونَ نـــردٍ ... أرنـــي مظهـــراً لِتِلْـــكَ المغـــازي
خمـــرةُ القـــومِ لا تُنَـــالُ بِبَحْـــثٍ ... فـــازَ رومـــيٌّ بهـــا وأخْفَـــقَ رازي
كـــأسُ جمشيـــدَ لمعُهـــا فـــي دوامٍ ... أيُّ ملكيـــةٍ بـــلا شعـــوذاتِ
ليـــس قلبـي وليـــس قلبُـــك فـابحثْ ... إن تمكَّنْـــتَ فـــي صُـــدورِ الفِئـــاتِ
ليـــس للعـــاجـــزِ الضَّعيـــفِ حيـــاةٌ ... ودواءُ الضَّعيـــف ذوقُ العبـــادهْ
لا تقلْ في الصَّلاة : وجهت وجهي ... فصَـــلاتـــي كمـــا صـــلاتُـــك عـــادهْ
نحـــن سجَّـــادةٌ لـــه حـــركـــاتٌ ... فـــوق سَجَّـــادةٍ بغيـــر حـــراكِ
إنَّ حـــربـــاً أبطـــالُهـــا نحـــنُ حـــربٌ ... تُعْلـــنُ النَّصـــر قَبْـــلَ بـــدءِ العِـــراك !!

* * *

= ص٣٥٧ (القاهرة) .

لغـــةُ التُّـــركِ والعَـــرَبْ ... عـــذبـــةٌ ملـــؤهـــا الطَّـــرَبْ
لكـــن الحـــبَّ لـــم يكـــنْ ... ملـــكُ تـــركٍ ولا عَـــرَبْ
حَسْبُـــهُ البعـــدُ عنهمـــا ... حَسْبُـــه كنـــزُه الـــدَّفيـــنُ
حَسْبُـــهُ الحُـــبُّ إنَّـــه ... لهجـــة النَّـــاس أجمعيـــنْ
نحـــتُ أصنـــامِ آزرٍ ... صَنْعَـــةُ العـــاجـــزِ الـــذَّليـــلْ
والـــذي يطلـــب العُـــلا ... حَسْبُـــه صَنْعَـــةُ الخليـــلْ
لســـت نقعـــاً مجـــرَّداً ... إنَّـــك النَّجْـــمُ والمـــدارْ
مـــن جنـــونٍ مثـــابـــرٍ ... ذلـــك النَّقْـــعُ والغُبَـــارْ

***

(٥٣)

دوَّى النِّـداءُ علـى القـوافـلِ معلنـاً ... بـدءَ المسيـرِ فَقُـمْ مـع الـرُّكبـانِ
أواهُ مـاذا يفعـلُ السَّـاري الَّـذي ... يتـوقَّـع التَّـرْحـال كـلَّ أوانِ
انهـضْ فَخَمْـرُك لا تنـاسـب هـاهنـا ... ديـراً وعصـرُك غيـرُ طبعِـك فـانِ
سِيَّـان كـانَ القَلْـبُ عبـداً طـائعـاً ... أو لـم يـدعْ للعقـلِ مـنْ سُلْطـانِ
فـالـدَّربُ يـا هـذا المسـافـرُ صعبـةٌ ... وطـــويلـــةٌ وكثيـــرةُ الأشْجـــانِ

***

(٥٤)

نَفَسـي يُـؤجِّـجُ نـارَ وَرْدَتِـك الَّتـي ... خَمَـدَتْ لـواعجُهـا علـى الأغصـانِ
لـــم يهـــدأ البستـــانُ منـــذ أتيتُـــهُ ... فـــانظـــر لآثـــاري مـــدى البُستـــانِ
أيقظـتُ قلـبَ العـارفيـن بِصَـدْرِهـم ... وهَتَكْـــتُ للبُسطـــاء ســـرَّ الحـــانِ
ووهبـــتُ للجيليـــن ذوقَ لهيبهـــم ... ومـلأتُ أنفُسَهـم بـرشـحِ دِنـانـي
أنـــا أعجمـــيُّ الحـــبِّ إلا أنَّنـــي ... أطلقتُ في الحَرَمِ الشريفِ لِسَاني
كـمْ ثـوبِ إحـرامٍ علـى متضـرِّع ... مـزقْتُـه بـاللَّحـن مـن ألحـانـي

متلطـــخٌ قلبـــي بنظـــرةِ عـــادلٍ بسهـامِ سيـدنـا الحُسيـن رمـانـي
في الشَّام أم في الكوفةِ النَّرْدُ الَّذي كـــانـــا علـى شقَّيْـه يختصمـــان
أخشـى يكـونُ كـلاهُمـا متعثـراً فـالنَّـرد هـذا مـالـه شقَّـانِ
لِـمَ تعجبـون لمسلـمٍ متحـرِّقٍ ورداؤه قطـعٌ مـن الأحـزانِ
فقـرُ الجُنَيْـدِ وملْـكُ سنجـارٍ بـه وجنـونُ طيفـور الطَّليـقِ العـانـي
بـالـرُّغـمِ ممَّـا قُلْـتُ قبحـي ظـاهـرٌ تـأذَّى بـه عينـاك حيـن تـرانـي

(٥٥)

هـذا الهـلالُ بصـدقِـه يتسـامـى أبـداً يـريـدُ الكـرَّ والإقـدامـا
لـولا تجـاوزه لكـلِّ وجـوهـه مـا كـان فـي فَلَـكِ السَّمـاء إمـامـا
لا تفتـحُ الأنسـامُ بُـزْعـمَ وردةٍ بلهـاءَ عـن شمـسِ الصَّبـاح تحيـدُ
طهـرُ العيـونِ هـو الحقيقـة كلُّهـا والقَلْبُ فـي حِضْـنِ العيـونِ مـريـدُ
هذي الشَّقائقُ تَخْرِقُ القلبَ ارتمتْ في الحَقْل ما احتملت سيوفَ سنابِلِهْ
كوقائع (الغوري) و(أيبك)[1] عُطّلاً ونشيد (خسرو) في قلوب بلابِلِهْ

(٥٦)

يـــا أيُّهـــا الإنســـانُ كُـــنْ يَقِظـــاً فَـــدَرْبُـــك فـــي السَّمـــاءْ
لا تـــرمِ نَفْسَـــك خَلْـــفَ هـــذا الصُّبْـــح أو ذاكَ المســـاءْ
الـــدَّرْبُ ذلـــك مـــالـــه زمـــنٌ ليـــأســـفَ ركبُـــهُ
ومَـــنِ الَّـــذي يـــدري ويَعْـــرِف أيـــن تَنْشـــبُ حـــربُـــهُ
لا ســـرَّ ينبـــضُ فـــي التسكُّـــعِ والتمحُّـــل واليقيـــن
فـــوق المـــواخـــرِ والمســـاجـــدِ والكنـــائـــسِ أجمعيـــن

---

(١) هو قطب الدين أيبك المتوفى سنة (١٢١٠م) مؤسس سلالة المماليك الأتراك ، أولى سلالات سلطنة دهلي بنى مناراً عالياً يُسَمَّى اليوم بـ « قطب المنار » (وهي من أهم الآثار الإسلامية في الهند) وخلفه التمش .

اللـــؤلـــؤُ الفـــردُ الَّـــذي قـــد نـــدَّ عـــن صـــدرِ المَحَـــارهْ
مجـــلاهُ فـــي دَمْـــعِ الصَّبـــاح وليـــس فـــي خِـــدَعِ الحضـــارهْ
القـــرمـــزيُّ الخـــدُّ لا يحتـــاج مسحـــوقـــاً يبـــاعْ
والعـــازفُ المـــوهـــوبُ لا يـــرضـــى بـــألحـــان الـــرُّعـــاعْ
ألحـــانُ هـــذا العصـــر يلـــزمهـــا الكثيـــر مـــن الـــذَّكـــاء
إذْ طـــالمـــا الصَّـــوتُ الـــذي فـــي الســـرِّ يخطـــىء فـــي الغِنـــاء

(٥٧)

يَمَّمْـتُ مـدرسـةَ الأسـود رأيتُهـا تبكـي أبـاطـرة الـزَّمـانِ الـذَّاهـب
جارتْ عليها الحادثاتُ فأصبحتْ مـرعـىً لخـرفـانٍ ووكـرَ ثعـالـبِ
مـا للقـوافـلِ مـنْ يقـود رِكـابَهـا بحـوارِ مـوسـى فـي رحـاب الله
مـن أيـن للعصفـورِ ذوقُ نشيـده والجمـع سـاهٍ والمـردِّدُ لاهِ
لآهٍ لأنفـاسٍ مَضَـتْ وكـأنَّهـا طيـفٌ ومـرَّ بـذلـك البُستـانِ
وهـي الَّتـي أذكـت لهيـبَ جمالـه وهـي التـي روَّتـه بـالألحـان
فـي ليـلِ دهشتـه هنـاك وَوَجْـدِه ظلمـاتُ تـاريـخٍ يُكَـرِّرُ نفسَـهُ
هـل دهشـةٌ أخـرى ووَجْـدٌ آخـرٌ يـروي حقيقَتَـهُ ويمـلأ كَـأسَـهُ
جُـرحـي تـألَّـق كـالبـروق بليلهـمِ ليـروا حقيقـةَ هـذه الحسنـاءِ
وليعلـم الغُـربـاءُ ليسـت فجـةً ثمـراتُ هـذا السَّيـرِ فـي الصَّحـراءِ

(٥٨)

أتَـذْكُـر البيـت الَّـذي قـد قـالـه سلمان[1] ذاك الشاعِرُ الحرُّ الأمين
(سيظـلُّ عـالمنـا بـرُغْـمِ صعـابِـه (سيظلُّ) مفتوحاً أمام العاملين)
البحـثُ يلـزمـه مـواهـبُ بـاشـقٍ وفـؤادُ ليـثٍ لا يخـاف جـروحـا

---

(١) هو مسعود سعد سلمان : شاعر فارسي مشهور ، ربما وُلد في لاهور في العهد الغزنوي (إقبال) .

مـن غيـرِ معـرفـةٍ وغيـر قـراءةٍ يجـدُ الشُّجـاعُ طـريقـه مفتـوحـا
دعْ عَنْـكَ طـاووسـاً يتيـه وبلبـلاً يَشْـدُو فليـسَ السـرُّ فـي الاثنيـنِ
السـرُّ ليـس بنغمـةٍ وبصـورةٍ السـرُّ فـي سَمْـعٍ ورقـةِ عيـنِ

(٥٩)

المعرفة أم التجرد

ليـس يقـوى علـى القَلَنْـدَر دهـرٌ قلبُـه تحـت عَـرْشِـه مُسْتَقَـرُّهُ
سـرُّه ليـس فـي العُلـوم ولكـنْ علمُـه بـالتجـرُّد الحـقِّ سـرُّهُ ؟
هـي تـرمـي لصَقْـلِ عَقْـلٍ وفكـرٍ وهـو يـرمـي لصَـوْغِ عيـنٍ وقَلْـبِ
هـو دربٌ بـذاتـه مُسْتَقِـلٌّ وهـي بحـثٌ علـى مجـرَّد دَرْبِ
هـو عنـد الصِّعـاب عيسـى وموسـى وهـي للنَّـاس فيلسـوفٌ وقـاضِ
هـو لِلسـرِّ والبصيـرة روحٌ وهـي ليسـت سِـوى أقـاويـلَ مـاضِ
هـو سكـرانٌ بـالفضيلـة سـارٍ وهـي سكـرانـةٌ بِخَمْـر الـرَّذيلـهْ
مُطْلـقُ السُّكـر فـي الحقيقـةِ حـالٌ ليـس فيـه رذيلـةٌ وفضيلـهْ
الـذي يقتضـي التجـرُّدَ شـيءٌ ليـس سِيَّـان والـذي يقتضيهـا
نظـرةُ النَّفـي لِلْقَلَنْـدَرِ سيـفٌ طَبَعَتْـهُ الـذَّات الَّتـي يقتفيهـا
واحـدٌ مـن جنـودِهـا الحـقّ يُغْنـي عـن جيـوشٍ تخـاف وَهْـمَ الفَنـاء
وإذا المـرءُ كـان صـاحـبَ قلـبٍ كَسَـرَتْ عينُـه مـرايـا السَّمـاء

(٦٠)

وقـف الجميـعُ يعـارِضـون نـدائـي لـم يُجْمِعـوا إلّا علـى إقصـائـي
ذهبوا مع الصَّحراء خَلْفَ جنونهم وبقيـتُ مجنـونـاً بـلا صحـراء
حمـداً لِمَـنْ رَحِـمَ العباد فـأسْـدِلَـتْ أستـارُ كعبتنـا بـوجـهِ صيـاحـي
وبقيـتُ وحـدي مـرةً أخـرى وَقَـدْ طافتْ على الحَرَمِ الشريفِ جِراحي
فقهـاؤنـا وقفـوا بصـوتٍ واحـدٍ دونـي ومـا حـاروا بـأيِّ جـوابِ

لا مثلَ أفلاطونَ بين حضورِه ... وغيابِه والسَّلبِ والإيجاب
كانت رجالُ الفِكْرِ تَنْبُضُ جراةً ... وحميَّةً أوحتْ بها الأعرافُ
نفسٌ إذا القرآنُ ما انتفعتْ به ... لا الكشفُ يَنْفَعُها ولا الكشَّافُ
إنْ كُنْتَ منْ وهمٍ بشيءٍ مفرحٍ ... تأسى فإنَّك في السَّفينةِ تَغْرَقُ
في خمرِ أوربَّة شُعاعٌ ذائبٌ ... بالرُّغْمِ من أكدارها يتألَّقُ

(٦١)

عجباً من مغامراتِ ذكيٍّ ... جعل الوَجْدَ والتعقُّلَ دربا
لم تزل حولَه المواجدُ حتَّى ... تركتْهُ في ساحةِ الحبِّ نَهْبَا
كيفَ ناحَتْ حمامةُ الأيكِ قربي ... ثمَّ كانتْ عَذُولَه ورقيبَهْ
إنَّني مدركٌ إلى أينَ يمضي ... مخفلٌ يُزْبِكُ الضميرُ خطيبَهْ
قيل إن الأتراك بالشِّعر أدرى ... فأقرئوهم من شِعْر إقبال بيتا
(لا يكون القويُّ جارَ ضعيف ... كلُّ ما في يديه لولا وَلَيْتَ)
ما طقوسُ المساجدِ اليومَ ؟ ظلمٌ ... وانتهاكٌ لحرمةِ السَّاجدينَا
ما سلوكُ الكنائس اليومَ ؟ سوقٌ ... لوجوه الرُّهبان والسَّالكينَا
في ردائي الَّذي تمزَّق سرٌّ ... من بقايا الأسرار يُكْشفُ بعدي
لا يليقُ الجنونُ فالعصر هذا ... ليس عصراً لذي جنونٍ وَوَجْدِ
أضِع النَّفس في البحار وغامِرْ ... ثم غُصْ في البحار واعثُرْ عليها
وأَقِمْ بين ضجَّةٍ وتَلَوٍّ ... ليس من شاطىءٍ يقودُ إليها
هل لمثلي مِنَ الفضاء نصيبٌ ... منْ تُراني أنا وما جنسي ؟!
جئتُ للأرضِ ؟ أم تخلَّقْتُ منها ؟ ... قفصي الكونُ ؟ أم نهايةُ نفسي ؟
كَمْ تَعَثَّرْتُ في متاهاتِ ذاتي ... وكأنِّي في أرضِ ذاتي دخيلُ
بين نفسي منَ الخصامِ وبيني ... سهرٌ دائمٌ وليلٌ طويلُ
قصَّةُ الحبِّ ألفُ نقشٍ ولونٍ ... وغِنائي أشدُّ نقشاً ولونا
تارةً أملأُ الحياةَ وِصَالاً ... تارةً أطلبُ الفِراق لأفنى

اليقينُ اليقينُ جلسةُ حبٍّ ... من خليلٍ بنارِ نمرودَ يُمْسِكْ
سرُّهُ أنْ تقومَ لله شُكْراً ... وقصاراه أن تلوذَ بِنَفْسِكْ
كعبةُ العُرْبِ أطلقتْ كلَّ لحنٍ ... طافت الفرسُ والمغولُ عليه
كيف تسمو حضارةٌ ليس فيها ... حرمٌ يجمعُ القلوبَ إليه
صوت قيثارتي الَّتي سَمِعوها ... أعجميٌّ لكنَّ لحني حجازي
شَهِدَ الغرب أنَّني غزنويٌّ ... حين جرَّعتُه مصير إيازِ[1]
أيهيمُ الفؤادُ في كلِّ حسنٍ ... أمْ يُغَنِّي لوحده في الزِّحامِ
رُغم أنَّ الزَّمان للقلب غِلٌّ ... لا يذلُّ الزَّمان قلبَ هُمامِ
أيها المسلمُ الذي يشتكيني ... لا تَلُمْني فأنتَ تفضحُ عينَكْ
لا تخفْ من صراحتي في حديثي ... إنَّ هذا الحديث بيني وبينكْ
طيرانُ الأنبياء ليس كهذا ... مالكَ اليوم في السَّماءِ اجتيازُ
ليس يعني إنْ كان جدُّك بازاً ... أنَّك اليوم بالوراثة بازُ
آهِ للمُسلم الذي بات رسماً ... شَغَلَتْه عن الحياة جُدُوْدُه
سألوني فقلت : يوجد ، قالوا : ... أينَ سلطانُه وأينَ وجودُه
لا يبالي الدَّرويشُ عُسرَ طريقٍ ... ويرى العُسْر عونَهُ ونصيرَه
اسألِ اللهَ أن تكونَ بصيراً ... فسلاحُ الدَّرويش نورُ البصيرهْ
إنَّها الذَّاتُ عندما تتجلَّى ... تَنْعُمُ النَّاسُ في ظلال النُّبُوَّه
إنَّها نَفْسَها حجابُ إلهٍ ... عندما تأخذ الكتَاب بقوَّهْ
تَصِلُ الذَّاتُ قابَ قوسين لكنْ ... لا ترى نَفْسَها بعرشٍ وكرسي
كلُّ شيءٍ هناك تُغْرِبُ عنه ... صرخةُ الفَجْرِ في قرارة نفسي
صَنَمُ العَيْنِ كلُّ لونٍ تراه ... يجعلُ الكونَ هيكلاً للعُقولِ

---

(١) كما قصَّ الغزنوي ضفائر إياز التي تنبض إغراءً هكذا فعل إقبال بضفائر أوروبة فعاد منها وقلبه في صدره وفي يده قصاصة شعرها منادياً .
إن الحسن الذي يمكن للمقص أن يزلزله لا يستحق أن يكون كعبة للقلوب .

مُمْكِنٌ أنتَ أنْ تكونَ خليلاً ... في صُراخِ الصَّباحِ بعد الأفولِ
فيمَ هذا المُحبُّ يَعْبَثُ سُكْراً ... بحبالِ الصَّيْدِ الَّتي أوقعته
لم تَزِدْهُ الشِّباكُ إلا حُبُوراً ... وكأنَّ الشِّباكَ قد أطلقته
عِلْمُ رازيْ تَهَوُّرٌ وانحدارٌ ... وحياةُ القلوب علمُ القَلَنْدَرْ
قِمَّةُ السُّكْرِ والمحبَّة تبدو ... في السُّلوك الذي يمتُّ لِحَيْدَرْ
أينَ منْ أطلقَ الحياةَ بعقلي ؟ ... أينَ ذاكَ الَّذي أبادَ حَصَادي
هو في عُزْلةِ الفؤاد مقيمٌ ... وسؤالي الوحيدُ أينَ فؤادي ؟
أنا لا أركبُ الهوادجَ هذي ... أنا لا أمتطي الرِّكابَ دليلا
أرشدُ الرَّكبَ للطريق وأمضي ... لستُ عمَّا يُفَتِّشون بديلا
حطبُ المَوْقِدِ الغليظِ مُملٌّ ... وأنا رغبتي بحرق الدَّقاقِ
أنا لا أمْنَحُ الحصادَ لحقلٍ ... عملي الفردُ والوحيدُ احتراقي
قد تنفَّسْتُ ليس من نارِ قلبٍ ... نفساً بارداً أهاجَ رمادا
شعلةُ الفِكْرِ للطَّريق ضياءٌ ... ودليلٌ له وليْسَ مُرادا
أرضُنا هذه لطُهْرِك تهفو ... أنتَ برهانها وأنتَ هُداها
قلبُك المطمئنُّ قبضةُ نورٍ ... مَنَحتْ أعْيُنَ السَّماء مداها
عن يدِ الله طِرْتَ لا عن غباءٍ ... أنتَ شاهينُه وأنتَ رسولُه
ولكَ الحُوْرُ والملائكُ صَيْدٌ ... ذاك دينٌ وليس شعراً أقولُه
أتُرى ما لِلْمُسْلمين نصيبٌ ... من جنونِ الحبِّ الَّذي أطلقوه
دمُهم كان للشُّعوب مناراً ... ثمَّ هُمْ في ظلامهم أهرقوه
ذاك أنَّ الضُّلوعَ خارتْ قُواها ... لم يعد بينها لهيبٌ يصولُ
سجداتٌ رتيبةٌ في خمولٍ ... وصفوفٌ مُعوجةٌ وذُهولُ
أيُّها المسلمُ المثابرُ يرجو ... ثوبَ تقواه كنْ نسيجَ حياتِك
كنْ وحيداً ووحِّدِ الله واكشِفْ ... سِحْرَ ألوانِنا بقوَّة ذاتِك
كُنْ كما الموجُ كلَّ حينٍ تراهُ ... يدرسُ الشاطىءَ الَّذي يبتغيه
انتزعْ من يديه ثوبَك وارجِعْ ... لا تغرَّنَّك الإقامةُ فيه

النَّـدى شـفَّ عـن صُـدور ورودٍ ... ليـس فيهـا مـن الخـلاعـة كُـفءْ
فـوَّر الخضـرةَ النسيـمُ صبـاحـاً ... فـورةً مـا لهـا هُنـالِـكَ دِفْءُ
احمـرارُ الشَّقيـق صـورةُ نـارٍ ... ضـاعَ فـي غمـرةِ الحيـاةِ فـؤادُهْ
شعلـةُ العقـلِ للمسـافـرِ عـونٌ ... والَّـذي يُلهِـبُ الطَّـريـقَ مُـرادُهْ
مـا هـو العقـلُ ؟ إنَّـه ليـس إلَّا ... نـارَ مصبـاحنـا بهـذا الطـريـقِ
وضجيـجُ الطَّـريـق مـنْ فعـلِ قلـبٍ ... ليـس للعقـلِ مِنْـهُ غيـرَ بـريـقِ

* * *

القسم الثالث

في مسجد قرطبة

وقف محمد إقبال ـ في عام ١٩٣٢م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود ـ في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحبِّ الطاهر ؛ الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفنِّ الإسلاميِّ العربيِّ الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كلُّ ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أنَّ هذا المسجد العظيم صورةٌ للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلَّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوٌّ في الهمَّة ، واتساعٌ في القلب ، وبساطةٌ في المظهر ، وبراءةٌ في النية ، وثباتٌ على الحقِّ ، وإعلانٌ للعقيدة والمبدأ ، وجمعٌ بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكَّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكَّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر ـ والشيء بالشيء يذكر ـ بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوِّي في الجوِّ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظيرٌ في الأصوات ، والهتافات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكارُ الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفَّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ،

وانطلقت موجةٌ من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصَّادق إلا هذا الأذان الصَّادق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السَّماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمَّنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناً بأنَّ الأمَّة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة ـ التي كتب لها الخلود ـ لا تموت ولا تفنى .

حرَّك هذا المنظرُ الرائعُ ، وهذا الأثرُ التاريخيُّ ، وهذا المسجدُ الغريبُ الفريدُ الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرَّك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أنَّ هذا العالم خاضعٌ للفناء، وأنَّ الآثار التي تخلفها الأجيال، وأنَّ البدائع الفنية التي تنتجها العبقريةُ الإنسانيةُ بين حينٍ وآخر ، كتب لها الاضمحلالُ والاندثارُ ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبدٌ مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأنَّ عمله يستمدُّ الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبِّه القويِّ الخالص[1] ـ والحب هو أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت ـ إنَّ الدهر سريعٌ ، ورفيقٌ في سيره ، وهو تيارٌ عنيفٌ لا يقف في طريقه شيء ، والحبُّ هو القوة الوحيدة التي لا تقاوم لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إنَّ الحبَّ غيرُ خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحبُّ هو الذي تجلَّى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النُّور

---

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

والسُّرور ونشوةَ الخمور ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالةٌ لا يزال في سير وانتقال ، وحلٌّ وترحال، له منازل ومقامات يمرُّ بها ويخلفها وراءه، هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعرُ العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « **تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنَّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب ـ الحب ـ أصبحت مصنوعات سطحية من لونٍ ، أو قرميدٍ ، أو حجرٍ ، أو لفظةٍ ، أو كتابةٍ ، أو صوتٍ ، لا حياة فيها ولا روح ، إنَّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرق بين قطعةٍ من حجر ، وقلبٍ خفَّاقٍ حنونٍ للبشر ، فإذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصمَّاء خفقت وعاشت ، وإذا تجرَّدت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت** » .

ويقول في عقيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعرٍ محب : « **إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إنَّ الإنسان في تكوينه وخلفه قبضةٌ من طينٍ لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه ، وحمل أمانة الله ، إنَّ الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللَّوعة واللَّذة التي امتاز بها سجود الإنسان ؟!** .

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكَّر أنَّه هنديُّ النجار ، وأنه من إحدى بيوتات « البراهمة »[1] ، ويتذكَّر أنَّه أمام أثر إسلاميٍّ عربيٍّ صميمٍ

---

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة .

قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندي ـ الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام ـ كيف غمر قلبَه الحبُّ والحنان ، وكيف فاض قلبُه ولسانُه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيدُ والإيمان » .

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمَّة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورةٌ صادقةٌ للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكمُ البنيان ، كثيرُ الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقةً بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلًا للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « إن المسلم حيٌّ خالد ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة ! » .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمَّة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكاياتٌ ومواقفُ في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق ـ العصر الجاهلي ـ بالرَّحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنَّه إمام رجال الحبِّ والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانُه لبنٌ وعسل ، وسيفه علقمٌ وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب

وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتَّوحيد ، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله » .

ويقبل على المسجد يتحدَّث إليه ، ويناجيه ، ويقول : « لقد كشفت أيها المسجد العظيم ! عن سرِّ المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصورت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقة التي يمضي فيها ليله ، صوَّرت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السَّامي ، ومسراتِه وأشواقَه ، وتواضعَه ودلالَه » .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموَّه ، وأخلاقه ، وسيرته في العالم ، فيقول : « إنَّ يد المؤمن هي جارحةُ القدرة الإلهية ، فهي غلاَّبةٌ ، فتَّاحةٌ ، قاهرةٌ ، ناصرةٌ ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبدٌ تخلَّق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلةٌ ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ جليلة ، ألقي عليه الحب ، وكسي المهابة والجمال ، دقيقٌ رقيقٌ في الحديث ، قويٌّ نشيطٌ في الكفاح ، نزيهٌ بريءٌ في السلم والحرب ، إنَّ إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم ، وكل ما عداه وهمٌ وطلسمٌ ومجازٌ ، إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل ، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها » .

ويقبل مرةً ثانيةً على المسجد ، فيخاطبه في إجلال وإكبار ، ويقول : « يا مثابةَ هواة الفنِّ ! ويا مقصدَ روَّاد الجمال ! ويا مجد الدين الإسلامي ! لقد سمت بك أرض الأندلس ، وتقدَّست في أعين المسلمين ، إنَّك فريدٌ في الفنِّ والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على أنَّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة ، وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذي كانوا مربي الشرق والغرب ، وكانوا أصحابَ عقولٍ حصيفةٍ وبصيرةٍ نافذة ، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق ، والظلام الحالك ، والذين لا تزال في الشعب الإسباني

بفضل دمهم العربي ، خفةُ روح ، وحفاوةٌ ، وبساطةٌ ، وجمالٌ شرقيٌّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب إسبانيا ـ الأندلس الإسلامي المغصوب ـ فيتغنَّى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أنَّ أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوَّق إلى ثورةٍ جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فجحدت أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرَّر الفكر الأوربي ، وتحرَّكت سفينته في يسرٍ وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني ـ الرومي ـ شاباً فتياً بلذة التجديد[1] ، هكذا الرُّوح الإسلامية مضطربةٌ قلقةٌ ، تطلب انتفاضةً جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنَّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخَّض بحوادثَ جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهَّن بالمستقبل » ، ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « إن على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيَّات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنَّها لا تزال محجوبةً عن أعين الناس ، لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحت ما في صدري من أفكار وأسرار ؛ لشقَّ ذلك على أوربة ، وفقدت رشدها ، وجنَّ جنونها » .

ثم يعود مرَّةً ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « كلُّ حياة لا تجديد

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس والقومية الرومية .

فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمةً تحاسب عملها في كل زمان سيفٌ بتَّارٌ في يد القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء » .

ويختم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمةٍ حكيمةٍ مأثورة ، مبنيةٍ على تجاربَ واسعةٍ ، ودراساتٍ عميقةٍ ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب ، والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إنَّ كلَّ مأثرة وكلَّ إنتاجٍ ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلَّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب ، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار » .

وهذا هو سرُّ الخلود والبقاء للآداب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا[1] ؟

* * *

(نُظمَتْ في مسجد قرطبة)

إنَّ هـــذي الصـــرخـــةَ اليـــومَ التـــي تفضـــحُ أمـــري
صـــرخـــةُ القلـــبِ التـــي خبَّـــأتهـــا طيلـــةَ عُمْـــري
صحبـــــةُ الأطهـــــارِ نـــــورٌ ورضـــــا الله حُبُـــــور
وشقيـــقُ الـــرَّوض كـــاســـاتٌ علـــى النَّهـــر تـــدور
هـــاهنـــا يمكـــن أنْ أذكـــرَ وَعْثَـــاءَ المسيـــرْ
ووضـــوئـــي لِصـــلاتـــي مـــنْ دَمِ القَلْـــبِ الكسيـــرْ

---

(١) من « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني النَّدوي .

مع من يمشي الَّذي يمشي على هذا الطَّريقْ
وأنا إلَّا رجائي ليسَ لي فيه رَفيقْ
أيكونُ القَصْرُ عُشِّي وأنا أكره لونَهْ
أنتَ ذاك العُشُّ والغُصنُ الذي يَسْتُر كونَهُ
أنتَ من أطلقت من صدري صراخَ الفَجْر بعثا
لي من التَّوحيد نارٌ تُلْهِبُ العالمَ بحثا
بكَ أنفاسي تغنَّى لكَ تغدو وتروحْ
ذات شجوٍ وحماسٍ ونَدوبٍ وجروحْ
أملي أنت وشُغلي طلبي أنتَ الوحيد
وأنا هذا نصيبي غيرَ هذا لا أُريد
عندما تخطِر قربي تصبحُ الصَّحراءُ بحرا
وإذا لم تكُ في البُستان فالبُستان صحرا
أتمنَّى مرَّةً أخرى ولو جرعةَ كأسِ
علَّ أنْ أخرجَ يوماً منْ طوافي حولَ نفسي
أنا منها في خمارٍ كيفَ لي أشربُ منها
كلُّ حاناتِ الورى حطَّمْتُها في البَحْثِ عنها
أيُّها السَّاقي متى تنظرُ لي عينُ حنانك
ومتى الجمهورُ بالأقداح تروي منْ دِنانك
خلقُك اللَّهمَّ هذا لم يَذُقْ ذوقَ فتوني
وأنا ، إنْ لمْ تبدِّلْه يبدِّلْه جنوني
ما هو العارُ الذي يَلْحقُ هذا الفيلسوف
وهو بالسرِّ الذي خبَّأتَه أنت يطوف ؟!

* * *

نسمةُ الأسحار هذي نفحةُ اللهِ الخبيرْ

في نسيج الرُّوح يجريها كنُسْغٍ في الضَّمير
يصبح الرَّاعي كموسى بتعاليمِ شُعيب
﴿ لا تخف ﴾ سيفٌ فخذها وهْي وحيٌ دون ريب

* * *

مسجد قرطبة

(نظمت في أرض الأندلس وبخاصةٍ في قرطبة)

(١)

ضياءُ الصُّبحِ بعد الليلِ آتٍ (ومن هذين كلُّ الحادثاتِ)
هما في الدَّهر خيطٌ منْ حريرٍ تلوَّن بالحياة وبالمماتِ
هما إيقاعُ أغنيةِ الحِجَابِ ولحنُ الحقِّ في هذي الرِّحاب
على وتر الخُلود لهم نشاطٌ مُلِمٌّ بالقَرار وبالجَواب
وعندهما بكلِّ النَّاسِ علمٌ هما حجرُ المحَكِّ لكلِّ شَغْبِ
فلا تفخرْ بقلبك دون زيفٍ وجرِّب مثلما جَرَّبْتُ قلبي
فإن هو كان زيفُك مثلَ زيفي ولمْ يكُ لي ولا لكَ أيُّ قيمهْ
فعيدُك مثلُ عيدي عيدُ موتٍ وحظُّك مثلُ حظِّي في الوليمه
وما المعنى ليومِك أو ليومي بلا ليلٍ يكون ولا نهار
إذا عبر النُّبوغُ بأرضِ قومٍ تولَّى مثلَ زوبعةِ الغُبار
حكايةُ كوننا وهمٌ وظنٌّ وهذي كلُّ أطوار الحكايهْ
من العَدَمِ البدايةُ أخْرَجتنا وترمينا إلى العَدَمِ النِّهايهْ

(٢)

الموتُ لا يَمْحو رجالَ اللهِ منْ هذا الوجود
الحبُّ في دمهم تلوَّنَ بالثباتِ وبالخلود

مهمـــا يكـــنْ جـــريـــانُ هـــذا العصـــرِ جبَّـــاراً عنيفـــا
فـــالحـــبُّ يَجْـــرُفـــه ولكـــنْ سيلُـــه يَبْـــدُو لطيفـــا
الأمـــسُ والغـــدُ ليـــس وُجْهتَنـــا الَّتـــي نسعـــى إليهـــا
الحـــبُّ أزمنـــةٌ بـــلا أسمـــاءَ نُطلِقُـــه عليهـــا
مـــا الحـــبُّ ؟ مـــا هـــو ؟ إنَّـــه وثبـــاتُ أوقـــاتِ الصَّفـــا
فـــي نفحـــةِ الـــوحـــي الأميـــنِ علـــى فـــؤادِ المصطفـــى
مـــا الحـــبُّ ؟ سكـــرةُ وردةٍ خَلَـــعَ الجمـــالَ عـــذارُهـــا
لَعِـــبَ النَّسيـــمُ بهـــا عليـــه فقطعـــتْ أزرارَهـــا
الحـــبُّ فـــي ســـاحِ الجيـــوشِ هـــو المقـــدَّمُ والنَّبيـــه
والحـــبُّ فـــي الحَـــرَمِ الشَّـــريـــفِ هـــو المشـــرِّعُ والفقيـــه
أســـألْ بـــه متسكِّعـــاً خلْـــفَ الهـــوادجِ والقـــوافـــلْ
بيـــن الألـــوفِ مـــن المنـــازلِ والألـــوفِ مـــن المـــراحـــلْ
الحـــبُّ ليـــسَ مغنِّيـــاً الحـــبُّ إبـــداعُ الأغـــانـــي
أوتـــارُه نـــورُ الحيـــاة وقـــوسُـــه نـــارُ المعـــانـــي

* * *

مسجد قرطبة

(٣) و (٤) و(٥) و(٦)

قصـــرُ التَّـــاريـــخ ومسجـــدُهُ مـــا أروعَ مـــا صَنعـــتْ يـــدهُ
لِلْقَـــوْمِ بِصَـــدْرِ حكـــايتـــه صـــوتٌ مـــا زال يُـــرَدِّدُهُ
ظمـــأٌ لا ريَّ لـــهُ وبـــهِ طلـــبُ الظمـــآنِ ومَقْصِـــدُهُ
يـــزدادُ بـــرؤيتـــه ولهـــاً ويـــريـــدُ يقـــومُ فَيُقْعِـــدُهُ
وكـــأنَّ عـــلائـــقَ زينتـــه خَفَقـــاتُ القَلْـــبِ ومَعْقِـــدُهُ
فـــي الصَّخْـــرِ فنـــونُ ســـرائـــرنـــا بلطـــائفنـــا نتعهَّـــدُهُ

لِيَهِيْـــجَ رنيـــنُ جـــوانبـــه بـــأنيـــن الـــرُّوحِ نـــزوِّدُهُ
يـــا ظـــلَّ الغَـــرْبِ ودوحتَـــه مـــن ذا تـــاريخُـــك يجحـــده
بـــكَ أضحـــتْ تـــربـــةُ أنـــدلـــسٍ حَـــرَمـــاً فـــي الغـــربِ نُمجِّـــده
لانـــدَّ لـــه فـــي ســـؤدده إلا الإيمـــانُ وســـؤددهُ
عـــربـــيُّ اللَّحـــن حجـــازيٌّ روحُ الإســـلام تُخلِّـــدهُ
يمنـــيُّ العِطْـــرِ تهـــبُّ بـــه أنســـامُ الشَّـــام وَتَحْشُـــدُهُ
نظـــراتُ ظبـــائِـــك لاعبـــةٌ بسهـــامِ الحـــبِّ تكبِّـــدُهُ
أنـــا مـــن كفَّـــارِ الهنـــد وفـــي نظـــراتـــي مـــا لا تَجْحَـــدُهُ
وحمـــاســـةُ أغنيتـــي هـــذي مـــن لحـــنِ قَلْبِـــك يُنْشِـــدُهُ
وصـــلاةُ الحـــبِّ علـــى شفتـــي (وعلـــى خـــديـــكَ تـــوزُّده)
الفتنـــةُ وجهُـــكَ يـــوقـــدهـــا وأنـــا أشـــرحُ مـــا تُـــوْقِـــدُه
تـــوحيـــدُ اللهِ لنـــا نـــورٌ وحيـــاةُ القَلْـــبِ تـــوحُّـــدُهُ
لـــو كـــلُّ ريـــاحٍ فـــي الـــدُّنيـــا اجتمعـــتْ لا تَقْـــدِرُ تُخْمِـــدُهُ
يحكيـــك جمـــالًا وجـــلالًا رجـــلٌ للهِ تعبُّـــدهُ
وحمـــاسُ ضحـــاه وَوَجْـــدُ مســـاه ومـــا يخفيـــه لـــه غـــدهُ
ومســـرَّتُـــه ومحبَّتـــه وتـــواضُعُـــهُ وتـــودُّده
عـــذبُ الكلمـــاتِ خفيـــفُ الـــرُّوحِ رقيـــقُ القلـــبِ مُسَهَّـــدهُ
أبـــديُّ الحـــبِّ نقـــيُّ الحَـــرْبِ مصـــونُ العِـــرْضِ مهنَّـــدُه
وعلـــى يـــده لله يـــدٌ بلطيـــفِ القُـــدْرَةِ تَعْضُـــده
العـــالـــمُ قصـــرُ خـــلافتـــه وســـمـــاءُ العَـــالـــمِ مَعْبَـــدُه
ســـرُّ الكـــونيـــن بنظـــرتـــه وعـــن الكـــونيـــن تجـــرُّده
وســـرابُ العَصْـــرِ بنـــورِ الـــدِّيـــن ونـــارِ الحـــبِّ يُبَـــدِّدهُ
هـــو أوَّلُ ســـرٍّ فـــي الـــدُّنيـــا ورجـــاءُ الكـــون ومَقْصِـــدُهُ
هـــو مِثْلُـــكَ شـــاغـــل عـــالمـــه بقـــديـــمِ الحُسْـــنِ يُجَـــدِّدُهْ

كنخيل الشَّام وأعْمُدِها شَمَخَتْ في المسجدِ أعمُدُه
تتألَّقُ زرقةُ قبَّتِهِ وتقيمُ الليل وتُقْعِدُه
وتَنَهُّدُها في وَحْدتها كالطُّورِ كواهُ تنَهُّدُهُ
بَعَثَتْ جبريلَ منائرُها بجمالِ أنْتَ مُحمَّدُه
نادى إبراهيمَ وموسى لشهودِ هذا مَشْهَدُه

(٧)

إنَّ أرضاً أنتَ فيها لسماءٌ لِلْعُيونْ
كيف لم يسمع أذاناً أهلُها مُنْذُ قرونْ
ليت شعري كيفَ أسرى موكبُ الحبِّ الغَضُوبْ
ليت شعري ما يرى الآن وفي أيِّ الدُّروب
هيَّج الألمانُ حولَ الدِّين إصلاحاً عريقا !
بدَّدَ الأسرارَ لم يتركْ لها بيتاً عتيقا
أصبحتْ منه هباءً عصمةُ البابِ العجوزْ
وأفاق الفِكْرُ لا يعرفُ شيئاً لا يجوزْ
منذ أنْ ثارتْ فرنسا بدأ الغرب العِراكا
لمْ تَعُدْ تُبْصرُ فيه بعدها إلا ارتباكا
هي ذي روما التي شاخَتْ على العَهْدِ القديم
تحتسي خمراً جديداً معها البابا نَدِيْم
في فؤادِ المُسْلِمِ اليومَ كهذا الغَليان
هو سرُّ الله عن تبيانه كلَّ اللسان
فارقُبوا منْ ذلكَ الواثبُ في بحر القضاءْ
وارقبوا الكُوبَ الذي يختارُه مَاءُ السَّماءْ

(٨)

تميـــلُ سحـــابـــةُ الـــوادي فتحكـــي فيـــه غطـــاســـا
رمَتْهـــا الشَّمـــسُ بـــاليـــاقـــوتِ أكـــداســـاً فـــأكـــداســـا
وأغنيـــــةُ ابنـــــة الفَـــــلاَّح تُطْـــــربُ رُغْـــــمَ ركَّتهـــــا
بِـــــرقَّتهـــــا إذا غَنَّـــــت وآهتهـــــا وأنَّتهـــــا
كـــأنَّ غنـــاءَهـــا فيـــضٌ يُقـــلُّ سفينـــةَ القلـــب
تغـــازلُ نهـــرَ قُـــرْطُبَـــة الـــذي يـــذخـــرُ بـــالحـــبِّ
هنـــالـــك يَـــرْتَـــعُ السَّـــاري هنـــالِـــكَ تَصْـــدَحُ الـــورقُ
كـــأن النَّهـــر تـــاريـــخٌ يغنِّـــي فـــوقـــه الشَّـــرْقُ
نعـــمْ ، مـــا زال عـــالَمُـــه الجـــديـــدُ يحـــوطُـــهُ القَـــدَرُ
ومثلـــي ليـــسَ يُعْجـــزُه علـــى إدراكِـــه نَظَـــرُ
ولـــو هَتَكْـــتُ أستـــاري وأسْفَـــرَ وجـــهُ أفكـــاري
لَكـــلَّ الغـــربُ أن يحمـــل مـــا غنَّتْـــه أوتـــاري
حيـــاةٌ ليـــس فيهـــا ثـــورةٌ مـــوتٌ لطـــالبهـــا
وهـــل لحيـــاتنـــا فكـــرٌ يكـــونُ لغيـــر غـــالبهـــا
وبـــدءُ الفِكْـــرِ بـــدءُ تـــأهُّـــبِ الأحـــرار للخَطَـــر
وشعـــبٌ واثـــقُ الخطـــوات سيـــفٌ فـــي يـــدِ القـــدر
إذا الآثـــارُ جـــوهـــرنـــا أبَتْـــهُ عـــابَهـــا النَّقْـــصُ
وإنْ لـــم تـــأخـــذِ الأنغـــامَ عنَّـــا أضحـــكَ الـــرقـــصُ

* * *

صرخة « المعتمد »[1] في السِّجن

تكـادُ صـرخـةُ قلبـي عنـد حَنْجَـرتـي تشـقُ مـن كَتْمهـا قلبـي وتنطلـقُ
كـأنَّهـا جمـرةٌ فيـه بـلا شَـرَرٍ قلبـي بهـا دون كـلِّ النـاسِ يحتـرقُ
كـذاك تفعـلُ بـالحـرِّ الحيـاةُ إذا أرادَ شيئـاً وحـالـتْ دونَـه الطُّـرقُ
أليـسَ عـاراً علـى الأحـرار يسجنُهُـمْ مـع العبيـد دعـيٌّ جيشُـهُ الحَمَـقُ
لعـلَّ فـولاذَ سيفـي صِيْـغَ ثـانيـةً غـلاًّ لكفـي الَّتـي لـم يَثْنِهـا فَـرَقُ
لا أشمـتَ اللهُ بـالأقـدارِ حـاسـدَنـا فليـسَ شـيءٌ مـن الأقْـدار يُسْتَبَـقُ

* * *

---

(١) المعتمد بن عبَّاد : ملك إشبيلية حالف الفونس السادس فأسره يوسف بن تاشفين وألقاه في السجن فمات فيه .
وقد نشرت قصائده مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في سلسلة (WISDOM OF the east) (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

النخلة الأولى[1]

(١)

(يلاحظ أن المقطع الأول من القصيدة ترجمة لقصيدة عبد الرحمن الأول التي وردت في نفح الطيب ٣/ ٥٤ وقد غُرسَت النَّخلةُ في مدينة الزَّهراء ، والقصيدة كما ذكرها المقريّ) .

تبدَّت لنا وسط الرُّصافَةِ نخلةٌ ... تناءتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بلدِ النَّخل
فقلتُ شبيهي في التغرُّب والنَّوى ... وطولِ اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي
سقتْكِ غوادي المُزْنِ في المُنْتأى الذي ... يسُحُّ ويستمري السِّماكينِ بالوَبْلِ

---

(١) وقد ترجمها الشاعر كما في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

أنت نورُ عيني
أنت فرحُ قلبي
أنا بعيدٌ عن وطني
وأنت عندي شجرةٌ من سيناء
ترعْرَعَتْ في أرض الغرب
ومع ذلك فأنت حوريةٌ من الصحراء العربية
أنا نَفَذَ صبري في غربتي
وأنت نَفَذَ صبرُك في غربتك
أيمكن أن تؤتي ثمارَك في الأرض الغربيَّة
عسى أن يكونَ ندى الصَّباحِ هو الذي يَسْقيك .

(٢)

(وقد استوحى إقبال المقطع الثاني من القصيدة ذاتها لذلك آثرنا نظم المقطع الثاني على نهج أبيات عبد الرحمن) .

وأعْجَبُ ما في الكونِ غربةُ مثلنا ... وفي الشَّام من أمثالنا عَدَدُ الرَّملِ
وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى ... زماناً غريب الوجه مختلف الشَّكل
وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُرى ... مضيتُ به عريانَ مُمْتَشِقاً نصلي
وما منْ حياةٍ للَّذي أنِفَ الرَّدى ... وهل يقدح الزِّند الشرارَ من الوحل
إذا شامَ طرفي البرقَ زادَ تألُّقاً ... وحنَّ بذكرِ الشَّامِ للأعين النُّجْلِ
وما ضرَّنا مُلْكٌ تركناه خلفنا ... فكلُّ بلادِ الله ملكُ ذوي العَدْلِ
سنبني كما كُنَّا بنينا لغيرِنا ... وحاشا لأهلِ الجُوْدِ توصمُ بالبُخل
إذا نَضَبَتْ أجسادُنا منْ دمائِنا ... فمنزلُنا ريَّانُ من غَدَقِ البَذْلِ
ستذكُرُنا الدُّنيا وتندُبنا الورى ... وتطْلُب من آثارنا كعبةَ الفضلِ
يقال هنا صلَّتْ وضجَّت قلوبُهم ... هنا انتبذَتْ أرواحَها رسلُ النَّخْلِ

* * *

إسبانيا

(كُتبت في إسبانيا ساعة مغادرتها)

صـوتُ المنـائـر فـي نسيمِـك يَـرْقُـدُ وصـداه فـي أرواحنـا يتـردَّدُ
يـا تـوءَمَ الحـرم الشـريـف تطـوَّفَـتْ بـكِ رُكَّـعٌ مـن عـاكفيـنَ وسُجَّـدُ
سيمـاكِ مـن أثـرِ السُّجـود علـى الثَّـرى طـربٌ يفـوحُ ونضْـرةٌ تتجـدَّد

* * *

تحكـي النجـومُ أسنـةً لـرمـاحهـم بـإزائهـا ليـلٌ يقـومُ ويَقْعُـدُ
ملـؤوا وهـادَكَ بـالخيـامِ ولـم تـزلْ أوتـادُهـا بنسيمهـم تتـأوَّدُ
إنْ تسـألِ الحسنـاءُ عـن حُنَّـائهـم فتَخيـبُ يُنْصِفُهـا دمـي المتـورِّدُ
يـا طـالمـا سُفِكـتْ هنـاكَ دمـاؤُنـا ظُلمـاً ونحـنُ المشفقـونَ العُـوَّدُ

* * *

مـا كـان صقـرُ قـريـشٍ غيـرَ مـوحِّـدٍ عجبـاً أمـا فـي المسلميـن مـوحِّـدُ
خَمَـدَتْ حقيقتُنـا وزالَ لهيبنَـا وبـريـقُ قـرطبـةَ الشَّـريـدُ مخلَّـدُ
ووقفـتُ لا نـومـي حَمَـدْتُ ولا السُّـرى أتكبَّـد الجـرح الـذي أتكبَّـدُ
عـانيـتُ مشهـدهـم وقُلْـتُ وقيـل لـي سِيَّـان قـولٌ فـي العـزاء ومَشْهـدُ

* * *

ستُهتـك الأستـارُ عـن سينـائنـا وتُبـاحُ أسـرارٌ لنـا وتُبـدَّدُ
ويكـونُ أول مـن يقـومُ بهتكهـا للنـاس أولَ مصلـحٍ يتحمَّـدُ

* * *

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد ـ القائد الشاب ـ بجيشه العربي المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرُّجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « **أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر** »[1] ، فيثير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافىء الجيش الإسباني في العُدَّة والعَدَد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرةٍ ولا مددٍ ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلَّب عليه ، ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمةَ السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوةً لا تُهزم ، وإرادةً لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

---

(١) قطعة من خُطْبة طارق بن زياد .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلِّداً للرسول الأعظم ﷺ ـ قائد الكتيبة المؤمنة الأولى ـ إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفَّه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « **اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد** » ، فتأسَّى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالٌ غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلوَّ همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليله إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر ـ العرب ـ بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ،

هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلةٍ من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويٌّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلَّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦]. حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، وأخلق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبتها ، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف[١] .

وقد استجاب الله دعاء طارق ـ القائد المؤمن المخلص ـ وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العَدد والعُدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢][٢] .

* * *

---

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) ديوانه .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

دعاء « طارق »

« نُظمت في ساحة المعركة في الأندلس »

هـذي الكُمَـاة عبـادُك الأخيـارُ ... حملـوا عَنَـاءَ العـالميـن وسـاروا
أصحـابُ سـرِّكَ والسِّيـادةُ طبعهـم ... والنُّـور فـي نظـراتهـم والنَّـارُ
فعلتْ كموسى في البحار عِصِيُّهم ... وتـراجعـت لخطـاهـمُ الأنهـارُ
البَحْـرُ حَبَّـة خـردل فـي كفّهـم ... والعِشْـقْ فـي أرواحهـم إعصـارُ
عـزفـوا عـن الـدَّاريـن إلا أنَّهـم ... علـمٌ علـى الـدَّاريـن لا ينهـارُ
نيـلُ الشَّهـادة للمـوحِّـد مطمـحٌ ... وإذا تقحَّـمَ فـالجـراحُ غبـارُ
لا سَبْـيَ غـانيـةٍ وسَلْـب خـزانـةٍ ... ومطـامـحُ الهمـمِ الكبـارِ كبـارُ
كلُّ العباد على اختلافِ عروقهم ... تـرجـو رجـاءَ شقـائـقِ النُّعمـانِ
تـرجـو مـن العـربـيِّ لـونَ دمـائـه ... وتضـجُّ ليـلَ نهـارَ فـي البُستـانِ
ربَّـاه أنـت بَعَثْـتَ مـن صحـرائهـم ... سكَّـانهـا وجعلتهـم أفـذاذا
وملأتَ صَدْرَ الصُّبح من آهاتهم ... وجَعَلْـت أعـرابيَّهـم أستـاذا
طـوتِ الحيـاةُ الـدَّهـر تنشـد طُلْبـةً ... عـزَّتْ وطلبتُهـا مـذاقُ النَّـار
وبـروحهـم عثـرتْ عليهـا بعـدمـا ... كلَّـت مـن التِّـرحـال والتِّسيـار
المـوتُ ليـس نهـايـةً فـي عينهـم ... هـو للبصيـرة بَـابُهـا المفتـوحُ
ربَّـاهُ ! فـابعـث مسلميـن أعـزَّةً ... يتـوسلـون كمـا تـوسـلَ نـوحُ
لتغيُّـرات العَصْـر مـن ثـوراتـه ... وهـمٌ وأنـت الفـرد لا تتغيَّـرُ
ربـاهُ ! أنـت هـو الحقيقـةُ كلُّهـا ... والنَّـاس منهـا مـوسـرٌ أو مُعْسـرُ
الـدَّهـر ملـك يـديـك ليـس لأهلـه ... إلا ظنـونُ الـواهـم المتقـوِّلُ
يتنـازعـون علـى تفهُّـم عـالـمٍ ... سكـرانَ مـن مـاضٍ ومـن مستقبـلِ

* * *

« لينين » أمام الله[1]

يـــا مـــن نـــرى فـــي النَّفـــس والآفـــاقِ مـــن آيـــاتـــهِ
الحـــقُّ : أنَّـــك خـــالـــدُ حـــيٌّ يقـــوم بـــذاتِـــهِ
مـــا كـــان يمكـــنُ فـــي وجـــودك أنْ يكـــونَ علـــى يقيـــنْ
والعقـــلُ يخـــرجُ مـــرغمـــاً عـــن رأيـــه فـــي كـــلِّ حيـــنْ
مـــا كـــان يـــدركُ عقلُنـــا فـــي طيـــشِ نظـــرتـــه السَّـــريعـــهْ
مـــا كنـــتَ تُـــرْسلُـــه مـــن الأنغـــام فـــي خَلَـــدِ الطبيعـــهْ
سِيَّـــان رصَّـــادُ النُّجـــوم ومـــن تـــوغـــل فـــي النبـــات
وقفـــوا علـــى مِـــرْصـــادهـــم والكـــلُّ ينقصـــه الثبـــات
اليـــومَ أعلـــنُ بعـــدمـــا شـــاهـــدت عـــالمـــك الأخيـــرْ
وأنـــا الـــذي كـــابـــدتُ أفهمُـــه وعـــانيـــت الكثيـــرْ
أنِّـــي ـ وتعلـــم ـ لـــم أكـــنْ وحـــدي هنـــالـــكَ فـــي غُـــرور
كـــانـــت أســـاطيـــر الكنيســـةِ حـــول عَتَمَتِنـــا تـــدور

---

(١) علَّق الأستاذُ الملُّوحي على القصيدة بقوله : يهمُّ القارىء أن أذكر تعليقاً على هذه القصيدة ورد في كتاب « مدخل إلى فكر إقبال » للكاتب الفرنسي (لوك كلومبتر) (طبع بيرسيجرس باريس عام ١٩٥٥م) وفيه ص٧٣ :
هذه القصيدة العجيبة كتبها إقبال آخر سني حياته ، ويخطىء من يرى فيها تغيُّراً في وجهة أفكاره والصحيح أنها تعميق لهذا التفكير . . فليست هي المرة الأولى التي يفضح فيها إقبال مساوىء الرأسمالية .
ويجب أن نقول إنَّ هذه القصيدة تدل على يقظة وجدان أكثر وضوحاً وأشد وعياً للواقع الاجتماعي ونجد بها هذا الغضب الرَّاعد الذي كلُّه حب وصفاء .
انظر مجلة فكروفن عدد ٣٢ ص٧٩ وما بعدها .

كنَّا هناك مكبَّلين بكلِّ أغلالِ الليالي
أيامَ أنتَ تصوِّر الأزمانَ فيه على التَّوالي
قلبي يمزِّقه سؤالٌ فيه فائذن بالسؤال
تركَتْه خوفاً من عواقِبه أباطرةُ الجِدال
هذا السؤال وكان طول العُمْرِ يرميني شريدا
ويثيرُني تحت السَّماء أسيً ويتركني وحيدا
هذا الذي ألقى بأيامي حُطاماً في الوِهادِ
هذا السؤالُ وكان مغروساً كشوكٍ في فؤادي
هذا السؤال عن الأنام ولن أجور على الأنام
وأنا تضايقني مراقبة الطَّريقة في الكلام
فالمرءُ لما تعصفُ الأفكارُ في أرجاء روحه
لا يستطيع تخيُّر الكلمات تخرج من جُروحه
[منْ كان آدمُ حينَ كان الطين صلصالاً عليه
منْ كان سيِّده سؤالٌ لا أوجهه إليه]
إيَّاك يعبد ـ لا أظنُّ وأنتَ علاَّمُ الغيوب ـ
عاصَرْتُه أيامَ كان الدِّين أفيونَ الشُّعوب
عاصَرْتَه مترنِّحاً بهياكل الصَّنم القبيحْ
في درب أوربَّة التي ائتمرتْ على الشَّرق الجريحْ
في درب أوربة التي تبدو مناراً للحياة
والحقُّ أنَّ النَّبع في ظلماتها نبعُ الممات
تاهت بأبنيةِ المصارفِ فوق أبنيةِ الكنائس
وأتَتْ لهيكلِها الجديدِ بكلِّ أنواعِ النفائس
قالوا تجارات تدارُ وكلُّ ما فيها قمار
ومصادفاتٌ تجعل البُلدان في جيب الكِبار
أيُّ السياسةِ والحكومةِ والكنيسةِ والسَّماء

رفعـــوا مســـاواةً تقـــال وأشـــربـــوا حُـــبَّ الـــدمـــاء
العُـــزْيُ والفقـــر المبـــادلُ والبَطـــالـــة والفَســـاد
آيـــاتُ أوربَّـــة التـــي انتشـــرت بـــأنحـــاءِ البـــلاد
أسفـــاً لشعـــبٍ كـــامـــلٍ ردَّ المحبَّـــة للسَّمـــاء
حُصِـــرَتْ روائعُـــه بمـــا أوحـــتْ إليـــه الكَهْـــربـــاء
لـــم يَبْـــقَ بعـــد حكـــومـــةِ الآلات معنـــىً للقلـــوب
كـــان الحنـــان مـــلاذُنـــا فَمَحَتْـــه مـــن بيـــن الشُّعـــوب
وبـــرُغـــم هـــذا كلِّـــه تبـــدو الـــدَّلائِـــلُ أنَّهـــم
سيُبـــدِّدُون وَيَقْـــرَعـــون علـــى الهـــزيمـــةِ سِنَّهـــم
حـــانـــاتُهـــم وقعـــت بمـــا نصبـــوه مـــن تلـــكَ الشِّبـــاك
فـــإذا شيـــوخُ السُّكـــر ممـــا يشـــربـــون بـــلا حَـــرَاك
الحمـــرة الملقـــاةُ فـــوق وجـــوههـــم عِنْـــدَ المســـاء
آثـــارُ خمـــرٍ زائـــفٍ وخضـــابِ زورٍ لا دِمـــاء
ربَّـــاه ! أنـــت القـــادرُ الحـــقُّ الـــرَّحيـــم العـــادِل
مـــن ذاق مـــن مـــرِّ المعيشـــة مـــا يـــذوقُ العـــامِـــلُ
الـــرأسمـــاليـــون مـــركبُهـــم يُعَـــرْبـــدُ فـــي بحـــارك
فمتـــى تُغَـــرِّقُـــه وتـــأخـــذُ مـــن مظـــالمهـــم بثـــارك

* * *

الملائكة تغني

« مقطوعة تابعة لقصيدة لينين »

الفِكْـرُ حـرٌّ لا يُـرَدُّ جِمـاحُـهُ والحـبُّ لا مـأوى لـه يُـؤويـهِ
رباه ! لـوحتُـك التـي لـم تكتمـلْ جـارت علـى السرِّ الَّـذي تطـويـه
كُهـان خلقـك فـي صفـوف طُغـاتهـم يَقِفُـون للبسطـاء بـالمـرصـادِ
محـنٌ صبـاحَ مسـاءَ لا معنـى لهـا إلا لجـوءُ النَّـاس لـلإلحـادِ
فقـراؤهـم مـن بـؤسهـم فـي سكـرةٍ والأغنيـاء مـن الـرَّفـاه سُكـارى
عبـدٌ يلـمُّ مـن الشَّـوارع خبـزَه عـوَزاً ، وعبـدٌ يُطْعـمُ الأقمـارا
هـل تَسْلَـمُ الحكمـاءُ والفقهـاءُ مـن طمـعٍ تـأجَّـج فـي النُّفـوس وَقِيْـدُهْ
أمْ تَسْلـمُ الآراءُ مـن لعنـاتـه هـذي عطـايـاه ، وتِلْـكَ عبيـدُهُ
يـرعَـونَ كـلَّ ضغينـةٍ لبقـائهـم والحـبُّ مـن ألـم الشَّقـاء يصيـحُ
سبحـانَـك اللهـمَّ فـالحـبُّ الـذي يـأسـو جـراحَ البـائسيـن جـريـحُ
ذاتُ الحيـاةِ الحبُّ جـوهـرُ سرِّهـا والحـبُّ جـوهـرُه حيـاةُ الـذَّاتِ
أسفـاً لهـذا السيـف يخبـطُ سـرَّه فـي الغِمْـدِ بيـن الـذُّلِّ والآهـاتِ

* * *

« أوامر الله للملائكة »

قـومـوا إلـى كـونـي الغـريـقِ وأطلقـوا فقـراءَه فيـه علـى الأمـراء
أيبـدِّلـون مسـاجـدي بقصـورهـم جـوراً علـى خلقـي وهـم أُجَـرائـي

قوموا إليهم وانفخوا من روحنا ... فيهم ولا تأسَوا على أسراره
قولوا لحائرِهم تبدَّل أمرُكم ... فاستبدلوا بَرْدَ اليقين بنارِه
قوموا إلى ضعفائهم وهَبُوهُمُ ... ما يجعلُ العُصفورَ يَصْرَعُ بازا
وامحوا منَ الماضي جميعَ ذيوله ... لا تتركوا للجامِدين مفازا
وخذوا من العَدْل الأخير لأرضهم ... سيفاً يقيمُ بحدِّه الإصلاحا
وتقلَّبوا بالنَّار في الحقل الذي ... تجدونه لا يشبعُ الفلاَّحا
لم هذه الحُجُبُ التي تلهو بهمْ ... وتحولُ بينَ الخلقِ والخلاَّقِ
لا تتركوا في الأرض ستراً مسبلاً ... أرخاه كاهنُهم على أرزاقي
ومن الكنائس أخرجوا أربابها الغارقينَ بلُجَّة الأوهام
لله قد شُرع السُّجود وما عدا ... هذا ، مؤامرةٌ مع الأصنامِ
جوسوا الكنائسَ والمساجدَ لا ... أرى لكنيسةٍ ولمسجدٍ مصباحا
أنا غير راضٍ عن رخامٍ أبيضٍ تلقى به سودُ القلوبِ مراحا
وابنوا من الطِّين المعابدَ علَّ أن يَجِدَ السكينة عابدي المسكينُ
يتنافسون بِنَقْشِهَا وبرَقْشِهَا والطِّينُ لا يهديه إلا الطِّينُ

* * *

فتَّشتُ في هذي الحضارةِ كلِّها ... لم ألقَ فيها غيرَ نافخِ كير
فتداركوا الشَّرقَ الذي يرنو لها ... وليعْلُ شاعرُه بصوتٍ نكيرِ
في الغربِ فلسفةٌ وفي تصديقها ... تهديمُ صَرْحِ الذَّات في الإسلام
وصميمُ ذاتك في حوار إلهها ... وحوار موسى ليس محضَ كلام
آثارُ دروشةِ القلندر لم تعُدْ ... سراً ودروشة القلندر تاجُهُ
في كبرياء الفقر صونُ ذواتنا ... والمرءُ محكومٌ بما يحتاجُه

* * *

في أرض فلسطين

تحرَّكت السياراتُ التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرورٍ وإلهامٍ للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان ، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي جاء من أوربة يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي ، وبدأ يتمتَّع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته ـ التي يحتفظ بها الشعراء ـ في سبيل القلب ، فكلُّ نظرة تضيع في جمال الطبيعة ترجعُ إلى القلب بالربح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة قريحته ، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسانٍ جميلٍ زاهي اللون ، وهبَّ النَّسيم عليلاً بليلاً ، وهفت أوراق النَّخيل مصقولةً مغسولةً بأمطار الليل ، وأصبحت الرِّمال في نعومتها وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً ، وأثافيَّ[1] منثورةً هنا وهناك ، وبقايا من خيام وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب ، وتخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت .

وطاب المكان والزَّمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن

---

(١) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .

يلقي عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته[1] .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحبُّ الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه ، فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنَّى به ، وقد حلَّ « الإسلام » ، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محلَّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنَّى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلاً طلَّه النَّدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنَّ ركب الحياة بطيء لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الإسلامي » جديد فتيٌّ ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنامٌ وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورةٍ إبراهيميةٍ جديدةٍ ، إلى كاسر أصنامٍ يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنَّ النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ،

---

(١) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته .

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجىء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز ـ معقل الإسلام وعرين الأسود ـ فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول :

« لا بدَّ أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفةٌ قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدين عن العاطفة والحبِّ أصبح مجموعةً من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : **« إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغيةُ المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون »** .

ثم يستعرض العالم الإسلامي ـ وقد عرف شرقه وغربه وعربيه وعجميه ـ فيحزنه قصر النظر ، وقلَّة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمَّة ، وقلة البضاعة[1] في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية ـ بمعناها

---

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما همَّ بصدره .

الواسع ـ محرومةٌ من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « **إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد** » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنَّه ذرةٌ حقيرة أو قطرةٌ صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرةٍ فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلى بالجلال فكان في الأرض ملوكٌ كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول : « **إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل ـ بعد توفيقك ـ يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب** » ، ويناجي ربه ويقول : « **إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد** » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلٌّ من درس

علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركةً قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكلٍّ حلفاء ، ولكلٍّ معسكر[1] .

فلينظر العالم العربي إلى أيِّ معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أيِّ رايةٍ ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمَّدية التي التفَّ حولها أبو بكر وعمر[2] .

في أرض « فلسطين »

كُتبت أكثرُ هذه الأبياتِ في فلسطين حين زيارة إقبال لها عام ١٩٣١ للاشتراكِ في المؤتمر العالمي الإسلاميِّ .

مـن الفقـرِ أن تـأتـي وفـاضـك فـارغٌ ... وقد طُفْتَ في تلكَ الرياضِ جميعِها[3]

« سعدي »

نـزلـت بـريّـة الـوادي بـذي سلـمٍ ... والشَّمس تـرتـعُ بيـن البَـان والعَلَـمِ

---

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

(٣) البيت في الأصل :

« ما أفقر من يطوف في كل هذه البساتين ذاهباً لزيارة الأصدقاء ويداه فارغتان » .

وقد ترجمه الفراتي :

واحسـرتـا قـد عـدت فـارغ اليـد ... مـن تحـف الـدنيـا لهـذه البلـد

انظر البستان (١ : ١٦) .

وفاحَ ريحُ صباحٍ من مواجدها ... يشفي العليل من الأوصابِ والسَّقَم
بنظرةٍ لجمال الوادي واحدةٍ ... تقحَّم القلبُ منها ألفَ مُقتحمِ
وللمساء سحابٌ من غلائلها ... حمراءُ زرقاءُ من وردٍ ومن عَنَم
ألْقَت براقعَ مجلاها على إضمٍ ... وأومضَ البرق في الظَّلماء من إضمِ
نقيَّةُ الخدِّ سعفُ النخل مشرقةٌ ... مرفوعةُ الراي تحكي رفعةَ القِمَمِ
والرَّمل كالخزفي في أرجاء كاظمةٍ ... يموجُ فيها بما في الخزِّ من عَمَمِ
هنا بقيَّةُ أطلالٍ ، هنا لهبٌ ... يذوي ، هنا بضعُ أشلاءٍ من الخِيَم
كمْ خَلْفَ ليلى ركابٌ منْ هنا عبرتْ ... وعضَّ من لَغَبٍ نضوٌ على لُجُم
هُمُ أقاموا سكارى هاهنا زمناً ... فإنْ رضيتَ بسكر هاهنا أقمِ
يرى هنا من نأتْ عنه أحبَّتُهُ ... سَلْوَةُ ، ويهيج الوَجْدُ بالشَّبم

(٢)

خمرُ الحياةِ كمِثْل السُّمِّ عاقبةً ... عندي، ومن ذا الذي يُصْغي إلى كلمي
صياحُ وجهٍ جديدٌ لا يقيمُ له ... وزناً زمانٌ تعاطى سكرة القِدم
أما لمعتركِ الأيَّامِ من طَمَعٍ ... بغزنويٍّ جديدٍ غير منهزمِ
عباد (سومناث) تخشى أن يحرِّمَها ... أمام (سومناث) مبعوثٌ من الحَرَم
لا في لهيبِ تراثِ العُرْبِ من رَصَدٍ ... يُرَجَّى ، ولا في غِنَاءِ الفرس من نَغَمِ
هل في الحجاز حسينٌ من بني مُضَرٍ ... وهل هنالك محمودٌ من العَجَم
ألا يهيم على وجه الفُرات لهم ... قلبٌ ، ولم يلقَه خالٍ ولم يَهِمِ
أحُسْنُ دِجْلة لم يفتنْ سرائرهم ... وحسنُ دجلةَ في محرابهم صنمي
أما لهم من بقايا الحبِّ باقيةٌ ... وهم سلالةُ أهل الحبِّ والتَّيمِ
أستغفرُ الله هل للدِّين من قِيَمٍ ... بغير حبٍّ وهل للشعب منْ قِيَمِ
بالحبِّ قدَّم إبراهيم واحده ... وابنُ الحسينِ على كفِّ الحسين رُمي
فسل حُنيناً وبدراً عن حروبهما ... كم ضرَّج الحبُّ فيهما من فؤاد كمي

في آية[1] الخلق أنت السرُّ لا أحدٌ ... ولو تجلَّيت ما أبقيتَ منْ عِصَم
لأجل معناك ما تلقى وما لَقِيَتْ ... قوافل القوم في الوِديان والأكَمِ

* * *

رهباننا انقطعت عنَّا بأديرةٍ ... وكلُّ منقطعٍ في الدَّير عنك عَمِي
لا يرتضي القومُ عن حاناتهم بدلًا ... بالرُّغم من أنَّ ساقي الناشئين ظمي

* * *

أنا - وفي غزلياتي الَّتي اشتهرتْ ... بصيصُ نارٍ ذَكَتْ مِنْ صالفِ القِدَمِ -
حكايتي البحث عن قومٍ هنا عُدِمتْ ... أخبارُهم وهنا سادوا على الأمم

* * *

لِلشَّوك كالوَرْدِ حظٌّ من نسائمكم ... ونسمةُ الصبح للرَّيحان والسَلَم
أنا أعِيبُ على وردٍ بلا جذلٍ ... كما أعيب على شوكٍ بلا ألم

* * *

هذا الغناءُ الَّذي ماج الرجاءُ به ... تسيل أنفاسُه من مُهْجتي ودمي
كما تسيلُ دماءُ العازفين على ... أوتارِهم وتروّىٰ من أكفِّهمِ

* * *

فلا تدع لهياج القَلْب فرصتَه ... فإنَّ ذلك يعني فرصةَ العَدَمِ
أرجو جدائل هذا الشعر تنصفني ... بموجةٍ من معاني هذه اللَّمَمِ

(٤)

اللَّوح أنت وما في اللَّوحِ من قَدَرٍ ... وكلُّ ما فيه من سطرٍ ومن كَلِمِ

---

(١) يبدو أن إقبالًا في المقاطع الثلاثة اللاحقة يخاطب الله عزَّ وجلَّ ومع ذلك فإن هذا التأويل غير مؤكد .
ويرى تشيشتي أنَّ الحبيب هنا وفيما بعد هو النبي ﷺ .

لـو تنطـقُ القبَّـة الـزرقـاء مـا كَـذَبَـتْ بـــأنَّهـــا ذَرَّةٌ فـــي بحـــرِكَ العَـــرِمِ

* * *

لـك الجـلالُ الـذي لـم تبـقَ روعتُـه مِـنْ ملـك سِنْجـار إلا عبـرةَ النَّـدم
لـولا جمـالُـك مـا ذاق الجُنَيْـدُ نـوىً ولا أهيـل علـى طيفـورَ بـالتُّهَـمِ
نـداكَ لا تَعْـرِفُ الأنسـابَ نفحتُـهُ يا منْ غَمَرْتَ جميعَ النَّاس بالكَرَمِ
إنْ لم تكن نُصْبَ عيني في الصَّلاة فلا قامت على الزُّور في محرابها قدمي

* * *

مذاهبُ الفِكْر منْ بحثِ الغيابِ وَهَتْ ومشهدُ الحبِّ منْ وَثْب الحضورِ دمي
بالرُّغم من ثورةٍ للشَّمسِ ساطعةٍ ما زالتِ الأرضُ في بحرٍ من الظُّلَمِ

* * *

(٥)

أنـا ـ وتعـرف أيـامـي التـي سلفـت وما تحمَّلْتُ من كدِّي ومن سأمي ـ
مـا كنـتُ أعـرفُ أنَّ العلـمَ مضيعـةٌ وأنَّـــه سبـــبُ الأطمـــاع والنَّهَـــمِ

* * *

هززتُ كلَّ نخيلِ الفِكْرِ ما سَقَطَتْ علـيَّ غيـرُ عـراجيـنٍ مـن الهَـرَمِ
لقـد تيقَّـظ وِجـداني الَّـذي عَصَفَـتْ بـــه مقـــالاتُ مـــوتـــورٍ ومُنْتَقِـــمِ

* * *

الفِكْـرُ مـن حيـث تـأتيـه أبـو لهـبٍ وكلُّـــه كلُّـــه مكـــرٌ مِـــنَ الأمَـــمِ
والحبُّ حيث يكون المصطفى يدُه وكلُّـــه كلُّـــه مـــن مقلتيـــه نُمِـــي

* * *

أخـذتُ عنـه فنـونَ الحـبِّ فـاغتنمـوا مذاهبَ الحبِّ في شعري وفي حِكَمي

نهـايـةُ الحـبِّ أحلـى مـن بـدايتـه وربمـا صَحَّـتِ الأجسـام بـالسَّقَـمِ

* * *

وليـس أغـربُ منـه عنـد مُبْتَـدَأ وليـس أعْجَـبُ منـه عنـد مُخْتَتَـمِ
إذا رمـاك فمـا للقلـبِ مـنْ حِيَـلٍ وإنْ جُـرِحـتَ فجـرحٌ غيـرُ ملتئـم

* * *

يـا سـائلـي عـن فـراقـي بعـد ليلتنـا وعن حظوظي من البلوى وعن قِسَمي
فـراقُـه رغبـةٌ فـي القَلْـب محـرقـةٌ وصرخةٌ من صُراخِ الفَجْرِ ملءُ فمي
أهلُ الوِصال لهم قلبٌ بلا طَلَبٍ وأيُّ معنـىً لقلـبٍ غيـرِ مُضْطَـرمِ
وهـل لقطـرةِ مـاءٍ مجـدُ تسميـةٍ إلا إذا نُبـذَتْ مـن عجمـة الـدِّيـم

* * *

حـاولـتُ لمـا تجلَّـى أنْ أشـاهـده وسـوَّلـت لـي نفسـي هَتْكَـةَ الحُـرَمِ
بالرُّغم من أن طرفي في الهوى وقحٌ أغضيـتُ لمَّـا تجلَّـى خشيـةَ الـدَّهَـمِ

* * *

الفراشةُ واليراعة

قـال الفـراشُ لنفسـه لمَّـا رأى رَقْصَ اليَراع على المِدَاد الأسودِ
كـمْ فـي حيـاتِـك مـن غبـيٍّ أحمـقٍ مـا ذاقَ تصليـةً بنـارِ المَـوْقِـد
سمـعَ اليَـراعُ كـلامَـه فـأجـابَـه حـاشـا لأمثـالـي بمثلِـك تقتـدي
حمـداً لـربِّـي مـا خُلِقْـتُ فـراشـةً بجنـاحهـا وسـمُ العبيـد الـرُّقَّـد
أنـا لسـت أستجـدي سـواي تسـوُّلًا أنـا فـي فـؤادي جُـذْوتـي وتـوقُّـدي

* * *

وصية « إقبال » لولده « جاويد »

أبنيَّ ! لحنُ الذَّات في أعماقنا ... باقٍ يدلُّ على خلود حياتِهِ
أبنيَّ ! ليلُ الشَّعب ليس يضيئُه ... إلا تصلِّيه بشعلةِ ذاتِهِ
أبنيّ ! قولك : كان آدمَ جدُّنا ... مَلِكاً لهذي الأرض قولُ نبيهِ
فيه مِنَ الإيمانِ ألفُ حقيقةٍ ... ومِنَ التألُّق ألفُ نوعٍ فيهِ
أبنيَّ ! لن يصل الغرابُ لعشِّنا ... مهما استطالت في السَّماءِ قواهُ
هذي الشَّواهينُ التي يلهو بها ... أبناءُ سيِّدهِ الذي ربَّاه
أبنيَّ ! صان الله وجْهَك عالياً ... ما في زمانِك منْ يَصُوْنُ حياءَهُ
إيَّاك أن يأتي لقبري زائرٌ ... ويقولُ لي جاويدُ يبذلُ ماءَهُ
إقبالُ ما رضيَ الترهُّبَ سيرةً ... لنقاءِ فكرته وخِصْبِ فؤادِهِ
أبنيَّ ! ليس بُنيَّ إلا مَنْ روى ... بوصيتي هذي جميعَ بلادِهِ

***

تسول

صاحَ في الحانة سكِّيرٌ ظريفْ ... إنَّما السُّلطان شحَّاذٌ جَلِفْ
أيُّكُمْ يخرجُ عن بزَّتِهِ ... طمعاً في ذلك التَّاج الصَّلِفْ
أيُّكُمْ يُصْبح عُريانَ لِكَيْ ... يرتدي في القَصْر ثوباً منْ ذَهَبْ
كأسُه حمراءُ في لون الشَّقيق ... وعليها من دَمِ النَّاس حَبَبْ
كلُّ ما في قَصْرِه جَمَّعَهُ ... بقرارٍ مُجْحفٍ إثرَ قرار
ليس مَنْ يَسْرِقُ في جِنْحِ الدُّجى ... مثلَ مَنْ يَسْرِق في وَضَحِ النَّهارْ
كَمْ بذاكَ الحَقْلِ من فلاَّحةٍ ... شَحَذوا منْها طعاماً للدَّجَاجْ
بلِّغوهم أنَّني قلتُ لكم ... إنَّما الشَّحاذُ منْ سنَّ الخراجْ

***

المُلاَّ والفردوس

أنـــا أيضـــاً كنـــتُ لكـــنْ ... مـــا تحمَّلـــتُ السُّكـــوت
كنـــتُ مِـــنْ شـــدَّةِ غيظـــي ... أتمنَّـــى أنْ أمـــوت
كنـــتُ إذْ بَشَّـــرتِ الحجَّـــابُ بـــالفـــردوسِ (مُـــلاّ)
فتقـــدَّمـــتُ أنـــادي : ... عفـــوكَ اللهـــمَّ كـــلاَّ
ليـــس للمُـــلاَّ اهتمـــامٌ ... بمغـــانيـــك وحـــورك
هـــو سكـــرانُ ، نعـــمْ سكـــران ، مـــنْ غيـــر خمـــورك
مـــا درى مـــن لُجَّـــة الـــذَّوقِ ســـوى قيـــلَ وقـــالْ
يَحْسَـــبُ الـــدِّيـــنَ الـــذي أنـــزلـــتَ تـــاريـــخَ جـــدالْ
أنـــا لا أرضـــى لنفســـي ... أنْ أرى عبـــدي جبـــانـــا
كيـــفَ تـــرضـــاهُ زعيمـــاً ... وهـــو لا يُحْسِـــنُ شـــانـــا
لـــم يَعُـــدْ يـــأبـــهُ إنســـانٌ بمـــلاّكَ المنفِّـــر
فـــإذا مـــا جـــاء يـــومـــاً ... قيـــل قـــد جـــاء المكفِّـــر
لا يـــرى فـــي خَلْقِـــكَ المسكيـــنَ إلَّاهُ مُطيعـــا
كيـــف تـــرضـــى عـــن غبـــيٍّ ... كفَّـــر النـــاسَ جميعـــا
ليـــس فـــي الفـــردوس ذكـــرٌ ... لكهـــوفٍ وصـــوامِـــع
إنَّمـــا الفـــردوسُ فيـــضُ الحـــبِّ مـــن صَـــدْرِ الجـــوامـــع

* * *

الدِّينُ والسِّياسة

عنـدي لـرهبنـةِ الكنـائـسِ طُـرْفَـةٌ ... فهَلُـمَّ نَضْحَـكُ للحيـاة قليـلا
بُنيـتْ لأعـداء الملـوكِ وأصبحـتْ ... للطـامعيـنَ مـن الملـوكِ سبيـلا

رأسُ الكنيسة في الوَدَاعة غارقٌ ... والقَصْرُ فوقَ النَّاس يرفعُ أنفَه
تنوي المضيَّ فيستبدُّ أمامَها ... وتريدُ تلعنه فتمشي خلفَه
هذا التناقضُ كيفَ أمكنَ دمْجُهُ ... سبحانَك اللهمَّ ربَّ النَّارِ
ما لِلْقُصورِ وللكنائسِ حيلةٌ ... في النَّاس غير تبادلِ الأدوار
فصلوا عن الدِّين السياسةَ بعدما ... وصلوا بفتنتهم إلى التِّيجانِ
وتطاول البابا فقيل له : استرِحْ ... أصبحْتَ سلطاناً بلا سُلطانِ
وتلفَّتَ الشَّعبُ الجريحُ فلم يجدْ ... حظّاً له من ذلك التغييرِ
كانتْ مصالحَ راهبٍ ومتوَّجٍ ... صارتْ مصالحَ حاكمٍ ووزيرِ
ثنويةٌ لم تُبقِ دِرباً صاحياً ... سقتِ الدِّيانةُ كأسَها والدَّارا
هي في اليسار وفي اليمين مقيمةٌ ... تُزْجي التناقضَ يمنةً ويسارا
هي لعنةُ الدُّنيا كما أفضى لنا ... بالسرِّ هذا سيِّدُ الصَّحْراء
لن تعرفَ النَّاسُ السَّلامةَ ساعةً ... إنْ لم تَقُمْ من حُمْقِ هذا الدَّاء
أبداً مرقَّعةُ الجُنَيْد لِوَحْدِها ... لن تستطيعَ لأمرنا ترقيعا
إنْ لم يكنْ هو أردشير صراحةً ... خَرَقَ الطرائقَ أردشيرُ جميعا

* * *

الأرض لله[1]

الحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحان يُنْبِتُه ... من ظلمة الطِّين ربُّ الحبِّ والطِّينِ
والغَيْمُ من لُجَجِ الأمواجِ يَرْفَعُه ... إلى السَّموات سلطانُ السَّلاطينِ
يسوقُ للزَّهر أنساماً تهيِّجُها ... فيطلقُ الزَّهرُ أنغام البساتين
للشَّمس من نورِه طوقٌ يزيِّنها ... وللنَّدى نسبٌ من حوره العينِ

---

(١) العنوان مقتبس من قوله تعالى : ﴿ . . . إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

فقلْ لصاحبِ تاجٍ يدَّعيه له أفِقْ فإنَّك مسكينُ المساكين
مالي ومالَكَ من هذا التُّرابِ سوى ضجيجٍ حين نُولِّي عنه في حَيْنِ
الأرضُ لله يعطيها أحبَّته والحُبُّ عاقِبَةُ الغرِّ الميامينِ

***

رسالة إلى شاب

سَجَّادُكَ العَجَمِيُّ هذا والأثاثُ الإنكليزي
ماذا يفيدك يا عزيزي !
ماذا تفيدك ثروةٌ حصَّلْتَها في مثل أبَّهة الملوك بذلتَها
أبكي لأجلك يا عزيزي !
هل ذُقْتَ يوماً غِبْطَةَ الإيمانِ أو بأس حيدرَ أو رضا سلمانِ
ارحم شبابك يا عزيزي !
سلعُ الحضارة لا تقاسُ بذاتكَا أتظنُّها ثمناً لكلِّ حياتكَا
أخطأت جِدّاً يا عزيزي !
المؤمنُ الصدِّيق سيِّدُ ساعته ورقيُّ عالمه رقيُّ قناعته
فاعرِف مكانَك يا عزيزي !
لو دَبَّ روح النِّسْر في قلب الشَّبابْ لم يبحثوا عن سِرِّهم بين التُّرابْ
إيَّاك تيأسُ يا عزيزي !
باليأسِ معرفةُ الفتى تغتالُه وبصيرته والمؤمنُ الصدِّيق برهانُ الإله سريرتُهْ
فاربأ بنفسِك يا عزيزي !
يا أيُّها الشَّاهين عُشُّك ليس في قصر الملوك لو كنت شاهين الجبال حقيقةً ما أمْسَكُوك
فارْجِعْ لعُشِّك يا عزيزي !

***

نصيحة

قـالَ للبـازِ الفتـى نَسْـرٌ عجـوزْ ... أنت في الجوِّ كما شِئْتَ تجوزْ
لـي رمـوزٌ كنـتُ قـد حصَّلتُهـا ... من شبابي فاغتنمْ هذي الرُّموز
لا تقـلْ أصلـي وفصلـي أبـداً ... قيمـةُ الشَّـاهينِ فـي أخـلاقِـهِ
إنَّمـا الشَّـاهيـن مـن يَحْـرُقُـه ... دمُـهُ الشَّخصـيُّ فـي أعمـاقِـهِ
قسـوةُ التَّـدريـبِ روحُ السُّـؤددِ ... لا تضيِّعْـه سـدىً هـذا الكـلامْ
سترى قيمتَـه يـا ولـدي ! ... حيـن تنقـضُّ علـى فَـرْخِ الحمـامْ
مـا أرينـا فـرحـةً أمتـعُ مـن ... فـرحـةِ المنقـضِّ مـن أفـقِ السَّمـاء
فـرحٌ والله لا يعـدلـه ... فـرحٌ ، حتـى ولا سفـكُ الـدِّمـاء !

* * *

شقائق النعمان في الغاب[1]

لِمَـنِ السَّمـاءُ تـزيَّنـتْ بـلآلـي ... والـدَّيـرُ مـن أهـلِ الصَّبـابـة خـالِ
أشقيقـةَ النُّعمـان هـل تجـديـن فـي ... تلـك البـراري مـن يـرُقُّ لحـالـي

---

(١) شقائق النعمان رمز العلمانية والمادية والعقلانية التي تنكر ما يقابلها كما يرى إقبال . وعلى العموم هي رمزٌ لكل ما ليس لظاهره معنىً يجانسه ، فشقائق النعمان حمراء كالنار ، إلا أنها لا تحرق هي كالدم إلا أنها تفتقر لحيويته فلذلك ينبذها البستان على ضفافه .
قال إقبال في ديوان الأسرار والرموز (٦٩) في حديثه عن نار الشقائق : إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي إلا أن إقبالاً يعود فيقول : إن هذه الشقائق تحترق لأنها ضيعتْ معناها .

ولهيـب دائـم ديـن الشقيـق ... دمـه مـن ذاك يسـري فـي العـروق

إلا أنه ليس من السهل السيطرة على رموز إقبال التي تظهر أحياناً وكأنها زئبق لمعانيه ، وهي تتبادل الأدوار من أجل تحقيق هدفٍ واحد .

هي رُغم ما تبدي رحابةَ صدرها ... قفصٌ يضيق بمثله أمثالي
سافرتِ تائهةً وتهتُ مسافراً ... فتعالَيْ نَقْتسمِ الهمومَ تعالَيْ
وعلام أيَّتُها الشقيقةُ سيرنا ... وإلامَ هذا الكدُّ في التَّرْحال
موسى غريبٌ عن نوى وديانيا ... وشتاتُ بالِك في الجبال وبالي
سيناءُ أنتِ ونار واديها أنا ... وأنا تجلِّيها وأنتِ جبالي
مِنْ ذلكَ الغَوَّاصُ أخرجَ درَّنا ... من بين أوصالٍ ومن أوحالِ !
هل كان مَخْفيَّاً فرام ظهورَه ... أم فرحةً بتفوُّقٍ وتعالي !
البحرُ تكشف ما يكابدُ قطرةٌ ... منه وتَفْضَحُ سرَّه في الحالِ !
شاهدتُ زوبعةً تئنُّ لموجةٍ ... فسألتها فاستغربتْ لسؤالي
قالتْ : ألا تبكي لثورةِ موجةٍ ... لم تلطم الشَّطَّ الغبيَّ السَّالي
أتعيقُها تلك الرِّمالُ أمامها ... وأنا أجرُّ إلى السَّماءِ رمالي

***

آلامُ آدمَ شمسُ كلِّ حقيقةٍ ... والشَّمْسُ تشهدُ لي بصدقِ مقالي
هذا الوجودُ بِصَمْتِه وحماسه ... لك يا بنَ آدم يا كبيرَ الآلِ

***

قطعة

إقبال غنَّى أمَامَ الرَّوض أغنيةً ... رشيقةً هيَّجت في الرَّوض شكواهُ
ما كنتُ كالزَّهر رَهْنُ الرِّيح عالَمُهُ ... إنْ شاء مزَّقه أو شاءَ أبقاهُ
أمشي ويمشي جنوني في الطَّريقِ معي ... ولا يمزِّق ثوبي غير حُمَّاهُ

***

كتاب السَّاقي

(١)

نَثَـرَ الـرَّبيـع علـى الفـلا يَـدَهُ وأطلـقَ عسكـرهْ
وتحـوَّل الـوادي إلـى حـانٍ فقـامَ وأسكـرهْ
الـوردُ والنِّسـريـن يُمْسـكُ بـالأكـفِّ وبـالقـدودْ
فـي صَبْغَـةٍ ألـوانهـا مـن كـلِّ مـا خَلَـعَ الـوجـود
وشقـائـقُ النُّعمـان تَـرْقُـصُ فـي الـوِشـاح الأحمـرِ
مـا بيـنَ بسمـةِ أبيـضٍ يـرنـو وغَمْـزَةِ أسمـرِ
وتـرى السمـاءَ مـن السُّـرور تكـادُ تَسْقُـطُ فـي الفِجَـاجْ
ونـدى النسيـمِ خـلال زُرْقتهـا تكسَّـر كـالـزُّجـاجْ
وتـدفَّـق الـدَّمُ فـي الحِجْـر ومضـى يكـابـد مـا هجـرْ
والقُبَّـراتُ تـركـن فـي الأعشـاشِ أغـلال الشَّجَـرْ

* * *

آهٍ لهـذا الجـدولِ المحـزونِ يَقْفـزُ فـي الـوِهـادْ
لا يشتكـي ضيْـقَ الحيـاةِ ولا يَمَـلُّ مـن الجهـادْ
ينسـابُ ، يَـرْقُـدُ ، يستقـرُّ ، يهيـجُ ، يَصْخَـبُ ، يلتـوي
يـروي الجلـوسَ علـى الضِّفـاف وبـالتمـرُّق يـرتـوي
وإذا تجمَّعـتِ الصُّخـورُ عليـه شتَّـت حـزبَهـا
واختـارَ مـن ثغـراتهـا دربـاً ومـزَّق قلبَهـا
يـا أيُّهـا السَّـاقـي فهـاتِ مـن الكـؤوسِ مـن الـدِّنـان
لا تُثْخـنِ القلـبَ الجـريـحَ وأنـتَ أجْـدَرُ بـالحَنَـان

هـــذي الشَّقـــائـــقُ جـــوقـــةٌ بـالسـرِّ تَـرْقُـصُ فـي الطَّـريـق
دعنـــي أبـــدِّدُ خمـــرتـــي أسفـــاً علـــى الكـــأسِ العتيـــق
مـــا كـــلُّ مـــا دار السُّقـــاةُ بـــه تـــدورُ بـــه القلـــوب
أنـــا أطلـــب الخَمْـــرَ التـــي كـــانـــت تُشَـــوِّقُ لهـــا الجيـــوب
كـــانـــت تَفِيْـــضُ كـــآبـــةً كـــالـــوَرْدِ يَـذْبُـل فـي الخُـدود
فتُســـرُّ إشكـــالاتنـــا وتـــذيـــعُ أســـرارَ الخلـــودْ
أيُّهـــا السَّـــاقـــي هتِّـــك الأستـــار
عُمْـــرُنـــا البـــاقـــي جلـــوةُ الأســـرار
لـــذَّةُ التَّلحيـــن ليـــس فـــي الأوتـــار
يَصْـــرَعُ الشَّـــاهيـــنُ أصغـــرَ الأطيـــارْ

* * *

(٢)

بـــدَّلـــتَ أنغـــامَ الـــزَّمـــانِ ونـــوطـــةَ العَـــزْفِ البليـــد
وتـــداخلـــت آلاتُـــه وتمـــرَّد النَّغَـــمُ الجـــديـــد
فَـــرِحٌ للُغْـــزِ الإنكليـــز وللَّـــذي عـــرَّىٰ غـــرورهْ
ولأن ذات الســـرِّ يَعْكـــسُ مـــن زُجـــاج الصِّيـــن نـــورَهْ
هُـــوذا علـــى مـــرأى وسمْـــعِ الكـــون يَـرْقُـــصُ فـــي المـــرايـــا
ويجيـــش فـــي (آلـــونـــد) يلمـــعُ فـــي رؤوس الهيمـــلايـــا
فَـــرِحٌ لأنَّ الأرضَ تَلْفـــظُ كـــلَّ سلطـــانٍ مهيـــنْ
وتُعَلِّـــم الشَّعْـــبَ المكبَّـــلَ كيـــف يـــأخـــذ بـــاليميـــنْ
فَـــرِحٌ لأنَّ الـــرأسمـــال ينـــالُ منـــه جنـــونُ طـــورِهْ
ولأنَّـــه كـــالسَّـــاحـــر المفضـــوحِ بعـــد أداء دورِهْ

* * *

لـــم يبـــق إلا الـــرُّوحُ تلـــكَ وذلـــك الشَّعـــبُ العـــراءْ
نـــزلـــت علـــى سينـــاء صعقتُهـــا فَلَمْلَمَهـــا حِـــراءْ
مـــا مسلمـــاً مَـــنْ يســـأل التَّـــوحيـــد يَصْقُـــل فـــأسَـــه
لِيُحَطِّـــمَ الأصنـــامَ أجمَعَهـــا ويتـــركَ نفســـه
نفـــسٌ أقـــام لأجلهـــا مـــا شـــاءَ مـــن أصنـــامِـــه
ويـــريـــدُهـــا صنمـــاً يـــرافِقُـــه إلـــى إســـلامِـــهِ
هـــذا هـــو الصَّنَـــمُ الـــذي شيطـــانُـــه عَقْـــلُ العليـــم
خُـــدَّامُـــه أهـــلُ الطَّـــريـــق كتـــابـــه العلـــمُ الأليـــم
أسفـــاً لحـــقٌ يتـــركُ الطَّـــاغـــوتَ يـــودعُـــه صـــروحـــه
ويـــرى الفقيـــر يكـــاد يَلفِـــظُ فـــي خِضَـــمِّ الجهـــلِ روحَـــه
كلمـــاتُـــه هـــذا المبشِّـــرُ تَجْـــذِبُ القَلْـــبَ الغـــريـــر
لكـــنَّ ذوق الحـــبِّ يَنقُصُهـــا ويَنْقُصُـــه الكثيـــرْ
ولـــه مـــواعِظُـــهُ ينظِّمهـــا بـــدقَّـــةِ منطقـــه
لكنَّهـــا ســـرعـــان مـــا تخفـــى بِعُقْـــدَة رونقـــه
حتـــى المـــريـــدُ فـــؤادُه بقيـــودِ سُبْحَتـــه أسيـــر
حبَّـــاتُ فـــخٌ أوْقَعَتْـــه وكـــوان شـــاهينـــاً يَطِيـــرْ
هـــذا المســـافـــرُ كيـــف يـــرجـــعُ مـــن ظُنـــونِ الارتقـــاء
هـــو نفسُـــه مـــا عـــادَ يَعْـــرِف مـــا الفنـــاءُ ومـــا البَقـــاء
خَمَـــدَتْ حقيقتُـــه ونـــارُ الحـــبِّ تـــاهَـــتْ فـــي فـــؤاده
فـــإذا هـــو المتحـــرِّق المجنـــونُ يَشْحَـــطُ فـــي رمـــادِهْ

(٣)

قلـــوبُ القَـــوْم مـــا عـــرفـــتْ كلـــذَّة خمـــركَ البـــاقـــي

(أدرْ كأساً وناوِلها ألا يا أيُّها السَّاقي[1])

رمادِيٌّ ذَرُّ أجنحةٍ ببابِ السرِّ تكتظُّ

وما مِنْ ذرةٍ إلّا لها مِنْ حبِّنا حظُّ

بودِّي أنْ أرى شيخاً يغيِّر وضعنا هذا

يقومُ ويجعلُ التِّلميذَ للأستاذ أستاذا

يخاف البازُ عصفوراً يُقَلِّمُ ظُفرَ مخلبهِ

فآتِ شبابنا نوراً تفيضُ على الشُّيوخ بهِ

وخلِّصهم بما تختار من قيدِ العبوديَّهْ

ولو ألقيْتَهم حطباً بنيرانِ الوجوديَّه

تصرَّفْ بالجنونِ لهم وفجِّرهْ بهمْ شُعبَا

فليسوا شعبةً منه إذا لَمْ يسقطوا تعبا

شبابٌ لا يليق بهم مثالُ الجَمْرِ في ضَرَمِهْ

كقلب المرتضى بأساً وكالصِّدِّيق في كَرَمِهْ

بظلِّ جمالك الريّانِ أورقَ شِعْبُنا اليبسُ

ولمَّا أنْ بخِلَتْ به توقَّف ذلك النَّفَسُ

أسَهْمكَ لم يعد يقوى على تجريحِ أمثالي

أمِ الرَّكبُ الذي ترميه أصبحَ فارغَ البالِ

سألتُك هذه الحسناءُ تُطْلِقُها من الخدْرِ

ليعرفَ عُذَّلي معنى لهيبِ العِشْقِ في صدري

بشعري ضعْ لهم شَرَكاً وهاتِ الحبَّ من سَلْبي

---

(١) ذكر العلامة السودي في شرحه التركي على ديوان حافظ أن هذا البيت الذي افتتح به حافظ ديوانه هو من قصيدة ليزيد بن معاوية وقد عاب بعض الشعراء على حافظ الشيرازي فعلته هذه .

انظر العقد الجوهري شرح ديوان الجزري ، ص٣ .

وخـــلِّ حُســـامَـــك الهنـــديَّ يجـــرحُ كـــلَّ ذي قلـــبِ
مـــرادي رشـــفُ أســـرارٍ تـــؤوِّل راحـــة اليـــأسِ
وإلا قلـــتُ للطـــلاب مـــا أخفيـــهِ فـــي نفســـي
ركبنـــا البحـــر فـــي فلـــكٍ بـــأعينـــه صنعنـــاهُ
فـــأجـــرى الـــرِّيـــحُ عـــاصفـــةً وعكـــسَ الـــرِّيـــح أجـــراهُ
ذوتْ عينـــايَ مـــن أرقٍ علـــى قلـــقٍ طـــوىٰ جَنبـــي
وهـــذا الـــدَّمْـــعُ فـــي عينـــيَّ طـــلٌّ مِـــنْ نـــدى قلبـــي

* * *

خُشـــوعـــي فـــي عَـــذابـــاتـــي وَوَثْبـــي فـــي طُمـــوحـــاتـــي
ونـــوعُ طـــرقتـــي هـــذي الَّتـــي أمحـــو بهـــا ذاتـــي
وفكـــري وهـــو بُستـــانٌ ونفســـي وهـــيَ مـــرآتـــي
وحِصْـــنُ يقينهـــا المُضْنـــى وجَيْـــشُ ظنـــونهـــا العـــاتـــي
وقلبـــي وهـــو ميـــدانٌ تَضِـــجُّ بـــه عـــراكـــاتـــي
ودروشتـــي الَّتـــي تبـــدو نصيبـــي مـــن مُعـــانـــاتـــي
ســـألتُـــك أن تعتِّقهـــا وتَمْـــزُجَهـــا بـــآهـــاتـــي
وتسقيهـــا لقـــافلتـــي بمـــوكـــبِ جيلنـــا الآتـــي

(٤)

إنَّـــه البحـــرُ دائـــمُ الحـــركـــات وثبـــةٌ بعـــد وثبـــةٍ فـــي الحيـــاةِ
ذاكَ بحـــرٌ مـــن الحيـــاة تجلَّـــى واحـــداً فـــي تمـــوُّجـــات الـــذَّواتِ
اللَّهيـــبُ الـــذي تـــأجَّـــجَ فينـــا والَّـــذي يحتـــوي جنـــونَ الـــدُّخـــانِ
يـــرفـــضُ المُكْـــثَ بيـــن مـــاءٍ وطيـــنٍ وهـــو راضٍ عـــن كـــلِّ مـــا يصنعـــانِ
مـــا الَّـــذي يطلـــبُ اللهيـــبُ بهـــذا إنَّـــه قـــاطـــنٌ وســـارٍ بـــآنِ
فـــي فـــرارٍ إلـــى السَّمـــاء تـــراهُ حَـــذِرَ المَـــوْتِ فـــي شِبَـــاكِ المعـــاني

إنَّهـا الـوَحْـدةُ الَّتـي كبَّلتْهـا ... حلقـاتُ التَّعَـدُّديَّـة هـذي
رُغْـمَ كـلِّ التَّعـدُّديَّـة تبقـى ... وَحْـدةٌ مـا لهـا نظيـرٌ محـاذي
إنَّ أبعـاد مَعْبَـدِ العصـرِ هـذا ... ذاتُ أبعـاده القـديمـة ستَّـهْ[1]
ولسـومنـاثَ كـلِّ عصـرٍ وجـودٌ ... إنَّ سـومنـاث لا يُكَـرِّرُ نَحْتَـهْ
نحـنُ فـي ظلِّـه معـاً واختـلافـي ... عنـك يـا أنـت كـاختـلافـك عنِّـي
واللهيـبُ الـذي تـأجَّـجَ فينـا ... خلـق الحـادثـاتِ منـك ومنِّـي
حلقـاتُ اللهيـب نحـنُ ولكـن ... هـو فـي قلبهـا يظـلُّ وحيـدا
فـي بـروقٍ وفـي نجـومٍ مُشـعٍّ ... تَسْبُـك التِّبْـرَ نـارُهُ والحـديـدا
فـي غيـاضٍ وفـي ريـاضٍ مقيـمٌ ... كـلُّ مـا فـاضَ فيهمـا فـاضَ عنـه
لا يَعِـبْ زهـرك المُفَتَّـح شـوكـي ... كـلُّ شـوكـي وكـلُّ زهـركَ منـه
ليـتَ شِعْـري يفيـدُ كيـدُك هـذا؟ ... ليـت شعـري عـرفـتُ مـا هـو كيـدُهُ
هـو ذا يَنْسِـفُ الجبـال بحـزمٍ ... هـوذا الحُـورُ والمـلائـك صَيْـدُه
هـو حينـاً تـراه بـازاً وحينـاً ... حَجَـلاً فـي دمـائـه يتشحَّـطْ
وهـو حينـاً حمـامـةٌ دون عُـشٍّ ... فـي شِبَـاكٍ حِيَـالَـه تَتَخَبَّـطْ

(٥)

الـرَّاحـةُ الكُبـرى بقلبـكَ والسَّكينـةُ خُـدْعَتـانْ
فـالكـونُ ذرَّاتٌ يهيِّجهـا بـرقصتـه الـزَّمـان
وقـوافـلُ الأشيـاء فـي الآفـاق تَضْـرب بـالـدُّفـوفْ
وتـروح تُمْعـنُ فـي التَّجَـدُّد لا تفكِّـر بـالـوُقـوف
السَّيْـرُ معنـاهـا العَمِيْـقُ بـه تَجُـول بـه تَصُـولْ
فَـدَعِ الـوُصـول لمـن يـريـد فليـس مَطْلَبُنـا الـوُصـول

---

(١) اهتمَّ إقبال بنظريات « أنيشتين » التي وضعت حداً للهندسة التقليدية (الأستاذ الملوحي في ترجمته النثرية) .

تَـــوْقٌ إلـــى الطَّيـــرانِ يتـــركُ ســـرَّهـــا يتفطَّـــر
وتحـــسُّ راحـــة صَـــدْرِهـــا فـــي وثبـــةٍ لا تَفْتُـــرُ
وتَحِـــلُّ ، تَعْقِـــد مـــا تَحِـــلُّ ، تُقيْـــمُ تهْـــدِمُ مـــا تُقيـــمُ
فِـــرْدَوْسُهـــا أن تستمـــرَّ وروحُهـــا السَّيـــرُ المُقيـــمُ
وإذا ابتـــداهـــا المـــوتُ وهـــو النِّـــد فـــي وَجْـــهِ الحيـــاة
ومـــن العسيـــر كفـــاحُـــه تمضـــي إليـــهِ فـــي ثبـــات
وَبِـــذَوْقِهـــا الثَّنـــويِّ تنقســـمُ اثنتيـــن إلـــى النِّـــزال
وتـــروح تُحْشَـــدُ فـــي السُّهـــول تعـــودُ تُحْشَـــدُ فـــي الجبـــال
كـــالغُصـــنِ إنْ جـــرَّدْتَـــه مـــن سَكْـــرَة الـــدُّنيـــا صحـــا
وازدادَ فـــي وقـــتِ الـــرَّبيـــع تنـــوُّراً وتفتُّحـــا
لا شـــيءَ أســـرعُ مِـــنْ تَـــدَارُكِهـــا لمـــا أَفْسَـــدْتَ منهـــا
الـــوقـــتُ سلسلـــةٌ وكـــلُّ جهـــاتـــه يَصْـــدُرْنَ عنهـــا
شفتـــان فـــي فمهـــا أزلٌ إلـــى أبـــد
الـــوقـــتُ بينهمـــا كـــالنَّفـــس فـــي الجســـد !

(٦)

مـــوجـــةُ الأنفـــاسِ سيـــفٌ جَعَلَتْـــه الـــذَّات حـــدَّا
طَلَبَـــتْ ذاتُـــك شيئـــاً نيلُـــه يَصْعُـــبُ جِـــدّا
هـــذه ذاتُ شَـــريـــدٍ هـــذه ذاتُ مُقيـــمِ
إنَّهـــا اليقظـــةُ والعـــزلـــةُ والســـرُّ الحميـــم
إنَّهـــا الـــذَّات ســـؤالٌ فـــي طـــريـــق المستـــدلّ
مثلمـــا الشَّـــوقُ إلـــى العُـــزْلـــة فـــي وقـــت التجلِّـــي
إنَّـــه البحـــرُ الَّـــذي تحملُـــه قطـــرةُ مـــاءْ
وهـــي فـــي الظُّلمـــة والنُّـــور علـــى حـــدٍّ ســـواء
وُلِـــدَتْ منـــك ومنِّـــي فـــأضعنـــاهـــا كـــلانـــا

وأنـــا أُرْهِـــقُ ظنِّـــي هـــو مِـــنْ أيْـــنَ اجتـــلانـــا
أزليَّـــاتـــي وَرَائـــي أبَـــدِيَّـــاتـــي أمـــام
وأنـــا رُغْـــمَ غبـــائـــي طـــامـــحٌ نحـــو التَّمـــام
إنَّهـــا الـــذَّات الَّتـــي تمخـــر فـــي بحـــر الحيـــاهْ
فتُنـــاغـــي لطمـــاتٍ وتُقـــاســـي لطمـــاتْ
عنـــدمـــا تَطْمَـــعْ أن تقلـــب آمـــالَ الشَّبـــاب
تتخفَّـــى وتـــديـــرُ اللَّحـــظَ مـــن تحـــت النِّقـــاب
فتـــرى الصَّخْـــرَ تـــرابـــاً صَعِقـــاً ممَّـــا تُـــديـــر
وتـــرى العـــالـــم وَجْـــداً يتمنَّـــى لـــو يَطِيـــر
إنَّهـــا البَـــذْءُ جميعـــاً إنَّهـــا ذاك الغُبـــار
إنهـــا فـــي البَـــذْرِ أضـــواءٌ وفـــي الصَّخْـــرِ شـــرار
إنَّهـــا فـــي ظُلمـــةِ النُّـــور إذا شـــعَّ النَّهـــارْ
مـــا لهـــا أعلـــى وأدنـــى مـــا لهـــا جـــارٌ ودار
مِـــنْ قليـــلٍ وكثيـــرٍ ويَميـــنٍ ويَســـار
لَـــمْ تَـــزَلْ حِلْـــفَ كفـــاحٍ وانقـــلاب وانتصـــار
أحـــرقـــتْ آدمَ لمَّـــا جسَّـــدَتْـــه لِلْقَضـــاء
فـــإذا آدمُ لحـــنٌ وإذا الـــذَّاتُ حِـــدَاء
وإذا فـــي بـــؤبـــؤ العَيْـــنِ انطبـــاعـــاتُ السَّمـــاء
قبـــحُ السَّـــلامـــة أنَّهـــا فـــي عيـــن صـــاحبهـــا قـــذى
والعُمْـــرُ حـــربُ الـــذَّاتِ فـــالشَّـــرف الـــرَّفيـــع أو الأذى
الـــذَّاتُ عنـــد تجـــاهـــل الأهـــواء مـــرهمُهـــا الأكيـــد
وتجـــاهُـــلُ الأهـــواء دربُ الـــذَّات والخبـــزُ الـــوحيـــد
(محمـــود) تـــرفـــع رأســـه ذاتٌ تـــؤلِّـــف جنـــده
و (إيـــاز) عنـــد النـــاس مـــلءُ الأرض ممَّـــا عنـــده

لمـــا أراد الغَـــزْنَـــويُّ يحطِّـــم الصنـــم الكبيـــرْ[1]
جـــاؤوا إليـــه بكـــلِّ أصنـــاف الجـــواهـــر والحـــريـــرْ
فـــرمـــى بمـــا جمعـــوه فـــي بحـــرٍ وبـــدَّدَهُ جميعَـــهْ
وأجـــابَ جئـــتُ لِكَـــيْ أحطِّمـــه وَلَيْـــسَ لكـــي أبيعَـــهْ
فَـــلأنْ أسمَّـــى هـــادمَ الأصنـــام خيـــرٌ فـــي السُّلـــوك
مـــن أن أسمَّـــى بـــائـــعَ الأصنـــامِ مـــن بيـــن الملـــوك
ليـــسَ السُّجـــود تهـــدُّل الكتفيـــن مـــن فَـــرْطِ القُعـــود
مـــا كـــان يغنـــي عـــن سجـــودٍ آخـــرٍ فهـــو السُّجـــود
مِـــنْ هـــذه الأصـــواتِ والألـــوانِ عـــالمُنـــا خليـــط
وجَـــلٌّ يطـــارِدُه الفنـــاء مـــن المُحيـــط إلـــى المُحِيـــط
أصنـــامُ ألـــوانٍ وأصـــواتٍ تلـــمُّ الكـــونَ لمَّـــا
أسفـــاً علـــى سمـــعٍ وعيـــنٍ ألَّفـــا عُمْيـــاً وصُمَّـــا
الأمـــرُ مـــرحلـــةٌ ودربُ الـــذات تَـــذْحَـــرُ بـــالمـــراحـــل
مـــا أبعـــدَ الجُـــزُرِ الَّتـــي تغـــريـــك عـــن تلـــك السَّـــواحـــل
يـــا أنـــت نـــارُكَ لـــم تكـــنْ مِـــنْ مـــوقـــدٍ هـــذا لهيبُـــه
ضـــاعـــتْ شـــرارتُـــك الَّتـــي كـــانـــت بنظـــرتهـــا تَهيبُـــه

* * *

عبـــدُك العـــالـــمُ فـــاؤمـــر فهـــو لا يَهْـــرُبُ مِنْـــكَ
غيِّـــرِ المـــوقـــفَ وانظـــرْ إنَّـــه يَصْـــدُرُ عَنْـــكَ
امـــضِ لا تـــركـــن لشـــيءٍ وانـــضُ عـــن كـــونِـــكَ هَـــوْلَـــهْ
لهشـــة الـــرَّاكـــن مِـــنْ سُـــرْعـــة مـــا يبصـــرُ حـــولَـــهْ
ظـــاهـــرُ العـــالـــم سحـــرٌ وعصـــا مـــوســـى ثبـــاتُـــكْ

---

(١) الأبيات ليست في الأصل وإنما هي توضيح لمراد إقبال بقوله : همَّة محمود .

أَسَـــدُ الله الَّـــذي يقتنـــص العـــالـــمَ ذاتُـــك
جـوهـرُ الكـون قـديـمٌ فكـرُك الكشـفُ الجـديـد
أيـنَ كـفٌّ تَنْظِـمُ الجـوْهَـرَ فـي سِلْـكٍ فـريـد
أيُّهـا المسلـمُ فـارقُـبْ نظـرةَ الـدُّنيـا إليـك
فـي مـلاءٍ مـن رجـاءٍ يُعْقَـدُ العَـزْمُ عليـك
إنَّ لـلآمـاد شغـلاً حـولَ أقطـار الـوجـود
عنـدمـا تَكْشِـفُ عـن ذاتـك تُـدعـى للسُّجـود
لسـتُ فيمـا قلتُـه أشـرح لِلْعـالـم قـدرَك
فـأنـا حـاولـتُ حتـى الآن أن تَفْتَـحَ صَـدْرَك
مَـزَّقَ الكلْمـةَ ضيـقٌ عـن معـانٍ نقتفيهـا
نحـنُ مـرآةُ معـانٍ كَـدَرُ الكلْمـة فيهـا
زفـرتـي تُضْـرِمُ صـدري وأنـا بيـن السُّيـوف
غيـر أنَّ القـول مـن خشيتـه يـرجـو الـوقـوف
أنـا مـن كثـرةِ مـا حلَّقْـتُ ألهبـتُ النَّـواحـي
فلـو اجتـزت قليـلاً أحـرقَ النُّـورُ جنـاحـي

* * *

الزَّمن

شُعْلـةُ العُمْـرِ من لهيـب الثَّـواني أشْعَلَتْهـا تغيُّـرات الـزَّمـان
غَـدُكَ الطُّعْـمُ فـي حِبَـالـةِ أمـسٍ فتـرفَّـقْ بيـومـك المُتَفـانـي
يَـرْقُـبُ النَّـاسُ طـالعـاً ذا خيـالٍ ويخـوضـون فـي جميـع الأمـانـي
وأنـا ذلـك الخيـالُ ولكـنْ يَصْعُبُ اليومَ شرحُ تلك المعاني
يَسْقُـطُ العـالـمُ الجـديـدُ بكـأسـي قطـرةً قطـرةً كـرشـح الـدِّنـان
سُبَـحُ القَـوْم لعبـةٌ فـي يـديهـم أنـا سُبْحتـي ليـالـي زمـانـي

كـلُّ حَبَّـاتهـا عَـرَفْـتُ ولكـنْ ... لا أسـوِّي بيـن الجميـع بشـانـي
ولكـلٍّ طـريقـةٌ وسلـوكٌ ... بعضهـا فـارسيٌّ وأخـرى حِصـاني
مـرةً أجعـلُ الأعنَّـة سـوطـاً ... مـرةً أجعـلُ السِّيـاط عِنَـانـي
لـكَ مـن حفلـةِ اللقـاء نصيـبٌ ... فـإذا لـم تكـنْ فلسـتَ بجـانِ
ليـس مـن عـادتـي أخبِّـىءُ كـأسـاً ... لنـديـمٍ علـى كـرامـةِ حـانـي
بـدءُ هـذي التَّعَـرُّجـات عسيـرٌ ... وهـي ليسـتْ تعـرُّجـات جَبَـانِ
وهـيَ ليستْ لـراصـدٍ فـي غـرورٍ ... وهـي ليسـت لمقتـفٍ فـي هَـوان
إنَّ عينـاً خبيـرةً بقُـواهـا ... غيـرُ محتـاجـةٍ لحَمْـلِ سِنـان
شفَـقُ الأفْـقِ ذاكَ نهـرُ دمـاءٍ ... فتحمَّـلْ نهـرَ الـدِّمـاء وعـانِ
وانتظـرْ مَطْلِـع الصَّبـاح وقهقـهْ ... حـاكـت اللُّغـزَ ذاك أسطـورتـانْ

* * *

هـذه الفِكْـرةُ الجـريئـةُ عـرَّتْ ... سلطـاتِ الطبيعـةِ المستبـدَّهْ
إنَّ عُشَّـاً هـي الصَّـواعـقُ فيـه ... ليـس صعبـاً لمثلهـا أنْ تَهُـدَّه
إنَّهـا الـرِّيـح والفضـاءُ جميعـاً ... إنَّهـا البحـرُ والسَّفينـةُ عنـدهْ
كـان جُنْـدُ القضـاء للمـوت ذعـراً ... فـإذا بـالقضـاء يَقْتُـلُ جنـدَهْ
وإذا أنـت جئـت بـالسَّيـفْ طفـلاً ... أمسَـك الطِّفـلُ للجمـال فِـرِنْـدَهْ
ذهـبَ العـالـمُ القـديـمُ قتيـلاً ... أتـرى يَسْلَـمُ المقـاتـلُ بعـدَه
قـامـر الإنكليـز حتـى تـولَّـوا ... وكـذا الـدَّهـر لا يقـامِـرُ وحـدَه
إنَّ هـذا الصُّـوفـيَّ يحمـل نـاراً ... لا تبـالـي بـريـح تلـك الشُّكـوكِ
مـلأ اللهُ دربَـه بمعـانٍ ... علَّمـتْ قلبَـه سلـوكَ الملـوكِ

* * *

آدمُ يُغادرُ جنَّة عَدْن
والملائكة تودِّعه

أنـــتَ مـــوهـــوبٌ وإلّا ... لـــم نَجـــدْ للُّغـــزِ حـــلاّ
كُنْـــتَ مـــن طيـــنٍ ويبـــدو ... أنَّ ذاك الطيـــنَ ولَّـــى
كـــانـــتِ النَّفخـــة منـــه ... زئبقـــاً فـــي السِـــرِّ حـــلَّ
ويقـــولـــون تـــرابٌ ... قـــل عســـى هـــذا وعـــلَّ
ومـــع النكتـــة هـــذي ... أحمـــلُ العـــالـــم كُـــلاَّ
كَلِـــفٌ بـــالحُسْـــنِ حتَّـــى ... أنـــت فـــي الحُلْـــمِ تَصَلَّـــى
لـــك فـــي الحُلْـــمِ نعيـــمٌ ... يغمـــرُ اليقظـــةَ ظِـــلاَّ
دمعُـــك الصُّبـــحَ لـــدينـــا ... يمـــلأ الجنَّـــة طـــلاَّ
يطلـــبُ الـــرَّوض ليسقـــي ... زهـــره ممَّـــا تملَّـــى
فـــاكشِـــفِ الأســـرارَ وارقُـــصْ ... تَـــرْقُـــصِ الجَـــوْقَـــةُ دلاَّ
إنَّمـــا الـــدُّنيـــا بكـــاءٌ ... وغِنَـــاءٌ ليـــس إلا

* * *

روح الأرض تستقبل آدم

فـــأتـــى الأرضَ فقـــالـــت ... إنَّـــه آدمُ جـــاء
أنـــتَ يـــا آدمُ فـــاعلـــمْ ... كُنْـــتَ مـــن طيـــنٍ ومـــاء
حَـــوْلَـــكَ العـــالَـــمُ فـــانظـــرْ ... وتمعَّـــنْ فـــي السَّمـــاء
ووراء الحُجْـــبِ حُسْـــنٌ ... فتـــأمَّـــلْ مـــا وراء
لا تكـــنْ نـــافـــذَ صبـــرٍ ... واحتمـــلْ وَهْـــمَ الشَّقـــاء
ضجَّـــةُ العـــالَـــم هـــذا ... حـــربُ خـــوفٍ ورجـــاء
لـــك مـــا فـــي الكـــون مُلْـــكٌ ... مـــن بحـــارٍ وفضـــاء

هـــذه السُّحْـــبُ جميعـــاً هـــذه البِيْـــدُ العَـــراء

(٢)

كنـــتَ مـــن وجـــه مـــلاكٍ فـــي انـــدهـــاشٍ وفنـــاءْ
فَخُـــذِ المـــرآة وانظـــرْ فيـــك أســـرارَ القضـــاءْ
نظـــراتٌ ذاتُ مغـــزىً أطلقَـــتْ ســـرَّ البقـــاء
وشـــراراتُ صـــراخٍ يتعـــالـــى فـــي السَّمـــاء

(٣)

إنَّ ضـــوء الشَّمـــس هـــذا مـــن شـــراراتِـــكَ ضـــاء
عـــالـــمٌ أنـــت جـــديـــدٌ أنـــت والكـــونُ ســـواء
أنـــتَ فـــردوسُـــك ذاتٌ مـــالهـــا قـــطُّ انتهـــاء
جســـدٌ ؟ لا ليـــس هـــذا جســـداً هـــذا جـــزاء
أيُّهـــا الـــزَّهـــرةُ فـــانظـــرْ كيـــفَ تمضـــي فـــي العَطـــاء

(٤)

كـــلُّ أوتـــارِك تبكـــي أيُّهـــا العـــودُ الشَّـــريـــد
كـــلُّ ميـــراثـــك حـــبٌّ فتخيَّـــر مـــا تـــريـــد
سيِّـــدُ الأســـرار فـــي المعبـــد مـــن وقـــتٍ بعيـــد
تنفـــق الـــذَّاتُ وتبلـــى ثـــم تُبْـــدي وتُعِيـــد
ثُـــمَّ فـــي غيـــر كثيـــرٍ تمتطـــي كـــلَّ جـــديـــد

* * *

قطعة

خطـــاي كمِثْـــل نسيـــمِ الصَّبـــاح تُبْطـــىء حينـــاً وتُسْـــرِع حينـــا
أنـــا شـــوكتـــي إبـــرةٌ للـــورودِ تـــرقـــعُ مـــا انقـــدَّ عبـــر السنينـــا

بـدأبـي كَسَـوْتُ ثيـابَ الحـريـرِ هـذي الشَّقـائـقَ واليـاسمينـا

***

المُرشِدُ والمُرِيد

إقبال وهو التلميذ الهندي يوجه إلى مرشده أسئلةً نجد أجوبتها كاملةً مدرجةً في كتابه (المثنوي) وهو يوردها بنصِّها بالفارسية .

قـالَ إقبـالُ لـرومـيٍّ يـا إمـامَ العـاشقيـن
لـم يـزلْ يمـلأُ سمعـي ذلـكَ القـولُ المبيـن
وتـرُ العـودِ وقشـرُ العـودِ والعـودُ سجـونْ
عنـدمـا تيبَـسُ فيـه يبـسُ اللَّحـنُ الـدَّفيـنْ
عصـرُنـا النشـوان هـذا تنتشـي منـه الظُّنـون
رقصـةُ الأجسـادِ لا تمحـو أسـى القلـبِ الحـزيـن
مبـدأُ العـالـم يـا أستـاذُ مـا شـاؤوا يكـون
ليـس فـي قلـبٍ حضـورٌ أو بـوجـدانٍ يقيـن
كيـف يستـوعـبُ سـراً ذلـكَ الصَّـدْرُ المُهيـن
ردَّ للصِّـدِّيـق مـا يـروي عـن الـوحـي الأميـن
كيـف جَـرَّتـه إلـى الأوهـام قيثـارةُ طيـن
رُغْـمَ مـا أنفقـه للمَجْـد مـن كـدِّ القُـرون
قـال رومـي أيُّ فـرقٍ بيـن لحـنٍ وطنيـن
إنَّ فـنَّ الاستمـاع الحـقَّ سلطـانُ الفنـون
كـالعصـافيـر وليسـت كلُّهـا تـأكـلُ تيـن
قـال : طـوَّفـتُ لأجـل العِلْـم فـي شـرقٍ وغـربِ

وأنـــا الآن وحيـــدٌ والأســـى يمـــلأ قلبـــي

قـــال : هـــذا طـــبٌّ كـــفٌّ ليـــس أهـــلاً لعـــلاجِـــكْ

جَعَلَـــتْ منـــكَ مـــريضـــاً فـــي فـــراشٍ مـــن لَجـــاجـــك

اســـألِ الأمَّ عـــلاجـــاً مـــن عقـــاقيـــر الأمـــانْ

إنَّ نصـــف الطـــبِّ مـــن علـــمٍ ونصفـــاً مـــن حنـــانْ

قـــال يـــا مـــنْ شَـــرَحَـــتْ نظـــرتُـــه ضيـــقَ فـــؤادي !

أَمَلـــي أفهـــمُ مـــا تَفْهَـــم مـــن أمـــرِ الجهـــادِ

قـــال : مـــن ســـوَّى لـــك الأصنـــام ســـوَّى لـــك فـــأسـه

وبـــأحجـــار الحبيـــب يضـــربُ الحـــاذقُ كـــأســـه[1]

لا تقـــلْ ليـــت ولـــولا مـــا علـــى همِّـــك بـــاسُ

أنـــت يـــا هـــذا الـــذي يجـــرحُ فـــي الـــدَّهـــر ويـــأســـو

قـــال : حـــورُ الغَـــرْب ألقَـــتْ فِتَـــنَ الشَّـــرق شبـــاكـــا

صَـــرَعَـــتْ ذا اللُّـــبِّ حتـــى لا تـــرى فيـــه حِـــراكـــا

قـــال : يـــا إقبـــال ! احْـــذَرْ ظـــاهـــراً يَطغـــىٰ عليـــكَ

عنـــدمـــا تَفـــرِكُهـــا الفضـــةَ انظـــر ليـــديـــكَ

قـــال : يـــا رومـــي ! وسِحْـــرُ الإنكليـــزيِّ إلامَـــا

يـــأخـــذ الطـــالـــبَ لحمـــاً ثـــم يـــرميـــه عظـــامـــا

قـــال : كـــالعصفـــور إنْ لـــمْ يُكْمِـــلِ الـــريـــشَ وطـــار

هجـــم القـــطُّ عليـــه ورمـــاه للصِّغـــار

قـــال : إنَّ الـــدِّيـــن والقـــوميَّـــة اليـــومَ صـــراعُ

---

(١) في المثنوي (كسر زجاجة الحبيب لا يكون إلا بحجر الحبيب) ومعناه كما شرحه د . كفافي : إنه لاحق لإنسانٍ في أن يميت إنساناً آخر فالله وحده هو الذي يميت سواء كان ذلك بفعل مباشرٍ أو بأمر واجب الاتباع مما نصَّت عليه الشريعة .
انظر ترجمة د . كفافي للمثنوي ص٦١٣ .

أنتَ هل تدري بماذا ينتهي هذا النزاعُ
قال : ما في اللَّيلِ للزائف والمحضِ عيارْ
ودليلُ الذَّهب الخالصِ إشراقُ النهارْ
قال يا شيخ! بماذا أملأ الدَّرب القصيره
وبأيِّ الأمر أعْنىٰ بعِيانٍ أم بَصيره
قال : يا إقبالُ ما هذا الذي ليس يَبينُ
إنْ تكنْ تُبْصرُ يعني أنت إنسانٌ مبينُ
يملأ المُهْجة حقٌّ وحبيبٌ دامغُ
ما عدا ذلكَ يا إقبالُ جوزٌ فارغُ
قال : يا من ملأ الشَّرق بما يحيي القُلوب
ما الذي يَعْصِفُ بالشَّرقِ ومَاداء الشُّعوب
قال : ما أعرف شعباً مات إلا مات لمَّا
حَسِبَ الأحجار بخوراً وظن الشَّهْد سُمَّا
قال : يا شيخُ ! وهذا المسلمُ الضَّائعُ كونُهْ
دمُه أصبح ثلجاً عطرُه غابَ ولونُهْ
قال : يا إقبالُ ! إنَّ الله لا يظلمُ شعبا
ورجالُ القَلْبِ لا تجرؤ أنْ تَجْرَح قلبا
قال : يا أستاذ ! إنَّ السُّوق والحقَّ أقول
كَسَدَتْ فالبيعُ أيُّ البيع يحظى بالقَبول
قال : اذهب واشْتر الحيرة بالعقل الظَّنين[1]
إنَّه وهمٌ وظنٌّ وهي حقٌّ ويقين
قال : جيراني جميعاً ندماءٌ للأمير

---

(١) انظر « المثنوي » ترجمة كفافي « حيرة المحب أمام الحبيب لا حيرة من يولِّيه ظهره » ص١٠٢ .

وأنـــا فـــوق حصيـــري حـــاســـرُ الـــرأس فقيـــر
قـــال : كـــن خـــادمَ حـــرٍّ قلبُـــه دون حـــدود
لا تكـــنْ فـــي مجلـــس السُّلطـــان مـــن بعـــضِ القـــرود
إنْ تكُـــنْ عبـــداً لإنســـانٍ لـــه قلـــبٌ كبيـــر
هـــو خيـــرٌ مـــن طـــوافٍ بيـــن نُـــدمـــانِ الأمير
قـــال : يـــا هـــذا الـــذي يُسْهِـــمُ فـــي وَجْـــدِ الكبـــار !
ضعـــتُ مـــنْ قلـــةِ علمـــي بيـــن جبـــرٍ واختيـــار
قـــال : يـــا إقبـــالُ ! مـــا الشَّـــاهيـــن ؟ يبـــدو كـــالغُـــراب
ريشُـــه يُصْبـــحُ تـــاجـــاً ريـــشُ هـــذا للتُّـــراب
يطلـــب المـــوتـــى غـــرابٌ ظُفْـــرُهُ عـــبءٌ عليـــه
وتـــرى الشَّـــاهيـــن يمضـــي أكْلُـــه صنـــعُ يـــديـــه
قـــال : مـــاذا يـــأمـــل الإســـلام مـــن هـــذا السُّلـــوكْ
ألكـــي نـــرضـــى بفقـــرٍ أم إلـــى طيـــشِ الملـــوكْ
قـــال رومـــي : جنَّـــة الإســـلام فـــي ظـــل السُّيـــوف
ليـــس مـــا تطلبـــه الـــرُّهبـــان مـــن أمـــنِ الكهـــوف
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! كيـــف الخـــوضُ فـــي مـــاءٍ وطيـــن
أيـــن مـــا يـــوقـــظُ قلبـــي وهـــو فـــي صَـــدْري سَجيـــن
قـــال : لا تشمـــخْ كنعـــشٍ فـــوراء النَّعـــش كـــفٌّ
وتـــواضـــعْ كحصـــانٍ أينمـــا شـــاء يخـــفُّ
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! أيـــن البعـــثُ مـــن ضعـــفِ يقينـــي
وأنـــا أجْهَـــلُ مـــا أجهـــلُ مـــن أســـرار دينـــي
قـــال : مـــا أنـــت وهـــذا ابْعَـــثِ النَّفـــس بـــذاتـــك
ثـــم ســـلْ نفســـك مـــاذا إنَّهـــا دربُ حيـــاتـــك
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! إنَّ الـــذات تمضـــي فـــي السَّمـــاء
تحمـــلُ الظُّلمـــة والنُّـــور علـــى حـــدٍّ ســـواء

مـــع هـــذا غـــابَ عنهـــا مـــا يجلِّيـــه الفِـــراقُ
هـــي مِـــنْ فَقْـــدِ التَّجلِّـــي فـــي جحيـــمٍ لا يُطـــاقُ
فـــي ازدهـــارٍ وانهيـــارٍ شـــأن أربـــابِ الـــوصـــول
هـــي ممـــا افتـــرسَتْـــه فـــي جـــراحٍ لا تـــزول
قـــال رومـــي : ليـــس إلا الحـــبُّ أهـــلاً للعـــراكِ
لكـــنِ المـــوضـــوع (مـــنْ يـــوقعـــه بيـــن الشِّبـــاكِ)
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! قـــلْ لـــي هـــل لهـــذا الشَّعـــب حَـــرْقُـــكْ
أنـــت لـــلإســـلام شمـــسٌ فـــي ضميـــر الكـــون شـــرقُـــك
قـــال رومـــي : كـــلُّ حَـــبٍّ يـــرغـــبُ العُصفـــورُ نَقْـــرَهْ
لا تكـــنْ بُـــرْعـــمَ وردٍ تقصـــفُ الأطفـــالُ ظهـــرَهْ
كـــنْ علـــى حبِّـــك فخَّـــاً يمنـــعُ الحـــائـــم طـــولَـــهْ
واستُـــرِ البُـــرْعُـــمَ واضْـــرِب قصبـــاً نفسَـــك حـــولَـــهْ
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! مـــا الحـــربُ الَّتـــي تمـــلأُ جنبَـــكْ
أنـــا مـــا جئتـــكَ إلا قلـــتَ لـــي قلبَـــك قلبَـــكْ
هـــو ذا قلبـــي بِصَـــدْري وأنـــا حِلْـــفُ طـــريقـــي
بيـــن كـــدٍّ وخمـــولٍ مِـــلْءَ مـــرآتـــي بـــريقـــي
قـــال : يـــا إقبـــالُ لَسْنـــا أهـــلُ فقـــهٍ وأصـــولْ
أنـــا لـــي مثلُـــك قلـــبٌ وكمـــا أنـــت تقـــولْ
إنَّمـــا القَلْـــبُ سمـــاءٌ عـــرشُـــه فـــي مستـــواهـــا
ولـــه ربٌّ حـــواه ولهـــا ربٌّ حـــواهـــا
مـــا لملـــك القلـــبِ يـــا إقبـــالُ دربٌ تسلكُـــهْ
مُنتهـــى الحكمـــةِ أنْ تبحـــثَ عمَّـــن يَمْلِكُـــه
قـــال : يـــا أستـــاذُ ! فكـــري للسَّمـــوات دليـــل
وأنـــا فـــي الأرض هـــذي خـــائـــرُ العَـــزْمِ ذليـــل
لِـــمَ نستـــرشـــد بـــالمُضْلِـــحِ لا يُصْلِـــحُ أهلَـــهْ ؟

ولِمَـــا العـــارفُ بـــالـــدِّيـــن بغيـــرِ الـــدِّيـــن أبلـــهْ

قـــال رومـــي بعـــدمـــا استـــرســـل فـــي الكـــون الكبيـــرْ :

فـــي سمـــاءِ الله يســـري مَـــنْ علـــى الأرض يسيـــر

قـــال : يـــا أستـــاذ ! لا أبْصِـــرُ فـــي الـــدَّرْبِ منـــارا

أيـــن مَـــنْ يَقْـــدَحُ للحكمـــة فـــي صـــدريَ نـــارا

قـــال : يـــوري العلـــمَ نـــاراً يـــابـــسُ الخبـــز الحـــلالْ

والـــذي يـــأكـــل كـــدَّ النَّـــاس يُغْنيـــه الضَّـــلالْ

قـــال : يـــا أستـــاذ ! إنَّ العصـــر يستـــدعـــي النِّـــزالْ

ولهيـــبَ الشِّعـــر يخبـــو وقـــدُهُ دون اعتـــزالْ

قـــال : يـــا إقبـــال ! لسنـــا نَقْصِـــدُ العـــزلـــة قصـــدا

عنـــدمـــا الأحبـــاب تـــأتـــي تُصْبِـــح الخِلْطَـــةُ شهْـــدا

بـــدِّدِ العُـــزلـــةَ واذهـــبْ مـــن قطيـــعٍ لِقَطيـــع

تشتـــري النـــاسُ فـــراءً ليـــس مـــن أجـــلِ الـــربيـــع

قـــال : أيـــن الهنـــدُ ضـــاعـــتْ لا لهيـــبٌ لا ضيـــاءْ

ورجـــالُ القَلْـــبِ فيهـــا تُعَســـاءٌ أشقيـــاءْ

قـــال : يـــا إقبـــال ! هـــذي النـــاس لا تعـــرفُ روحـــا

أجْـــلِ الـــدمعـــةَ هـــذي وكفـــى اليـــومَ جـــروحـــا

يَلْفـــظُ الحـــقُّ بعيـــداً جَسَـــداً مـــا فيـــه قلـــبُ

إنَّ ربَّ النَّـــاس حـــيٌّ وهـــو لـــلأحيـــاء ربُّ

كـــلُّ مـــا فـــي الشِّعـــر هـــذا مـــنْ صُـــراخٍ وصيـــاح

ليـــس مـــا يُـــدْهـــشُ أنْ يـــذهـــبَ أدراجَ الـــرِّيـــاح

* * *

جبريلُ والشَّيطان

التقى سيِّدُنا جبريلُ إبليسَ الرَّجيم
قال : ما شاهدتَ قل لي أيها الخلُّ القديم ؟!
ما جرى في عالم الألوانِ والعِطْرِ الجديدْ
قال : شوقٌ وطموحٌ وبكاءٌ ونشيدْ
قال : ما زالَ حديثُ القوم في الحضرة خلقُكْ
أولا يُمكن أن يُزْقعَ في الجلبابِ خرْقُكْ
قال : هيهاتَ ولكنْ لَسْتَ تدري ما أسرُّ
هو في الظاهر يُشْقِي وهو في الحقِّ يَسُرُّ
قَدَحُ السرِّ الذي أسْكَرني منه تكسَّرْ
ورجوعي للأعالي بعد سُكْري يتعسَّرْ
أنا حتَّى لا أطيقُ العَيْشَ في تلك الأعالي
أنتَ للرَّحمة حالٌ وأنا اللَّعنةُ حالي
ذلك العالم ما معناهُ من غير أوابدْ ؟
إنَّه الموتُ الذي تَعْرِف لولا ما أكابدْ
فإذا كنتُ حياةً بقنوطي للوجود
أترى الواجبَ أبقى في قُنوطي أمْ أعود
قال : لكنْ عندما استنكفتَ كِبْراً أن تطيعَهْ
نالك العارُ ونال الملأَ الأعلى جميعَه
صارَ شُغْلَ الملأ الأعلى أمام الله خوفَهْ
يَهْدرُ الذُّعْرُ عليه تملأ الرِّعدةُ جوفَه
قال : يا جبريل لكنْ جرأتي سرُّ البقاء
وهبتْ للحمأ المسنون شوقاً للنَّماء

أنـــت فـــي الشـــاطـــىء تـــرنـــو لِصِـــراعـــاتِ المـــواقـــف
أنـــا أم أنـــت الـــذي تَصْفَعُـــه تلـــكَ العـــواصـــف
عنـــدمـــا تَعْصـــفُ ريحـــي لُجَـــجَ البحـــر الجليلَـــهْ
لا يـــرى إليـــاس والخضـــرُ مـــن الـــواقـــع حيلـــه
فـــإذا أمكـــن يـــومـــاً تســـألُ الله تعـــالـــى
فـــأنـــا أرجـــوك أن تســـألَـــه هـــذا الســـؤالا
دمُ مـــنْ ذاك الـــذي خضَّـــبَ تـــاريـــخ ابـــن آدمْ[1]
دَمُ مـــنْ هـــذا (دمـــي أم دمُـــه أم دمُ آدم)
صـــاغنـــي الله تعـــالـــى شـــوكـــةً تجـــرحُ قلبـــه
أنـــت لا تُتْقِـــن إلا النَّفْـــيَ والإثبـــاتَ قـــربَـــهْ

* * *

قطعة

بالأمسِ أوصى مُرْشدٌ أصحابَه بوصيةٍ سبحان ربِّكِ منْ وَهَبْ
أغلـى وأثمـنُ مـن بحـور لآلـىءٍ يـا ليتَهـا كُتبـتْ بمـاءٍ مـنْ ذهـبْ
فـي خمـرِ أوروبـة لشعـبٍ كـاملٍ سُـمٌّ يُسَمِّـمُ ذاتَـه وإرادتَـهْ
تفنـي بنيـه بـالتسكُّـع خلفهـا تمحـو مـواهبَـه تُبيـدُ كـرامتَـهْ

* * *

---

(١) يبدو أن إقبالاً يريد أن يقول : إن ما نفخه الله تعالى في آدم من روحه هو ما في دماء ابن آدم من حنين إلى الخير والشيطان بشوكته الشريرة يسيل تلك الدماء لتسقي نبتة الأرض ، ومن باب آخر يحاول إقبال أن يدافع عن المعتقدات الغيبية في التصور الإسلامي ؛ خاصة وجود الشيطان الذي يجري في الناس مجرى الدم كما في الحديث .

الأذان

قال نجمُ الصُّبح للأفلاك يوماً لاحِيا
أحدٌ منكم رأى آدمَ يوماً صاحيا
سخَّر المريخَ ممَّا قاله نجمُ الصَّباحِ
قال : هل ينفع شيئاً صاحياً أو غير صاحِ
تدركُ الأقدار ما تفعلُ في هذا الظَّلامْ
وأرى الخير لداومته في أنْ تنامْ
قالت الزَّهرة : أفٌّ غيِّروا الموضوع هذا
تُنْفِقُ الليلةَ في الباطلِ واللغو لماذا
فيم نهتمُّ لهذي الذَّرَّةِ العمياءِ قولوا
فأجاب البدر هذا النجم في الأرض يصولُ
نحنُ في الظُّلمة نبدو وهو يبدو في النَّهار
روحُه سرُّ الليالي قلبُه قَطْبُ المدار
وهو لو أدرك معنى سهرِ الليل وذاقَه
جاز أطباق الثُّريا وأرى الله طباقَه
إنَّه في صَدْرِه يستر نوراً باهرا
وهو أطلقه لم يبقِ نجماً ساهرا
فعلا صوتُ أذانٍ بينما هُمْ في جِدال
يا لها صرخةُ وعظٍ صدَّعتْ قلبَ الجبال

* * *

قطعة

رُغْمَ ما يوجد في رِكَّة شعري منْ عُيوب

ربمـــا تبلـــغ يـــومـــاً كلمـــاتـــي للقلـــوب
مـــا علـــى الشَّـــارع لـــومٌ كيفمـــا قـــال وعبَّـــرْ
أنـــا يُغْنينـــي عـــن الشعـــر نـــداءُ (اللهُ أكبـــر)
أنـــا تغنينـــي إذا أخفقـــتُ فـــي كَشْـــفِ النَّـــوايـــا[1]
صلـــواتٌ وتـــراتيـــلٌ بهـــاتيـــكَ الـــزَّوايـــا
مَعْشـــرُ الجـــانـــب هـــذا دينُهـــم لا يستطـــاعُ
عـــرفـــوا النَّفـــس ولمـــا نظـــروا فـــي اللهِ ضـــاعـــوا
وعبـــادُ الجـــانـــب الآخـــر عُمَّـــالُ منـــاجـــمْ
هـــم عـــن الـــلاَّهـــوت أغـــرابٌ وفـــي البَحْـــثِ أعـــاجـــمْ

***

الحب

مَـنْ شهيـدُ الحـبِّ الـذي زعمـوهُ ابحثـوا عنـه فـي جميـع الفِجَـاج
سِمَـةُ العِشْـقِ لا تُتَـاحُ لشعـبٍ دونَ شعـبٍ ولا تُبـاحُ لـراجـي
فـي هيـاجِ الفـؤاد للحـبِّ سـرٌّ كهيـاجِ الفَـراش حـولَ السِّـراج
إنَّمـا الغـزنـويُّ صنـوُ إيـازٍ إنْ يكـنْ قلبُـه بغيـر هيـاج
روَّجَ الحـبُّ سـوقَ كـلِّ حكيـمٍ حـاك آراءَه بـه للـرَّواج
هـي لـولا تـدخُّـلُ الحـبِّ فيهـا لعبـةٌ مـن لآلـىء مـنْ زُجـاجِ
رجـلُ الحـبِّ لا يَـذِلُّ لشـيءٍ مستقـلُّ الفـؤاد حـرُّ المـزاجِ
ليـس يحتـاجُ أو يخـافُ مليكـاً إنَّمـا الخـوف مظهـرُ الاحتيـاجِ
تـاجُ إسكنـدر الشَّهيـر متـاعٌ وأنـا الفَقْـرُ والتـدروشُ تـاجـي
أنـا أبنـي الـرِّجـال بـالفقـر هـذا وهـو يبنـي مـدينـةً مِـنْ زُجـاجِ

***

---

(١) يقارن إقبال بين الإسلام والمسيحية .

رسالة نجم

بَعَثَ النَّجْمُ لي يقول : محالٌ ... أن يعيش الظلامُ شُعْلَةَ ذاتي
أنتَ مثلي مسافرٌ ذو لهيبٍ ... فأنِرْ باللَّهيب ليلَ الحياةِ

* * *

إلى جاويد[1]

لتكنْ لِقَلْبِكَ يا بنيَّ مكانةٌ ... في موطن الحبِّ البعيد النائي
كُنْ في أماسيه وفي أسمارِه ... نَغَماً يُجدِّد حرقة النُّدماءِ
وعي الفؤاد حقيقة الدُّنيا فإن ... وَهَبَتْك إيَّاه يدُ الرَّحمنِ
أخْرَجتَ من صَدْرِ الورود حديثها ... ونزعتَ صمتَ شقائقِ النُّعمانِ
إيَّاكَ يوماً أن تدينَ لصانعٍ ... في ليلِ أوربة يَصُوغُ زُجاجا
صُغْ من ترابِ الهند كاسكَ وافتخرْ ... وارفعْ بلادك فوقَ رأسك تاجا
أبنيَّ عرجونٌ بداليةٍ (أنا) ... أبياتُ شعري هذه أعنابي
من هذه الأعناب أعصرُ خمرةً ... حمراء تُلْهبُ بالحياة شبابي
أنا عيشة الأمراء لم أأبه لها ... أنا عِشْتُ درويشاً مع الفقراء
فادْخُلْ سجلَّ الفقر باسمك إنَّه ... فخرُ النَّبيِّ وسيِّدُ الأسماء

* * *

الدينُ والفلسفة

محلُّ الدِّين من يد فيلسوفٍ ... محلُّ الشَّمس من كَبِدِ السَّماء

---

(١) قدم إقبال هذه القصيدة بقوله : « جواب أول رسالة تلقيتها منه وكتبها بخط يده وأرسلها إلى لندن » .

لـه فـي كـل يـومٍ وهـمُ بحـثٍ ... يكـونُ مـن الصَّبـاح إلـى المسـاء
أنـا فـي ظـلِّ بيتـي أم غـريـبٌ ... وهـل سفـري بعيـدٌ أم قـريـب؟
قـد استـوحشـتُ مـن جبـلٍ ووادٍ ... فـأيـنَ تـراه يستتـر الحبيـبُ
أضعـتُ على رسـومِ القـوم عُمْـري ... أفتِّـشُ عـن بصيـرٍ بـالـرُّسـومِ
تعجَّب جئت من أين (ابن سينا) ... وساءلني ستذهب أين (رومي)
أرافـقُ فـي طـريقـي كـلَّ سـارٍ ... وأُعْطيـه نصيبـاً مـن طـريقـي[1]
ولـم أرَ فـي طـريقـي مستعـدَّاً ... يكـونُ إلـى نهـايتـه رفيقـي

***

رسالة من أوربة

الاعتصـامُ بحبـلِ الحـسِّ ضيَّعنـا ... في الليل من بحثنا عن شاطىء البصر
وَلِلْبَصيـرة بحـرٌ عـاصـفٌ حظيـت ... مـن قعـره غطسـةُ الـروميِّ بـالـدُّرَرِ
أنـا لقـافلـةِ الـرُّومـيِّ متَّبـعٌ ... وهـل لقـافلـة الـرومـيِّ مـن أثـر
هَـبْ عصـرنـا مثنـويّـاً آخـراً فلقـد ... جـارت رسـالـةُ أوربـة على البَشـر
طـريـقُ حُـرِّيـةِ الأحـرارِ مُظْلمـةٌ ... تضيئهـا شعلـةُ الـرومـيِّ بـالشَّـرَر

***

---

(١) شاهدٌ دخله بعض التحوير من شعر غالب الشاعر الأردوتي الكبير في القرن التاسع عشر ، وله دواوين رائعة باللغة الأردوية والفارسية ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثالث .

جواب

على ابنِ آدمَ أن يرعى العُلى أنِفَاً ... كظبي (خوتان)[1] يرعى نبتةَ الجودي
ولا يجـوزُ لـه بـلْ لا يليـقُ بـه ... أكلُ الشَّعير ورعي العشب والعُودِ
هُـمْ يُضحُّـون بـالمُقْتاتِ مـن كـلإٍ ... ويَخْضَعُـون لمـن نـاواهُـمُ الشَّـانـا
ومـن تخلَّـق بـالقـرآن مجَّـدَهُ ... وأصبَحَـتْ نفسُـه للنَّـاس قـرآنـا

***

على قبر نابليون

التَّوْقُ للفِعْل سيفُ الخالدين به ... تشـقُّ فـي جُبَّـة الأسـرار أقـدار
وقبـل مـولـد نـابليـون خـاضَ بـه ... إسكنـدرُ الأرضَ أمصـاراً فـأمصـار
جبـال (آلـونـد) هـدَّتهـا حمـاستُـه ... وأطلقَـتْ سيـلُ تيمـورلنـك تيـارا
تصيـر صـرخـةُ أهـل الله صَـرْخَتَـه ... إذا أصـرَّت علـى الإيمـان إصـرارا
والتَّـوْقُ لحظتـه لا تستمـرُّ فـإنْ ... لـم تغتنـمْ نَيْلَـه فـي وقتـه غـارا
وقـام يثـأر ليـلُ القَبْـر منـك لـه ... لا يستقـرُّ إلـى أن يـأخـذ الثَّـارا
(مسيـرنـا نحـو وادِ الصَّمْـت لـذَّتُـه ... أنْ تمـلأ القُبَّـةَ الـزرقـاء آثـارا)[2]

***

---

(١) خوتان : بلدة كانت تحت حكم التتر المسلمين ، تنسب إليها ظباء المسك .

(٢) شاهد من شعر حافظ الشيرازي وقد أورده إقبال بالفارسية .

موسوليني (١)

نشـاطٌ جـديـدٌ وفكـرٌ جـديـد ... يثيـرُهمـا أَمَـلُ الثَّـائـرِ
صَبَـا شعبُـه أن يـردَّ الصِّبـا ... إلـى مجـدِ أمَّتِـه الغـابـرِ
نشـاطٌ جـديـدٌ وفكـرٌ جـديـد ... وهـذان معجـزةُ القـادر
يصـوغـان مـن حجـرٍ لـؤلـؤاً ... وتـاجـاً لحـاضـره الـزَّاهـر
تـأمَّلـت رومـا وقـد جـددتْ ... بتجـديـدهـا حيـرةَ النـاظـر
فقلـتُ : أيـا ربِّ مـاذا أرى ... وهـذا الهُـدى خطـأٌ أم صـوابْ
حيـاة تُقـرُّ عيـونَ الشُّيـوخ ... وتـذكـي الطُّمـوحَ بصـدرِ الشَّباب
فيـا للتَّجلِّـي الـذي هـاهنـا ... ويـاللحمـاسـةِ مـاذا تُـذِيـع
وهـل تستطيـعُ رؤوس الـزُّهـور ... أنْ تتـوارى بفصـلِ الـرَّبيـع
سمـاؤُك يـا نغمـةَ الثَّـائـريـنَ ... تهـزُّ أغـانيـك أقطـارَهـا
وروحُـك تنتظـرُ العـازفيـن ... فَمَـنْ سيهيِّـجُ أوتـارَهـا

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
نظم إقبال هذه القصيدة حوالي عام ١٩٣١م حين زار موسوليني بعد عودته من لندن وانفضاض مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند ، ويبدو أنه نظمها قبل استيلاء هتلر على السلطة .
وفي قصيدة تالية يقارن إقبال بين عمل موسوليني وبين أعمال السياسيين الإنكليز بهذه العبارات :
بحجة نشر الحضارة سوَّغتم أمس تلك المذابح الجماعية والمجازر كما يسوغها اليوم موسوليني .
وعن غزو الحبشة دان إقبال مرة أخرى رئيس الحكومة الإيطالي وكتب قصيدة عنوانها : (جثة الحبشة) مايلي :
وأسفا مرآة شرف الكنيسة حطمتها روما إلى ألف كسرة أيها الحبر الأعظم ، ياله من حادث مروع (الأصل) وانظر فيما يتعلّق بغضب إقبال على موسوليني مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٤ ـ ٧٥ .

ومنْ ذا الَّذي صاغَ هذا الجمال ... وباركَ بالحبِّ تِلك النُّفوس
هو الحرُّ ذو النَّظراتِ الَّتي ... بها تَقْتَدي نظراتُ الشُّموس

***

سؤال

قال درويشٌ أبيٌّ ... يسألُ الله تعالى
أنا لا أشكو إليك الفقرَ والعيشَ المحالا
لكن اللهمَّ قلْ لي ... أنتَ أرسلت الملائك ؟
ليقيموا سلطةَ الأوغاد في ظلِّ سمائكْ

***

إلى فلاح البنجاب

أيُّها الفلاحُ ما سرُّ الحياةْ ؟ ... ما الَّذي يكتُمه هذا المدارْ
أنت فيها منذُ آلاف السنين ... خَلْفَ محراثٍ يُغَطِّيكَ الغُبار
خمدتْ نارُك في الطِّين الَّذي ... علقتْ أكوامُه في نَعْلِكَا
قلْ لِمَنْ أذَّن في هذا الصَّباح ... أرني اللهَ الذي في فعلكَا
لم يقلْ للنَّاس حيَّ للفلاح ... إنَّما حيَّ على الفلَّاح قالْ
هو يدعوهم إلى مأدبةٍ ... أنتَ أرسلتَ لها كلَّ السُّلالْ
كيف ترضى أن يكونوا هكذا ... وهُمُ مِثْلُكَ منْ حمأةٍ طينْ
إنَّ نَبْعَ الخضر لا يبلغُه ... وجِلٌ من ظلماتِ المعتدين
ليس يُجدي الهَمُّ في شيءٍ إذا ... لم تَضَعْ ذاتَك تحتَ التَّجرِبَهْ
حطِّم الأصنامَ يوماً واحداً ... لا تخفْ معبدَها أنْ تخربَهْ
حطِّم الأوثانَ أوثانَ العروق ... واهدمِ الأصنامَ أصنامَ القبائلْ

وانـضُ أغـلالَ التقـاليـد التـي تتعنَّـى خلفهـا مـن غيـرِ طـائـل
لا تقـلْ أنشـدُ فـي الـدِّيـن الخلاص وامنـحِ الكهَّـانَ روحـانيتَـهْ
إنَّ ديـنَ الله فـي الـدِّيـن الـذي يهـبُ الإنسـانَ وحـدانيتَـهْ
احْفَـظِ القلـبَ الـذي تحملُـه لا تـدَعْـه تحـتَ أقـدامِ العبـاد
الَّـذي يـزرعُـه فـي صَـدْرِهِ يجـدُ المتعـة أيـامَ الحصـاد

***

نادر شاه ملك الأفغان

فـي حضـور الحـقِّ كـان الحَـدَثُ الفـردُ الكبيـر
غيمـةٌ تحمـلُ فـي أعمـاقهـا روحَ الـزُّهـور
رأتِ الفـردوسَ فـي الـدَّرب فقـالـتْ للسَّمـاء[1]
آهِ مـا أجمـلَ هـذا هـاهنـا نلقـي الـدِّلاء
فـأجـابتهـا وقـالـت نتـرك الهنْـد لقـابـل
أدركـي عشبـاً جـديـداً ظمئـاً فـي أرضِ كـابـل
وعسـى نـادرُ يـأتـي ليـرى هـذي الحقـائـق
علَّـه يَغْسـلُ بـالـدَّمـع جـراحـاتِ الشَّقـائـق[2]

***

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « ربما كانت الهند التي مرَّ بها نادر شاه قادماً من باريس إلى إيران لمحاربة (بجه سقا) الّذي خلع أمان الله خان عن عرشه ، هي المقصودة بهذا الفردوس ، وهم يرددون (الهند جنة نيشان) يعني إنَّ الهند تشبه الفردوس كما يقولون عن روما : إنها المدينة الخالدة » .

(٢) جراح شقائق النُّعمان هي آلام الأفغان .

حلمٌ تَتَرِيّ[1]

كـــلُّ شـــيء حـــولنـــا يَسْلُبنـــا ... مجدَنا حتى سَجاجيدُ الصَّلاة[2]
أنـــا لا أستـــاء أن تَـــرْمُقَنـــا ... شـــزراً أعيـــنُ أولادِ الطغـــاةْ
بَلِيَـــتْ أثـــوابُنـــا أجمعُهـــا ... جبَّـــةُ الشيـــخِ وجلبـــابُ الأميـــر
مـــا الَّـــذي أفْعَلُـــه فـــي وحـــدتـــي ... مـــا الَّـــذي يفعـــل إيمـــانـــي الكسيـــر

* * *

وصية « خوش حال خان »[3]

يـــا أمـــة الأفغـــان شـــدُّوا بعضَكـــم ... بعضـــاً وكـــونـــوا ســـادةَ الأفغـــانِ
مـــا شـــاهَـــدَتْ عينـــاي أجمـــلَ منظـــراً ... كجمـــال صيَّـــاديكُـــمُ الفتيـــانِ
يـــرمـــون فـــي بحـــر السَّمـــاء شِبـــاكَهـــم ... (صيدُ النُّجوم رياضةُ الشُّجعان)
أطفـــالٌ كـــوهستـــان وعـــدٌ مفعـــمٌ ... متـــواثـــبٌ فـــي قلـــبِ كـــوهستـــان
ليســـوا أقـــلَّ مـــن المغـــول شجـــاعـــةً ... ليســـوا بـــأدنـــى منهـــمُ فـــي شـــانِ
أنا (خوش حال) أحبُّ قبراً إن أمتْ ... فـــوق الجبـــالِ ممـــرَّدَ البُنيـــان
لا رِيْـــحَ تصفعُـــه بنقـــعِ خـــامـــلٍ ... مـــرَّت عليـــه خيـــول مغلستـــان
مـــا تبقَّـــى غيـــرُ جمـــرٍ هـــامـــدٍ ... يتخفَّـــى تحـــتَ أكـــوامِ الـــرمـــادْ

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملُّوحي النثرية : « إذا كان إقبال يؤيد ثورة « خوش حال خان » فليس من الغريب أن يؤيِّد تطلعات التتر في تركستان إلى الاستقلال » .

(٢) في ترجمة الأستاذ الملُّوحي النثرية : « يعني أن الأتقياء ينبهوننا » .

(٣) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
من المهم أن نذكر أنَّ إقبالاً رغم نزعته للجامعة الإسلامية يمدح ثائراً على الإمبراطورية المغولية في عهد (أورنك زيب) وإقبال لا يريد فرض الوحدة من الخارج ولكنه يريد وحدة عفوية تنبثق من الداخل .

أيُّ ريـح فـوقـه لـو عَصَفَـتْ ... جَعَلَـتْ منـه حـديثـاً للعِبَـادْ
غطَّـت الـرِّيـحُ بُخـارى كلَّهـا ... وسمـرقنـدَ بليـلٍ قـاتـم
(وتَطَلَّعْـتُ لنفسـي فـإذا ... أنـا فـصٌّ مـالـه مـن خـاتـم)[1]
بينمـا أنْـدُبُ حظِّـي فجـأةً ... زلـزلـتْ أرضَ سمـرقنـدَ السَّمـاء
وإذا مـرقـد تيمـورلنـك قـد ... بـدَّدَ اللَّيـلَ بسيـفٍ مـنْ ضيـاء
كـان نـوراً أبيضـاً فـي صُفْـرةٍ ... كضيـاءِ الشَّمـس مـنْ قَبْـلِ الأُفـول
قـال لـي : يـا أيُّهـا البـاكـي أنـا ... روحُ تيمـورلنـك فـاسْمَعْ مـا أقـول
إنَّ بـــاب الله مفتـــوحٌ وإن ... سَـدَّتِ الأيـامُ أبـواب التتـرْ
أنْـتَ مـن أبنـاء طـوران وإن ... فـرَّقَـتْ أبنـاءُ طـورانَ البشـرْ
فهـبِ الـذَّاتَ لهيبـاً آخـراً ... وبـريقـاً ثـانيـاً مـن مقلتِـكْ
أنـا حطَّمْـتُ بهـذيـن الجيـوشَ ... لِـمَ لا تَخْلُفنـي فـي أمَّتـكْ

* * *

الحالةُ النَّفسية والظَّرف

الـرَّأيُ بعـد شجـاعـة الشجعـان ... هـي أولٌ وهـو المحـلُّ الثَّـاني
إنْ كنـتَ يقظـانـاً فـأنْـتَ مظفَّـرٌ ... والحـالُ خيـرُ ذخـائـرِ الإنسـان
كـلُّ الحيـاة على اختـلافِ ظُـروفهـا ... ظـلٌّ تـؤلفـه ظـروفُ الحـال
فـي كـلِّ وقـتٍ للمسـافـر جِـدَّةٌ ... ومنـازِلُ القَلْـبِ المقيـم خـوالِ
كلمـاتُنـا مـع أنَّهـا لـم تَخْتَلِـفْ ... لا فـي معـانيهـا ولا فـي لَفْظِهـا
فـي سَجْـدَةِ الجنـديِّ نلمـح غبطـةً ... ليست كسَجْدةِ ناسكٍ في وعظها
هـو مسلـمٌ لكـن وهـذا مسلـمٌ ... مـا زاد عـن قـرآنِـهِ قـرانُـه
للنِّسْـرِ كـالشَّـاهيـن جـوٌّ واحـدٌ ... لكـنْ لكـلٍّ منهمـا طيـرانُـهُ

---

(١) تعليق إقبال : بيتٌ لشاعر مجهول ربَّما أورده الطوسي في شرح الإشارات .

أبو العلاء المعري

يقال : إنَّ المعرِّيّ لم يكن أبداً ... ليأكل اللَّحم لا يلوي على دينِ
يقالُ : كان نباتياً بمذهبه ... وليس يقتاتُ إلا من يدِ الطين
شوى له مرةً مستهزىءٌ حَجَلاً ... يريد يلقاهُ فيما اختار مُرْتَبِكا
لكنَّ شيخَ اللُّزوميَّات حين رأى ... شناعة السيخ ألقى فوقه وبكى
وقال : يا أيُّها المسكينُ ما اقترفَتْ ... يداك حتَّى دَخَلْتَ النَّار بالسِّيخِ
لو كنتَ بازاً لأعطَوك الدَّجاج فِدًى ... وما لجأتَ إلى شَجْبي وتوبيخي
لم تُلْقِ بالكَ للأديان إذْ وَعَظَتْ ... وللطبيعةِ إذْ قالت لطالبها
اللهُ سخَّر للأقوى خلائقَه ... وقدَّر الموت للمستضعفين بها

* * *

سينما

أيعودُ آزرُ مرةً أخرى ... ويذيعُ في السينما معانيه
أصنامُها في صَدْرِ صالتها ... عادت له بِرَواجِ ماضيه
ما كان يُنْحتُ قبلُ من صنم ... جاءت تُريدُ تبيعُه فينا
صاغت لنا الدُّنيا لنعبدَها ... وثناً وصاغَ لِعَصْرِهِ الدِّينا
ما كان فنَّاً فنُّه أبداً ... ما كان غيرَ طقوسِ أوثانِ
فتفحَّصِ السِّينما الَّتي ظَهَرَتْ ... هي في الحقيقةِ ثوبُه الثَّاني
هو صاغ أصناماً لعالمه ... ما صاغَ من طينٍ وفخَّارِ
وتصوغُ صالتُها لعالمنا ... أصنامَها من مارجِ النَّارِ
ما في زوايا المعبدَيْنِ سِوى ... هذا الرَّمادِ وذلكَ الطِّينِ
إنْ لم يلِ التَّوحيدُ أمرَهما ... لمْ يتركا شرفاً لِمِسْكِينِ

* * *

إلى جماعة « بيرزاده »[1] في البنجاب

جزتُ البلاد إلى ضريحِ مجددٍ[2] ... ووقفتُ ليلي نادباً ونهاري
وعلى التُّرابِ من الضَّريح تألُّقٌ ... غبْطَتُه في قَصْرِ السَّماء جواري
لا غروَ للأسرارِ تَلْمعُ هاهنا ... فهاهنا توارى صاحبُ الأسرار
من ردَّ جاهنكير عن يده وما ... ذلَّتْ عمامتُه لوصمةِ عارِ
هذا المكانُ من الوجود ضريحُه ... وهنا يقيمُ معلِّمُ الأحرارِ
الهندُ تعرف أرضُها وسماؤُها ... كيفَ افتداها من جحيمِ النارِ
هو أحمدُ المختار لِلْمِحَنِ الَّتي ... نالتْ شريعةَ أحمدَ المختارِ
لما وقفتُ على ضريح مُجَدِّدٍ ... دار الحديثُ عن الزَّمان الدائرِ
فشكوتُ دروشةَ الزَّمان له وما ... ألقاه من شوقي وعزمي الخائرِ
فأجاب : طرفُك ليس يبصرُ قلتُ : لا ... هو مبصرٌ لكنْ بِغَيْرِ نفوذِ
من أين ألتمس البصائر إنَّني ... أصبحت في عينيَّ كالمنبوذِ
فأجابني ذَهَبَ الذين عرفتَهم ... لم يبقَ سرٌّ في دَمِ البنجاب
لا تكتَرِثْ منهم بصاحبِ شطحةٍ ... مجنونةٍ ولو ارتدى جلبابي
أرني قلنسوةً لِدَرْويشٍ لهم ... لم ترضَ قنزعةَ العمامةِ جارا
ذهبوا مع الفقهاءِ خلف ملوكهم ... لم يتركوا لذوي القلوبِ منارا

* * *

سياسة

تقضي السياسةُ أن نُحدِّدَ أولًا ... أدوارنا في لعبة التِّيجانِ

---

(١) بيرزاده : تعني عضواً في طريقة رئيس جماعة روحية ومؤسسو هذه الطريقة كانوا دراويش أتقياء ، ولكن أولادهم انقلبوا إلى الماديِّين .

(٢) يريد به إقبال مجدِّد الألف الثاني الشيخ السَّرهندي .

لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدقٌ هذا اختيارُ اللاَّعبِ الشَّيطانِ
إنَّ البيادق إنْ أعاقت نفسها دلَّتْ على شاهٍ بلا سُلطانِ

***

التَّجَرُّد

ليس التَّجَرُّد أن تقيمَ على الطَّوَى وقواكَ خائرةٌ وبيتُك مُعْدَمُ
فَمِنَ التَّجَرُّدِ ما يطيحُ بأهله ومِنَ التَّجَرُّدِ ما يعزُّ ويكرمُ
أنا لم أجد عند الملوك تجرُّداً أحلى وأجدى مِنْهُ في شابور
شابورُ في صنع الإمارةِ مسلمٌ فتعلَّموا الإسلامَ من شابور

***

الذَّات

لا تَرْضَيَنْ فضةً بالذَّاتِ أو ذهبا ولا تبعْ بِشَرارٍ ذلكِ اللَّهبا
إليك ما قال (فردوسي) الذي كشفتْ للفُرس أقوالُه الأستارَ والحُجُبا
(المالُ يوجدُ حتَّى حينَ تَفْقِدُه فلا تكنْ وَقِحاً إنْ رمتَه طلبا)[1]

***

فراق

النُّورُ حول الشمس يزهو إذ يفارقها صباحا
غَزَلْتُه من ذهبِ الحرير فصار للدّنيا وشاحا
والكونُ مُغْتبطٌ بما جَلَبَ الفراقَ من التَّسلِّي

---

(١) شاهد من ديوان الفردوسي بالفارسية .

متـــرنـــحٌ فـــي صمتـــه نشـــوانُ مـــن مُتَـــعِ التَّجلِّـــي
هـــل تعـــرف الأنهـــارُ والأفـــلاكُ أســـرار التشـــوُّف
هـــل يـــرتـــوونَ مـــن الفـــراق ويكتـــوونَ مـــن التلهُّـــف
أنـــا قسمتـــي قلـــقُ الفِـــراقِ ســـواه مـــالـــي مـــن مُنـــىٰ
هـــو فـــي الصَّميـــم مـــن التُّـــرابِ ومـــا التُّـــرابُ ســـوى أنـــا

***

الدَّيـــر

لا العصرُ للقولِ بالألغاز مُحْتملٌ ولا أنـا أستطيـع اليـوم إلغـازا
مضـى الَّـذيـن إذا قـالـوا لميِّتِهـم قـمْ ، قـامَ فيهـم بـإذنِ اللهِ واجتـازا
فما الَّذي بعدهم في الدَّير تفعله جمـاعـةٌ بمـذاقِ الـدَّيـر كفَّـارُ
أخِـذْمـةً لقبـورِ القـوم مـا بَـرِحـوا أمْ أنَّهـم لقبـورِ القـومِ حُفَّـارُ

***

شكوى الشَّيطان

قـــال إبليـــسُ الـــرَّجيـــمُ يشتكـــي الله تعـــالـــى
مـــا لِنَجْـــلِ الطِّيـــن هـــذا فـــوقَ نـــاري يتعـــالـــى
هُـــوَ ذا آدم بعـــدي هُـــو ذا كـــومُ التُّـــرابِ
واهـــنُ الـــرُّوحِ كبيـــرُ الكِـــرْشِ مـــوفـــورُ الثِّيـــابِ
عقلُـــه فـــي الأوج لكـــنْ قلبُـــه يَلْفِـــظُ روحَـــه
مـــا لقلبـــي غيـــرُكَ اللهـــمَّ لـــو تـــأســـو جـــروحـــه
كلَّمـــا يجعـــلُ منـــه الشـــرق معيـــارَ النَّجـــاسَـــهْ
لا تبـــالـــي حكمـــاءُ الغـــرب أنْ تـــرفـــعَ راسَـــهْ

حـــورُ فـــردوسِـــكَ تخشـــى عـــالـــم الفِـــرْدَوْسِ يُقْفِـــرْ
جنتُـــك اللهـــمَّ بـــالحُجَّـــة كـــي تـــرضـــى وتغفِـــرْ
فسَّـــرَ الغـــربُ الـــدِّيمقـــراطـــيُّ تَـــزْكـــي لِسُجـــودي
لـــم يعـــدْ مـــن بعـــده فـــي الأرض معنـــىً لـــوجـــودي

***

دمٌ في الشرايين

لا تَخْشَ نيلَ السُّوء من رجلٍ إنْ كـانَ فيـه دمٌ ونـامـوسُ
وارغبْ عـن المحـروم مـنْ دمـه فـالخيـرُ مِـنْ كفَّيْـهِ ميـؤوسُ
رجـلٌ يحـرِّكُ قلبَـه دمُـهُ لا الفَقْـرُ يُحْـزِنُـه ولا الجـودُ
إيَّـاك مـنْ لـم يَهْـدِهِـمْ دمُهُـمْ سـودُ الـدِّمـاء عقـولُهـم سـود

***

الطَّيران

تشكَّـتِ التينـةُ للعُصفـورِ مِـنْ معبـدِ الألـوان والعُطـورِ
قـالـتْ لـه : يـا أيُّهـا المغـرِّدُ حتَّـى متـى يكفـرُ هـذا المعْبَـدُ
لـو أنَّ لـي أجنحـةً وعَـوْنـا أغْـرَقْـتُ بـالجمـالِ هـذا الكـونـا
أجـابهـا العصفـورُ فـي وداعـهْ إجـابـةً فـي منتهـى البـراعـهْ
قـال لهـا : أيَّتُهـا المسكينـهْ كيـف تطيـريـن وأنـت تينـهْ
قـولُـك لا يَنِـمُّ عـن غبـاءِ وإنَّمـا يـدعـو إلـى الـرِّثـاءِ
أتـدَّعيـنَ الظُّلـمَ فـي عيـنِ العَـدلْ وأنـتِ أحـرى مـن أريـتُ بـالعَـذلْ
الطَّيـران سـرُّنـا المحجـوبُ لا يستطيـعُ نيلَـه مجـذوبُ

***

معلم المدرسة

أمامَ روحِ التَّلاميذ الَّتي اختنقت ... يبني المعلِّم هذا صرحَ فخَّار
الحقُّ ما قال كاغاني[1] وَيَسْحَرُني ... ما قال من بيت شعرٍ بذَّ أشعاري
(إذا الجدارُ أمام الشَّمس ترفعُه ... فلن ترى نورَها في باحة الدَّار)

***

الفيلسوف

يعرفُ الفيلسوفُ كيفَ يطيرُ ... وهو في العِلْم غايةٌ في البراعهْ
جسدٌ فارغٌ وعِلْمٌ غزيرٌ ... لو أضافوا إليه روحَ الشَّجاعهْ
يَرْسُم النِّسرُ في السَّماء دوائر ... كالشَّواهينِ والطيورِ الحرائر[2]
لا تغرَّنَّكَ المظاهر هذي ... فهو يخفي نقيضها في السَّرائر
هي تقتاتُ من إوزٍّ وبطٍّ ... وهو يقتات جيفةً وفطيسهْ
أيُّ معنىً له إذا حرموهُ ... متعة الانقضاض فوق الفريسَهْ

***

---

(١) كاغاني : هو شاعر فارسي من القرن السابع عشر الميلادي .

(٢) النِّسر : رمزٌ لمتوسطي الشجاعة عند إقبال فهو لا يصل إلى رتبة الشاهين لأنه يأكل من فرائس غيره ، إلا أنَّ قيمته تتجلّى في أنه مهما كان من الغربان على الجيفة فإنها لن تجد غير الانسحاب إذا لمحت قدوم النسر إلى الساحة ، وستقف ترمقه من بعيد مترقبةً ما إذا سيبقي على شيء لها أم لا .

الشَّاهين[1]

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ... ثـمْ ألْقَيْـتُ كـلَّ شـيءٍ ورائـي
ذلـكَ العـالـمُ الـذي زعمـوه ... ليـس يقتـاتُ غيـر حَـبٍّ ومـاءِ
أنـا نَجْـلُ الصَّحـراء والـزُّهـدُ ديني ... وهمـا فـي سجيَّتـي ودمـائـي
أجْهَـلُ الـزَّهـرَ والنَّسيـم ومـا فـي ... لـوعـةِ العنـدليـب عنـد المسـاء
ورجـالُ البُستـان تغـري ولكـنْ ... ليـس تُغْـري منشَّـأً فـي العَـراء
أيـن مجـدي إذا شقيـتُ لجـوعٍ ... وأذلَّـتْ حمـامـةٌ كبـريـائـي
بـافتـراسـي أصـونُ عـزَّة وجهـي ... وأروِّي حمـاسـتـي وإبـائـي
كـلُّ طيـرٍ لـه مـن الأرض عـشٌّ ... وأنـا هـاهنـا حليـف مضـائـي
كيـف يبنـي قلنـدر الطَّيـر عشـاً ... وهـو الفَـرْدُ فـي رحـابِ السَّمـاء

* * *

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
الشاهين : الطَّير المختار عند إقبال لأنه :
١ ـ لا يبني لنفسه عشاً يعني أنه درويش .
٢ ـ يطير إلى الأعالي .
٣ ـ ليس بخيلاً ، ويقنع بالزهيد .
٤ ـ لا يأكل مما يقنصه الآخرون ، يعني أنه يصون كرامته .
وينبغي أن يفهم من البند الرابع أنه رمز للمجتهد الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين فريسة غيره .

المريدُ الثائر(١)

أنـا فـانـوسـي الـذي أمْلِكُـه ... شمعـةٌ فـي قصعـةٍ مـن خَـزَفِ
إن أقَمْـتُ الليـل ذابـتْ وإذا ... هَبَّـتِ الـرِّيـحُ عليهـا تنطفـي
مـا الَّـذي يفعَلُـه سيِّـدنـا ... بـالمصـابيـح الَّتـي حـول المـزار
ثـمَّ مـا معنـى مـزارٍ وضـريـح ... وسـتـورٍ وعطـورٍ وجِمَـار
يـا إلهـي كـمْ لنـا مـن كعبـةٍ ... كـم لنـا مـن صنـمٍ فـي الحـرمِ
وفقـاعـاتِ قبـابٍ فـوقَهـم ... جعلتنـا ضحكـةً لـلأمـم
ليـس مـا يعطـى لهـذي الأوليـاء ... مـن نـذورٍ بـاسمهـم إلَّا رَبَـا
المـرابـي دائمـاً مختبـئٌ ... وولـيُّ القَـوْم فـي القبـر اختبـا
أتـراهـم سلكـوا كـالأوليـاءْ ... إنَّمـا هـم أوليـاء بـالـوراثـهْ
مـلأ الغـربـانُ أوكـار النُّسـور ... خلَّـصَ اللهُ مـن القـومِ تـراثـهْ

* * *

آخر وصايا هارون

قـال الـرَّشيـد لابنـه يـوصيـه : هـا أنـذا احْتُضِـرْتُ
ستمـرُّ بعـدي أنـت فـي هـذا الطَّـريـق كمـا مـررتُ
أبنـيَّ إنَّ المـوتَ نـورٌ فـي عيـونِ المـؤمنيـن

---

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن قصيدة إقبال هذه لا تتناقض مع وقفة إقبال على ضريح سنائي ومجدِّد وقوله : سيكون ضريحي كعبة الأحرار ، وأمثال ذلك ، فهو لا يريد هنا أن يقرر عقيدةً ما ، ونستطيع أن نفهم مراد إقبال من قصيدته السابقة (الدَّير) .
وفي مناسبة أخرى يقول إقبال : إنَّ الصوفية حين تفسر تفسيراً خاطئاً وتقدم إلى الجماهير غير المتعلمة من خلال الأشعار المحببة ؛ يمكن أن تكون أكثر خطراً من حشود جنكيزخان .

والنُّـــور هـــذا لا تشـــاهِـــدُه عيـــونُ الكـــافـــريـــن

***

إلى عالمِ نفس

دعْ عنـكَ فكـرَكَ فـالإعصـار جـرَّارُ ... وليـس تجـدي ببحـر الـذَّات أفكـارُ
وأيـن أنـتَ بهـذا البحـر مـن جُـزُرٍ ... صغيـرةٍ مـا أتـاهـا قـطُّ بحَّـارُ
إن لـم تشـقَّ كمـوسـى ثـوبَ لُجَّتهـا ... فحظُّـك الصَّمْـتُ إنْ وافـاك إعصـارُ

***

أوربة

مقتبسة عن نيتشة

أشباه (شيلوخ)[1] في المِرْصاد واقفةٌ ... مَكْـرُ الثَّعـالـب يَفْـري قـوّةَ الأسَـدِ
لا بـدَّ تسقـطُ أوربـة إذا نَضِجَـتْ ... في كيس شيلوخها المجهولِ للأبدِ

***

الأسدُ والبغلة

قـالَ للبغلـةِ يـومـاً أسـدٌ ... أنـتِ حقـاً لـكِ سـرٌّ مـن أبـوكِ
فـأجـابتـه ألا تَعْـرِفُنـي ... أنـا خـالـي فَخْـرُ إصطبـل الملـوكِ

***

(١) كذا في الأصل ويبدو أنه تحريف (شيلون) وستكون الفكرة أشدَّ إغراءً إذا كنا مصيبين في رأينا . انظر مادة شيلون في قاموس الكتاب المقدس .

فكرة حرّة(١)

ألا تـــرثـــي لعُصفـــورٍ عـــن الطَّيـــران قـــد مُنعـــا
إذا استخفـــى وحـــاول أنْ يطيـــرَ لـــوَحْـــدِه وقعـــا
يحـــــاولُ أن يكـــــون فـــؤادُه بيتـــاً لجبـــريـــلِ
وليـــس لـــه مـــن الطَّيـــران غيـــر القَـــال والقيـــلِ
هـــل العصفـــورُ بيـــن الشَّـــوك كـــالعصفـــور فـــي الجنَّـــة
بـــربـــك هـــذه حـــريَّـــةٌ فـــي الفكـــر أم جِنَّـــه
فقـــل لمفكِّـــر حـــرٍّ أضـــلَّ الفكـــرُ وجـــدانَـــه
تعـــالـــى الله أن يلهـــمَ مـــا يُبْطِـــلُ قـــرآنـــه
وهـــل يهـــدم مجـــدَ الشَّعْـــب غيـــر الفِكْـــرَة الحـــرَّه
وهـــذي الفكـــرة البلهـــاء سيِّـــدُهـــا (أبـــو مـــرَّه)

***

النِّسرُ والنَّملة

قـــالـــت النَّملـــة للنِّســـر الـــذي مـــرَّ يـــومـــاً مـــا علـــى وادي النَّمـــلْ
أنـــت تـــرعـــى فـــي بســـاتيـــن النُّجـــوم وأنـــا فـــي شقـــوة العيـــش المُـــذِلْ
قـــال : لكـــن أنـــا لا أبحـــث عـــن مـــؤنـــي مثلـــك فـــي هـــذا التُّـــراب
لســـتُ ألقـــي نظـــرةً حتَّـــى ولا للسمـــواتِ التـــي فـــوق السَّحـــاب

●●●

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
نرى أن الشاعر لا يقصد الفكرة الحرة على الإطلاق وإنما يقصد (فكرة حرة معينة) هي كما ورد في دائرة معارف لاروس مادة LIBRE (الفكرة الحرة هي رأي المفكرين الأحرار . والمفكر الحرّ : هو الذي يفكّر ويتحدث في حريّة في موضوع الدين) .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
محمد إقبال عند رجال الفكر والدعوة	١٣
محمد إقبال ـ حياته ـ شخصيته ـ فكره ـ فلسفته	١٧
أسرته وولادته	١٩
نشأته ودراسته	١٩
نبوغه في الشعر	٢٠
رحلاته	٢٣
وفاته	٢٤
آثاره في الشعر والنثر	٢٥
العوامل التي كونت شخصيته	٢٧
الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال	٤٣
فكر محمد إقبال	٦٣
فلسفة إقبال	٧٦
تفسير اصطلاحات في الديوان	٨٣
الديوان الأول : صلصلة الجرس	٨٧
النشيد الإسلامي	٩١
الشكوى وجواب الشكوى (حديث الروح)	٩٣
جواب الشكوى	١٠١
الديوان الثاني : الأسرار والرموز	١١١
محتوى الديوان	١١٥
خلاصة المقدمة التي كتبها محمد إقبال للديوان	١١٧

الموضوع	الصفحة
خلاصة مقال الشاعر إلى الأستاذ نكلسون	١١٩
دوام الذات أو الشخصية	١٢٠
تربية الذات	١٢١
القسم الأول : أسرار إثبات الذات	١٢٥
تمهيد	١٢٧
نظام العالم وتسلسل حياة أعيان الكون	١٣٣
حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها	١٣٦
الذات تتحكم بالمحبة والعشق	١٣٨
الذات تضعف بالسؤال	١٤١
الذات تسخر قوى العالم الظاهرة والباطنة	١٤٣
نفي الذات من مخترعات الأمم المغلوبة	١٤٤
آراء أفلاطون وأثرها في تصوُّف المسلمين وآدابهم	١٤٧
في حقيقة الشعر وانسلاخ الآداب الإسلامية	١٤٨
مراحل التربية الذاتية	١٥٣
المرحلة الأولى : الطاعة	١٥٣
المرحلة الثانية : ضبط النفس	١٥٤
المرحلة الثالثة : النيابة الإلهية	١٥٥
فتى مرو وبغي الأعداء	١٦٠
قصة الطائر الذي أجهده العطش	١٦٢
قصة الألماس والفحم	١٦٣
قصة الشيخ والبرهمي	١٦٤
حياة المسلم لإعلاء كلمة الله	١٦٧
نصيحة مير نجاة لمسلمي الهند	١٦٩
الوقت سيف	١٧٤
دعاء	١٧٧
القسم الثاني : رموز نفي الذات	١٨١

الموضوع	الصفحة
محتوى الديوان	١٨٣
تمهيد : مهداة إلى الأمة الإسلامية	١٨٧
في معنى ارتباط الفرد والأمة	١٩٠
الملة تنشأ من إخلاص الأفراد	١٩٢
أركان الأمة الإسلامية	١٩٥
الركن الأول : التوحيد	١٩٥
التوحيد دواء العلل الخبيثة	١٩٧
محاورة السهم والسيف	١٩٩
قصة السلطان عالمكير والأسد	٢٠٠
الركن الثاني : الرسالة	٢٠٢
مقصود الرسالة المحمدية	٢٠٤
قصة أبي عبيد وجابان	٢٠٥
قصة السلطان مراد والعمَّار	٢٠٦
الأمة الإسلامية مؤسسة على التوحيد	٢٠٧
الوطن ليس أساس الأمة	٢١٠
الأمة المحمدية ليس لها حدود زمانية	٢١١
شريعة الأمة المحمدية القرآن	٢١٤
التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد	٢١٦
كمال سيرة الأمة من اتباع الشرع الإلهي	٢١٨
حسن سيرة الأمة من التأدب بالآداب المحمدية	٢٢٠
مركزالأمة الإسلامية البيت الحرم	٢٢٢
مقصد الأمة الإسلامية حفظ التوحيد ونشره	٢٢٥
توسيع حياة الأمة بتسخير قوى العالم	٢٢٨
كمال حياة الأمة أن تشعر بنفسها كالأفراد	٢٣٠
بقاء نوع الإنسان بالأمومة	٢٣٣
سيدة النساء فاطمة الزهراء	٢٣٥

الموضوع	الصفحة
خطاب إلى المرأة المسلمة	٢٣٦
خلاصته مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص	٢٣٧
شكوى إلى من أرسل رحمة للعالمين	٢٤٤
الديوان الثالث : رسالة الشرق	٢٤٩
محتوى الديوان	٢٥٢
مقدمة محمد إقبال	٢٥٣
القسم الأول : شقائق الطور	٢٦١
القسم الثاني : أفكار	٢٧٥
القسم الثالث : الخمر الباقية (غزليات)	٣٠٥
القسم الرابع : نقش الإفرنج	٣٢٣
القسم الخامس : رقائق	٣٣٧
اللمعات	٣٤١
الديوان الرابع : زبور العجم	٣٦٩
محتوى الديوان	٣٧١
تمهيد	٣٧٣
الخاتمة	٤٠١
الديوان الخامس : جناح جبريل	٤٠٣
محتوى الديوان	٤٠٦
القسم الأول	٤٠٧
القسم الثاني	٤٢١
القسم الثالث ـ في مسجد قرطبة	٤٦٩
النخلة الأولى	٤٨٣
إسبانيا	٤٨٥
دعاء طارق	٤٨٦
لينين أمام الله	٤٩٠
الملائكة تغني	٤٩٣

الموضوع	الصفحة
أوامر الله للملائكة	٤٩٣
في أرض فلسطين	٤٩٥
الفراشة واليراعة	٥٠٣
وصية إقبال لولده جاويد	٥٠٤
تسول	٥٠٤
الملا والفردوس	٥٠٥
الدين والسياسة	٥٠٥
الأرض لله	٥٠٦
رسالة إلى شاب	٥٠٧
نصيحة	٥٠٨
شقائق النعمان في الغاب	٥٠٨
كتاب الساقي	٥١٠
الزمن	٥١٩
آدم يغادر جنة عَدْن	٥٢١
روح الأرض تستقبل آدم	٥٢١
المرشد والمريد	٥٢٣
جبريل والشيطان	٥٢٩
الأذان	٥٣١
الحب	٥٣٢
رسالة نجم	٥٣٣
إلى جاويد	٥٣٣
الدين والفلسفة	٥٣٣
رسالة من أوربة	٥٣٤
على قبر نابليون	٥٣٥
موسوليني	٥٣٦
سؤال	٥٣٧

الموضوع	الصفحة
إلى فلاح البنجاب	٥٣٧
نادر شاه ملك الأفغان	٥٣٨
حلم تَتَرِيّ	٥٣٩
وصية خوش حال خان	٥٣٩
الحالة النفسية والظرف	٥٤٠
أبو العلاء المعري ـ سينما	٥٤١
إلى جماعة بيرزاده في البنجاب ـ سياسة	٥٤٢
التجدد ـ الذات ـ فراق	٥٤٣
الدير ـ شكوى الشيطان	٥٤٤
دم في الشرايين ـ الطيران	٥٤٥
معلم المدرسة ـ الفيلسوف	٥٤٦
الشاهين	٥٤٧
المريد الثائر ـ آخر وصايا هارون	٥٤٨
إلى عالم النفس ـ أوربة ـ الأسد والبغلة	٥٤٩
فكرة حرة ـ النسر والنملة	٥٥٠
فهرس الموضوعات	٥٥١

***

DIWAN MOHAMMED IQBAL

Edited with an Introduction and Annotations By

Sayyid Abdul Majid Ghouri

شعر محمد إقبال

إنَّ جلَّ ما أعتقِدُهُ أنَّ إقبال شاعرٌ أنطقَهُ اللهُ ببعضِ الحِكَمِ والحقائقِ في هذا العصرِ أنطقَهُ اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ، أنطقَهُ اللهُ كما أنطقَ الشُّعَراءَ والحُكَماءَ قبلَ عصرِهِ، وفي غيرِ عصرِهِ...

...أشهدُ على نفسي أني كلَّما قرأتُ شِعرَهُ جاشَ في خاطِري وثارَتْ عواطِفي وشَعَرْتُ بدبيبِ المعاني والأحاسيسِ في نفسي وبحركةٍ للحماسةِ الإسلاميَّةِ في عُروقي، وتلكَ قيمةُ شِعرِهِ وأدبِهِ في نظري...

العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

Published by

M.I.I.FOUNDATION
Hyderabad (INDIA)

DAR IBN KATHEER
Damascus - Beirut

دار ابن كثير

دمشق : ص.ب. 311
بيروت : ص.ب. 113/6318
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com